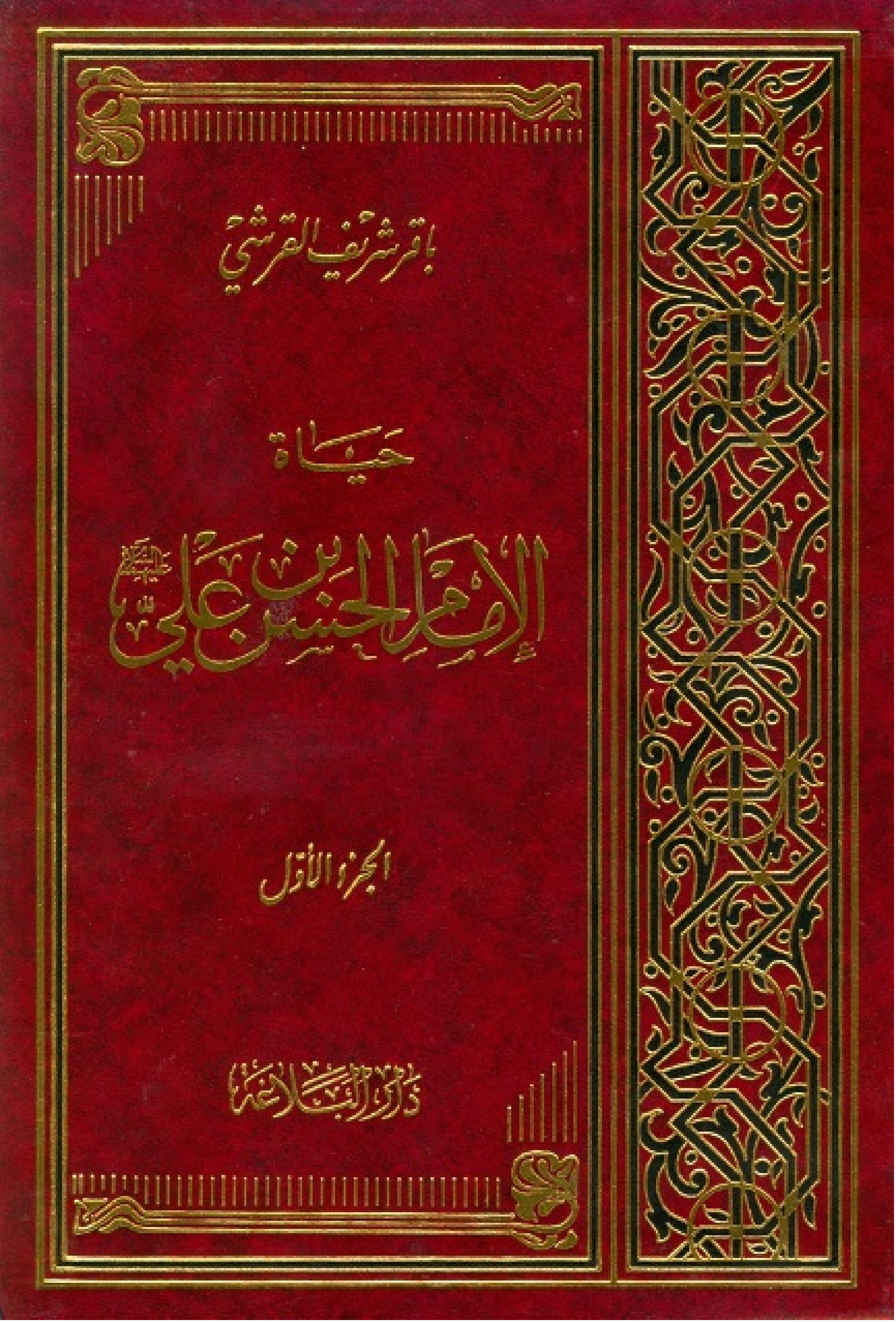
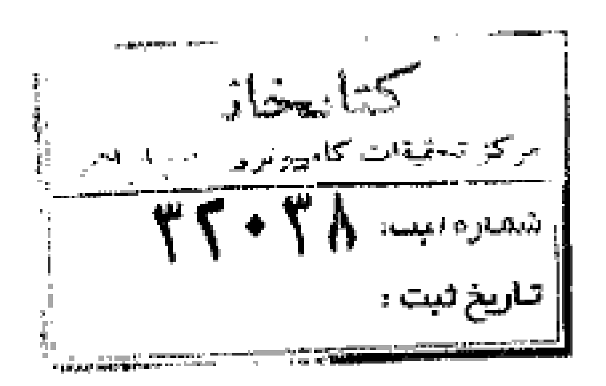
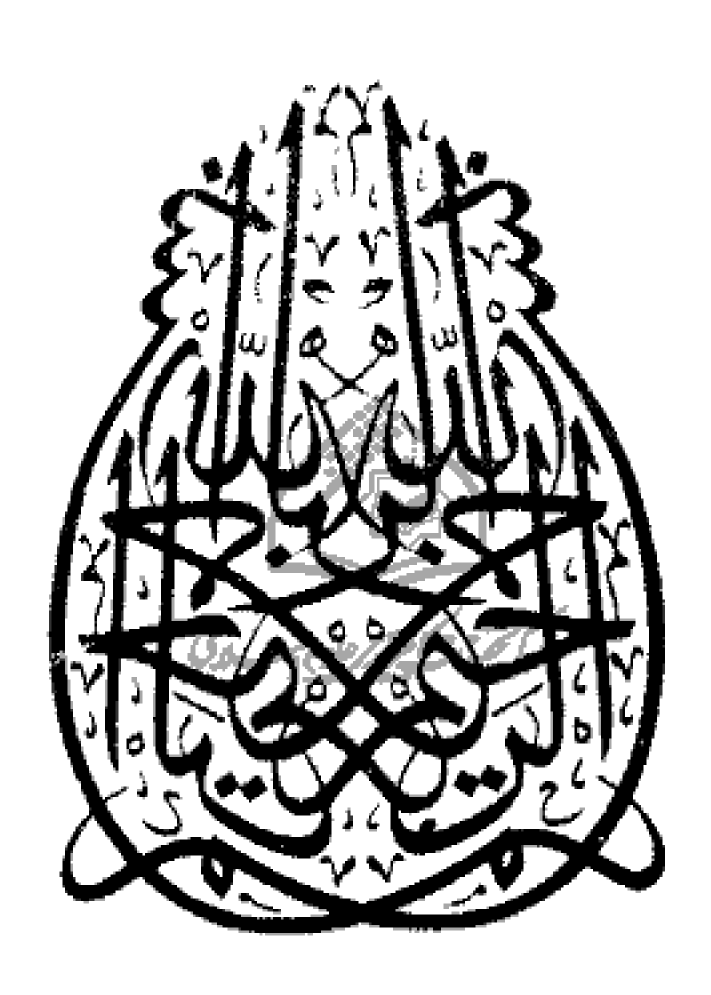

باقر شريف القرشي
حياة
الإمام الحسن بن علي عليهما السلام
الجزء الأول
دار البلاغة


کتابخانه
مرکز تحقیقات کامپیوتری
شماره ثبت: ۳۲۰۳۸
تاریخ ثبت :



الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار البلاغة للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٣١٧٤٢٥ - ٨٢٠٣٢٠ - ٨٣٤٢٦٥ - ص.ب: ٢٥/١٦ - تلكس: ٢٢٥٩٧ بلاغ - بيروت - لبنان

باقر شريف القرشي

حياة



دراسة وتحليل

الجزء الأول

دار البلاغة


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی



حياة

الإمام الحسن بن علي (عليه السلام)


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم . إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً . قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور .

الأهداء

اليك .. يا علة الموجودات ، وسيد الكائنات

اليك .. يا منقذ الإنسانية من ظلمات الجهل ، وباعث الروح والعلم في الأجيال .

اليك .. يا رسول الله ، وخاتم النبيين .

أرفع بكلتا يدي هذه الوريقات التي بحثت فيها عن سيرة سبطك الأكبر ، وريحانتك الذي غذيته من كمال النبوة ، وأورثتــه هيبتك ، وسؤددك . وهي بضاعتي المزجاة التي أعددتها ذخري يوم الوفادة عليك ، فعسى أن تقع من مقامكم الرفيع موقع القبول وهو حسبي .



تقديم

لامام المصلح كاشف الغطاء



الإمام السبط أبو محمد الزكي أول الأسباط الأحد عشر من نسل محمد (ص) سيد الأنبياء ونسل علي سيد البشر وأول من اجتمع فيه نور النبوة ونور الإمامة فكان مجمع النورين وأحد النيرين وملتقى البحرين «مرج البحرين يلتقيان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» علي بحر نور الإمامة وفاطمة بحر نور النبوة والكرامة ، يخرج منهما اللؤلؤ الأخضر بخضرة السم في السماء والمرجان الأحمر بحمرة الأرض من الدماء .

الحسن أول الأئمة الأمناء من صلب سيد الأوصياء ، الحسن الذي أظهر الحق وأزهق الباطل وحقن بصلحه الدماء .

وقد كانت ولادته في ليلة النصف من رمضان على أشهر الأقوال وقد صادف املائي لهذه الكلمات هذه الليلة التي هي ليلة النور وليلة الفرح

والسرور لأهل البيت الذين يجب أن نفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم . فالى سيد الكائنات ، وعلي وفاطمة صلوات الله عليهم أزف الأناشيد والتهاني والترانيم مهنياً لهم بهذا المولود المبارك الذي يقول فيه علة الوجود ومرآة المعبود وفي أخيه : « نعم الجمل جملكما ونعم الراكبان أنتما » .

وإني لا أحاول من هذه المقالة التي جرى بها القلم على العجالة أن أذكر مالأبي محمد الزكي (ع) من عظمة المآثر ومآثر العظمة وكبرياء الجبروت وجبروت الكبرياء وعلوّ المفاخر والمناقب ومفاخر العلياء كلا ثم كلاّ فان صقر باعي ونسر يراعي على سعة معرفتي واطلاعي ينحطان ويسقطان عن العروج إلى ذلك العرش المتمرد بمناعته على العقول والذي لا تنال منه الأفكار مهما تعالت وتغالت سوى الدهشة والذهول .

وإنما أريد أن أتعرض إلى ناحية من نواحي حياته وآية واحدة من آيات معجزاته ومعجزات آياته ، وهي ناحية صلحه مع الطاغية ابن الغاوي والغاوية معاوية ، فان هذه الناحية قد تعقدت ولبست أسمك جلابيب الغموض وساءت في توجيهها الظنون وباءت بالفشل كل الفروض وسرى الشك وتضعضعت أركان الإيمان حتى من أخص أصحابه وأصحاب أبيه عليه السلام ، والخلص من شيعته ومواليه فحمل الغيظ والغضب ذلك الطود الأشم على إساءة الأدب فقال : السلام عليك .. وكان الواجب أن يقول يامعز المؤمنين فقال عكسها . ولم يزل الغموض والإلتباس يضفي على القضية أسوء لباس حتى على المعتقدين بامامته وعصمته . ولكن غلبت العاطفة فيها وصدمة الرزية على التعقـل والروية . ولو أمعنوا النظرة وفسحوا المجال للفكرة لتجلى لهم جلاء الشمس ، ان كل الصلاح وصلاح الكل فيما فعله سلام الله عليه لا من حيث التعبد والتسليم والخضوع للامر الواقع مهما كان خيراً أو شراً ولا من حيث الاعتقاد بالعصمة ، وإن عمل المعصوم لابد

وأن يكون موافقاً للحكمة ، كلا بل لو تدبرنا الواقعة ونظرناها من جميع أطرافها وظروفها وملابساتها ونتائجها ومقدماتها لا تضح لنا على القطع واليقين أن ما فعله سلام الله عليه هو المتعين ولا يصح غيره ، نعم هو الحزم بعينه وهو الظفر بخصمه وهو عين الفتك بعدوه من حيث الفنون الحربية والسياسة الزمنية "فعل" فعل القائد المحنك والحازم المجرب لمحارب عدوه بالسلم وغلب عليه بالصلح ، فاخمد ناره وهتك ستاره وابدى للناس عاره وعياره ، وما كان من الصلاح إلا أن يحاربه بالصلح لا بالسلاح ويذبحه باعماله لا بقتاله ونباله وهذا اتم للحجة واقطع للمعاذير وابلغ في دفع الريب والشبهة وايضاح كل هذا وانارته بحيث يرى بالعين ويلمس باليد يحتاج إلى فضل بيان وقوة جنان وسعة في القول ولا يساعدني على شيء من ذلك جسمي العليل وبصري الكليل وكثرة اشغالي وبالي البالي وضيق مجالي وسوء حالي . وعسى أن يلطف جل شأنه فيسمح لي بانتهاز فرصة أخرى استطيع أن اعطي البيان حقه في هذا المضمار واكشف عن هذا الغموض الحجب والأستار حتى يظهر الحق وتسطع الانوار ، ولكن لا أجد بدا من أن اختم كلمتي هذه بالحق المحض وزبدة المخض .

وهي على الجملة والطي أنه كما كان الواجب والمتعين الذى لامحيص عنه في الظروف التي ثار بها الحسين سلام الله عليه على طاغوت زمانه أن يحارب ويقاتل حتى يقتل هو واصحابه وتسبى عياله ودايع رسول الله كما كان هذا هو المتعين في فن السياسة وقوانين الغلبة والكياسة مع قطع النظر عن الاوامر الآلهية والمشيئة الازلية كذلك كان المتعين والواجب الذي لا محيص عنه في ظروف الحسن (ع) وملابساته هو الصلح مع فرعون زمانه ولولا صلح الحسن وشهادة الحسين عليهما السلام لما بقي للاسلام أسم ولا

رسم ولضاعت كل جهود محمد (ص) وما جاءبه للناس من خير وبركة وهدى ورحمة ، فان أبا سفيان ونغله معاوية وسخله يزيد دبروا كل التدابير واعملوا كل الحيــل لمحو الاسلام ورد الناس إلى جاهليتهم الاولى وعبادة اللات والعزى ولعل إلى هـذه النكتة الدقيقة اشار النبي (ص) بالحديث المشهور ، الظاهر بصحته ظهور النور ، يقول صلى الله عليه وآله « الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا » لعله يعني أن الحسن إمام في قعوده كما أن الحسين إمام في قيامه ونهضته .

وكانت جمهرة المؤرخين وأرباب التراجم والسير تسرد قضية الحسن سلام الله عليه وصلحه مع معاوية على سطحها الظاهر وشكلها البسيط من غير تحليل ولا تعليل ولا تعمق وتحقيق ومن دون نظر إلى ظروف الواقعة وملابساتها ومباديها وغاياتها ولذا قد يسبق إليها نوع من الاستنكار لعدم النظر إليها بنظر التدبر والاعتبار .

ولكن بما أن الحق والحقيقـة نور ، والنـور إذا اشتد يشق الستور ويأبي إلا الظهور قيض الله في هذا العصر بعض الا فاضل من ذوى الاقلام البارعة والافهام الفارعة والانظار السديدة والافكار الحرة فكشفوا بمؤلفاتهم عن حيـاة الحسن (ع) وسيرتـه وصلحه الغموض والتعقيـد وازاحوا لثام بعض الاوهام الـتي زلـق فيهـا بعض الكتبـة من المعاصرين ومن الذين قبلهم .

وممن عرف فالف واجاد فيا جمع وصنف ، وترجم للحسن (ع) في حياته فاحسن ، واتقن ، وجمع فبرع العالم الفاضل النجيب الاديب الشيخ باقر القرشي ايده الله بروح العناية منـه والتوفيق ، فقـد رفع إليّ بعض فصول الجزء الاول من مؤلفه (حياة الحسن) فوجدت فيه روح الطموح

وطموح الروح ووجدت فيه نفسا وثابة قد جرت في أشواط السباق ، وإذا كانت في البداية فهي على وشك الوصول إلى الغاية .

واحسن شاهد على فضل كتابه نفس كتابه .

(سبوح لها منها عليها شواهد)

شكر الله مساعيه وبلغه امانيه .

بدعاء ابيه الروحي

محمد الحسين آل كاشف الغطاء

صدر من مدرستنا العلمية بالنجف الاشرف

بتأريخ ٢٠ شهر الصيام المبارك سنة ١٣٧٣ هـ .



مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

للامام أبي محمد الحسن (ع) تأريخ مشرق ، حافل بأروع صفحات البطولة والجهاد ، وسيرة ندية تنبض بالعدل والتقوى ، وتتدفق بالقابليات الفـذة ، والنزعات الخيرة ، وتلتقي بهـا سجاحة الخلق ، واصالة الرأي ، وعمق التفكير ، وقد اجمع المترجمون له أنه من احلم الناس ، واقدرهم على كظم الغيظ ، والصبر على الأذى والمكروه ، فما عرف من سيرته أنه قابل مسيئاً باساءته ، ولا جازى مذنباً بذنبه ، وإنما كان يغدق عليهم بالاحسان ويقابلهم بالمعروف ، شأنه شأن جـده الرسول (ص) الذي وسع الناس باخلاقه وحلمه .

وحسبنا شهادة تدل على عظيم حلمه ادلى بها الد خصومه ، واحقد اعدائه مروان بن الحكم حينما بادر إلى حمل جثمانه الطاهر ، فاستغرب منه سيد الشهداء وقال له :

« اتحمل جثمانه ، وكنت تجرعه الغصص ؟ ! »

فقال مروان : « كنت افعل ذلك بمن كان يوازي حلمه الجبال »

وكما كان من احلم الناس ، فقـد كان من ابرز رجال الفكر في سداد الرأي وصواب التفكير ، وقـد تجلى ذلك في صلحه مع معاوية ، وتجنبه من فتح باب الحرب ، فان البلاد كانت تضج بالحزبيـة ، وباع زعماء القبائل وقادة الجيش ذممهم على معاوية ، وانحازوا إلى معسكره لا

ايمانا بقضيته ، وانما طمعا بامواله ، واستجابة لرغباتهم النفسية التي تطمع بالنفوذ والسيطرة ، والثراء العريض ، مضافا إلى ذلك خبث جنوده ، وشدة خلافهم ، وايثارهم للسلم ، وغير ذلك من العوامل التي سنذكرها بالتفصيل في غضون هذا الكتاب ، فاستسلم عليه السلام للامر الواقع ، وصالح معاوية ، وقد صان بذلك الأمة ، وحفظ دماءها ، وجنبها من المضاعفات السيئة التي لا يعلم مدى خطورتها الا الله ، واجمع الرواة أنه كان أندى الناس كفا ، واوصلهم لعباد الله ، واعطفهم على الفقراء والمحرومين حتى لقب بكريم اهل البيت مع أنهم اصول الكرم ومعدن السخاء والمعروف وكانت تترى عليه وفود من الفقراء والمحتاجين فيفيض عليهم ببره ، ومعروفه وينقذهم بوافر عطاياه من ذل السؤال والحاجة إلى السعة والبسط في العيش والاستغناء عما في أيدى الناس .

وانفقت كلمة المؤرخين أنه كان اعبد أهل زمانه ، وأتقاهم واكثرهم عبادة ، وخوفا من الله ، وقد حج بيت الله الحرام خمسا وعشرين حجة وان النجائب تقاد بين يديه ، وقد عمل جميع الوسائل التي يتقرب بها إلى الله ، وتجرد عن لهو الحياة ، ونبذ جميع زخارفها ، وسنذكر ذلك بالتفصيل عند التحدث عن مثله ، ومظاهر شخصيته العظيمة .

ان سيرة الامام (ع) في جميع صورها من اروع سير العظماء والمصلحين الذين تعتز بهم الامة في جميع مجالاتها ، ويكفيها خلودا أنها شابهت سيرة النبي (ص) وحكت كريم طباعه وسجاياه .

— ٢ —

ومشكلة تواجهنا في تأريخ الامام أبي محمد هي الاخبار الموضوعة التي ألصقت بتأريخه النير ، فقد دسها في التأريخ الاسلامي بعض الرواة من

اجراء السلطة الحاكمة فنسبوا له ما هو بعيد عنه ، اتهموا الامام انه كان عثماني الهوى ، وانه كان يندد بموقف أبيه يوم الدار ، لأنه لم يقم بعمليات النجدة ، ولم ينقذ عثمان ، وينجيه من أيدي الثوار ، كما أنه لم يكن من رأيه ـ كما رووا ـ أن يستجيب أبوه إلى رغبة الجماهير الذين هتفوا باسمه واصروا على ترشيحه لمنصب الخلافة ، وان امير المؤمنين عصاه ـ على حد تعبيرهم ـ واستجاب لدعوة الثوار .

والصقوا بسيرته الوضاعة انـه كان كثير الزواج ، والطلاق ، وقد بالغوا في ذلك إلى حد بعيد فرووا أنه كان في اكثر أيامه يعقد على أمرأة ويطلق أخرى ، والسبب في ذلك كله هو الحط من شأنه ، والتقليـــل من أهميتــه وقد دون تلك الروايات المؤرخون ، واستند إليها كتاب العصر وفي طليعتهم الدكتور طه حسين (١) فقد مال إليها ، وارسلها إلى القراء ارسال المسلمات ، ولم يتثبت في سندها ليتضح له أن رواتها قد وصموا بالوضع والانحراف عن أهل البيت ، وقد فندنا القسم الكثير منها في بحوثنا ودللنـــا على مواضع الضعف الذي فيهـــا سواء أكان من ناحيـــة السند أو من غيره .

إن اهم شيء تستدعيه ضرورة البحث هي غربلة الاخبار ، ومعرفة رواتها والتوثق منهم فمن كان صحيحا في نقله بعيداً عن الكذب غير متهم في دينـه فيؤخـــذ بروايته ، ويعول عليها في بناء التأريخ الاسلامي ، ومن كان من الرواة متزلقـــا في احضان السلطة ويكتب لا غراضها ، ويدون لتدعيم سلطانها وهو في نفس الوقت غير متحرج ولا متأثم من الكـــذب والوضع فان الواجب أن ترد روايتـــه ولايعتمد على نقله ، والاسلام قد

(١) استند الدكتور طه حسين في كتابه علي وبنوه الى الروايات الموضوعة وسنذكرها في غضون هذا الكتاب وندلل على مايرد عليها من المؤخذات .

أمرنا بصراحة بالتثبت في اخبار المتهمين في دينهم : قال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنباء فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١) والآية صريحة الدلالة في وجوب التثبت في اخبار الفساق ، واي أثم اعظم من ارتكاب الوضع وتعمد الكذب ، وهي في عمومها شاملة للاخبار عن الموضوعات الخارجية ، ومنها الاخبار عن الحوادث التأريخية وغيرها .

وعجيب ـ وان كان خارجا عن الصدد ـ أن تؤخذ بعين الرضا والقبول روايات شيخ المضيرة أبو هريرة الدوسي (٢) والجلاد سمرة بن جندب ، ويعول عليها في بناء العقيدة الاسلامية مع أن في الكثير منها خروجا على سلطان العقل وحكمه ، وخروجا على حكم الاسلام الذي ما آمن ـ والحمد لله ـ بالخرافات والاوهام .

ان تنقية الاخبار ضرورة ملحة لكل باحث سواء أكانت متصلة بشؤون الدين أو في غيره ولزوم طرح ماروه المنحرفون واجراء السلطة فيما انفردوا بروايته .

— ٣ —

والشيء البارز في العصر الذي عاش فيه الامام الحسن (ع) انتشار الحزبية ، وتفاعل تياراتها الهائلة ، فقد صمم الحزب القرشي ـ الذي شكل قبل وفاة النبي (ص) ـ على صرف الخلافة الاسلامية عن أهل البيت (ع)

(١) سورة الحجرات : آية ٦ .

(٢) كشف الغطاء عن خرافات ابي هريرة الامام شرف الدين في كتابه « ابو هريرة » وكذلك بحث عن موضوعاته ومفترياته العلامة الكبير الشيخ محمود ابو رية في كتابه « شيخ المضيرة » .

لاسباب أهمها التهالك على الامرة والسلطان ، والحسد لعترة النبي (ص) على ما منحها الله من الفضائل والمواهب ، وقد أثر عنهم « ان النبوة والخلافة لايجتمعان في بيت واحد » وهو كلام لايعضده الدليل في جميع مناحيه ، وقد تعرض ابن عباس الى تزييفه بمنطقه الرصين في محاورته مع عمر بن الخطاب ، فقد قال له عمر « بعد حديث طويل دار بينهما » :

« يابن عباس ، أتدري مامنع قومكم منكم بعد محمد (ص) ؟ » .

قال ابن عباس : فكرهت أن اجيبه ، فقلت له : إن لم أكن ادرى فان امير المؤمنين يدرى :

فقال عمر : « كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتجحفوا على قومكم بجحا ، بجحا ، فاختارت قريش لانفسها فاصابت ، ووفقت . »

وخاف ابن عباس من شدة عمر وغلظته أن يجابهه بتزييف كلامه فطلب منه الاذن ليصارحه بالواقع قائلا : « يا أمير المؤمنين ، إن تأذن لي في الكلام ، وتمط عني الغضب تكلمت .. » .

« تكلم يابن عباس » .

« أما قولك يا أمير المؤمنين : اختارت قريش لأنفسها فاصابت ووفقت ، فلو ان قريشا اختارت لانفسها من حين اختار الله لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود ، واما قولك : انهم ابوا أن تكون لنا النبوة والخلافة ، فان الله عزوجل ، وصف قوما بالكراهة ، فقال :

« ذلك بأنهم كرهوا ما انزل الله فأحبط اعمالهم » .

فثار عمر وقد لسعه قول ابن عباس : فقال له :

« هيهات يا بن عباس .. قد كانت تبلغني عنك أشياء أكره أن أقرك عليها فتزيل منزلتك مني .. » وخاف ابن عباس من سطوته فاجابه بناعم القول :

« ما هي يا أمير المؤمنين ؟ فان كانت حقا فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك ، وإن كانت باطلا فثلي أماط الباطل عن نفسه ، . »

وهدأت ثورة عمر فقال له :

« بلغني أنك تقول : إنما صرفوها ـ اي الخلافة ـ عنا حسداً وبغياً وظلماً ! »

فاجابه ابن عباس بمنطقه الفياض :

« أما قولك يا أمير المؤمنين : ظلما فقد تبين للجاهل والحليم ، واما قولك حسداً فان آدم حُسد ، ونحن وُلده المحسودون ! ! »

فثار عمر ، وصاح به

« هيهات هيهات ! ! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم الا حسداً لا يزول . . »

وانبرى ابن عباس فرد عليه مقالته :

« مهلا يا أمير المؤمنين ! ! لا تصف بهذا قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . . » (١)

وكشفت هذه المحاورة عما تكنه قريش في نفوسها من الموجدة والكراهية لآل البيت فاختارت صرف الخلافة عنهم ، ويرى عمر أنها وفقت في ذلك ، ولكنها في الحقيقة لم توفق ، ولم تصب الرأي والرشد ، فقد انتج اختيارها أن يفوز الأمويون بالحكم ، وهم أعداء الاسلام وخصومه ، ومجزرة كربلا الرهيبة احدى مظاهر عدائهم ونقمتهم من الاسلام ، فقد صدرت الأوامر المشددة من القيادة العسكرية العليا إلى الجيش بأبادة اهل البيت واستئصال شأفتهم ، وأن لا يبق على مسرح الحياة أحد من نسل آل محمد (ص) فابيدت تلك الصفوة الطاهرة من عترة الرسول (ص)

(١) تأريخ ابن الأثير ٣|٢٤ ، شرح نهج البلاغة ٣|١٠٧ .

وتقطعت أوصالها على صعيد كربلا ، وحملت ودائع النبوة وكرائم الوحي سبايا تطوف بها ارذال العرب واجلافهم من بلد إلى بلد ، ولما انتهيت سبايا آل النبي (ص) الى يثرب يلتفت عمرو بن سعيد عامل يزيد عليها وهو جذلان مسرور الى قبر رسول الله (ص) فيخاطب جده الطاهر ويقول له :

« يوم بيوم بدر يا رسول الله . » (١)

ثم رقى منبر النبي ، وخاطب المسلمين فقال : ـ ويا لهول ما قال ـ

« أيها الناس . إنها لدمة بلدمة ، وصدمة بصدمة ، كم خطبة بعد خطبة ، حكمة بالغة فما تغني النذر . »

وقبله قال يزيد :

لست من خندف إن لم انتقم   من بني أحمد ما كان فعل

هذا هو اختيار قريش الذي وفقت فيه ـ كما يقولون ـ قد اوجب هضم العترة الطاهرة التي هي عديلة القرآن الكريم في لزوم مرعاتها والاحتفاء بها ، فانا لله وإنا إليه راجعون .

— ٤ —

وقد نظرنا الى الحوادث ـ التي جرت في عصر الامام أبي محمد (ع) ـ نظرة امعان وتدبر ، فان التاريخ ـ كما ذكرنا ـ قد خلط بالموضوعات حتى اصبح من العسير أن يخلص المؤرخ إلى الحق في أيسر الأمور ، وقد استلخصنا من تلكم الحوادث كثيراً من الجوانب التي لها صلة في الكشف عن حياة الامام (ع) وبتصوير العصر الذي نشأ فيه .

وقد نشر هذا الكتاب قبل احدى عشرة سنة ، ونفذت نسخه ، ولم

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ١/٣٦١ .

بعد لها أي وجود في الأسواق ، وقد ترجمه إلى اللغة الاوردية فضيلة العلامة الجليل السيد محمد باقر النقوي حفظه‌الله ، وقد طبع في الهند بمطبعة (اصلاح كجهوابهار) وإن كثيراً ممن تهمهم امثال هذه البحوث قد رغبوا في اعادة طبع الكتاب بعد نفاذ نسخه ، وكنت ارجيء ذلك إلى وقت آخر أملا في اعادة النظر فيه لأني اعتقد أن فيه بعض الفصول تحتاج إلى مزيد من البسط والتفصيل وقد تفضل عليّ أخي العلامة التقي الشيخ هادي القرشي فابدى رغبته الملحة في مراجعة الكتاب ومعاودة النظر فيه فلم أر بدأً من اجابته فراجعت الجزء الاول منه ، واضفت اليه كثيراً من البحوث ، ولعل القاريء يجد أن هذه الطبعة غير الطبعة الأولى لما فيها من الاضافات ، واناقه الطبع ، وروعة التنسيق ودقة الاخراج التي اشتهرت بها مطابع الآداب .

وقبل أن انهي هذا التقديم ارفع اعمق الامتنان ، وجزيل الشكر إلى حضرة المحسن الوجيه الحاج محمد رشاد عجينة لتبرعه بطبعه سائلا من الله أن يوفقه لكل مسعى نبيل وأن يتولى جزاءه عن ذلك انه ولي التوفيق :

النجف الأشرف باقر شريف القرشي

٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٨٤

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

لريحانة الرسول (ص) وسبطه الأول الإمام الزكي الحسن بن المؤمنين علي (ع) حياة مثالية وسيرة فواحة عطرة تتدفق بهما طاقات الاسلام الثرة الندية ، وتتمثل فيها سيرة النبي (ص) واخلاقه واتجاهاته ، وتتجسد فيها جميع عناصر التربية الاسلامية الرفيعة فهي ـ بحق ـ من اروع الشخصيات الفذة التي لمعت في سماء الأمة الإسلامية ، وفي طليعة الذوات الخيرة التي تحلى بها قاموس الإنسانية ، وذلك لما اتصفت به من الحلم والعلم والخلق والسجاحة والسخاء وغير ذلك من الصفات الرفيعة التي شابهت صفات الرسول وحكت اخلاقه .

وحفلت حياة الامام (ع) بالمصاعب والكوارث ، وامتحن امتحاناً عسيراً بالامويين الذين جرعوه اقسى الوان الخطوب والآلام فقد ابتلى بهم الامام كما ابتلى بهم جده وأبوه من قبل ، فقد كان الامويون يكنون في دخائل نفوسهم واعماق قلوبهم بغضاً عارماً للهاشميين، ومصدر ذلك العداء يرجع الى التنافر الذاتي بين الاسرتين واختلاف طباعها وتباين اتجاهها ، فقد كان الهاشميون يمثلون الاريحية والشمم والإباء والوفاء وحماية الضعيف وقرى الضيف ، وكانت أندية العرب ومجالسهم تتحدث عن مكارمهم ولين طباعهم ، وعما تركوه في ربوع مكة من أنظمة للعدل واسباب للنعيم والتجارة ، وأما (الامويون)

فقد عرفوا باللؤم والجفاء والغلظة والغدر والخيانة ، وعدم الاستجابة أو المساهمة فى أي عمل من اعمال الخير ، وهم فى جاهليتهم واسلامهم سواء لم تصدر منهم بادرة من بوادر الكرم أو ظاهرة من ظواهر الاصلاح والنفع العام يقول فيهم الجاحظ :

« ليس لهم قدم مذكور ولا يوم مشهود فلا سابقة ولا جهاد ، وإذا كان شيء من هذا فانما يكون فيا يضر الناس » .

ولما أسس الهاشميون فى الجاهلية حلف الفضول الذي كان شعاره مناصرة المظلوم حتى يدفعوا عنه ظلامته ، ومنع القوي من ظلم الضعيف ، والقاطن من الاعتداء على الغريب كان الامويون وحدهم قد تخلفوا عن مناصرة هذا الحلف والانضمام إليه لدوافع أهمها ان هذا الحلف يتنافى مع ميولهم التي طبعت على الظلم والاعتداء ، والغرور والحسد للهاشميين .

(٢)

ولما صدع الرسول الاعظم (ص) برسالته الخالدة الداعية الى يقظة الضمير وتحرير العقول ثقل على الامويين هذا المجد الذي اختص بالهاشميين ، وعظم عليهم الأمر فألهبت قلوبهم بالحقد والكراهية ، وقد تحدث الحكم ابن هشام مع قرينه فى الشرك أبي جهل فاعرب له عما يكنه فى قرارة نفسه من البغض العارم للهاشميين وعدم الاستجابة لدعوة الاسلام قائلا :

« تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فاطعمنا ، وحملوا فحملنا حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذا ، واللات لا نؤمن به ولا نصدقه » .

وقد اجمعت كلمتهم على مكافحة الدعوة الاسلامية فألبوا على الرسول (ص) القبائل وقادوا الجيوش لمناجزته ، ولكن الله رد كيدهم فى نحرهم

ونصر الاسلام وأعز رسوله فقد تحطمت قوى الامويين ومن تابعهم من شذاذ الآفاق وأعداء الاسلام ، واتجهت الجيوش الاسلامية الظافرة الى احتلال مكة المكرمة ، وقد وقع أبو سفيان أسيراً هو والعباس بيد القوات الاسلامية الزاحفة فأمر الرسول (ص) بحبسها في المضيق ليشاهد أبوسفيان قوة المسلمين وضخامة جيشهم ، واجتازت عليه القوات العسكرية الهائلة فوقف مذهولا مبهوتاً قد انهارت قواه وانطلق يقول للعباس :

« لقد اصبح ملك ابن اخيك اليوم عظيا ! ! »

فأجابه العباس : انها النبوة

فقال أبو سفيان بصوت خافض متحجر : نعم اذن

إنها لكلمة يسمعها بأذنه فلا يفقهها قلبه فما كان مثل هذا القلب ليفقه الا معنى الملك والسلطان ، كما يقول السيد قطب : (١)

واطلق رسول الله (ص) سراح أبي سفيان ، ومنحه العفو كما منح أهل مكة فانطلق يهرول قد غمرته عظمة المسلمين وقوتهم وهو يهتف بين قومه .

« من دخل داره فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »

ولما سمعت هند زوجته ذلك وشعرت بخوفه وايثاره العافية وطلبه للسلم جعلت تصيح وهي حانقة مغيضة « اقتلوا الخبيث الدنس الذي لاخير فيه ، قُبح من طليعة قوم ، هلا قاتلتم ، ودفعتم عن انفسكم وبلادكم ! ! »

تحرض بذلك قريشاً على الحرب ، وتلهب في نفوسهم نار الثورة ، وروح العصبية ، ودخل رسول الله (ص) مكة فاتحاً ، وقام بتطهير البيت الحرام من الاوثان والاصنام ، وقد حطمها امير المؤمنين (ع) فكسر لاتهم وهبلهم ، وصعد بلال فوق ظهر الكعبة يؤذن للصلاة فلما سمعه

(١) العدالة الاجتماعية في الاسلام ص ١٨١ .

أبو سفيان انخلع قلبه وصرخ منادياً بلا اختيار .

« لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد » .

(٣)

ولما اندحرت قوى الإلحاد وانهارت معنوية المشركين لم يجد الامويون بدأ من الدخول في حظيرة الاسلام فدخلوا فيه وهم أذلاء صاغرون ، قد كسرت شوكتهم ، واخمدت نارهم ، وقد ظلت قلوبهم مترعــة بالحقد والكراهية للاسلام ، وقد شعر الرسول (ص) بذلك فاصدر قراره الحاسم بابعــاد رؤوسهم عن يثرب عاصمة المسلمين وحرم عليهم الدخول اليها ، وقابلهم بالاستهانة والتحقير ، فقد أقبل أبو سفيان راكباً ومعه معاوية وأخوه أحدهما قائد ، والآخر سائق فلما رآهم النبي (ص) قال :

« اللهم ، ألعن القائد والسائق والراكب » (١)

وأقبلت امرأة الى رسول الله (ص) أرادت التزويج بمعاوية فنهاها عن ذلك وقال لها :

« إنه صعلوك » (٢) .

ومتى كان هـذا الصعلوك كاتب الوحي أو مقرباً عند النبي (٣) ـ كما يقولون ـ

(١) تاريخ الطبري ١١|٣٥٧ وقعة صفين ٣٤٤ .

(٢) تاريخ الخميس ٢|٢٩٦ .

(٣) ذكر الفيروزابادي في سفر السعادة ص ١٤٩ في فضل ما روى في فضل معاوية ما نصه : «ليس فيه حديث صحيح » وقال العلامة المحقق محمد بن عقيل! في « النصائح الكافية » ما نصه « اما كتابة معاوية ، للوحي والتنزيل فلم تصح ، ومن ادعى ذلك فليثبت أية آية نزلت فكتبها معاوية ، اللهم الان يأتينا بالحديث الموضوع انه كتب آية الكرسي بقلم من ذهب جاء به جبرئيل هدية لمعاوية من فوق العرش ،

لقد قابل الرسول (ص) عموم الامويين بالاستهانة والتحقير والحط من شأنهم وذلك لأنه استشف من وراء المغيبات أنهم مصدر الفتن والاضطراب والقلق بين المسلمين فباعدهم ، وقد رأى (ص) في منامه أنهم ينزون على منبره نزو القردة والخنازير فانزل الله تعالى عليه قوله : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس » وما رؤي بعد ذلك ضاحكاً (١) .

(٤)

ولما انقصم ظهر الاسلام وانحسرت روحه بموت الرسول (ص) انصبت الفتن على المسلمين كقطع الليل المظلم حتى فقدوا الرشد والصواب فناصبوا عترة الرسول (ص) الذين هم وديعة النبي فابعدوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها وسلبوا الخلافة الاسلامية من أيديهم ، وتهالكوا على الإمرة والسلطان ، وقد مهد الخليفة الثاني الحكم للامويين فاستعمل معاوية والياً على الشام واطلق له العنان فلم يحاسبه على إسرافه ، ولم يعاتبه على تبذيره وبذخه كما فعل مع بقية عماله وقد قيل له في ذلك فاعتذر لنفسه ، واعتذر عنه قائلاً : ذاك كسرى العرب ؟

نعوذ بالله من الفرية على الله وعلى امينه ورسوله » وقال السيد قطب : في (العدالة الاجتماعية) ص ١٨٢ إن أبا سفيان حين اسلم رجا النبي (ص) في ان يسند إلى معاوية شيئاً يعتز به أمام العرب ، ويعوضه عن سبة التأخر في الاسلام ، وانه من الطلقاء الذين لا سابقة لهم في الاسلام ، فاستخدمه النبي (ص) في الرسائل والحوائج والصدقات ولم يقل احد من الثقاة انه كتب للنبي كما اشاع انصاره بعد استقرار الملك كما يصنع سائر الدعاة ، وإن كان استخدام النبي (ص) لمعاويه محل ريب لأن الرسول (ص) كان ينظر إليه وإلى اسرته نظرة ريبة لشكه (ص) في اسلامهم .

(١) تاريخ الخطيب ٩|٤٤ ، تفسير الطبري ٥|٧٧ ، أسد الغابة ٣|١٤ .

ولم يكتف بهذا المد للأمويين ، وبهذا الاحسان الذي أسداه اليهم فقد فتل حبل الشورى الذي انتج فوزهم بالخلافة وتلاعبهم بمقدرات الأمة وامكانياتها ، وجر الخطوب والويلات لها ، وانتهاك كرامة النبي (ص) في عترته وذريته .

ولما استولى الامويون على زمام الحكم كان هدفهم طوي هذا الدين ، وقلع جذوره ، ومحو سطوره ، وابادة معالمه وآثاره ، ولولا فيض عارم في مبادئه ، وقوة كامنة في طاقاته ، وتضحيات العلويين لانتشاله ، وعناية قبل كل شيء فيه من الله تعالى لاصبح الاسلام معدوم الأثر من دنيا الوجود لأنه حينما استتب لهم الأمر وصفا لهم الجو ظهر مدى حقدهم البالغ على الاسلام ، وظهرت رغباتهم في الملك والسلطان فكانوا لا يفكرون الا بذلك ولا يحلمون الا بأن تكون دولة المسلمين العوبة بأيدي ابنائهم وصبيانهم ، وقد ادلى بذلك أبو سفيان بكلمته التي القاها أمام أسرته وذويه قائلا لهم :

« يا بني أمية ، تلاقفوها تلقف الكرة فو الذي يحلف به أبو سفيان ما من جنة ولا نار وما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة » (١) .

قال هذه الكلمة أبو سفيان : بمرءى ومسمع من عثمان وهي صريحة في ارتداده وظاهرة في الحاده والواجب الشرعي يحتم على عثمان أن يقيم عليه الحد باعتباره خليفة المسلمين ، وهو مسؤل عن تنفيذ احكام الدين وتطبيق حدوده ولكنه اعار ذلك أذناً صماء ، واهمل ما وجب عليه .

وحينما نشبت اظفار معاوية بالملك اتضح عداؤه السافر للاسلام والمسلمين ، وقد برز ذلك في أقواله وأعماله واتجاهاته فقد خطب في النخيلة وكانت نشوة الظفر عليه بادية فقال :

« يا أهل العراق ، والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ،

---

(١) مروج الذهب ١|٤٤٠ .

ولا لتحجوا ولا لتزكوا ، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم وقــد أعطاني الله ذلك . . » (١)

وأي قيمة للصلاة والصوم والزكاة والحج ، واي أثر لسائر الطقوس الدينية عند ابن هنـد التي نهشت كبد سيد الشهداء حمزة ، انه ما قاتلهم من اجل ذلك ولا من اجل المطالبة بدم عثمان الذي أقام الدنيا وأقعدها بسببه ، وانما قاتلهم من اجل الظفر بالملك والسلطان .

لقد منيت البلاد الاسلامية أيام حكمه وسلطانه بالظلم والجور والاستبداد ، ومُني المسلمون بالاستعباد والاستغلال ، فقد قضت سياسته الارهابية الملتوية بارسال الاخيار والمصلحين الى ساحات الاعـدام وظلمات السجون ، فقـد اعدم الصحابي العظيم حجر بن عدي وإخوانه الصالحين لأنهم انكروا على ولاته سبهم لامير المؤمنين وسيد المتقين .

إن البارز في سياسة معاوية نشر الارهاب والخوف ، واشاعة الفتن والاضطراب ، واباحة الغدر والخيانة ، والولوغ في دمـاء المسلمين فقد أسرف هو وعماله في ذلك حتى قتلوا الاطفال الصغار والشيوخ العاجزين بعد ما تجاوزوا الحد في قتل الرجال وسجن النساء ، وقد ارتطمت البلاد بالفتن وضج الناس من الظلم والجور .

وقــد ساند سياسته فريق من المرتزقة وباعة الضمير الذين وضعوا دنياهم فوق رؤسهم ودينهم تحت أقدامهم فراحوا يلقون عليه التقديس ، ويخلعون عليه النعوت الحسنة ويبررون جرائمه وموبقاته ، وهم ما بين راو وخطيب وزعيم فاخذوا يذيعون بين الشاميين قربه من الرسول وانه وارثه حتى انقضى ردح من الزمن وهم لا يظنون ان هناك احـداً أقرب إلى النبي (ص) من معاوية وبني امية ، كما افتعلوا الاحاديث الكثيرة في

(١) شرح النهج ٤|١٦ .

الثناء عليه وضرورة تكريمه وتقديره ، ومضافاً لهذا الفريق المرتزق البطانة التي ظفر بها كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وأضرابهم من دهاة العرب وابالسة الدنيا فقد اخذوا في تسديده واحكام سلطانه وتخذيل اعدائه حتى اصبحت مقاومة حكمه من الصعوبة بمكان ، فقد عجز أمير المؤمنين (ع) عن مقاومته ومناجزته حيث افسد عليه جيشه وتركه في ارباض الكوفة يتمنى النزوح عن هذه الدنيا ومفارقة ذلك المجتمع المصاب باخلاقه حتى قضى عليه السلام شهيداً صابراً .

(٥)

ولما فجع الاسلام ونكب المسلمون بقتل وصي الرسول (ص) ، وبايعت الحواضر الاسلامية سبط النبي الامام الحسن اخذ معاوية وعملاؤه يدبرون نفس الخطة التي دبروها مع أبيه من قبل فافسدوا عليه جيشه وخواصه بالمال تارة وبالارهاب أخرى حتى بلغ بهم التخاذل والانحطاط مبلغاً فظيعاً فقد كاتبوا معاوية بتسليم الامام له أسيراً سراً أو علانية إن شاء ذلك وأنضمت إلى ذلك عوامل أخرى سنذكرها مشفوعة بالتفصيل في غضون هذا الكتاب ، فرأى عليه السلام أنه إن قاوم معاوية قاومه بيد جذاء ولو ضحى بنفسه لذهبت تضحيته سدى وتعود بالضرر الجسيم على الاسلام والمسلمين فوقف (ع) مع عدوه موقف الحازم اليقظ والبصير المحنك فصالح معاوية وحفظ دمه ودم أهل بيته والبقية الصالحة من المؤمنين ، وقد كشف ذلك عن سمو رأيه وعمق نظره ، ولم يترك (ع) بعد الصلح جهاده المقدس فقد انبرى يعمل في تحطيم عروش الدولة الأموية ، ويبين اخطارها على العقيدة الاسلامية ، وقد تصدى لمعاوية بالذات فذكر مثالبه وموبقاته في بلاطه وذلك حين سافر (ع) الى الشام .

وسيقف القارىء الكريم في بحوث هذا الكتاب على مدى الآلام المرهقة التي تجرعها سبط الرسول (ص) وريحانته من معاوية ، ومن جلاوزته ، ويقف على ما ألمّ به من المحن والبلوى ، والاستهانة به حتى من خلص أصحابه وأصحاب أبيه ، فقد جابهوه بعد ابرام الصلح باقسى القول وأمره وكان أشد على نفسه من ضربات السيوف ، وقد صبر سلام الله عليه على ما انتابه من الخطوب ، وبث حزنه وشكواه الى الله .

وبحثنا في هذا الكتاب عن مظاهر شخصيته ، وعن سيرته الندية ، التي هي - بحق - من اروع ما حفل به تأريخ المسلمين من المآثر والمفاخر ، كما ذكرنا الأدوار التي اجتازت عليه ، وما في عصره من الظواهر الاجتماعية فان الاحاطة بذلك - فيما نعلم - ضرورة ملزمة يقتضيها البحث ، وقد بحثنا عن ذلك كله ببحث حر جهد ما توصل إليه تتبعنا ، ومن الله التوفيق وهو ولي القصد .

النجف الأشرف : ١/صفر سنة ١٣٧٣ هـ

باقر شريف القرشي



اِجتماعُ النُورَين

نشأت الصديقة فاطمة سيدة بنات حواء في إبان الدعوة الاسلامية وترعرعت والاسلام في مرحلة الارتقاء ، وقد قام بدور تربيتها منقذ الانسانية وسيد ولد آدم الرسول محمد (ص) فغذاها من حكمه وكماله ، وأفرغ عليها أشعة من روحه المقدسة ، واشبعها من مكرمات نفسه العظيمة ، لتكون قدوة لنساء أمته ، ومثالا للكمال الانساني ، وعنواناً للطهر والعفاف .

وحمل الرسول (ص) في نفسه من الحب لها ما لم يحمله لغيرها ذلك لأنها البقية الصالحة من زوجته الطاهرة أم المؤمنين خديجة (رض) (١)

---

(١) خديجة بنت خويلد بن اسد القرشية الأسدية زوج النبي (ص) واول من آمنت به وصدقته باجماع المسلمين وكانت تدعى في الجاهلية « الطاهرة » وهي ذات ثراء عريض كانت تستأجر الرجال للتجارة في اموالها ، وقد بلغها عن رسول الله (ص) صدق حديثه وعظم امانته وكرم اخلاقه فبعثت إليه وعرضت عليه التجارة في اموالها فاجاب الى ذلك وخرج الى الشام مع غلام لها اسمه ميسرة فلما قدم (ص) الى الشام استظل تحت شجرة وكانت قريبة من صومعة راهب فاطل الراهب وقال لميسرة من هذا الرجل ؟ فقال له : إنه من قريش من اهل الحرم فقال الراهب . ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، ثم باع رسول الله (ص) الأموال التي جاء بها ، واشترى ما اراد ثم قفل راجعاً إلى مكة واعطى خديجة الأموال وقد ربحت ربحاً كثيراً ، وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، فبعثت خلف النبي فقالت له : إني قد رغبت فيك لقرابتك مني وشرفك في قومك وامانتك عندهم ، وحسن خلقك وصدق حديثك ، وعرضت عليه الزواج بها ، وكانت من اوسط قريش نسبا واعظمهم شرفاً واكثرهم مالا ، وخرج الرسول (ص) فعرض مقالتها على اعمامه فخرج معه حمزة ودخل على ابيها خويلد فخطبها منه فاجابه الى ذلك فتزوج بها رسول الله (ص) وكان عمرها اربعين سنة وعمره الشريف خمس وعشرون سنة وقيل غير ذلك ، ولما بعث رسول الله كانت اول من آمنت به وآزرته ، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه ـ

التي منحته بعطفها وحنانها ، وآمنت به قبل غيرها ، ورصدت جميع أموالها وامكانياتها لتقويم دعائم الاسلام وتشييد دعوته حتى نفذ جميع ما عندها من الثراء العريض ، ولم ينس الرسول (ص) تلك اليد البيضاء التي اسدتها على الاسلام فقد قابلها بالشكر الجزيل والثناء العاطر ، فكان بعد موتها دوما يترحم عليها ويذكر وفاءها واحسانها حتى وجدت عليها عائشة ، وانطلقت تقول له :

« ما تذكر من عجوز حمراء الشدقين (١) قد أبدلك الله خيراً منها »

فغضب النبي (ص) من هذا التوهين فقال لها :

« ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي حين كذبني الناس ، وواستني بما لها حين حرمني الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها .. » (٢)

من رد عليه وتكذيب له مما يحزنه الاخففت عنه وهونت عليه امر الناس وصدقته، ولعظم جهادها في الاسلام بشرها رسول الله ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب ، وكان جبرئيل يحمل لها السلام من الله ، وقال (ص) في حقها : «خير نساء العالمين اربع : مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة ابنة خويلد وفاطمة بنت محمد » وما فتىء رسول الله (ص) يذكرها حتى انه إذا ذبح شاة يتتبع رفيقات خديجة فيهدي لهن من لحمها ، وقد توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل إنها توفيت بعد موت ابي طالب بثلاثة ايام فتتابعت على رسول الله(ص) المصائب بعد فقده لها . توفيت في رمضان وكان عمرها خمسا وستين سنة ودفنت بالحجون ، جاء ذلك في اسد الغابة والاصابة والاستيعاب .

(١) الشدقين : مفرده شدق ـ بالكسر والفتح ـ جانب الفم .

(٢) اسعاف الراغبين المطبوع على هامش نور الابصار ص ٩٦ ، وروى ما يقرب من ذلك في مسند احمد ٦|١٥٠ والاستيعاب واسد الغابة والاصابة في ترجمة خديجة ، وسنن ابن ماجة في باب الغيرة من ابواب النكاح .

لقد واسته خديجة حينما وجـــدت عليه جبابرة قريش ، فوقفت الى جانبه تحميه وتصون دعوته بأموالها الضخمة كما رزق منها الولد ولم يرزقه من غيرها فقد رزق منها سيدة نساء العالمين شبيهة القديسة مريم بنت عمران في عفافها وطهارة ذيلها فاطمة الزهراء عليها السلام التي بتلها الله عن النظير وهو السبب في تسميتها « بالبتول » كما ان السبب في تسميتها بفاطمة ان الله قد فطمها وذريتها من النار (١)

سمو منزلتها :

وادلى الرسول (ص) بعظيم منزلة الزهراء عليها السلام وسمو مكانتها عند الله فقال (ص) مخاطباً لها :

« إن الله يرضى لرضاك ويغضب لغضبك » (٢)

وأخذ بيدها وقال للمسلمين :

« من عرف هـــذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها فهي فاطمة بنت محمد (ص) وهي بضعة مني ، وهي قلبي ، وهي روحي التي بين جنبي

(١) الصواعق المحرقة لابن حجر ص٩٦ وقد جاء فيه ان عليا سأل رسول الله (ص) لم سميت فاطمة ؟ فقال (ص) . «إن الله قد فطمها وذريتها من النار» وذكره الحافظ محب الدين الطبري في ذخائر العقبى ص ٢٦ وجاء فيه ان الامام علي بن موسى الرضا روى الحديث في مسنده ولفظه ان رسول الله (ص) قال : « إن الله عز وجل فطم ابنتي فاطمة وولدها ومن احبهم من النار » وعن ابن عباس (رض) قال : قال رسول الله (ص) إن ابنتي فاطمة حوراء إذ لم تحض ولم تطمث وانما سماها فاطمة لأن الله عز وجل فطمها ومحبيها عن النار ، اخرجه النسائي .

(٢) ذكر في كل من اسد الغابة والاصابة وذخائر العقبى ص ٣٩ .

من آذاها فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » (١)

لقد قرن الرسول راحتها براحته وسعادتها بسعادته ، وقد تظافرت الاخبار التي أثرت عن النبي (ص) بذلك فقد قال (ص) :

« إنما فاطمة شجنة مني (٢) يبسطني ما يبسطها (٣) ويقبضني (٤) ما يقبضها » (٥) .

وروت عائشة عن مدى حفاوته (ص) وتكريمه للزهراء (ع) فقالت : إنها إذا دخلت عليه قام إليها فقبلها ورحب بها وأخذ بيدها فأجلسها في مجلسه (٦) .

وسُئلت عائشة فقيل لها :

ـ أي الناس كان أحب الى رسول الله (ص) ؟

فقالت : فاطمة

فقيل لها ، ومن الرجال ؟

فقالت : زوجها إن كان ما علمت صواما قواماً (٧) .

وأخرج الامام احمد بن حنبل في (مسنده) ان النبي (ص) قال:

(١) نور الابصار ص ٤١ .

(٢) الشجنة : العضو المشتبك والغصن .

(٣) البسط : السرور .

(٤) القبض : الاستياء .

(٥) مستدرك الحاكم ٣|١٥٤ .

(٦) مستدرك الحاكم ٣|١٥٧ ، اسعاف الراغبين ص١٦٩ .

(٧) مستدرك الحاكم ٣|١٥٧ ، وذخائر العقبى ص ٣٥ وجاء فيه زيادة على الرواية جديراً بقول الحق ، وعن بريدة كما في الاستيعاب قال : كان أحب النساء الى رسول الله (ص) فاطمة ومن الرجال علي .

(فداؤها أبوها) قال ذلك ثلاث مرات (١) .

وبلغ من حبه ، وتقديره لها أنه إذا سافر جعلها آخر الناس عهداً به ، وإذا قدم من سفره جعلها أول من يقصده (٢) .

وروى أنس بن مالك أن رسول الله (ص) كان يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر يقول : الصلاة يا أهل البيت ، ويتلو قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت » الآية .

لقد كان كلف النبي (ص) واشفاقه على بضعته الزهراء (ع) فوق كلف الآباء واشفاقهم على أبنائهم (٣) ومن المعلوم الذي لا ريب فيه ان الرسول (ص) لم يمنحها هذا العطف ، ولم يفض عليها هـذا التكريم لأنها ابنته ولا عقب له سواها فان شأن النبوة بعيد كل البعد عن المحاباة والاندفاع بعاطفة الهوى والحب ، وانما صنع ذلك لتشييد الفضيلة

---

(١) الصواعق المحرقة ص ١٠٩ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣|١٥٤ .

(٣) كتب المستشرق « لامنس » في كتابه « فاطمة وبنات محمد » مغالطات وبحوثاً معكوسة يقول عند التحدث عن سيدة النساء فاطمة (ع) ما نصه « ولم يكن شأنها في بيت والدها خطيراً ظاهر الأثر بادي الخطورة ، بل لقد كان خطرها اقل من خطر عائشة وزينب ، وحفصة ، واضاف يقول : ولقد كانت تعامل في بيت والدها معاملة عادية » ان لا منس معروف بعمالته للاستعمار وبحقده على الاسلام ، فمن اي مصدر استنتج منه هذه النتائج ، وقد طفحت الكتب الاسلامية بالاخبار المتظافرة الواردة عن النبي (ص) في سمو منزلتها وعظيم شأنها عنده (ص) وما ذكرناه من الاحاديث السابقة التي اجمع المسلمون على روايتها تدل بوضوح على مدى تكريم النبي لها (ص) ، وانما اراد (لا منس) تشويه الاسلام والحط من اهم شخصياته الرفيعة .

ورفع مستوى القيم الرفيعة فانه (ص) لم يجد في بنات المسلمين ونسائهم من تضارع ابنته في كمالها وعفافها وطهارة ذيلها فقد تجسمت فيها جميع المثل الخيرة من العلم والعبادة والتقوى وغير ذلك من الصفات التي عز وجود بعضها في بنات حواء .

خطبة الامام لها :

ولما أشرفت كريمة الرسول (ص) على ميعة الشباب تشرفت مشيخة الصحابة بمقابلة الرسول (ص) وعرضوا عليه رغبتهم في التشرف بمصاهرته فقد جاء أبو بكر خاطباً فرده (ص) وقال له : « أنتظر بها القضاء » وأعقبه عمر فرده بمثل ما رد به صاحبه (١) ، ولما علم المسلمون أن أمر الزهراء بيد الله تعالى وليس للنبي (ص) أن يبت فيه ، وجموا عن مذاكرته في ذلك ، ومضت فترة من الزمن اجتمع في خلالها نفر من الصحابة بعلي فذكروا له قربه من الرسول (ص) وشدة بلائه في الاسلام ومناصرته للنبي في جميع المواقف والمشاهد ، وحفزوه على خطبة كريمته ليفوز بمصاهرته ويحوز الى شرف جهاده شرف المصاهرة ، فسار (ع) بين احجام واقدام يمشي في خطو متمهل وئيد حتى دخل على النبي (ص) وقد أخذه صمت رهيب (٢) فالتفت (ص) إليه مستفسراً :

(١) طبقات ابن سعد ٨|١١ ، تاريخ الخميس ١|٤٠٧ ذخائر العقبى ص ٢٩

(٢) علل بعض الحاقدين على امير المؤمنين ذلك الصمت انه كان يخاف من النبي (ص) ان يرده لفقره ، وهو تعليل موهوم فان النبي (ص) لا يعني من المسلم الا فضائله وتقواه ولم يعر اي اهتمام للثراء وتضخم الاموال ، ولقد آخى بينه وبين علي مع علمه بفقره ، فقد جاء في مستدرك الحاكم ٣|١٤ وفي الاستيعاب ٣|٣٥ ما نصه : ان رسول الله (ص) لما آخى بين اصحابه جاءه علي (ع) فقال : آخيت

« ما حاجة ابن أبي طالب ؟ »

فغالبه الحياء برهة ثم اجاب :

« ذكرت فاطمة يا رسول الله »

فاجـــابه الرسول والسرور باد على وجهه ، وابتسامة ظاهرة على شفتيه قائلا :

« مرحباً إن الله أمرني أن أزوجك من ابنتي » (١)

وتغمر المسرات قلب الامام بما أراد له الخالق الحكيم من خير الدنيا والآخرة فهـــو ابن عم الرسول (ص) وسيصبح له صهراً ، وورد في بعض التفاسير انه هو المعنى بهذه الآية « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً » (٢) ويلتفت النبي الى أصحابه فيخبرهم بما أمره الله به قائلاً :

« لقد أتاني ملك ، فقال لي : يا نبي الله ، إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : إني زوجت فاطمة من علي في الملأ الأعلى فزوجها منه في الأرض » (٣) .

ويدخل الرسول (ص) على ابنته ، وقـــد اترعت نفسه الشريفة بالافراح فيخبرها بذلك قائلا لها « زوجتك خير أمتي اعلمهم علماً وافضلهم

بين اصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أحد فقال له رسول الله : « أنت اخي في الدنيا والآخرة » الى غـــير ذلك من الاخبار التي دلت على أنه نفس النبي (ص) وانه اخوه ووصيه ووزيره وخليفته من بعده على امته ولم يحز الامام هذه المنزلة الا الا لعظيم اتصاله بالله .

(١) نور الابصار ص ٤٢ كنز العمال ٦|٢١٨ ، المستدرك ٣|١٥٣ .

(٢) مجمع البيان ٩ | ١٧٥ طبع بيروت .

(٣) ذخائر العقبى ص ٣٢ .

حلماً وأوهم سلماً » (١) .

ويقول لها مرة اخرى .

« يا فاطمة ، أما علمت أن الله عز وجل اطلع على اهل الارض ، فاختار منهم أباك فبعثه نبيا ، ثم اطلع ثانية فاختار بعلك فاوحي إلي فانكحته ، واتخذته وصياً . . » (٢)

ويقول لها :

« إنه لأول أصحابي اسلاما أو أقدم أمتي سلما ، وأكثرهم علما وأعظمهم حلما » (٣) .

ومع توفر هذه المثل الرفيعة والقيم العليا في شخصية الامام (ع) كيف لا يزوجه الرسول (ص) من كريمته التي لا كفؤ لها في المسلمين سوى أمير المؤمنين كما جاء بذلك الحديث الشريف « لو لم يخلق علي ما كان لفاطمة كفؤ » (٤) .

المهر :

وأنبرى الرسول (ص) وقد غمرته موجات من السرور الى الامام قائلا له :

« ما عندك من المهر ؟ »

اجابه الامام أنه لا يملك شيئاً من متع الدنيا سوى فرسه ، ودرعه ، وكانت الدرع مما أفاء الله بها عليه من غنائم بدر ، فقال له النبي (ص) :

(١) اخرجه الخطيب في المتفق والسيوطي في جمع الجوامع ٦/٣٩٨ .

(٢) كنز العمال ٦/١٥٣ .

(٣) مسند أحمد ٥/٢٦ ، مجمع الزوائد ٦/١٠١ ، الرياض النضرة ٢/١٩٤ .

(٤) كنوز الحقائق للمناوي ص ١٢٤ ، من لا يحضره الفقيه ٣/٢٤٩ .

« أما فرسك فلابد لك منها ، وأما درعك فبعه » .

وانطلق الامام الى السوق فباع درعه باربعمائة وثمانين درهماً ، وجاء بالثمن معقوداً في طرف ثوبه (١) فوضعه بين يدي الرسول (ص) وقد غلبه الحياء حيث يعلم ان هذا المهر هو اقل ما يبذله الفقراء مهراً لازواجهم ولكن الرسول (ص) أحب مصاهرته لا لشيء من حطام الدنيا ولا لغير ذلك مما يؤل أمره الى التراب بل انما خصه بهذه المكرمة لأنه الفرد الاول في أمته الذي امتاز على غيره بسبقه الى الاسلام (٢) وجهاده عن حياض هذا الدين بالاضافة الى عبقرياته الاخرى التي لا تتوفر بعضها في أي انسان .

الجهاز :

وعندما قبض الرسول (ص) المهر ناول بعضاً منه بلالاً ليشتري شيئاً من الطيب والروائح وناول بعضه الآخر سلمان وأم سلمة ليشتريا بقية الأثاث ، وما هي إلا ساعة حتى تم جهاز العرس وكان إهاب كبش إذا ارادا أن يناما قلباه على صوفه ، ووسادة من أدم حشوها ليف (٣)

---

(١) كنز العمال ٧|١٤ ، وجاء في تأريخ الخميس ١|٤٠٧ انه باع بعيراً له وبعض أمتعته وأعطاه مهرا وهو مخالف لما عليه المشهور من أنه باع درعه واعطى ثمنه مهراً لفاطمة .

(٢) جاء في كل من المستدرك ٣|١١٢ و الاستيعاب ٣|٣١ أنه بعث النبي (ص) يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء ، وكذا جاء في غيرهما من المصادر وقد اجمع المسلمون انه اول من اسلم وآمن بالرسول (ص) .

(٣) الطبقات الكبرى ٨|١٤ رواه بسنده عن جعفر بن محمد عن ابيه (ع)

وسريراً مشروطاً (١) ورحيين وسقاء وجرتين (٢) وغير ذلك مما هو زهيد في باديء الرأي ولكنه في نظر الاسلام أثمن من الجوهر واعلى من الأمتعة الثمينة التي توجد عند الملوك وذوي الثراء العريض، وقد استنتج المستشرق الانكليزي «لامنس» من هذا الجهاز المقدس نتيجة معكوسة يقول:

«وبالاحرى أن هذا الجهاز الذي أمر به محمد (ص) دليل على الكراهية التي في نفس محمد (ص) لابنته فاطمة وازوجها وكانت كراهيته له لا تقل عنها» (٣)

ولحقد «لامنس» على الاسلام وجهله بحكم تشاريعه استنتج ذلك فقد اعتقد أن مظاهر الحب من الوالد تجاه ولده تتجلى فيما اذا اكثر له من ملاذ الحياة ونعيمها ومباهجها، ولم يعلم أن مقام الرسول (ص) اسمى من أن يخضع لعاطفة الحب التي تجر إلى زخارف الحياة، فانه في عمله هـذا كان في مقام التشريع والتأسيس لأهم نقطة حيوية في الاسلام تبتنى عليها سعادة المسلمين وهي تسهيل الزواج وعدم تعقيده بزيادة المهر، فان المهر الذي ارتضاه لابنته، وهذا الجهاز الزهيد الذي هيأه لها مع أنها أعز ابنائه وبناته انما هو سنة من نظامه الرفيع الخالد الذي كره المغالاة في المهر فان

---

(١) مشروطاً: اي مشدوداً بشريط، وهو خوص مفتول ـ يشرط، اي: يشد ويربط به السرير والرواية ذكرها ابو نعيم في حلية الاولياء ٣/٣٢٩ رواها بسنده عن عكرمة.

(٢) مسند احمد بن حنبل ١/١٠٤، كنز العمال ٧/١١٣، وجاء في مستدرك الحاكم ٣/١٨٥ قال جهز رسول الله (ص): فاطمة في خميل وقربة ووسادة حشوها ليف، وجاء في ذخائر العقبى ص٣٥ ان علياً (ع) قال: لقد تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش غير جلد كبش تنام عليه بالليل و نعلف عليه الناضح بالنهار.

(٣) فاطمة و بنات محمد.

زيادته تمنع الفقراء والبؤساء من الاقتران ، ولهذه الغاية النبيلة قال (ص) : « أفضل نساء امتي أقلهن مهراً » (١) ويقول الامام موسى بن جعفر عليه السلام : كان الرجل على عهد رسول الله يتزوج المرأة على السورة من القرآن وعلى الدرهم وعلى الحنطة ، القبضة (٢) وقد زوج (ص) أحد أصحابه وجعل صداق زوجه تعلم سورة من القرآن الكريم (٣) ، لقد حثت الشريعة الاسلامية على الزواج وتساهلت في صداقه ، والغت التفاضل بين الزوجين ، وجعلت المسلم كفء المسلمة ، والحكمة في ذلك هو قمع الفساد والقضاء على البغاء ، وتكثير النسل ، وقد خفيت هذه العلل والاسباب على « لامنس » الذي لا ينظر الى الاشياء الا من زاوية المادة فاستنتج النتيجة السالفة على غير هدى جاهلا بالنظم الاسلامية الداعية الى سعادة المجتمع ودفع الشقاء عنه .

خطبة العقد :

ولما تم شراء الجهاز دعا رسول الله (ص) جماعة من المهاجرين والانصار لحضور مجلس العقد فلما مثلوا عنده اجرى (ص) خطبة النكاح وهذا نصها :

« الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المرهوب من عذابه وسطواته ، النافذ أمره في سمائه وارضه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وآله إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة سبباً لاحقاً وأمراً مفترضاً

---

(١) من لا يحضره الفقيه ٣|٢٤٣ .

(٢) تهذيب الاحكام ٧|٣٦٦ .

(٣) صحيح مسلم ١|٥٤٥ .

او شجّ به الارحام والزمها الأنام ، فقال عزّ من قائل : « وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا » وأمر الله يجري الى قضائه ، وقضاؤه يجري إلى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » ثم ان الله عز وجل أمرني أن ازوج فاطمة من علي ، وأشهدكم أني زوجت فاطمة من علي على اربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما ، وبارك لهما ، وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . . »

ولم يكن الامام حاضراً مجلس العقد ، وإنما كان في حاجة لرسول الله (ص) وحينما انتهت خطبة العقد دخل امير المؤمنين على النبي (ص) فلما رآه تبسم وقال له :

« يا علي ، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة ، واني قد زوجتكها على اربعمائة مثقال فضة » فقال امير المؤمنين : رضيت ، وخر (ع) ساجداً لله شاكراً له ، ولما رفع رأسه من السجود قال (ص) : « بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما واخرج منكما الكثير الطيب » (١)

وأمر الرسول (ص) أن يقدم للمدعوين وعاء فيه بسر ، وقال لهم : « انتهبوا فتخاطف المدعوون منه (٢) وبعد الفراغ تفرقوا وهم يدعون للزوجين بالسعادة والهناء والذرية الطاهرة .

---

(١) نور الابصار ص٤٢ وذكرت مع اختلاف يسير في الرياض النضرة ١٨٣/٢ وذخائر العقبى ص ٢٩ وغيرها .

(٢) ذخائر العقبى ص٣٠ ، الرياض النضرة ١٨١/٢ .

الوليمة :

ولما حانت ليلة اقتران النورين قال رسول الله (ص) وقد غمرته الافراح :

يا علي : لابد للعروس من وليمة

فانطلق سعد بن عبـــادة فتبرع بكبش وتبرع الانصار باصوع من ذرة (١) ودعي المسلمون لتناول طعام العشاء وتقول اسمـــاء : ما كانت وليمة في ذلك الزمان أفضل من وليمة علي (٢) وقام المدعوون فتناولوا الطعام ، وبعد الفراغ منه اقبلوا يهنئون الامام ويباركون له .

الزفاف :

وطلب النبي (ص) من أم سلمة أن تذهب بكريمته الى دار أمير المؤمنين فمضت أم سلمة مع حفنة من النساء تقدمهن أمهات المؤمنين قد زففن الصديقة الطاهرة الى بيت الامـــام وهن يرتلن الاهازيج والأشعار ، وبعد ما فرغ الرسول (ص) من صلاة العشاء انطلق الى دار علي فاستقبلته أم أيمن فقال لها بصوت فياض بالبشر :

« ها هنا أخي ؟ »

وملكت الدهشة أم أيمن فراحت تقول :

---

(١) طبقات ابن سعد ١٣/٨ اسد الغابة ٥٢١/٥ وفي كنز العمال ١١٤/٧ ان رسول الله (ص) قال : لابد للعروس من وليمة ثم امر بكبش فجمعهم عليه .

(٢) طبقات ابن سعد ١٤/٨ وجاء في الرياض النضرة ١٨٢/٢ عن جابر قال : حضرنا عرس علي فما رايت عرساً كان احسن منه حشونا البيت طيباً وأتينا بتمر وزيت فاكلنا منه .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! . . . فمن أخوك ؟ »

« علي بن أبي طالب »

« وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ »

« هو ذلك يا أم أيمن »

ودخل النبي (ص) فنهض الزوجان تكريماً واجلالا له فالتفت إلى فاطمة وأمرها بأن تناوله ماءاً فاحضرت له قعباً فيه ماء فاخذه ومج فيه وقال لها : قومي فنضح بعض ذلك المـــاء على ثدييها (١) ورأسها وهو يرفع صوته بالدعاء الى الله .

« اللهم ، إني اعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم »

وقال لعلي : عليّ بماء ، فاحضره له فاخذ منه شيئاً ثم مجه فيه وصبه على رأسه وانطلق يدعو له :

« اللهم : إني اعيذه بك وذريته من الشيطان الرجيم »

ثم قال له ادبر فادبر وصب بقية ذلك المـــاء بين كتفيه ، ودعا له وقال له : ادخل باهلك باسم الله والبركة (٢) وانصرفت النسوة إلى منازلها وتخلفت أسماء بنت عميس فقال لها (ص) : « من أنت ؟ »

« أنا التي أحرس ابنتك ، إن الفتاة ليلة بنائها لابد لهـــا من امرأة قريبة منها ، إن عرضت لها حاجة أو ارادت أمراً أفضت بذلك إليها . . »

فشكر النبي (ص) ذلك منها وانطلق يوافي ابنته بدعائه :

« إني اسأل الهي أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم . . . »

وقام النبي (ص) فاغلق الباب بيده وانصرف وهو يدعو لها خاصة

---

(١) وفي رواية فصب الماء بين يديها .

(٢) كنز العمال ٧|١١٤ .

لا يشرك أحداً في دعائه حتى توارى في حجرته (١) وكان تأسيس هذا البيت الجديد في السنة الثانية من الهجرة (٢) . ويمتد الزمن بعد زواج الإمام عليه السلام والعيش هادىء ، والحياة البيتية كل يوم في سرور قد غمرتها المودة والوداعة ، وبذل المعونة وترك الكلفة واجتناب هجر الكلام ومره ، فكان الامام يشارك زوجته في شؤونها البيتية ويعينها بما تحتاج إليه فكانت حياتهما أسمى مثل للرابطة الزوجية الرفيعة .

وفي فترات تلك المدة السعيدة عرض للصديقة (ع) حمل وكان الرسول يبشر بطلائعه وأنه غلام وذلك حينما جاءت اليه أم الفضل تطلب منه تفسير رؤياها (٣) قائلة له يا رسول الله (ص) إني رأيت

---

(١) مجمع الهيثمي ٦/٢٠٧ .

(٢) تأريخ الخميس ج ١ ص٤٠٧ جاء فيه ان علياً تزوج في السنة الثانية في رمضان و بنى بها في ذي الحجة ، وذكر المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص١٨٧ ان تزويج الامام عليه السلام بفاطمة كان بعد سنة من الهجرة وقيل اقل من ذلك وكان عمر الامام علي عليه السلام في ذلك الوقت إحدى وعشرين سنة وخمسة اشهر وعمر الصديقة عليها السلام خمس عشرة سنة وخمسة اشهر كما ذكر ذلك ابن حجر في المواهب اللدنية ج ١ ص ٢٥٧ وذكر المسعودي في مروج الذهب ج١ص٤٠٣ ان عمر الزهراء عليها السلام كان ثماني عشرة سنة وعلي عليه السلام عمره خمس عشرة سنة وجاء هذا ايضاً في طبقات الصحابة ج ٨ ص١٣ وجاء في البحار ج١٠ ص٤ ان عمرها الشريف كان عشر سنين وانها توفيت وعمرها ثماني عشرة سنة .

(٣) ام الفضل : هي زوجة العباس بن عبد المطلب واسمها لبابة وهي بنت الحارث الهلالية وهي اول امرأة آمنت بعد خديجة (رض) وهي شقيقة ميمونة زوجة النبي (ص وهي إحدى الراويات عن النبي كذا جاء في الاصابة ج ٤ص٤٨٣ وفي الاستيعاب المطبوع على هامش الاصابة ج ٤ ص ٣٩٨ ، ان النبي (ص) كان

في المنام أن عضواً من أعضائك سقط في بيتي ، فقال لها (ص) : خيراً رأيت تلد فاطمة غلاماً فترضعيه بلبن قثم (١) .

وكان المسلمون آنذاك ينتظرون بفارغ الصبر وخصوصاً الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ساعة ولادة الصديقة شوقاً الى المولود المبارك لتطيب به للأمام (ع) ولزوجته الحياة وتظللها السعادة ، ونختم الفصل لنستقبل الوليد الجديد .



يزورها ويقيل عندها وروت عنه احاديث كثيرة ، وقد ولدت ام الفضل للعباس ست رجال لم تلد امرأة مثلهم وهم الفضل وبه كانت تكنى ويكنى زوجها العباس ايضاً ابا الفضل ، وعبد الله الفقيه ، وعبيد الله الفقيه ، ومعبد ، وقثم ، وعبد الرحمن ، وام حبيبة سابعة ، وفي ام الفضل يقول عبد الله بن يزيد الهلالي :

ما ولدت نجيبة من فحل　　　بجبل نعلمه وسهل
كستة من بطن ام الفضل　　　اكرم بها من كهلة وكهل
عم النبي المصطفى ذي الفضل　　　وخاتم الرسل وخير الرسل

(١) تأريخ الخميس ج ١ ص ٤١٨ جاء فيه ان الحسن (ع) لما ولد ارضعته ام الفضل ، وفي الأصابة ج ٤ ص ٤٨٤ ان الرؤيا التي قصتها ام الفضل كانت قبل ولادة الحسين (ع) فلما ولد ارضعته .

الوليدُ الجديد

أطل على العالم الاسلامي نور الامامة من بيت أذن الله أن يرفع ، ويذكر فيه اسمه ، وانبثق من دوحة النبوة والإمامة فرع طيب زاك رفع الله به كيان الاسلام ، وأشاد به صروح الايمان ، وأصلح به بين فئتين عظيمتين .

لقد استقبل حفيد الرسول (ص) وسبطه الاكبر سيد شباب أهل الجنة دنيا الوجود في شهر هو أبرك الشهور وأفضلها حتى سُمي شهر الله ، وهو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ، وكان ذلك في السنة الثانية ، أو الثالثة من الهجرة (١) وقد شوهدت في طلعة الوليد طلعة الرسول (ص) وبدت فيه شمائل النبوة ومحاسن الإمامة .

---

(١) الاصابة ج ١ ص ٣٢٨ ، الاستيعاب ج ١ ص ٣٦٨ تأريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٣ ، دائرة المعارف للبستاني ج ٧ ص ٣٨ . ذكر هؤلاء انولادته عليه السلام كانت في السنة الثالثة من الهجرة في النصف من شهر رمضان ، وجاء في شذرات الذهب ج١ ص١٠ ان ولادته كانت في الخامس من شهر شعبان . وهو اشتباه ظاهر ولعله اشتبه بالامام الحسين (ع) فانولادته كانت في الخامس من شهر شعبان وذهب جماعة ان ولادته « ع » كانت في السنة الثانية من الهجرة ، وجاء في مرآة العقول ص٣٩٠ ما نصه : إن التحقيق انه لا منافاة بين تأريخي الولادة لأن كلامبنى على اصطلاح في مبدأ التأريخ غير الاصطلاح الذي عليه بناء الآخر وتفصيله ان فيه ثلاث اصطلاحات « الأول » : ان يكون مبدؤه في شهر ربيع الأول فان الهجرة إنما كانت فيه ، وبناء الصحابة عليه إلى سنة ستين ورواية ان الحسن ولد سنة اثنتين من الهجرة محمول على هذا المبنى . « الثاني » ان يكون مبدؤه شهر رمضان السابق على شهر ربيع الأول الذي وقعت فيه الهجرة لأنه اول السنة الشرعية ورواية ان الحسن (ع) ولد سنة ثلاث مبنى على هذا . « الثالث » : ما اخترعه عمر وهو ان مبدأه المحرم انتهى .

وما افاده صاحب « مرآة العقول » رافع للتعارض بين القولين واما ما افاده

ولما أذيع نبأ ولادة الصديقة بالمولود المبارك غمرت موجات من السرور والفرح قلب النبي (ص) فسارع إلى بيت ابنته - أعز الباقين، والباقيات عليه من ابنائه - ليهنئها بمولودها الجديد ويبارك به لأخيه امير المؤمنين، ويفيض على المولود شيئاً من مكرمات نفسه التي طبق شذاها العالم باسره

ولما وصل (ص) الى مثوى الامام نادى:

« يا أسماء: هاتيني ابني ... »

فانبرت أسماء، ودفعته إليه في خرقة صفراء فرمى بها.

وقال:

« الم أعهد إليكم أن لا تلفوا المولود في خرقة صفراء؟ »

وقام (ص) فسرأه، وألباه بريقه (١) وضمه إلى صدره، ورفع يديه بالدعاء له.

الاستاذ محمد فريد وجدي في « دائرة المعارف ج ٣ ص ٤٤٣ » ان ولادة الحسن عليه السلام كانت قبل الهجرة بست سنين فهو مخالف لاجماع المؤرخين فانه قبل الهجرة لم يكن الامام امير المؤمنين متزوجاً بالصديقة كما اوضحنا ذلك، واما كيفية ولادة الصديقة بالامام (ع) فقد جاء بيانها في تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٧٠ انه لما حان وقت ولادتها بعث اليها رسول الله (ص) اسماء بنت عميس وام ايمن فقرأتا عليها آية الكرسي والمعوذتين وحدثت اسماء فقالت: قبلت فاطمة بالحسن (ع) فلم أر لها دما فقلت يا رسول الله إني لم أر لفاطمة دما في حيض ولا نفاس فقال (ص) اما علمت ان فاطمة طاهرة مطهرة لا يرى لها دم في طمث ولا ولادة، وكانت مدة حملها به ستة اشهر، وذهب صاحب « الفصول المهمة » الى خلافه وعليه فلم يولد مولود عمره ستة اشهر فعاش إلا عيسى بن مريم عليه السلام كما ذكر ذلك فقيد العلم الأميني رحمه الله في « اعيان الشيعة ج ٤ ص ٣ ».

(١) سرأه: قطع سرته، ألباه بريقه، مأخوذ من اللباء، وهو اول اللبن عند الولادة، والمراد انه « ص » اطعمه بريقه كما يطعم الصبي اللباء.

« اللهم : إني أعيذه بك ، وذريته من الشيطان الرجيم . . » (١)

سنن الولادة :

واخذ (ص) بإجراء مراسيم الولادة وسننها على مولوده المبارك وهي :

١ ـ الأذان والإقامة :

وأذن (ص) في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى (٢) وفي الخبر « ان ذلك عصمة للمولود من الشيطان الرجيم » (٣) .

همسة رائعة همس بها خير بني آدم في أذن وليده ، ليستقبل عالم الوجود باسمى ما فيه ، فاي بداية منح بها الانسان افضل من هذه البداية التي منح بها السبط الاكبر ؟ ! فان اول صوت قرع سمعه هو صوت جده الرسول (ص) علة الموجودات ، وسيد الكائنات ، وأنشودة ذلك الصوت .

« الله اكبر لا اله الا الله . »

بهذه الكلمات المنطوية على الإيمان بكل ماله من معنى يستقبل بها الرسول (ص) سبطه فيغرسها في اعماق نفسه ، ويغذي بها مشاعره ، وعواطفه لتكون انشودته في بحر هذه الحياة .

٢ ـ التسمية :

والتفت (ص) إلى أمير المؤمنين ، وقد أترعت نفسه العظيمة بالغبطة والمسرات فقال له :

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ٧/٣٨ .

(٢) مسند الامام احمد بن حنبل ٦/٣٩١ ، صحيح الترمذي ١/٢٨٦ ، صحيح أبي داود ٣٣/٢١٤ ، وقيل إنه لم يفعل ذلك بنفسه ، وإنما اوعز إلى اسماء بنت عميس وام سلمة أن تفعلا ذلك به ساعة الولادة ذكره الشبلنجي في نور الابصار ص١٠٧ .

(٣) الجواهر كتاب النكاح .

« هل سميت الوليد المبارك ؟ »

فأجابه الامام :

« ما كنت لاسبقك يا رسول الله . »

وانطلق النبي (ص) فقال له :

« ما كنت لأسبق ربي . . »

وما هي الا لحظات وإذا بالوحي يناجي الرسول ، ويحمل له « التسمية » من الحق تعالى يقول له جبرئيل : « سمه حسناً » (١) .

---

(١) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٧٠ وجاء فيه ان امين الوحي جبرئيل هبط على النبي (ص) فقال له : إن ربك يقرؤك السلام ويقول لك علي منك بمنزلة هارون من موسى ولكن لا نبي بعدك فسم ابنك هذا باسم ولد هارون ، فقال له (ص) وما كان إسم ابن هارون يا جبرئيل ؟ فقال شبر فقال له (ص) : إن لساني عربي فقال : سمه الحسن ففعل (ص) ذلك .

وقريب من هذا ذكره العاملي رحمه الله في « اعيان الشيعة » وجاء في « اسد الغابة » ، وتاريخ الخميس ج ١ ص ٤٧٠ ان إسم الحسن لم يكن معروفاً في الجاهلية وجاء في تأريخ الخميس ان رسول الله اسماه بهذا الاسم في اليوم السابع من ولادته ، وهذا القول بعيد لأن التسمية وقعت عقيب الولادة بلا فصل كما ذهب إليه كافة المؤرخين ، وجاء في الاستيعاب ج ١ ص ٣٦٨ ، وفي الأدب المفرد ص ١٢٠ انه لما ولد الحسن عليه السلام جاء رسول الله « ص » فقال اروني ابني فما اسميتموه ؟ قالوا حرباً ، فقال « ص » بل هو حسن ، فلما ولد الحسين قال اروني إبني فما اسميتموه ؟ قالوا حرباً ، فقال «ص» بل هو حسين ، فلما ولد الثالث قال ما اسميتموه ؟ قالوا حرباً ، فقال «ص» بل هو محسن ، ثم قال صلى الله عليه وآله إني سميتهم باسماء ولد هارون شبر وشبير ، ويمكن ان يقال إن هذه الرواية موضوعة ، اولا إن العداء بين الهاشميين وآل حرب غير خفي فما هو المحبذ لآل البيت بتسمية ابنائهم باسم حرب الذي ينتمي

حقاً إنه إسم من أحسن الأسماء وكفى به جمالا وحسناً أن الخالق الحكيم هو الذي اختاره ليدل جمال لفظه على جمال المعنى وحسنه .

٣ ـ العقيقة :

وانطوت سبعة أيام على ولادة حفيد الرسول (ص) فاتجه (ص) إلى بيت الإمام (ع) ليقوم ببعض التكريم والاحتفاء فجاء بأقصى ما عنده من البر والتوسعة فعق عنه بكبش واحد (٢) واعطى القابلة منه الفخذ وصار فعله هذا سنة لأمته من بعده .

٤ ـ حلق رأسه :

وحلق (ص) رأس حفيده بيده المباركة ، وتصدق بزنته فضة على

اليه الأمويون . وثانياً إن إعراض الرسول « ص » عن اسم حرب حين ولادة الحسن « ع » هو كاف في إعراض آل البيت عن تسمية الحسين والمحسن بهذا الأسم ، وثالثاً إن المحسن لم يولد في حياة الرسول « ص » فهذه الامور تبعد صحة الرواية التي ذكرها صاحب « الاستيعاب » وغيره وروى احمد بن حنبل في مسنده عن علي « ع » انه قال : لما ولد لي الحسن سميته باسم عمي حمزة ولما ولد الحسين سميته باسم اخي جعفر فدعاني رسول الله « ص » فقال إن الله قد امرني ان اغير إسم هذين فسماهما حسناً وحسيناً ، وهذه الرواية ايضاً ضعيفة فان الرسول « ص » اسمى حفيديه عقيب ولادتهما ولم يذهب احد الى ما ذكره الامام احمد .

(١) العقيقة في اللغة صوف الجذع وشعر كل مولود من الناس وهي مأخوذة من العق وهو الشق والقطع سمي الشعر المذكور بذلك لأنه يحلق عنه والعقيقة من المستحبات الأكيدة وذهب بعض الفقهاء الى وجوبها ، وقال « ص » حين ذبحها بسم الله عقيقة عن الحسن اللهم عظمها بعظمه ولحمها بلحمه اللهم اجعلها وقاءاً لمحمد وآله .

(٢) تاريخ الخميس ج ١ ص ٤٧٠ مشكل الآثار ١|٤٥٦ ، الحلية ٧|١١٦ ، صحيح الترمذي ١|٢٨٦ ، اعيان الشيعة ج ٤ ص ١٠٨ ، وذكر الشبلنجي في نور الابصار

المساكين (١) وطلى رأسه بالخلوق (٢) حقا لم نر حنانا مثل هذا الحنان ، ولا عطفاً يضارع هذا العطف .

٥ ـ الختان :

واجرى (ص) عليه الختان في اليوم السابع من ولادته (٣) لأن ختان الطفل في ذلك الوقت اطيب له وأطهر (٤) .

٦ ـ كنيته :

وكناه النبي (ص) أبا محمد (٥) ولا كنية له غيرها ، وبهذا

والطحاوي في مشكل الآثار ١|٤٥٦ ، والحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٢٣٧ ان رسول الله صلى الله عليه وآله عق عن الحسن والحسين عن كل واحد بكبشين وهذه الرواية ضعيفة فقد طعن بها شمس الدين الذهبي في تلخيص المستدرك المطبوع على هامش مستدرك الحاكم ج ٤ ص ٢٣٧ فقال إن راويها سوار وهو ضعيف الرواية هذا اولا وثانياً ان أئمة الفقه لم يذكروا في تشريع العقيقة إلا واحدة .

(١) تاريخ الخميس ١|٤٧٠ ، نور الابصار ص ١٠٧ صحيح الترمذي ١|٢٨٦ وجاء فيها ان زنة شعره كانت درهما او بعض درهم .

(٢) الخلوق : طيب مركب من زعفران وغيره ، وفي البحار ١٠|٦٨ ان العادة في الجاهلية كانوا يطلون رأس الصبي بالدم ، فقال صلى الله عليه وآله : الدم من فعل الجاهلية ، ونهى اسماء عن فعل ذلك .

(٣) نور الابصار : ص ١٠٨ .

(٤) جواهر الاحكام كتاب النكاح ، وجاء فيه ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : طهروا اولادكم يوم السابع فانه اطيب ، واطهر ، واسرع لنبات اللحم ، وان الارض تنجس من بول الأغلف اربعين يوماً .

(٥) اسد الغابة ٢|٩ ، والكنية هي ان تصدر بأب او ام ، وهي من سنن الولادة فعن الامام محمد الباقر عليه السلام : إنا لنكني اولادنا في صغرهم مخافة النبز ان يلحق بهم .

أنتهت جميع مراسيم الولادة التى قام النبي (ص) بها لسبطه الأكبر .

ألقابه :

ولقب (ع) بالسبط : والزكي ، والمجتبى ، والسيد ، والتقي .

ملامحه :

أما ملامحه ، فكانت تحاكي ملامح جده الرسول (ص) فقد حدث أنس ابن مالك قال : لم يكن أحـد أشبه بالنبي من الحسن بن علي (١) وقد صور رواة الأثر صورته بما ينطبق على صورة جده (ص) فقالوا : إنه كان ابيض مشرباً بحمرة ادعج العينين (٢) ذا وفرة (٣) عظـيم الكراديس (٤) بعيد المنكبين (٥) جعد الشعر (٦) كث اللحية (٧)

---

(١) فضائل الاصحاب : ص ١٦٦ ، وفي صحيح الترمذي ٢|٣٠٧ عن علي عليه السلام قال : الحسن اشبه برسول الله صلى الله عليه وآله ما بين الصدر الى الراس ، والحسين اشبه بالنبي صلى الله عليه وآله ما كان اسفل من ذلك ، وفي الاصابة عن البهي قال : تذاكرنا من أشبه النبي صلى الله عليه وآله من اهله فدخل علينا عبد الله بن الزبير ، فقال : انا احدثكم باشبه اهله به ، واحبهم إليه الحسن بن علي ، ورواه الهيثمي في مجمعه ٩|١٧٥ ، وفي المحبر ص٤٦٩ ان فاطمة عليها السلام كانت ترقص ولدها الحسن وتقول له : وا بأبي شبه ابي غير شبيه بعلي

(٢) الادعج : شدة في سواد العين مع سعتها .

(٣) الوفرة : الشعر السائل على الأذنين ، او هو الشعر المجتمع على الراس.

(٤) الكراديس : جمع مفرده الكردوسة ، وهي كل عظمين إلتقيا في مفصل او العظم الذي يجتمع عليه اللحم ، والمراد ضخم الاعضاء .

(٥) المنكبين تثنية منكب ، وهو مجتمع راس الكتف والعضد .

(٦) الجعد : الشعر الذي فيه التواء ، وتقبض ، وهو خلاف المسترسل .

(٧) كث اللحية : قصرها مع كثرة شعرها .

كأن عنقه إبريق فضة (١) وهذه الأوصاف تضارع أوصاف النبي (ص) حسب ما ذكره الرواة من أوصافه (ص) ، وكما شابه جده في صورته فقد شابهه وماثله في اخلاقه الرفيعة (٢) .

رأى النبي (ص) أن سبطه الحسن (ع) صورة مصغرة عنه ، يضارعه في أخلاقه ، ويحاكيه في سمو نفسه ، وانه قبس من سناه ، يرشد أمته من بعده الى طريق الحق ، ويهديها إلى سواء السبيل ، واستشف (ص) من وراء الغيب أن كل ما يصبو إليه في هذه الحياة من المثل العليا سيحققه على مسرح الحياة ، فافرغ عليه أشعة من روحه العظيمة ، وقابله بالعناية والتكريم ، وأفاض عليه حنانه وعطفه ، من حين ولادته ونشأته ، وسنقدم عرضاً مفصلا لإلوان ذلك التكريم والاحتفاء الذي صدر من النبي (ص) تجاه الحسن في حال طفولته وصباه .



(١) تأريخ الخميس ١|١٧١ ، وذكر البستاني في دائرة المعارف ٧|٣٨ بعض هذه الاوصاف .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢|٢٠١ ، وعن الغزالي في احياء العلوم ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال للحسن : « اشبهت خلقي وخلقي » .



ذكاءٌ وعبقريةٌ

ومما لاشبهة فيه أن للتربية الصالحة أهمية كبرى في تكوين الطفل ، وتنمية مداركه ، كما أن سلوك الوالدين لهما الأثر الفعال في نمو ذكائه ، وفي سلوكه العام ، وطفولة الامام الحسن (ع) قد التقت بها جميع هذه العناصر الحية ، فالرسول (ص) تولى تربية سبطه ، وافاض عليه بمكرمات نفسه ، والامام أمير المؤمنين (ع) غذاه بحكمه ومثله ، والعذراء القديسة أفضل بنات حواء قد غرست في نفس وليدها الفضيلة والكمال ، وبذلك سمت طفولته فكانت مثالا للتكامل الانساني ، وعنوانا للسمو والتهذيب ، ورمزاً للذكاء والعبقرية .

لقد ذهب بعض علماء النفس إلى أن الطفل في اصغر مايلزمه من العادات ، وفي أهم الخصائص العقلية ، والخلقية ، وفي الموقف العام الذي يقفه من الناس ، وفي وجهة النظر العامة التي ينظر بها إلى الحياة أوالعمل في كل هذه الأشياء مقلد إلى حد كبير ، وقد يكون التقليد أحيانا شعوريا مقصودا ، ولكنه في أغلب الحالات يكون لاشعوريا ، فاذا منح الطفل بتقليده الأشخاص المهذبين ظل متأثرا باخلاقهم وعواطفهم ، وإن هذا التأثير في أول الأمر يعتبر تقليداً ، ولكنه سرعان ما يصبح عادة ، والعادة طبيعة ثانية ، والتقليد هو أحد الطريقين اللذين تكتسب بهما الخصائص الفردية ، وتتكون بهما الأخلاق الشخصية (١) .

إن الامام الحسن (ع) على ضوء هذا الرأي ، هو الفرد الاول في خصائصه العقلية ، والخلقية لأنه نشأ في بيت الوحي ، وتربى في مدرسة التوحيد ، وشاهد جده الرسول (ص) الذي هو اكمل انسان ضمه هذا الوجود ، يقيم في كل فترة من الزمن صروحا للعدل ، ويشيد دعائم الفضيلة والكمال ، قد وسع الناس باخلاقه ، وجمعهم على كلمة التوحيد وتوحيد

---

(١) علم النفس في الحياة لماندر .

الكلمة ، فتأثر السبط بذلك ، وانطلق يسلك خطى جده في نصح الناس وارشادهم فقد اجتاز مع أخيه سيد الشهداء (ع) ، وهما في دور الطفولة على شيخ لا يحسن الوضوء ، فلم يدعهما السمو في النفس ، وحب الخير للناس أن يتركا الشيخ على حاله لا يحسن وضوءه ، فاحدثا نزاعا صوريا أمامه ، وجعل كل منهما يقول للآخر : أنت لا تحسن الوضوء ، والتفتا إلى الشيخ باسلوب هادىء وجعلاه حاكما بينهما قائلين له :

« ياشيخ ، يتوضأ كل واحد منا أمامك ، وانظر أي الوضوئين أحسن؟ »

فتوضآ أمامه ، وجعل الشيخ يمعن في ذلك فتنبه إلى قصوره ، والتفت إلى تقصيره من دون أن يأنف فقال لهما :

« كلاكما ، ياسيدي : تحسنان الوضوء ، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لا يحسن ، وقد تعلم الآن منكما ، وتاب على يديكما ... » (١)

وهذه البادرة ترينا بوضوح ان اتجاه الرسول (ص) في هداية الناس بالطرق السليمة والاخلاق الرفيعة قد انطبعت في ذهن الامام الحسن عليه السلام وهو في دور الصبا حتى صارت من خصائصه ومن طبائعه

لقد ذهب بعض علماء النفس إلى وراثة الخلق الفردي ، وان لها أثرا مهما في تكوين اخلاق الشخص وأنها لاتقل أهمية عن التقليد ، يقول « هكسلي » :

« مامن أثر أو خاصة لكائن عضوي الا ويرجع كلها الى الوراثة ، أو إلى البيئة ، فالتكوين الوراثي يضع الحدود ، لما هو محتمل ، والبيئة تقرر أن هذا الاحتمال سيتحقق ، فالتكوين الوراثي ليس الا القدرة على التفاعل مع أية بيئة بطريق خاص .. » .

وقد أيد هذه النظرية (جنجز) فقال : « إن كل انسان لديه

(١) البحار ١٠/٨٩ .

قوى موروثة كامنة ، ولكن اظهار أية واحدة يقف على الظروف التي تحيط بهذه القوى عند نموها » .

وقاعدة الوراثة تقضي ان الامام الحسن (ع) في طليعة من ظفر بهذه الظاهرة فقد ورث ما استقر في نفس جده (ص) من القوى الروحية ، والثروة الاصلاحية الهائلة يضاف إلى ذلك تأثره بالبيئة الصالحة التي تكونت من أسرته ومن خيار المسلمين وصلحائهم .

وملك الامام الحسن (ع) بمقتضى ميراثه من الذكاء ، وسمو الادراك ما لايملكه غيره ، فقد حدث الرواة عن مدى نبوغه الباكر ، فقالوا : إنه كان لا يمر عليه شيء الاحفظه ، وكان يحضر مجلس جده (ص) فيحفظ الوحي فينطلق إلى أمه فيلقيه عليها ، فتحدث به أمير المؤمنين (ع) فيتعجب ، ويقول :

« من أين لك هذا ؟ ! ! »

« من ولدك الحسن . »

واختفى الامام (ع) في بعض زوايا البيت ليسمع ولده ، ويقبل الحسن على عادته ليلقي على أمه ماحفظه من آيات الوحي والتنزيل فيرتج عليه ، ولا يستطيع النطق فتبادر البتول قائلة :

« يابني ، لماذا أرتج عليك ؟ ! ! »

« يا أماه .. لاتعجبي مما عراني ، فان كبيرا يرعاني ! ! » (١) .

وهذه البادرة تدل بوضوح على مدى ادراكه الواسع ، الذي يبصر به الاشياء من بعيد ، ويستشف به ماغاب عنه من وراء حجاب .

---

(١) مناقب ابن شهر اشوب ١٤٨/٢ ، البحار ٩٣/١٠ .

حفظه للحديث :

وحفظ (ع) وعمره الشريف اربع سنين الشيء الكثير مماسمعه من جده (ص) ونشير إلى بعض مارواه عنه .

١ - قال (ع) : علمني رسول الله (ص) كلمات أقولهن في الوتر : (اللهم ، اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما اعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فانك تقضي ولايقضى عليك ، وإنه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » (١)

٢ - وروى عمير بن مأمون ، قال : سمعت الحسن بن علي (ع) يقول : (من صلى صلاة الغداة ، فجلس في مصلاه حتى تطلع الشمس كان له حجاب من النار ، أو قال : ستر من النار) (٢) .

٣ - وقال له بعض أصحابه : ما تذكر من رسول الله (ص) ؟ فقال (ع) : أخذت تمرة من تمر الصدقة ، فتركتها في فمي فنزعها بلعابها ، فقيل يا رسول الله ، ماكان عليك من هذه التمرة ، قال إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة (٣) .

٤ - وسئل (ع) عما سمعه من رسول الله (ص) ، فقال : سمعته يقول لرجل : « دع ما يريبك إلى مالا يريبك ، فان الشريرة والخير

---

(١) صحيح الترمذي ٩٣|١ مستدرك الحاكم ١٧٢|٣ تاريخ ابن عساكر ٤|٢٠٥ .

(٢) اسد الغابة ١١|٢ .

(٣) اسد الغابة ١١|٢ والمراد من الصدقة المحرمة على آل البيت هي الصدقة الواجبة كالزكاة والفطرة دون غيرها من الصدقات المندوبة .

طمأنينة » (١) .

٥ ـ وحدث (ع) أصحابه عن خلق جده الرسول (ص) وسيرته فقال : كان رسول الله (ص) إذا سأله أحد حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول .

٦ ـ قال (ع) : سمعت رسول الله (ص) يقول : « ادعوا لي سيد العرب ـ يعني عليا ـ فقالت له عائشة : الست سيد العرب ؟ فقال لها أنا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب ، فدعي له الامام فلما مثل بين يديه أرسل خلف الأنصار ، فلما حضروا إلتفت إليهم قائلا :

يا معشر الأنصار ألا ادلكم على شيء ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ، قالوا بلى يارسول الله فقال : هذا علي فأحبوه بحبي واكرموه بكرامتي فان جبرئيل أخبرني بالذي قلت لكم عن الله عزوجل (٢) وقد

---

(١) تأريخ اليعقوبي ٢|٢٠١ وفي مسند احمد ١|٢٠٠ انه عليه السلام قال سمعت رسول الله قد قال : دع ماريبك إلى مالاريبك فان الصدق طمأنينة ، وان الكذب ريبة .

(٢) حياة علي بن ابي طالب للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ص ٨٣ وذكر الدكتور زكي مبارك في التصوف الأسلامي ج ١ ص ٢٧٤ في بيان مأخذ عقيدة الصوفية في سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ومن الخير ان ننص على ان هذا الشطط استند فيه الصوفية إلى حديث « انا سيد الأنبياء » وهو حديث شك فيه العلماء فقد جاء في كتاب العجلوني المسمى « كشف الخفاء والالتباس عما اشتهر من الاحاديث على السنة الناس » ان الحسن بن علي روى ان الرسول قال (ادعوا لي سيد العرب) يعني علياً فقالت له عائشة : الست سيد العرب ، فقال انا سيد ولد آدم وعلي سيد العرب ، ثم حدثنا العجلوني ان الذهبي يجنح إلى الحكم على هذا الحديث بالوضع ، اقول : لم يتبين لنا بجلاء ما افاده الدكتور زكي

نقل علماء الفقه ورواة السنة الشيء الكثير عنه (ع) مما سمعه وشاهده من رسول الله (ص) فيما يتعلق بأحكام الشريعة المقدسة وآدابها وذلك يدل على نبوغه وعبقريته وإدراكه الواسع ، والناظر في دور طفولته (ع) يهيم بها إعجابا وإكبارا وتقديساً وذلك لما لها من آيات للكمال والفضيلة والذكاء ، ولما أنيطيت بلون من التربية الرفيعة التي لم يظفر بها إنسان فيما نحسب .

مبارك في مأخذ عقيدة الصوفية ولبيان الحال نقول إنهم قد انفردوا عن بقية فرق الاسلام بالتزامهم بجهتين (الاولى) إن هناك تعيناً اولياً وهو مجمع التعينات وهو المسمى بالعقل الأول والصادر الأول في لسان الفلاسفة القدامى ، ومستندهم في ذلك هي البراهين التي اقيمت في الفلسفة التي منها إن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد (الثانية) تطبيق العقل الأول والصادر الأول على الحقيقة الأحدية المقدسة وبهذا التطبيق إنحازوا عن الفلاسفة ، وحجتهم في ذلك هي الأخبار كحديث (انا سيد الناس) (ولولاي لما خلقت الأكوان) وانا نبي وآدم بين الماء والطين ، ونحوها من الأخبار الدالة على إثبات مطلوبهم بنحو من الدلالة العقلية ، والمتصوفة إنما كانوا متصوفة بالتزامهم بالجهة الأولى التي ذهبت إليها الفلاسفة ، فكان الأجدر بالدكتور زكي مبارك ان لايطلق القول في ان عقيدة الصوفية قد اخذت من الأخبار وعليه ان يبين ان إستنادهم إلى الأخبار إنما هو لتطبيق العقل الأول والصادر الأول على الحقيقة الأحدية ، وكان المناسب له التعرض الى مناقشة الصوفية في الجهة الأولى ، وبيان السر في تشكيك العلماء في حديث (انا سيد الناس) هل كان مصدره ضعف الراوي ، اومن جهة إعتماد الصوفية عليه والأخير غير صالح للتضعيف والأول غير معلوم .



تكريم وحفاوة

واشاد كتاب الله العزيز بفضل اهل البيت واحتفى بهم رسول الله (ص) فقرنهم بمحكم الكتاب ، وفرض على الأمة مودتهم وحبهم ، ولابد لنا أن نشير إلى بعض ما ورد في الكتاب ، والسنة في حق أهل البيت (ع) فان ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بما نحن فيه ويكشف لنا عن مدى خطورة الامام الحسن (ع) وعظم شأنه ، وسمو منزلته ، وإلى القراء ذلك :

الكتاب العزيز :

ونطق كتاب الله العظيم ـ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ـ بفضل أهل البيت ، وبسمو مكانتهم عند الله ، وحسبنا أن نشير إلى بعض آياته :

١ ـ آية المودة :

وفرض الله على المسلمين مودة أهل البيت (ع) وقد نطق القرآن بذلك قال تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » (١) وروى ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال بعض المسلمين : يارسول الله من قرابتك الذين أوجبت علينا طاعتهم ؟ فقال (ص) : علي وفاطمة وابناهما (٢) وروى أبو نعيم بسنده عن جابر ، قال جاء اعرابي إلى النبي

---

(١) سورة الشورى : آية ٢٣

(٢) تفسير الفخر الرازي ٧/٤٠٦ ، الدر المنثور ٧/٧ ، تفسير النيسابوري

(ص) فقال : يا محمد أعرض عليّ الاسلام ، فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمداً عبده ورسوله ، قال : تسألني عليه أجراً ؟ قال : ـ لا ـ إلا المودة في القربى ، قال : قرباي أو قرباك ؟ قال : قرباي ، قال هات أبايعك ، فعلى من لا يحبك ولا يحب قرباك لعنة الله ، قال (ص) آمين (١) وصرح الامام الحسن (ع) أنه من المعنيين بهذه الآية فى بعض خطبه قال (ع) :

« وأنا من أهـــل البيت الذين أفترض الله مودتهم على كل مسلم ، فقال تبارك وتعالى : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » فاقتراف الحسنة مودتنا أهــل البيت . » (٢)

وإلى مضمون الآية الكريمة يشير الامام الشافعي فى قوله :

يا أهــل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله(٣)

وأفاد الفخر الرازي ما نصه : « وإذا ثبت هذا ـ يعنى أنها نزلت في علي وفاطمة وابناهمـــا ـ وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم ، وتدل عليه وجوه « الاول » قوله تعالى : (إلا المودة في القربى) ووجه الاستدلال به ما سبق ، وهو ما ذكره من قبل من أن آل محمد (ص)

في تفسير سورة الشورى ، تفسير ابن جرير الطبري ٥/١٦ ، الكشاف في تفسير سورةالشورى ، الصواعق المحرقة : ص١٠٢ ، ذخائر العقبى : ص٢٥ نور الابصار: ص ١٠٠ .

(١) حلية الأولياء ٣/٢٠١ .

(٢) مستدرك الحاكم ٣/١٧٢ ، مجمع الزوائد ٩/١٤٦ ، الصواعق المحرقة ص ١٠١ ، مجمع البيان في تفسير سورة الشورى ٩/٢٩ .

(٣) الصواعق المحرقة ; ص ٨٨ .

هم الذين يؤل أمرهم إليه ، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل ، ولا شك ان فاطمة وعلياً والحسن والحسين (ع) كان التعلق بينهم وبين رسول الله (ص) أشد التعلقات ، وهـذا كالمعلوم بالنقل المتواتر ، فوجب أن يكونوا هم الآل « الثاني » لا شك ان النبي (ص) كان يحب فاطمة (ع) قال (ص) : « فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها » وثبت بالنقل المتواتر عن محمد (ص) أنه كان يحب علياً والحسن والحسين عليهم السلام ، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله ، لقوله تعالى : « واتبعوه لعلكم تهتدون » ولقوله تعالى : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره » ولقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » ولقوله سبحانه : « ولقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » « الثالث » إن الدعاء للآل منصب عظيم ، ولذلك جعل هـذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة ، وهو قوله : اللهم صل على محمد وآل محمد ، وارحم محمداً وآل محمد » وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل ، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب » (١)

إن مودة أهل البيت من أهم الواجبات الاسلامية ، ومن أقدس الفروض الدينية لأن فيها أداءاً لأجر الرسالة ، وصلة للرسول (ص) ، وشكراً له على ما لاقاه من عظيم العناء في سبيل انقاذ المسلمين من الشرك وعبادة الأوثان ، فحقه على الأمة أن توالي عترته ، وتكن لها المودة والاحترام .

٢ ـ آية التطهير :

ومن آيات الله البينات الدالة على عصمة اهل البيت من الذنوب ، وعلى طهارتهم من الزيغ والآثام ، آية التطهير قال تعالى : « إنما يريد الله

(١) تفسير الفخر الرازي في ذيل تفسير آية المودة في سورة الشورى .

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١) وهي صريحة الدلالة في العصمة ، ويقع البحث في الآية من جهات :

أ — دلالتها على العصمة :

وكيفية الاستدلال بها على عصمة أهل البيت ، انه تعالى حصر إرادة إذهاب الرجس - أي المعاصي - بكلمة انما ، وهي من أقوى أدوات الحصر وبدخول اللام في الكلام الخبري وبتكرار لفظ الطهارة وذلك يدل - بحسب الصناعة - على الحصر والاختصاص ، ومن المعلوم أن ارادة الله تعالى يستحيل فيها تخلف المراد عن الارادة « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » وبذلك يتم الاستدلال بها على عصمة أهل البيت من كل ذنب ومعصية .

ب — المختصون بها :

واجمع ثقاة الرواة أنها نزلت في رسول الله (ص) وفي أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة ، والحسنين (ع) ولم يشاركهم أحد في هذه الفضيلة (٢) فقد روى الحاكم بسنده عن أم سلمة أنها قالت : في بيتي نزلت هذه الآية (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت) قالت : فأرسل رسول الله (ص) إلى علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) فقال : اللهم هؤلاء أهل بيتي ، قالت أم سلمة : يا رسول الله ما أنا من أهل

---

(١) سورة الأحزاب :

(٢) انظر تفسير الفخر ٦|٧٨٣ ، النيسابوري في تفسير سورة الاحزاب ، صحيح مسلم ٢|٣٣١ ، الخصائص الكبرى ٢|٢٦٤ ، الرياض النضرة ٢|١٨٨ ، خصائص النسائي ٤ ، تفسير ابن جرير ٢٢|٥ ، مسند الامام احمد بن حنبل ٤|١٠٧ سنن البيهقي ٢|١٥٠ ، مشكل الآثار ١|٣٣٤ وغيرها .

البيت ؟ قال « إنك إلى خير وهؤلاء أهل بيتي ، اللهم أهل بيتي احق » (١) .

وفي رواية أم سلمة الأخرى : « قالت في بيتي نزلت : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت » ، وفي البيت فاطمة وعلي والحسن والحسين فجللهم رسول الله (ص) بكساء كان عليه ، ثم قال : هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » (٢)

وروى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) في قوله تعالى : إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » قال : جمع رسول الله (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين (ع) ثم أدار عليهم الكساء فقال : هؤلاء أهل بيتي اللهم اذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، وأم سلمة على الباب فقالت : يا رسول الله ألست منهم ؟ فقال : إنك لعلى خير ، أو إلى خير » (٣) .

ويدل على اختصاص الآية بهم وعدم شمولها لغيرهم ما رواه ابن عباس قال : « شهدت رسول الله (ص) تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب (ع) عند وقت كل صلاة فيقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » الصلاة رحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » (٤) .

واخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي الحمراء قال : حفظت من رسول الله (ص) ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغد إلا أتى باب علي فوضع يده على جنبتي الباب ، ثم قال : الصلاة ،

(١) مستدرك الحاكم ٢/٤١٦ ، اسد الغابة ٥/٥٢١ .

(٢) الدر المنثور ٥/١٩٩ .

(٣) تأريخ بغداد ١٠/٢٧٨ .

(٤) الدر المنثور .

الصلاة « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (١)

وروى أبو برزة قال : صليت مع رسول الله (ص) سبعة أشهر فاذا خرج من بيته أتى باب فاطمة (ع) فقال : السلام عليكم « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » (٢)

وروى أنس بن مالك قال : كان النبي (ص) يمر بباب فاطمة ستة أشهر إذا خرج لصلاة الفجر ، ويقول : الصلاة يا أهل البيت « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيرا » (٣)

وقال الامام الحسن (ع) في بعض خطبه :

« وأنا من أهل البيت الذي كان جبريل ينزل إلينا ، ويصعد من عندنا ، وأنا من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا . » (٤)

لقد تواترت الاخبار الصحيحة التي لا مجال للشك في سندها ، وفي دلالتها ، على اختصاص الآية الكريمة في الخمسة من أهل الكساء عليهم السلام ، وعدم تناولها لغيرهم من أسرة النبي (ص) .

ج ــ خروج نساء النبي :

وليس لنساء النبي (ص) نصيب في هذه الآية ، فقد اختص بها أهل الكساء ، وللتدليل على ذلك نذكر ما يلي :

١ ـ خروجهن موضوعاً عن الأهل ، فأنه موضوع لعشيرة الرجل

---

(١) الدر المنثور .

(٢) مجمع الزوائد ٩|١٦٩ .

(٣) ذخائر العقبى : ص ٢٤ .

(٤) مستدرك الحاكم ٣|١٧٢ .

وذوى قرباه ، ولا يشمل الزوجة ، ويؤكد هـذا المعنى ما صرح به زيد ابن ارقم حينما سئل من أهل بيته ـ اي النبي (ص) ـ نساؤه ؟ فقال ـ لا ـ وأيم الله ، إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها ، وقومها ، أهل بيته أصله ، وعصبته ، الذين حرموا الصدقة بعده (١) .

٢ ـ انا لو سلمنا أن الأهل يطلق على الزوج فلابد من تخصيصه ، وذلك للاخبار المتواترة التي تقـدم ذكرهـا وهي توجب تقييد الاطلاق من دون شك .

د ـ مزاعم عكرمة :

وزعم عكرمة أن الآية نزلت في نساء النبي (ص) وكان ينادى بذلك في السوق (٢) وبلغ من اصراره وعناده أنه كان يقول : (من شاء باهلته أنها نزلت في أزواج النبي) (٣) وعكرمة لا يعول على روايته ، ولا يوثق به ، وذلك لما يلي :

١ ـ انه من الخوارج (٤) وموقف الخوارج من الامام أمير المؤمنين معروف ، من ناحية النصب والعداء .

٢ ـ انه قد عرف بالكذب واشتهر به فعن ابن المسيب « انه قال لمولى اسمه برد لا تكذب علي كما كذب عكرمة على ابن عباس » (٥) وعن عثمان بن مرة أنه قال للقاسم : ان عكرمة حدثنا عن ابن عباس كذا :

---

(١) صحيح مسلم ٢|٢٣٨ ، تفسير ابن كثير ٣|٤٨٦ .

(٢) اسباب النزول للواحدي : ص ٢٦٨ .

(٣) الدر المنثور ٥|١٩٨ .

(٤) طبقات القراء ١|١٥ ، طبقات ابن سعد ٥|٢١٦ .

(٥) الكلمة الغراء للامام شرف الدين نقلا عن ميزان الاعتدال .

فقال القاسم : يابن اخي إن عكرمة كذاب يحدث غدوة حديثاً يخالفه عشياً (١) ومع اتهامه بالكذب كيف يمكن التعويل على حديثه .

٣ ـ انه كان فاسقاً يسمع الغناء ، ويلعب بالنرد ، ويتهاون في الصلاة وانه كان خفيف العقل (٢) .

٤ ـ إنه كان منبوذا عند المسلمين ، فقد جفوه ، وتجنبوه ، وبلغت من كراهيتهم له أنه لما توفي لم يصلوا عليه ، ولم يشهدوا تشييع جنازته (٣)

ومع هذه الطعون التي احتفت به كيف يمكن التعويل على روايته ؟ مضافاً إلى أنها من أخبار الآحاد حتى لو لم تمن بالضعف فانها لا تصلح لمعارضة الأخبار الصحيحة المتواترة .

٣ ـ آية المباهلة :

من آيات الله الباهرات التي أشادت بفضل أهل البيت (ع) آية المباهلة قال تعالى : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » (٤) فقد روى الجمهور بطرق مستفيضة (٥) أنها نزلت

(١) معجم الأدباء في ترجمة عكرمة .

(٢) تهذيب التهذيب ٧/٢٦٣ .

(٣) تهذيب التهذيب

(٤) سورة آل عمران :

(٥) تفسير الجلالين ١/٣٥ ، تفسير روح البيان ١/٤٥٧ ، تفسير الكشاف ١/١٤٩ ، تفسير البيضاوي ص٧٦ ، تفسير الرازي ٢/٦٩٩ ، صحيح الترمذي ٢/١٦٦ سنن البيهقي ٧/٦٣ ، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ، مسند احمد بن حنبل ١/١٨٥ مصابيح السنة للبغوي ٢/٢٠١ .

في أهل البيت (ع) وان ابناءنا اشارة إلى (الحسنين) ، ونساءنا الى فاطمة ، وانفسنا إلى علي .

وموجز قصة المباهلة ان وفداً من نصارى نجران قدموا على رسول الله (ص) ليناظروه في دينه ، وبعد حديث دار بينهما اتفقا على « المباهلة » وهي أن يبتهلوا أمام الله تعالى فيجعلوا لعنته الخالدة وعذابه المعجل على الكاذبين ، وعينوا زماناً خاصاً لها .

وخرج رسول الله (ص) في اليوم الذي اتفقا عليه ، وقد اختار للمباهلة أعز الناس لديه ، وأكرمهم عند الله ، وهم الحسن والحسين ، وسيدة النساء فاطمة ، وأمير المؤمنين ، واحتضن (ص) الحسين وامسك بيده الأخرى الحسن ، وسارت خلفه الزهراء وهي مغشاة بملاءة من نور الله ، وأمير المؤمنين يسير خلفها وهو باد الجلال ، وخرج السيد والعاقب بولديهما وعليهما الحلي والحلل ، ومعهم نصارى نجران وفرسان بني الحرث على خيولهم ، وهم على أحسن هيأة واستعداد ، وقد اجتمعت الجماهير الحاشدة وهي تراقب الحادث الخطير ، ويسأل الناس بعضهم بعضاً ، هل تباهل النصارى ؟ أو تكف عن ذلك وبينما هم على هذا الحال إذ تقدم السيد والعاقب إلى رسول الله (ص) وقد بدا عليهما الذهول والارتباك قائلين :

« يا أبا القاسم بمن تباهلنا ؟ . » .

فأجابهم (ص) :

« أباهلكم بخير أهل الأرض وأكرمهم على الله ، وأشار إلى علي وفاطمة والحسنين . »

وقدما له سؤالا مقروناً بالتعجب :

« لِمَ لا تباهلنا بأهل الكرامة ، والكبر ، وأهل الشارة ، ممن آمن

بك ، وأتبعك ؟ ! ! »

فقال رسول الله (ص) :

« أجل . أباهلكم بهؤلاء خير أهل الأرض وأفضل الخلق . »

فذهلوا ، وذابت قلوبهم من الخوف والرعب ، ورجعوا قافلين الى الاسقف زعيمهم يستشيرونه في الأمر قائلين :

« يا أبا حارثة . ماذا ترى في الأمر ؟ »

فأجابهم الاسقف ، وقد غمرته هيبة آل الرسول (ص) قائلا :

« أرى وجوهاً لو سأل الله بها أحد أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله »

ولا يكتفي بذلك بل يدعم قوله : بالبرهان واليمين التي تؤيد مقالته :

« أفلا تنظرون محمداً رافعاً يديه ، ينظر ما تجيئان به ، وحق المسيح - إن نطق فوه بكلمة - لا نرجع إلى أهل ، ولا إلى مال ! ! »

وجعل يصيح بهم :

« ألا ترون إلى الشمس ، قد تغير لونها ، والأفق تنجع فيه السحب الداكنة (١) ، والريح تهب هائجة سوداء ، حمراء ، وهذه الجبال يتصاعد فيها الدخان ، لقد أطل علينا العذاب ، أنظروا إلى الطير وهي تقيء حواصلها وإلى الشجر كيف تتساقط أوراقها ، وإلى هـذه الأرض كيف ترجف تحت أقدامنا . ! ! ! »

الله أكبر . . لقـد غمرت المسيحيين عظمة تلك الوجوه المقدسة ، وآمنوا بما لها من الكرامة والشأن عند الله ، ووقفوا خاضعين أمام النبي (ص) ونفذوا طلباته ، وقال (ص) :

« والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمُسخوا قردة وخنازير ، ولأضطرم عليهم الوادي نارا ، ولأستأصل الله

(١) الداكنة : السحابة السوداء .

نجران وأهله حتى الطير على الشجر ، ومـــا حال الحول على النصارى كلهم . . . » (١)

ودلت قصة المباهلة على عظيم منزلة أهل البيت ، وسمـو مكانتهم ، وانهم افضل خلق الله وأحبهم إلى رسول الله (ص) ، ولا يداني فضلهم أحد من سائر العالمين .

٤ ـ سورة هل اتى :

ونزلت في أهل البيت (ع) سورة مباركة من سور القرآن الكريم وهي سورة « هل أتى » فقد روى جمهور المفسرين والمحدثين أنها نزلت فيهم (٢) والسبب في نزولهـا ان الحسن والحسين (ع) مرضا فعادهمـا جدهما رسول الله (ص) مع بعض الصحابة ، فقالوا للامام : لو نذرت لله إن عافى ولديك ، فنذر (ع) صوم ثلاثة أيام شـكرا لله إن برئا ، وتابعته الصديقة عليها السلام وجاريتها فضة في هذا النذر ، ولما ابل الحسنان من المرض صاموا جميعاً ، ولم يكن عند أمير المؤمنين (ع) في ذلك الوقت شيء من الطعام ليجعله افطاراً لهـم فاستقرض ثلاثة أصواع من الشعير ، فعمدت الصديقة (ع) في اليوم الاول إلى صاع فطحنته وخبزته فلما آن وقت الإفطار ، وإذا بمسكين يستمنحهم من القوت شيئاً ، فتـبرع الامام في افطاره ، وتابعه الجميع في صنعه ، وناولوا طعامهم إلى المسكين وقضو ليلتهم ، ولم يذوقوا من الطعـام شيئاً ، واصبحوا وهم صائمون ،

---

(١) نور الابصار : ص ١٠٠ .

(٢) تفسير الفخر ٨|٣٩٢ ، روح البيان ٦|٥٤٦ ، النيسابوري في تفسير سورة هل أتى ، اسباب النزول للواحدي : ص ٣٣١ ، الدر المنثور في تفسيرسورة هل أتى ، ينابيع المودة ١|٩٣ ، الرياض النضرة ٢|٢٢٧ .

فلما حل وقت الافطار ، والطعام بين أيديهم ، وإذا بيتيم على الباب يشكو ألم الجوع ، فتبرعوا جميعاً بقوتهم ، وطووا ليلتهم ، ولم يذوقوا سوى ماء القراح ، وفي اليوم الثالث قامت سيدة النساء فطحنت ما فضل من الطعام وخبزته ، فلما حان وقت الافطار قدمت لهم الطعام ، وسرعان ما طرق الباب أسير يشكو الجوع فسحبوا أيديهم من الطعام ، ومنحوه له ، سبحانك اللهم أي مبرة أعظم من هذه المبرة ، وأي ايثار اعظم من هذا الايثار ! ! !

وفي اليوم الرابع جاء رسول الله (ص) لزيارتهم ، فرآهم ويالهول ما رأى ، رأى الصفرة بادية على الوجوه ، الارتعاش حل في أجسامهم من الضعف ، فتغير حاله وانطلق يقول :

« واغوثاه أهل بيت محمد يموتون جياعاً ! ! » .

ولم ينته الرسول (ص) من كلامه حتى هبط عليه أمين الوحي ، وهو يرفع إليه سورة « هل أتى » وفيها اجمل الثناء وعاطر الذكر لاهل البيت قال تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا » عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا » يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا » ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا » إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . »

لقد شكر الله سعيهم على هذا الايثار الذي لا نظير له في عالم المبرات والاحسان ، وأورثهم في دار الآخرة الفردوس يتقلبون في نعيمه ، وجعل ذكرهم خالداً ، وحياتهم قدوة ، وجعلهم أئمة للمسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن بعض الآيات التي نزلت في حق أهل البيت عليهم السلام ، وهي من دون شك تتناول الامام الحسن (ع) ، وتدل على خطورة شأنه ، وسمو منزلته عند الله .

السنة :

أما الأخبار التي أثرت عن النبي (ص) في سبطه الاكبر ، وأشادت بعظيم شأنه ، وبينت عما يكنه الرسول (ص) في نفسه من عميق الود ، وخالص الحب فهي على طوائف ثلاثة « الاولى » إنها مختصة به « الثانية » وردت فيه وفي أخيه سيد الشهداء (ع) « الثالثة » في أهل بيته ، ومن المعلوم ان الامام الحسن (ع) من أبرارهم فتشمله بالضرورة تلك الأخبار وهذه المناحي قد تظافرت بها النصوص وتواترت حتى افادت القطع واليقين ، وإلى القراء ذلك .

الطائفة الاولى :

اما ما أثر عن النبي (ص) فيما يخص سبطه فهي روايات عدة نقتصر منها على ما يلي :

١ ـ روى البراء بن عازب (١) قال : رأيت النبي (ص) والحسن على عاتقه ، يقول : « اللهم ، إني أحبه فاحبه » (٢)

٢ ـ وروت عائشة قالت : إن النبي (ص) كان يأخذ حسناً ، فيضمه

(١) البراء بن عازب يكنى اباعمارة ، شهدمع رسول الله صلى الله عليه وآله واقعة بدر ، ولكنه لم يأذن له في الجهاد لصغر سنه ، وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وآله اربع عشرة غزوة ، وهو الذي فتح الري سنة اربع وعشرين في قول ابي عمرو الشيباني ، وشهد مع امير المؤمنين عليه السلام الجمل وصفين ، والنهروان ، نزل الكوفة وابتنى بها داراً ، ومات ايام مصعب بن الزبير ، جاء ذلك في اسد الغابة ١٧١/١ ، والاستيعاب .

(٢) صحيح البخاري في كتاب بدء الخلق ، ورواه الترمذي في صحيحه ٣٠٧/٢

إليه ثم يقول : « اللهم ، إن هـذا ابني ، وأنا أحبه ، فأحبه ، وأحب من يحبه . . . » (١)

٣ - وروى زهير بن الاقمر قال : بينما الحسن بن علي يخطب بعد ما قتل علي (ع) إذ قام إليه رجل من الأزد آدم طوال ، فقال : لقد رأيت رسول الله (ص) واضعه في حبوته ، يقول : (من أحبني فليحبه ، فليبلغ الشاهد الغائب) ولولا عزمة من رسول الله (ص) ما حدثتكم (٢) .

٤ - وروى أبو بكرة قال : رأيت رسول الله (ص) على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه ، وهو يقبل على الناس مرة ، وعليه أخرى ، ويقول : (إن ابني هذا سيد . ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين

ورواه مسلم في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة ، ورواه ابن كثير في البداية والنهاية ٨|٣٤ .

(١) كنز العمال ٧|١٠٤ ، وذكره الهيثمي في مجمعه ٩|١٧٦ ، وتظافرت الاخبار بهذا المضمون عن النبي صلى الله عليه وآله فمن سعيد بن زيد قال : احتضن رسول الله صلى الله عليه وآله حسناً ثم قال : (اللهم إني قد احببته فأحبه) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال ٧|١٠٥ وقال اخرجه الطبراني وابو نعيم ، وذكر ابن حجر في الاصابة ٣|٧٨ قال : واخرج البغوي من طريق يزيد بن ابي زياد عن يزيد بن ابي الحسن عن سعد بن زيد الانصاري ان النبي صلى الله عليه وآله حمل حسنا ، ثم قال : اللهم إني احبه فاحبه مرتين ، وروى ابو نعيم في حليته عن ابي هريرة ان النبي صلى الله عليه وآله قال : « اللهم ، إني احبه ، فأحبه واحب من يحبه » يقولها ثلاث مرات .

(٢) تهذيب التهذيب ٢|٢٩٧ ، مسند الامام احمد بن حنبل ٥|٣٦٦ الصواعق المحرقة : ص ٨٢ .

من المسلمين » (١) .

٥ ـ وروى ابن عباس قال : اقبل النبي (ص) وقد حمل الحسن على رقبته فلقيه رجل ، فقال نعم المركب ركبت يا غلام ، فقال رسول الله (ص) ونعم الراكب هو . (٢)

٦ ـ وروى عبد الله بن عبد الرحمن بن الزبير قال : أشبه أهل النبي (ص) وأحبهم إليه الحسن رأيته يجيء وهــو ساجد فيركب رقبته أو قال : ظهره فما ينزله حتى يكون هو الذي ينزل ، ولقد رأيته وهو راكع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر (٣)

٧ ـ وروى ان النبي صلى الله عليه وآله صلى احدى صلاتي العشاء فسجد سجـدة أطال فيهـا السجود ، فلما سلم قال له الناس : في ذلك فقال : (إن ابني هذا ـ يعني الحسن ـ ارتحلني فكرهت أن أعجله) (٤)

---

(١) الاصابة ١/٣٣٠ ، صحيح البخاري ذكره في الصلح ، ورواه الامام احمد بن حنبل في مسنده ٥/٤٤ باسناده عن المبارك عن الحسن عن ابي بكرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلي بالناس ، وكان الحسن بن علي يثب على ظهره إذا سجد ، ففعل ذلك غير مرة ، فقالوا له : والله إنك لتفعل بهذا شيئاً ، مارأيناك تفعله باحد ، قال المبارك : فذكر شيئا ثم قال : إن ابني هـذا سيد وسيصلح الله تبارك وتعالى به بين فئتين من المسلمين ، وذكره ابن حجر في صواعقه وجاء في العقد الفريد ١/١٦٤ ان الرسول صلى الله عليه وآله دخل على ابنته فاطمة فوجد الحسن طفلا يلعب بين يديها ، فقال لها : إن الله سيصلح على يدي إبنك هذا بين فئتين عظيمتين من المسلمين .

(٢) الصواعق : ص ٨٢ ، حلية الأولياء .

(٣) الاصابة ٢/١١

(٤) البداية والنهاية ٨/٣٣

٨ - وصعد صلى الله عليه وآله على المنبر ليخطب ، فجاء الحسن فصعد المنبر ، فوضعه على رقبته حتى كان يرى بريق خلخاليه من اقصى المسجد ، وهما يلمعان على صدر الرسول ، ولم يزل على هذه الحالة حتى فرغ صلى الله عليه وآله من خطبته (١)

٩ - وقال صلى الله عليه وآله : « من سره أن ينظر إلى سيد شباب اهل الجنة فلينظر الى الحسن » (٢)

١٠ - وقال صلى الله عليه وآله : « الحسن ريحانتي من الدنيا » (٣)

١١ - وروى انس بن مالك قال دخل الحسن على النبي صلى الله عليه وآله فأردت أن أميطه عنه ، فقال صلى الله عليه وآله : « ويحك يا أنس دع ابني ، وثمرة فؤادي ، فان من آذى هذا فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله » (٤)

هذه طائفة من الاخبار التي وردت عن النبي صلى الله عليه وآله في سبطه الاكبر ، ويلمس فيها أسمى الوان التكريم والحفاوة والحب العميق .

الطائفة الثانية :

أما ما أثر عن النبي صلى الله عليه وآله في حق السبطين عليهما السلام فكوكبة من الروايات الصحاح التي دونها الثقات والحفاظ ، وهي صريحة

(١) البحار ٦/٥٨

(٢) فضائل الاصحاب : ص ١٦٥ ، البداية والنهاية ٨/٣٥

(٣) الاستيعاب ٢/٣٦٩

(٤) كنز العمال ٦/٢٢٢

الدلالة في أنها عليها السلام من أعز الناس عند رسول الله صلى عليه وآله ومن أحبهم له ، ونذكر منها مايلي :

١ - روى سعيد بن راشد ، قال : جاء الحسن والحسين عليهما السلام يسعيان الى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ أحدهما فضمه الى إبطه ، ثم جاء الآخر فضمه إلى إبطه الاخرى ، وقال : (هذان ريحانتي من الدنيا من أحبني فليحبهما) (١) وكان النبي صلى الله عليه وآله دوما يضفي عليهما هذا اللقب ، وقد وردت بذلك روايات عديدة (٢)

٢ - وروى انس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وآله أي أهل بيتك أحب اليك ؟ قال صلى الله عليه وآله : « الحسن والحسين » وكان يقول : لفاطمة إدعي ابني فيشمهما ويضمهما اليه (٣)

٣ - وروى أسامة بن زيد قال : طرقت النبي صلى الله عليه وآله ذات ليلة في بعض الحاجة فخرج النبي صلى الله عليه وآله وهو مشتمل

---

(١) ذخائر العقبى : ص ١٢٤

(٢) روى ابو نعيم في حلية الاولياء ٣|٢٠١ عن جابر ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لعلي بن ابي طالب عليه السلام سلام عليك يا ابا الريحانتين اوصيك بريحانتي من الدنيا خيرا فعن قليل ينهد ركناك والله خليفتي عليك ، قال فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله ؛ قال علي عليه السلام : هذا احد الركنين اللذين قال النبي صلى الله عليه وآله فلما ماتت فاطمة عليها السلام قال علي (ع) : هذا الركن الآخر الذي قال النبي صلى الله عليه وآله ؛ وفي كنز العمال ٧|١١٠ عن سعد بن مالك قال دخلت على النبي صلى الله عليه وآله والحسن والحسين يلعبان على ظهره ، فقلت يارسول الله أتحبهما ؟ فقال ؛ ومالي لا احبهما ، وانهما ريحانتي من الدنيا

(٣) صحيح الترمذي ٢|٣٠٦ فيض القدير ١|١٤٨

على شيء لا ادري ماهو ؟ فلما فرغت من حاجتي ، قلت : ماهذا الذي أنت مشتمل عليه ؟ قال فكشفه فاذا هو حسن وحسين على وركيه ؛ فقال: (هذان إبناى ، وابنا ابنتي ، اللهم ، إني احبهما فأحبهما وأحب من يحبهما) (١)

٤ ـ وروى سلمان الفارسي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : (الحسن والحسين ابناي من احبهما احبني ، ومن احبني أحبه الله ، ومن أحبه الله ادخله الجنة ، ومن أبغضهما ابغضني ومن ابغضني ابغضه الله ، ومن ابغضه الله ادخله النار » (٢)

٥ ـ وروى ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما » (٣)

٦ ـ واعتلى صلى الله عليه وآله أعواد المنبر يخطب ، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران ، وهما يمشيان ويعثران ، فنزل صلى الله عليه وآله عن المنبر فحملهما ، ووضعهما بين يديه ، وقال : صدق الله

---

(١) صحيح الترمذي ٢/ ٢٤٠ ، كنز العمال ٧/ ١١٠ ، وذكر آخر الحديث ابن حجر في صواعقه ص ١١٤

(٢) مستدرك الحاكم ٣/ ١٦٦ ، وبتغيير يسير رواه الهيثمي في مجمعه ٩/ ١٨١ وكذلك في كنز العمال ٦/ ٢٢١

(٣) مستدرك الحاكم ٣/ ١٦٧ ، صحيح ابن ماجة ، وتظافرت الاخبار الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله ان سبطيه سيدا شباب اهل الجنة ، روى الترمذي في صحيحه ٢/ ٣٠٦ عن ابي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة » ورواه احمد بن حنبل في مسنده ٣/ ٣ ، وروى الخطيب البغدادي في تاريخه ١/ ١٤٠ بسنده عن علي عليه السلام قال قال رسول الله : (الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة)

إذ يقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » (لقد نظرت إلى هـذين الصبيين وهما يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما) (١)

٧ - وروى ابن عباس قال : بينا نحن ذات يوم مع النبي صلى الله عليه وآله إذ أقبلت فاطمة سلام الله عليها تبكي ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : فداك أبوك ، مايبكيك ؟ قالت إن الحسن والحسين خرجا ، ولا أدري أين باتا ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله : لاتبكين فان خالقهما ألطف بهما مني ومنك ، ثم رفع يديه ، فقال : اللهم احفظهما وسلمهما ، فهبط جبرئيل ، وقال يامحمد ، لاتحزن فانهما في حظيرة بني النجار ، نائمان ، وقد وكل الله بهما ملكا يحفظهما ، فقام النبي صلى الله عليه وآله ومعه أصحابه حتى أتى الحظيرة فاذا الحسن والحسين عليهما السلام معتنقان نائمان ، وإذا الملك الموكل بهما قد جعل أحد جناحيه تحتهما والآخر فوقهما ، يظلهما ، فأكب النبي صلى الله عليه وآله عليهما يقبلهما ، حتى انتبها من نومهما ، ثم جعل الحسن على عاتقه الايمن ، والحسين على عاتقه الايسر ، فتلقاه أبو بكر ، وقال يارسول الله : ناولني أحد الصبيين أحمله عنك ، فقال صلى الله عليه وآله نعم المطي مطيهما ، ونعم الراكبان هما ، وأبوهما خير منهما ، حتى أتى المسجد فقام رسول الله صلى عليه وآله على قدميه وهما على عاتقيه ثم قال :

« معاشر المسلمين ، ألا أدلكم على خير الناس جداً وجدة ؟

« بلى يارسول الله »

« الحسن والحسين ، جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله خاتم المرسلين ، وجدتهما خديجة بنت خويلد ، سيدة نساء أهل الجنة »

---

(١) صحيح الترمذي ٣٠٦/٢ ، صحيح النسائي ٢٠٩/١

ثم قال صلى الله عليه وآله : « ألا أدلكم على خير الناس عما وعمة ؟ »

قالوا : بلى يارسول الله

« الحسن والحسين عمها جعفر بن أبي طالب ، وعمتها أم هاني بنت أبي طالب . »

ثم قال : « أيها الناس ، ألا أدلكم على خير الناس خالا وخالة ؟ »

قالوا : بلى يارسول الله

« الحسن والحسين ، خالها القاسم بن رسول الله ، وخالتهما زينب بنت رسول الله » .

ثم قال : اللهم ، انك تعلم أن الحسن والحسين في الجنة ، وعمهما في الجنـــة ، وعمتهما في الجنة ، ومن أحبهما في الجنة ، ومن أبغضهما في النار . (١)

ودل الحديث على مدى حبه صلى الله عليه وآله لسبطيه ، وانهما أحب أهـــل بيته اليه ، وآثرهما عليه ، ومن المعلوم أن شأن النبوة بعيد عن الاندفاع بعواطف الحب ، فانه صلى الله عليه وآله لم يمنحهما هذا الحب الا لانهما مصدرا كل فضيلة ، ومنبعا كل خير .

٨ - وروى جابر ، قال دخلت على النبي صلى الله عليـــه وآله والحسن والحسين على ظهره ، وهو يقول : « نعم الجمل جملكما ، ونعم العدلان أنتما » (٢) وبهذا المضمون روى عمر قال رأيت الحسن والحسين عليهما السلام على عاتقي النبي صلى الله عليه وآله فقلت نعم القرس تحتكما فقال النبي صلى الله عليـــه وآله ونعم الفارسان هما (٣) وقد نظم ذلك

(١) ذخائر العقبي : ص ١٣٠

(٢) كنز العمال ٧/١٠٨ ، مجمع الهيثمي ٩/١٨٢

(٣) مجمع الهيثمي ٩/١٨١ ، كنز العمال ٧/١٠٦

شاعر العقيدة السيد الحميري فى قوله :

اتى حسنا والحسين الرسول وقد برزا ضحوة يلعبان

فضمهما وتفداهما وكانا لديه بذاك المكان

ومرا وتحتهما عاتقاه فنعم المطيـة والراكبان

٩ ـ وروى يعلى بن مرة الثقفي (١) قال : جاء الحسن والحسين يستبقان الى رسول الله صلى الله علـيه وآله فضمهما اليه ، وقال : إن الولد مبخلة مجبنة (٢)

١٠ ـ وقال صلى الله عليه وآله : (الحسن والحسين سبطان من الاسباط) (٣)

١١ ـ وبلـغ من مزيد حبه واشفاقه على سبطيه أنه كان يعوذهما خوفا عليهما من الحسد ، فقد روى أبو نعيم بسنده عن عبد الله ، قال : كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إذ مرّ الحسن والحسين وهما صبيان ، فقال : هات ابني أعوذهما بما عوذ به إبراهيم ابنيه اسماعيل ، واسحاق ، فقال : « اعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ، ومن

---

(١) روي في المستدرك الحديث عن يعلى بن منبه الثقفي ، وراجعنا كتب التراجم فلم نجد يعلى بن منبه وانما الموجود يعلى بن مرة ، ولعل ماوقع مافى المستدرك كان سهوا ، وجاء فى كل من الاصابة ، واسد الغابة ان يعلى بن مرة من افاضل الصحابة ، روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وعن امير المؤمنين عليه السلام وشهد مع النبي صلى الله عليه وآله الحديبية ، وبايع بيعة الرضوان وشهد خيبر ، والفتح وهوازن والطائف .

(٢) مستدرك الحاكم ٣|١٦٨ ، مسند الامام احمد بن حنبل ٤|١٧٢

(٣) الصواعق المحرقة : ص ١١٤ ، كنز العمال ٦|٢٢١

كل شيطان وهامة » (١) وليس في سجل المودة الانسانية أجمل من هذا الحنان ، ولا أكرم من هذا العطف .

١٢ ـ ومما اشتهر بين المسلمين قوله صلى الله عليه وآله : « الحسن والحسين إمامان إن قاما وان قعدا » (٢) واضفى صلى الله عليه وآله على حفيديه حلة الامامة ، وهي من أهم الصفات الماثلة فيهما وذلك لما تستدعيه من المثل العليا التي لاتتوفر إلا عند من اختاره الله واصطفاه من بين عباده ، فقد خص الله بها خليله إبراهيم قال تعالى : « قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين » (٣) وسنتحدث عن الامامة ، وما يعتبر في الامام من المؤهلات ، والصفات عند عرض مثله عليه السلام .

الطائفة الثالثة :

وتواترت النصوص الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وآله في لزوم مودة أهل بيته ، وانه حرب لمن حاربهم ، وسلم لمن سالمهم ، وقرنهم بمحكم الكتاب ، وجعلهم سفن النجاة ، وأمان الأمـة ، وإلى القراء بعض تلك السنن .

---

(١) حلية الأولياء ٥|٤٤ الفضائل الخمسة من الصحاح الستة ٣|١٧٧

(٢) البحار ١٠|٧٨ ، وجاء في نزهة المجالس ٢|١٨٤ ، وفي الاتحاف بحب الاشراف : ص ١٢٩ ان رسول الله صلى الله عليه وآله قال للحسن والحسين : « انتما الامامان ولامكما الشفاعة » وجاء في منهاج السنة ٤|٢١٠ ان رسول الله صلى الله عليـه وآله قال : للحسين عليه السلام « هذا امام ابن امام اخو امام ابو أئمة تسعة » .

(٣) سورة البقرة : آية ١٢٤

١ ـ روى زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : لعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام : « أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم » (١)

٢ ـ وعن أبي بكر قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله خيم خيمة ، وهو متكىء على قوس عربية ، وفي الخيمة علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام فقال : « معشر المسلمين أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة ، وحرب لمن حاربهم ، وولي لمن والاهم ، لايحبهم إلا سعيد الجد ، طيب المولد ، ولا يبغضهم إلا شقي الجد رديء الولادة » (٢)

٣ ـ وروى احمد بن حنبل أن النبي صلى الله عليه وآله أخذ بيد الحسن والحسين ، وقال : « من احبني ، وأحب هذين وأباهما ، وامهما كان معي في درجتي يوم القيامة » (٣)

٤ ـ وروى جابر ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ذات يوم بعرفات ، وعلي تجاهه « ادنو مني ياعلي خلقت أنا وأنت من شجرة أنا أصلها وأنت فرعها ، والحسن والحسين أغصانها فمن تعلق بغصن منها ادخله الله الجنة » (٤)

٥ ـ وروى ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف

---

(١) كنز العمال ١٠٢/٧ ، سنن ابن ماجة ص ١٤ ورواه ابن كثير في البداية والنهاية عن أبي هريرة .

(٢) الرياض النضرة ٢٥٢/٢

(٣) مسند احمد ٧٧/١ ينابيع المودة ص ١٦٤ صحيح الترمذي ٣٠١/٢

(٤) مسند احمد ٧٧/١

فاذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابليس) (١)

٦ ـ روى زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، احدهما اعظم من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض ، فانظروا كيف تخلفوني فيهما » (٢)

إن حديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية ، وا كثرها ذيوعا ، وقد اهتم العلماء به اهتماما بالغا لانه يحمل جانبا مهما من جوانب العقيدة الاسلامية ، كما انه من اظهر الأدلة التي تستند اليها الشيعة في حصر الامامة في اهل البيت ، وفي عصمتهم من الاخطاء والاهواء لان النبي صلى الله عليه وآله قرنهم بكتاب الله العزيز الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه فلا يفترق أحدهما عن الآخر ومن الطبيعي أن صدور اية مخالفة لاحكام الدين تعتبر افتراقا عن الكتاب العزيز ، وقد صرح النبي صلى الله عليه وآله بعدم افتراقهما حتى يردا عليه الحوض ، فدلالته على العصمة ظاهرة جلية ، وقد كرر النبي صلى الله عليه وآله هذا الحديث في غير موقف من المواقف لأنه يهدف الى صيانة الأمة والمحافظة على استقامتها وعدم انحرافها في المجالات العقائدية ، وغيرها أن تمسكت باهل البيت ولم تتقدم عليهم ، ولم تتأخر عنهم .

واستيفاء البحث في جوانب الحديث يستدعي وضع كتاب خاص ، وقد كفانا مؤنة البحث عنه ماذكره العلماء من التحقيق الرائع في جميع مناحي الحديث سواء أكان من ناحية السند أم الدلالة وغيرها (٣)

---

(١) مستدرك الحاكم ٣|١٤٩

(٢) صحيح الترمذي ٢|٣٠٨ ، اسد الغابة ٢|١٢

(٣) المراجعات: ص٤٩ ـ ٥٢ ، الاصول العامة للفقه المقارن ص ١٦٤ ـ ١٨٧

٧ ـ روى أبو سعيد الخدري قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول : « إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وإنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له .. » (١)

يقول الامام شرف الدين في مرجعاته القيمة في بيان الحديث مانصه « وأنت تعلم أن المراد من تشبيههم عليهم السلام بسفينة نوح أن من لجأ اليهم في الدين فأخذ فروعه وأصوله عن أئمتهم الميامين نجا من عذاب النار ، ومن تخلف عنهم كان كمن آوى « يوم الطوفان » إلى جبل ليعصمه من أمر الله ، غير أن ذاك غرق في الماء وهذا في الحميم والعياذ بالله . والوجه في تشبيههم عليهم السلام بباب حطة هو أن الله تعالى جعل ذلك الباب مظهراً من مظاهر التواضع لجلاله والبخوع لحكمه ، وبهذا كان سببا للمغفرة .

هذا وجه الشبه ، وقد حاوله ابن حجر إذ قال : ـ بعد أن أورد هذه الاحاديث وغيرها من أمثالها ـ

« ووجه تشبيهم بالسفينة أن من أحبهم وعظمهم شكراً لنعمة مشرفهم وأخذ بهـــدي علمائهم نجا ، من ظلمة المخالفات ، ومن تخلف عن ذلك غرق في بحر كفـــر النعم ، وهلك في مفاوز الطغيـــان » إلى أن قال : (وبباب حطة ـ يعني ووجه تشبيههم بباب حطة ـ ان الله جعل دخول

(١) مجمع الزوائد ٩|١٦٨ ، وجاء في مستدرك الحاكم عن حنش الكناني قال : سمعت اباذر يقول : وهو آخذ بباب الكعبة : ايها الناس من عرفني فأنا من عرفتم ، ومن انكرني فأنا ابو ذر سمعت رسول الله يقول : « مثل اهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا . ومن تخلف عنها غرق » وقد تظافرت الأخبار بهذا النص .

ذلك الباب الذي هو باب أريحا أو بيت المقدس مع التواضع والاستغفار سببا للمغفرة ، وجعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سببا لها » (١)

٨ ـ قال صلى الله عليه وآله : « معرفة آل محمد براءة من النار وحب آل محمد جواز على الصراط ، والولاية لآل محمد أمان من العذاب . » (٢)

٩ ـ قال صلى الله عليه وآله : « من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان ، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ، ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله . . » (٣)

١٠ ـ قال صلى الله وآله : « واجعلوا أهل بيتي منكم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينين من الرأس ، ولا يهتدي الرأس إلا بالعينين » (٤)

---

(١) المراجعات : ص ٥٤

(٢) المراجعات : ص ٥٨ نقلا عن كتاب الشفا ص ٤٠

(٣) المراجعات : ص ٥٩ نقلا عن الامام الثعلبي في تفسير آية المودة من تفسيره الكبير

(٤) المراجعات نقلا عن الشرف المؤبد ص ٥٨ .

ان الواجب على المسلمين أن يجعلوا أهل بيت نبيهم مكان الرأس من الجسد ، ومكان العينين من الرأس ، فيتمسكوا بأهدافهم ، ويأخذوا بأفعالهم وأقوالهم ، ولو انهم حققوا ذلك لكانوا سادات الامم وهداة الشعوب ولكنهم ناصبوهم العداء ، واخروهم عن مراتبهم ، وأزالوهم عن مكانتهم ، فاصيبت الامة بالنكسات ، وحفت بها الخطوب والاخطار فانا لله وإنا اليه راجعون .

١١ ـ قال (ص) : لاتزول قدما عبد ـ يوم القيامة ـ حتى يسأل عن أربع ، عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله فيما أنفقه ، ومن أين اكتسبه ، وعن محبتنا أهل البيت » (١)

إن المسلمين مسؤولون أمام الله عن مودة أهل البيت وعن حبهم ، ومن اظهر ألوان الحب الأخذ بأقوالهم والاقتداء بهم في جميع المجالات .

١٢ ـ قال (ص) : من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ، ويسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي ، وليوال وليه وليقتد بأهل بيتي من بعدي فانهم عترتي ، خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي وعلمي فويل للمكذبين بفضلهم من امتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا انالهم الله شفاعتي » (٢)

ونقتصر على هذه السنن التي أثرت عن الرسول صلى الله عليه وآله في أهل بيته ، وهناك عشرات أمثالها ذكرت في كتب الحديث وهي تهتف بفضلهم ، وتلزم المسلمين بالرجوع اليهم في جميع المجالات .

---

(١) المراجعات نقلا عن السيوطي في احياء الميت ، والنبهاني في اربعينه .

(٢) كنز العمال ٦|٢١٧ .

احتفاء المسلمين به :

واحتفى المسلمون بالامام الحسن احتفاء بالغا فكان كبار الصحابة يقابلونه بالتجلة والتكريم ، ويتسابقون الى القيام بخدمته ، فهذا عبدالله بن عباس حبر الأمة كان إذا ركب الحسن والحسين عليهما السلام بادر فأمسك لهما الركاب وسوى عليهما الثياب ، وقد لامه مدارك بن زياد على ذلك فنهره وقال له :

« يالكع أو تدري من هذان ؟ ! هذان ابنا رسول الله صلى الله عليه وآله أو ليس مما أنعم الله به علي أن أمسك لهما الركاب ، وأسوي عليهما الثياب .. » (١)

وبلغ من تعظيم المسلمين وتكريمهم لهما انهما كانا يفدان الى بيت الله الحرام ماشيين فما اجتازا على ركب الا ترجل ذلك الركب اجلالا واكباراً لهما ، وإذا طافا بالبيت الحرام بلغ زحام الناس عليهما مبلغا هائلا لم يشاهد نظيره لاجل السلام عليهما والتبرك بزيارتهما (٢) وكان أبو هريرة إذا رأى الامام الحسن (ع) مقبلا قام اليه فقبله بسرته لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل ذلك (٣) وحقا للمسلمين أن يكرموا حفيد نبيهم ويقدسوه بعد ما كرمه النبي صلى الله عليه وآله ورفع من شأنه .

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤|٢١٢ ، مناقب ابن شهراشوب ٢|١٤٣

(٢) البداية والنهاية ٨|٣٧

(٣) مسند الامام احمد بن حنبل ٢|٢٥٥ ، انساب الاشراف للبلاذري



وقطع الحسن عليه السلام شوطا من طفولته مع جده الرسول صلى الله عليه وآله حتى توسعت مداركه ونمت ملكاته ، وهو ناعم البال قرير العين ، يستقبل الحياة كل يوم بثغر باسم وبهناء وسعادة ، يرى من جـده صلى الله عليه وآله الحنان والعطف ، ومن مشيخة الصحابة التعظيم والتكريم ، وقد رأى عليه السلام مامنح به الاسلام من التوسع وكثرة الغزوات حتى دخـل الناس في دين الله افواجا افواجا ، فقـد تحطمت عروش الشرك واندحرت قوى الالحاد ، وغزت الجيوش الاسلاميـة مكة التي هي اعز بلد وامنعه في الجزيرة العربيـة ، وقام الاسلام وهو عبل الذراع مفتول الساعد شامخ الكيان وسرت موجات فتحه الى أغلب شعوب الأرض ، وقد غمرت قـلوب المسلمين المسرات على هـذا النصر الذى أعزهم الله وأيدهم به وكان أشد المسلمين فرحا واعظمهم سروراً بهذه الانتصارات التي حققها الاسلام أهل البيت .

ولكن لم تدم لهم الحالة الهانئـة فقد عبس الزمن فى وجوههم ، واكفهر ، وغزا قلوبهم بخوف غامض وحزن بهيم فقد آن للرسول صلى الله عليه وآله أن يفد على الله ، وينتقل الى حظيرة القدس ، وقد بدت له طلائع الرحيل وامارات الانتقال وهي :

١ ــ وكانت أول النذر بمغادرته لهذه الحياة نزول الوحي عليـه بهذه الآية « إنك ميت وانهم ميتون » وقد اثارت كوامن التوجس في نفسه فقد سمعه المسلمون ينعى نفسه ويقول :

« ليتني اعلم متى يكون ذلك ؟ »

ونزلت عليه بعد هـذه الآية سورة « النصر » فكان يسكت بين التكبير والقرأة ويقول :

« سبحان الله وبحمده ، استغفر الله واتوب اليه »

وقد ساور قلوب المسلمين الخوف والجزع فانطلقت قلوبهم قبل السنتهم تستفهم عن هذه الحالة الرهيبة فاجابهم صلى الله عليه وآله :

« إن نفسي قد نعيت لي » (١)

وحينما سمع المسلمون ذلك قدّت قلوبهم وانهارت قواهم ، وغامت أبصارهم بفيض من الدموع ، وأصابتهم رجفة هزت كيانهم واشاعت في نفوسهم الجزع والخوف .

٢ - ونزل عليه القرآن الكريم في تلك السنة مرتين فاستشعر بذلك حضور الاجل المحتوم (٢) واخذ ينعى نفسه ، ويعلن مفارقته لهذه الحياة وقد تصدعت القلوب لهذا النبأ وطافت بالمسلمين أمر الوان المحن والخطوب

حجة الوداع :

ولما علم الرسول صلى الله عليه وآله بانتقاله الى دار الخلود ، وهو قد تحمل في سبيل ارشاد المسلمين وهدايتهم من العنت والعناء ما تنوء بحمله النفوس رأى أن يتم النهاية لرسالته المقدسة ويضع الخطة السليمة التي تضمن لامته من بعده السعادة والنجاح فحج صلى الله عليه وآله من اجل ذلك حجته الأخيرة الشهيرة بحجة الوداع ، في السنة العاشرة من الهجرة واشاع بين الوافدين لبيت الله الحرام ان هذا الالتقاء هو آخر العهد بهم قائلا :

« انى لا ادري لعلي لا القاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف ابدا . . »

وجعل يطوف على الجماهير ويعرفهم بما يضمن لهم السعادة والنجاح

« يا أيها الناس ، اني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل

---

(١) مناقب ابن شهرا شوب ١/١٢٧ .

(٢) الخصائص الكبرى ٢|٣٦٨

بيتي . . » (١)

لقد قرن بين الكتاب والعترة الطاهرة وجعل التمسك بهما منجاة من الفتن والزيغ ، ولو أن الامة تابعته في قوله ، وتمسكت بهما لما حلت بها الاهواء والخطوب وما عراها الذل والهوان ، وما اختلفت كلمتها ، ولا تشعبت الى فرق واحزاب « كل حزب بما لديهم فرحون »

غدير خم :

ولما فرغ النبي صلى الله عليه وآله من أداء مناسك الحج اتجه الى يثرب فلما وصل موكبه الى غدير خم هبط عليه أمين الوحي فأمره أن يحط رحله في رمضاء الهجير ، وينصب الامام أمير المؤمنين خليفة من بعــده ومرجعا لأمته،وكان أمر السماء يحمل طابعاً مهما بالغ الخطورة ، فقد نزل عليه الوحي بهذه الآية :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالتــه والله يعصمك من الناس » (٢) واضطرب النبي من هذا الانذار وهذا التهديد ، إنه إن لم ينفذ ما أراد الله في تقليد أمير المؤمنين بهــذا المنصب الخطير فما بلغ رسالة الله وضاعت جميع اتعابه وجهوده ، فانبرى صلى الله عليــه وآله بعزم ثابت الى تنفيـذ ذلك وإن اغضب الطامعين بالخلافة والمنحرفين عن الامام عليه السلام ، فوضع صلى الله عليه وآله اعباء المسير وحط رحله في ذلك المكان القاحل وكان الوقت قائضا حتى كان الرجل يضع طرف ردائه تحت قدميه ليتقى من الحر وامر صلى الله

---

(١) صحيح الترمذي ٢/٣٠٨

(٢) سورة المائدة نزلت هذه الآية في يوم الغدير ذكر ذلك الواحدي في اسباب النزول ص ١٥٠ والفخر الرازي في تفسيره الكبير وغيرها .

عليه وآله باجتماع الجماهير فلما اجتمعوا صلى بهم فلما انفلت من صلاته أمر أن توضع حدائج الابل لتكون له منبراً فصنعوا له ما اراد فاعتلى عليها وكان عدد الحاضرين مائة الف أو يزيدون ، وقد اتجهوا بقلوبهم قبل اسماعهم الى الرسول ليسمعوا مايلقي عليهم ، وانبرى صلى الله عليه وآله فبين لهم — اولا — جهاده المقدس واتعابه الشاقة في سبيل ارشادهم وانقاذهم من حضيض الشرك والعبودية ، وذكر لهم — ثانياً — جملة من الاحكام الاسلامية والآداب الدينية فأمرهم بتطبيقها على واقع حياتهم ، وبعد ذلك قال لهم :

« فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين »

فناداه مناد من القوم

« وما الثقلان يارسول الله ؟ »

فاجابه صلى الله عليه وآله : « الثقل الاكبر كتاب الله طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فتمسكوا به لاتضلوا ، والآخر الاصغر عترتي وان اللطيف الخبير نبأني انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فسألت ذلك لهما ربي فلا تقدموهما فتهلكوا ، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا »

ثم أخذ بيد علي حتى بان بياض أبطيهما وعرفه القوم اجمعون وقال :

« أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من انفسهم ؟

فاجابوه « الله ورسوله اعلم »

فقال صلى الله عليه وآله : إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من انفسهم ، فمن كنت مولاه فعلي مولاه قال ذلك ثلاث مرات او أربع مرات ، ثم قال :

« اللهم وال من والاه وعاد من عاده ، واحب من أحبه ، وابغض

من ابغضه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وادر الحق معه حيث دار الا فليبلغ الشاهد الغايب » (١)

ولما انهى صلى الله عليه وآله خطابه الشريف الحافل بتكريم أمير المؤمنين عليه السلام وتقليده للخلافة العظمى انبرى الى النبي (ص) حسان ابن ثابت فاستأذنه ان يتلو احدى روائع نظمه ليصف بها هذه المناسبة الخالدة فاذن له في ذلك فانطلق يقول :

يناديهم يوم الغدير نبيهم   بخم واسمع بالرسول مناديا
فقال فمن مولاكم ونبيكم   فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت نبينا   ولم تلق منا في الولاية عاصيا
فقال له : قم ياعلي فانني   رضيتك من بعدي إماما وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه   فكونوا له اتباع صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه   وكن للذي عادى عليا معاديا (٢)

واقبل المسلمون على اختلاف طبقاتهم يبايعونه بالخلافة ويهنؤنه بامرة المؤمنين ، وأمر الرسول صلى الله عليه وآله أمهات المؤمنين أن يسرن اليه ويهنئنه (٣) وممن هنأه عمر بن الخطاب فقد صافحه وقال له :

---

(١) حديث الغدير من الاحاديث المتواترة القطعية ، اجمع المسلمون على روايته ، وقد بحث عنه من حيث السند والدلالة نابغة الاسلام سماحة الحجة الاميني سلمه الله في موسوعته الخالدة « الغدير » وقد خص الجزء الاول من كتابه في البحث عن ذلك ، وصحب معه في بقية الاجزاء جيشا من الشعراء والادبا الذين أشادوا بذكرى الغدير فترجم لهم وذكر مالهم من التراث الأدبي والعلمي .

(٢) الغدير ٢/٣٤

(٣) الغدير ١/٢٧١ نقلا عن روضة الصفا للمؤرخ خاوندشاه في الجزء الثاني ص ١/٢٧٣

« هنيئا يابن أبي طالب اصبحت وامسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة ... » (١)

وفي ذلك اليوم الخالد في دنيا الحق والفضيلة نزلت هذه الآية الكريمة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا » (٢)

لقد تمت النعمة الكبرى ، وكمل الدين بولاية أمير المؤمنين ، وامام المتقين ، وقد خطا النبي صلى الله عليه وآله بذلك الخطوة الاخيرة للمحافظة على المجتمع الاسلامي وعلى التشريع الاسلامي فلم يترك الامة حيرى تسودها الفوضى والانحلال بل نصب لها علما وهاديا ومرشداً الى سواء السبيل .

ان بيعة الغدير من اوثق الادلة واكثرها وضوحا على اختصاص الخلافة والامامة بالامام أمير المؤمنين عليه السلام ، وقد احتج بها الامام الحسن على احقية أبيه بالخلافة وذلك في خطابه الذي القاه بعد الصلح فقد جاء فيه : « إنا أهل بيت أكرمنا الله بالاسلام ، واختارنا واصطفانا واذهب عنا الرجس ، وطهرنا تطهيرا ، لم تفرق الناس فرقتين إلا جعلنا الله في خيرهما من آدم الى جدي محمد صلى الله فلما بعثه الله للنبوة واختاره للرسالة وانزل عليه كتابه ثم امره بالدعاء الى الله عز وجل فكان أبي اول من استجاب لله ولرسوله ، وأول من آمن وصدق الله ورسوله صلى الله عليه وآله وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيه المرسل : « افمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » فجدي الذي على بينة من ربه وأبي الذي يتلوه وهو شاهد منه « إلى أن قال » وقد سمعت هذه الامة جدي

---

(١) مسند احمد ٤|٢٨١

(٢) سورة المائدة ذكر نزول الآية في يوم الغدير السيوطي في الدر المنثور والخطيب البغدادي في تاريخه ٨|٢٩٠ وغيرهما

يقول : ما ولت امــة امرها رجلا ، وفيهم من هو اعلم منه الا لم يزل يذهب أمرهم سفالا حتى يرجعوا الى ما تركوه . وسمعوه يقول لابي : أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انــه لانبي بعدي . وقــد رأوه وسمعوه حين أخذ بيد أبي بغدير خم ، وقال لهم : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وآل من والاه وعاد من عاده ثم أمرهم أن يبلغ الشاهد الغايب » (١)

لقد حفلت كتب التاريخ الاسلامي بذكر احتجاج أهل البيت عليهم السلام واعلام شيعتهم ببيعة الغدير على أحقية الامام أمير المؤمنين بمنصب الخلافة الاسلامية ، ولكن القوم أعرضوا عن الحديث وأولوه حسب ميولهم وأهوائهم .

استغفاره لاهل البقيع :

ولما رجع الرسول الله عليه وآله من حجه إلى يثرب اقام بها حفنة من الايام ، وقــد احاطت به الهواجس والهموم وارق ليلة طال فيها أرقه فاستدعى أبا مويهبة (٢) في الليل البهيم فلما مثل عنده أمره بمصاحبته الى البقيع وقال له :

« لقــد أمرت بالاستغفار لاهــل البقيــع فلذا بعثت اليك للانطلاق معي ... »

وسار الرسول صلى الله عليه وآله حتى انتهى الى البقيع فسلم على الاموات وهنأهم بما هم فيه وأخذ يخبر عن الفتن السود التي ستنصب على أمته من بعده قائلا :

---

(١) الغدير ١/١٩٧

(٢) ابو مويهبة مولى لرسول الله اشتراه واعتقه

« السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنئكم ما اصبح الناس فيه ، فقد اقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها اولها ، الآخرة شر من الاولى .. »

وانطلق يحدث ابا مويهبة عن مغادرته لهذه الحياة قائلا له :

« إني قد اوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها ثم الجنة بعد ذلك فاخترت لقاء ربي والجنة »

فقال له أبو مويهبة : بأبي انت وأمي ألا تأخذ مفاتيح خزائن الدنيا وتكون مخلدا فيها ثم الجنة بعد ذلك ؟ .. »

فاجابه الرسول صلى الله عليه وآله عن رغبته الملحة في ملاقاة الله « لا والله لقد اخترت لقاء ربي » ثم استغفر لاهل البقيع وانصرف الى منزله (١)

سرية اسامة :

ولما علم الرسول صلى الله عليه وآله أن لقاءه بربه لقريب أراد أن يعزز خلافة أمير المؤمنين عليه السلام التي عقد أواصرها في « غدير خم » وأن يقضي على روح الشغب والتمرد ليتم الامر بعد وفاته بسهولة الى الامام عليه السلام فرأى أن خير ضمان لتحقيق ذلك اخلاء عاصمته من جميع المناوئين للامام عليه السلام وارسالهم الى ساحة الجهاد لغزو الروم فأمر أصحابه بالتهيؤ الى ذلك ولم يبق احداً من أعلام المهاجرين والانصار كابي بكر وعمرو أبي عبيدة وبشير بن سعد وامثالهم (٢) وأمر

(١) سيرة ابن هشام ٩٣/٣ تاريخ الطبري ١٩٠/٣ وذكر المجلسي في بحاره ١٢١/٦ ان رسول الله (ص) لما احس بالمرض اخذ بيد علي عليه السلام وتبعه فريق من الناس فتوجه الى البقيع واستغفر لاهله .

(٢) كنز العمال ٣١٢/٥ ، طبقات ابن سعد ٤٦/٤ ، تاريخ الخميس ٤٦/٢

عليهم اسامة بن زيـد (١) وذلك لأربـع ليال بقين من صفر سنـة احدى عشر للهجرة ، وقال لاسامة : « سر الى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل فقد وليتك هذا الجيش ، فاغز صباحا على أهل ابنى (٢) وحرّق عليهم ، واسرع السير لتسبق الاخبار ، فان أظفرك الله عليهم فاقل اللبث فيهم ، وخذ معك الأدلاء ، وقدم العيون والطلائع معك .. »

وفى اليوم الثامن والعشرين من شهر صفر ألم المرض به فاصابته حمى ملازمة وصداع شديد قيل انهما كانتا مسببين عن الطعام المسموم الذي ذاقه في خيبر فكان يقول ! « مازلت أجد ألم الطعام الذى اكلته بخيبر (٣)

ولما اصبح اليوم التاسع والعشرين من صفر رأى أصحابه وقد دب فيهم التمرد والتخاذل خرج بنفسه مع مامّي به من المرض فحثهم على

---

(١) اسامة بن زيد : بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى الكلبي امه ام ايمن ، واسمها بركة مولاة رسول الله (ص) وحاضنته اختلف فى سنه يوم مات رسول الله (ص) فقيل ابن عشرين سنة ، وقيل ابن تسع عشرة ، وقيل ابن ثمان عشرة سنة ، سكن بعد موت النبي (ص) وادي القرى ثم رجع الى المدينة فمات بالجرف في آخر خلافة معاوية وكانت وفاته سنة ثمان اوتسع وخمسين من الهجرة وقيل سنة اربع وخمسين جاء في الاستيعاب المطبوع عن هامش الاصابة ٣٤/١ — ٣٥ ، ومما يؤسف انه انحرف عن الحق فانه لم يبايع امير المؤمنين حينما آلت اليه الخلافة والسبب في ذلك ان هبات الامويين واموالهم الوفيرة التي اغدقوها عليه حرفته عن امير المؤمنين .

(٢) ابنى ـ بضم الهمزة وسكون الباء ثم نون مفتوحة بعدها الف مقصورة ـ: ناحية بالبلقاء من ارض سوريا بين عسقلان والرملة وهي قرب موتة التى استشهد عندها زيد بن حارثة وجعفر بن ابي طالب .

(٣) مستدرك الحاكم ٣/ ٥٨

المسبر وحفزهم على الخروج ، وعقد اللواء بنفسه لأسامة وقال له :

« اغز بسم الله ، وفي سبيل الله ، وقاتل من كفر بالله »

فخرج بلوائه معقودا ودفعه الى بريدة ، وعسكر بالجرف ، وتثاقل القوم من الالتحاق به واظهروا التمرد والتخاذل يقول عمر لاسامة :

« مات رسول الله صلى الله عليه وآله وانت علي امير ؟! » (١)

وانطلقت السنتهم بالنقد اللاذع والاعتراض المر على تأمير أسامة ، وتثاقلوا من الالتحاق بالجيش فوصلت كلماتهم الى مسمع الرسول صلى الله عليه وآله وقد ازدادت به الحمى المبرحة واخذ منه الصداع القاسي مبلغا ليس بالقليل فغضب صلى الله عليه وآله وخرج وهو معصب الرأس مدثر بقطيفته وقد برّح به الحزن لانه رأى أن الوسيلة التي مهدها لغايته ستبوء بالفشل وعدم النجاح فصعد المنبر وذلك في يوم السبت لعشر خلون من ربيـع الاول ، فاظهر سخطه البالغ وغضبـه الشديد على عدم تنفيذهم لأوامره قائلا :

« أيها الناس ، ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامـة ؟ ولئن طعنتم في تاميري اسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبله وايم الله إنه كان لخليقا بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بها »

ثم نزل عن المنبر ودخل بيته (٢) وجعل يوصي بالالتحاق به وهو يقول :

« جهزوا جيش اسامة »

« نفذوا جيش اسامة »

« لعن الله من تخلف عن جيش أسامة »

---

(١) السيرة الحلبية ٣|٣٤ وغيره من المحدثين والمؤرخين

(٢) السيرة الحلبية ٣|٣٤

ولم تثر حفائظ نفوسهم هذه الأوامر المشددة ، ولم يرهف عزيمتهم هذا الإهتمام البالغ من النبي صلى الله عليه وآله وهو في ساعاته الأخيرة فقد تثاقلوا عن الخروج ، وتخلفوا عن الجيش ، واعتذروا للرسول صلى الله عليه وآله بشتى المعاذير وهو ـ بأبي وأمي ـ لم يمنحهم العذر ، وأظهر لهم الغيظ والسخط ، والمتأمل في هذا الحادث الخطير يستنتج مايلي :

١ ـ إن اهتمام النبي صلى الله عليه وآله بشأن اخراج القوم من يثرب ولعنه لمن تخلف من الالتحاق بجيش اسامة يدل بوضوح لاخفاء فيه على غايته المنشودة وهي اخلاء عاصمته من الحزب المعارض لامير المؤمنين عليه السلام ليصفو له الأمر بسهولة ، وتتم له الخلافة بهدوء وسلام .

٢ ـ ان تخلف القوم عن الجيش وطعنهم في تأمير اسامة ما كان المقصود منه الا الظفر بالسلطة والحكم ، واحكام قواعد سياستهم فانهم اذا انصرفوا الى الغزو ونزحوا عن عاصمة الرسول صلى الله عليه وآله فان الخلافة لامحالة تفوت من أيديهم ، ولا مجال لهم حينئذ الى التمرد والخلاف .

٣ ـ ان السبب في عدم تولية الرسول صلى الله عليه وآله قيادة الجيش لذوي السن والموجهين من الصحابة انما هو للاحتياط على مستقبل الأمة ، وصيانتها من الاضطراب والفتن من بعده ، فانه لو اسند القيادة اليهم لاتخذوها وسيلة الى أحقيتهم بالخلافة ومطالبتهم بالحكم فسد صلى الله عليه وآله عليهم هذه النافذة لئلا يتصدع شمل الامة ، ويضطرب أمنها .

وأما الحكمة من تأميره صلى الله عليه وآله لأسامة وهو حدث السن فقد كان عمره انذاك سبعة عشر عاما او يزيد عليها بيسير فهي مايلي :

(أ) ـ سد جميع نوافذ الخلاف والطعن في خلافة امير المؤمنين عليه

السلام لأنه حدث السن فان أسامــة اصغر منـه سنا وقد اسند اليه اهم الوظائف العسكرية في جيشه .

(ب) ــ الغاء التقدم في الـسن ، وعدم الاعتناء به في استحقاق المناصب الرفيعة مع حـرمان الشخص من القابليات والمواهـب ، فان ادارة شؤون الامة وقيادتها انما يستحقها ذوو الكفاآت والحزم والادارة وقد صرح صلى الله عليه وآله بهذه الفكرة الاصلاحية بقوله :

« من تقـــدم على قوم من المسلمين وهو يرى أن فيهـم من هو أفضل منه فقد خان الله ورسوله ، والمسلمين » (١)

وقال صلى الله عليـه وآله : « من استعمل عامـلا من المسلمين ، وهو يعلم أن فيهم أولى بذلك منه فقد خان الله ورسوله وجميع المسلمين »(٢)

ان الاسلام يحرص كل الحرص على تعيين خيرة الرجال واكثرهم كفاءة للعمل في جهاز الحكم ليضعوا المصلحة العامة نصب اعينهم ويكونوا امناءاً فيما يجبونه من الناس وفيما ينفقونه على المرافق العامة ، وان يسيروا بين الناس بسـيرة قوامها العدل الخالص ، ولا يكون ذلك بتقدم السن وانما يكون بالدراية والاطلاع على ما تحتاج اليـه الامة في جميع مجالاتها العامة (٣)

(ج) ــ انه صلى الله عليه وآله في تامـيره لاسامة قـد كبح جماح المناوئين لأمير المؤمنـين ، وكسر شوكتهم وحطم معنوياتهم ، واقصاهم الى حد بعيد ، وقد فطنوا الى مادبر صلى الله عليه وآله فطعنوا في تأمير

---

(١) سنن البيهقي : ١١١|١٠ مجمع الزوائد

(٢) تمهيد الباقلاني : ص ١٩٠

(٣) قد بسطنا البحث فى هذه الجهة في كتابنا الماثل للطبع نظام الحـكم والادارة فى الاسلام .

أسامة ، وتثاقلوا من الالتحاق بكتيبته ، ولم يبرحوا مقيمين بالجرف حتى لحق الرسول صلى الله عليه وآله بالرفيق الاعلى .

هذه بعض البوادر التي تطل على المتأمل في سرية أسامة وهي صريحة الدلالة على قصده صلى الله عليه وآله من تمهيد الأمر للامام امير المؤمنين بعد وفاته بهدوء وسلام (١) كما تدل بوضوح على وجود المؤامرة الخطيرة التي دبرها القوم ضد خليفته ووصيه كما ولعلنا سنذكر ذلك مفصلا في بعض الفصول .

اشتداد مرضه :

واشتدت الحمى عليه حتى كأن به لهبا منها ، وكانت عليه قطيفة فاذا وضع أزواجه وعواده أيديهم عليها شعروا بحرها (٢) ووضعوا الى جواره اناءا فيه ماء بارد فما زال يضع يده فيه ويمسح به وجهه ، واقبل المسلمون يهرعون الى عيادته وقد خيم عليهم الجزع والذهول فازدحمت حجرته بهم فنعى اليهم نفسه واوصاهم بما يضمن لهم السعادة والنجاح قائلا :

« أيها الناس يوشك أن اقبض قبضا سريعا فينطلق بي ، وقد قدمت اليكم القول معذرة اليكم الا اني مخلف فيكم كتاب الله عز وجل وعترتي أهل بيتي »

ثم اخذ بيد علي فرفعها وقال :

« هذا علي مع القرآن ، والقرآن مع علي لايفترقان حتى يردا علي الحوض » (٣)

---

(١) المراجعات والنص والاجتهاد للامام شرف الدين ، وقد حلل فيهما سرية اسامة ، تحليلا رائعا .

(٢) حياة محمد لهيكل ص ٤٨٤ .

(٣) الصواعق المحرقة لابن حجر

وكان الاجدر بالأمة أن تتابع الرسول صلى الله عليه وآله وتواكب أراءه فتتبع أمير المؤمنين وتسلم له قيأتها لانه يسير بمنهج القرآن ويحكم بما انزل الله ، ولو انها حققت ذلك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله لنجت من جميع النكسات وما اصيبت به من الفتن والخطوب ، ولتقدم الاسلام بخطى ثابتة متزنة وسادت في العالم مباديء الحق والعدالة .

اعطاء القصاص من نفسه :

وخرج علة الكائنات وسيد الموجودات وهو مثقل قد تعصب بعمامته ليعلن المساواة العادلة التي جاء بها ، ويعطي القصاص من نفسه لو كان منه اعتداء على اي انسان فاعتلى أعواد المنبر وبين للمسلمين مدى ماعاناه من الجهود في سبيل ارشادهم وهدايتهم ثم قال :

« ان ربي عز وجل حكم واقسم أن لايجوزه ظلم ظالم ، فانشدكم بالله أي رجل منكم كانت له قبل محمد مظلمة الا قام ليقتص مني فالقصاص في دار الدنيا أحب الى من القصاص في دار الآخرة على رؤوس الملائكة والانبياء . . »

ووجم الحاضرون عن الجواب ، وذهلوا حتى عن نفوسهم ، وساد فيهم صمت رهيب أي واحد له ظلامة او حق عند الرسول صلى الله عليه وآله وهو مشرع العدالة الكبرى ومثال اللطف الالهي ، وقد خيم عليهم الجزع لأنهم عرفوا أن كلامه كلام مودع لهذه الحياة ، وانبرى من اقصى القوم شخص يسمى سوادة بن قيس فادعى ان رسول الله صلى الله عليه وآله اصابه بسوط في بطنه ، وهو يريد القصاص منه فأمر صلى الله عليه وآله بلالا أن يحضر له السوط ليقتص منه سوادة وانطلق بلال وهو مبهور قد ملكت احاسيس نفسه هذه العدالة الكبرى فراح يجوب في ازقة يثرب

وهو رافع عقيرته قائلا :

« ايها الناس اعطوا القصاص من أنفسكم في دار الدنيا ، فهذا رسول الله قد اعطى القصاص من نفسه »

ومضى الى دار النبي صلى الله عليه وآله فاخذ السوط ، وجاء به الى رسول الله صلى الله عليه وآله فأمره أن يدفعه الى سوادة ليقتص منه وتوجه المسلمون بقلوبهم قبل ابصارهم الى سوادة ينظرون هل يقتص من النبي صلى الله عليه وآله ؟ وهو بتلك الحالة قد فتك به المرض واضناه السقام ، وانبرى سوادة وهو مرتعش الخطا قد غمرته عظمة الرسول وهيبته فقال له :

« يارسول الله اكشف لي عن بطنك .. »

فكشف صلى الله عليه وآله عن بطنه فقال له سوادة بصوت خافض :

يارسول الله ، اتاذن لي أن اضع في على بطنك ؟

فاذن له صلى الله عليه وآله فوضع سوادة فمه على بطن رسول الله صلى الله عليه وآله ودموعه تتبلور على خديه وهو يقول :

« اعوذ بموضع القصاص من رسول الله من النار يوم النار »

فقال له النبي صلى الله عليه وآله : اتعفو ياسوادة ام تقتص ؟

بل اعفو يارسول الله

فرفع صلى الله عليه وآله يده بالدعاء له قائلا :

اللهم ، اعفو عن سوادة كما عفا عن نبيك محمد (١)

وتصدعت قلوب المسلمين ، وبلغ بهم الحزن الى قرار سحيق ، وايقنوا بنزلة القضاء المرهوب والرزء القاصم

---

(١) البحار ٦|١٠٣٥

واحاط الاسى بابنة الرسول وألم بها الخطب واضر الحزن بقلبها الرقيق المعذب ، فقد شاهدت أباها يعاني اشد الألم والكرب وهو يقول :

(واكرباه)

ويمتلئ قلبها باللوعة والحزن فتجيبه

« وا كربي لكربك يا أبتِ »

فنظر اليها وقد غام بصرها بالدموع فاشفق عليها وقال لها :

« لا كرب على أبيك بعد اليوم .. »

ولما اشتدت حالته تغير وضع الزهراء (ع) فكانت شاحبة اللون خائرة القوى ذاهلة اللب قد ساورتها الهواجس والهموم واحاطت بها الآلام والاحزان فلما رآها تصدع قلبه وأراد أن يزيل عنها كابوس الحزن فاجلسها الى جنبه فاسر اليها بحديث فلم تملك عند سماعه الا ان تجرى عيناها بالدموع ومال صلى الله عليه وآله اليها ثانية فالقى عليها كلاما قابلته ببسمات فياضة بالبشر والرضا ، وعجبت عائشة من هذا الصنيع وراحت تقول :

« مارأيت كاليوم فرحا أقرب من حزن !! »

وسألتها عما قال لها رسول الله صلى الله عليه وآله فامتنعت عن اجابتها ، ولما تصرمت الايام اخبرت عن سبب ذلك البكاء والسرور فقالت أخبرني :

« ان جبرئيل كان يعارضني بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضني هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر أجلي »

فهذا سبب لوعتها وبكائها واما سبب سرورها فتقول أخبرني .

« انك اول أهل بيتي لحوقا بي ، ونعم السلف انا لك .. ألاترضين أن تكوني سيدة نساء هذه الامة .. »

لقد دفع صلى الله عليه وآله عن حبيبته الأسى باخبارها بعدم طول الفراق بينها وبينه ، ولما علمت أن لقاء أبيها بربـــه لقريب انطلقت الى بيتها فجاءت بولديها وهي تذرف من الدموع مهما ساعدتها الجفون فقالت له : « أبه هذان والداك فورثهما منك شيئا .. »

فافاض عليهما الرسول من مكرمات نفسه ، وورثهما من كمالاتـــه قائلا :

« اما الحسن فان له هيبتي ، وسؤددي ، وأما الحسين فان له جرأتي وجودي » (١)

ويقوم الحسن من عنده وقد ورث منه الهيبة والسؤدد ، وورث منه سيد الشهداء الجرأة والجود ، وهل هناك مما تحويه البسيطة ميراث خير من هذا الميراث الحاوي لكمالات النبوة وسؤددها ، وقد كان الحسن بحكم ميراثه رمزا للهيبة الأحمدية ، ومثالا للسؤدد النبوي فقد روى (أنه كان عليه سيماء الانبياء وبهاء الملوك .) (٢)

التصدق بما عنده

وكانت عنـــد الرسول صلى الله عليه وآله قبل مرضه سبعة دنانير فخاف أن يقبضه الله اليه وهي عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ولكن انشغالهم بتمريضه والقيام بخدمته انساهم تنفيذ أمره ، فلما افاق من مرضه سألهم مافعـــلوا بها ؟ فاجابوه أنها ماتزال باقية عندهم فطلب منهم أن

---

(١) كنز العمال ١١٠/٧ شرح النهج ٤/٤ .

(٢) مناقب ابن شهراشوب .

يحضروها فلما جيء بها اليه وضعها في كفه وقال :

« ماظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه » (١)

ثم تصدق بها على فقراء المسلمين ، ولم يبق منها عنده شيء .

الرزية الكبرى

واستشف الرسول صلى الله عليه وآله من وراء الغيب أن امته من بعده سوف تنصب عليها الفتن كقطع الليل المظلم وتتوالى عليها الخطوب السود فترتد على اعقابها بعد الايمان — كما اخبر صلى الله عليه وآله — فكبر ذلك وعظم عليه ، وزاد في حزنه وأساه وهو في ساعاته الأخيرة اطلاعه على المؤامرة الكبرى التي دبرت ضد وصيه وخليفته وباب مدينة علمه وذلك بتخلف القوم وتثاقلهم عن الالتحاق بسرية أسامة فرأى صلى الله عليه وآله أن يسلك طريقا آخر يصون امته من الضلال ويحميها من الفتن والاخطاء فقال صلى الله عليه وآله :

« إئتوني بالكتف والدواة ، اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا .. (٢)

ماأعظمها من نعمة ، واغلاها من فرصة لواستغلوها وسارعوا الى تنفيذها وتحقيقها لوقوا انفسهم ووقوا الاجيال اللاحقة من الزيغ والانحراف ولكنهم حرموا أنفسهم السعادة ، وسدوا نوافذ الرحمة والهداية عليهم وعلى من يليهم من الاجيال ، فقد خدعتهم الدنيا وتهالكوا على الامرة وعلموا قصد الرسول صلى الله عليه وآله وعرفوا غايته انه سيوصي بامير المؤمنين ويعزز بيعة يوم الغدير فتفوت بذلك أهدافهم وتضيع مصالحهم فانبرى اليه أحدهم بكل وقاحة

(١) مسند احمد ١|٣٥٥ وغيره .

(٢) الرواية اخرجها الطبراني في الاوسط ، والبخاري ومسلم .

وصلافة رادا عليه قائلا :

« حسبنا كتاب الله »

والمتأمل في هـذا الرد تنفتح أمامه الكوة التي تطل على تآمرهم وعلى مخططاتهم في اقصاء أمير المؤمنين عن جهاز الحكم فانهم لو كانوا يحتملون ان رسول الله صلى الله عليه وآله لايوصي بالخلافة اليه وانمايوصي بحماية الثغور أو بالمحافظة على طقوسه الدينية لما قابلوه بهذه الجرأة وماردوا رغبته ، ولكنهم علموا مايريده فقاموا بعمليات التخريب والافساد ، وعلى اي حال فقد كثر الخلاف والتشاجر في ذلك ، وانطلقت النسوة من وراء الستر فقلن لهم :

« الا تسمعون مايقول رسول الله : ؟ »

فثار عمر وصاح فيهن لئلا يفسد عليهم الامر قائلاً :

« انكن صويحبات يوسف إذا مرض عصرتن اعينكن ، واذا صح ركبتن عنقه .. »

فرمقه الرسول صلى الله عليه وآله بطرفه وقد ازعجه كلامه فقال له :

« دعوهن فانهن خير منكم »

وكادت أن تفوز الجبهة التي رغبت في تنفيذ ارادة الرسول فانبرى احد المعارضين فسدد لهم سهما افسد عليهم أمرهم فقال : وياهول ماقال :

« إن النبي ليهجر .. » (١)

---

(١) ذكر الحادثة البخاري عدة مرات في ٤|٦٩ و ص ٩٩ وفي ج ٦|٨ وكتم اسم القائل لهذه الكلمة وصرح ابن الاثير في نهاية غريب الحديث وغيره ان القائل هو عمر بن الخطاب ، وقد اعترف عمر في حديثه مع ابن عباس انه صد النبي (ص) عن الكتابة في علي وعترته ، كما في شرح النهج المجلد الثالث ص ١١٤

اي خطب حـل بالاسلام مثل هذا الخطب ، وأي رزية مني بها المسلمون مثل هـذه الرزية افيحكم على علة الموجودات وسيد الكائنات بالهجر ؟ لقد رجع القوم الى جاهليتهم الاولى وتناسوا مقام النبي صلى الله عليه وآله فقابلوه بأمر الكلام وأقساه ، فانا لله وإنا اليه راجعون .

إنها الرزية الكبرى ، والرزء القاصم الذى يذيب هوله القلوب ، فقد حيل بين المسلمين وبين سعادتهم ، وأقصي عنهم الخير ، وكان ابن عباس اذا ذكر الحادث المؤلم يتفجع ويبكي حتى تسيل دموعه على خديه كأنها نظام اللؤلؤ ويتنهد ويقول : يوم الخميس ، وما يوم الخميس ! قال رسول الله : إئتوني بالكتف والدواة أو اللوح والدواة أكتب لكم كتابا ان تضلوا بعده أبداً فقالوا ان رسول الله يهجر (١)

ولم يسمعوا نصوص القرآن الكريم وهي تتلى عليهم آناء الليـل ، وأطراف النهار ، وقد دلت على عصمة النبي صلى الله عليـه وآله قال تعالى : « ماضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو الاوحي يوحى علمه شديد القوى » وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم امين وما صاحبكم بمجنون » الى غير ذلك من الآيات التي نصت على عصمته من الهجر ، ولكن القوم قـد غرتهم الدنيا ، وراقهم زبرجها فانحرفوا عن طريق الحـق ، ومالوا عن سنن العدل ، وتركوا الأمة تردى فى ميادين الجهالة والغواية ، وسدوا عليها نوافذ الرحمة والهداية .

الى الرفيق الاعلى

ولما قرب دنو النبي صلى الله عليه وآله الى حظيرة القدس بعث الله

---

(١) مسند احمد ١|٣٥٥

اليه ملك الموت ليسمو بروحه الطاهرة الى جنة المأوى ، والى سدرة المنتهى وجاء ملك الموت فاستأذن من أهل بيت الوحي بالدخول على رسول الله صلى الله عليه وآله فاخبرته الزهراء عليها السلام بأن النبي صلى الله عليه وآله في شغل عنه لأنه كان قد أغمي عليه من شدة المرض ، وبعد برهة كرر الطلب فافاق الرسول صلى الله عليه وآله من اغمائه فقال لابنته :

— اتعرفيه ؟

— لا يارسول الله

— إنه معمر القبور ، ومخرب الدور ، ومفرق الجماعات

فانهد كيانها ، واحاط بها الذهول ، وارسلت مافي عينيها من دموع وراحت تقول بصوت خافت حزين النبرات « واويلتاه لموت خاتم الانبياء وامصيبتاه لممات خير الاتقياء ، ولانقطاع سيد الاصفياء ، واحسرتاه لانقطاع الوحي من السماء ، فقد حرمت اليوم كلامك . . »

واشفق الرسول صلى الله عليه وآله على بضعته فارسل لها كلمة فيها سلوى وعزاء فقال لها :

« لاتبكي فانك اول أهلي لحوقاً بي . . » (١)

واذن صلى الله عليه وآله لملك الموت بالدخول عليه فلما مثل عنده قال له :

« يا رسول الله ، إن الله ارسلني اليك وأمرني أن اطيعك في كل ماتأمرني إن أمرتني أن اقبض نفسك قبضتها ، وان امرتني أن أتركها تركتها . . . »

فقال صلى الله عليه وآله اتفعل ياملك الموت ؟

بذلك أمرت أن أطيعك في كل ما أمرتني .

(١) درة الناصحين ص ٦٦

ثم دخل جبرئيل فقال : يا احمد ان الله قد اشتاق اليك .. » (١)

ولما علم أهل البيت أن النبي صلى الله عليه وآله سيفارقهم في هذه اللحظات اذهلهم الخطب وبلغ بهم الحزن الى قرار سحيق ، وجاء الحسن والحسين فالقيا بانفسهما على الرسول ليودعاه الوداع الأخير وهما يذرفان الدموع فجعل صلى الله عليه وآله يقبلهما وهما يقبلانه وأراد أمير المؤمنين أن ينحيهما عنه فقال صلى الله عليه وآله :

« دعهما يتمتعان مني واتمتع منهما فستصيبهما بعدي إثرة ... »

ثم التفت الى عواده فقال لهم :

« قد خلفت فيكم كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، فالمضيع لكتاب الله كالمضيع لسنتي ، والمضيع لسنتي كالمضيع لعترتي انهما لن يفترقا حتى اللقاء على الحوض .. » (٢)

واستدعى وصيه وخليفته امير المؤمنين فقال له :

« ضع رأسي في حجرك فقد جاء أمر الله فاذا فاضت نفسي فتناولها وامسح بها وجهك ، ثم وجهني الى القبلة وتولّ أمري ، وصل عليّ أول الناس ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي واستعن بالله عز وجل .. »

واخذ أمير المؤمنين رأس النبي صلى الله عليه وآله فوضعه في حجره ومد يده اليمنى تحت حنكه ، واذن صلى الله عليه وآله لملك الموت باستلام روحه المقدسة ، واخذ صلى الله عليه وآله يعاني آلام الموت وشدة النزع حتى فاضت نفسه الزكية فمسح بها الامام وجهه (٣) ونعاه الى الحاضرين

---

(١) طبقات ابن سعد ٢|٤٨

(٢) مقتل الحسين للخوارزمي ١|١١٤

(٣) المناقب ١|٢٩ ، وتظافرت الاخبار بأن رسول الله (ص) توفي في حجر علي عليه السلام فقد جاء في كنز العمال ٤|٥٥ ان ابا غطفان قال سألت ابن عباس

لقد انطوت الوية العــدالة في ذلك اليوم الخالد في دنيا الاحزان ، وانحمدت مصابيح الكمال والفضيلة ، وما اصيبت الانسانية بكارثة كهـذه الكارثة فقد مات المنقذ العظيم ، واحتجب النور الذي اضاء الطريق للانسان وهداه الى سواء السبيل .

وطاشت احلام المسلمين أمام هذا الخطب المريع فما بعد رسول الله صلى الله عليه وآله للناس عزاء ولا للأسى على فقده مدى ولا انتهاء ، لقد ذهب محمد عن هـذه الدنيا وغرب نور محياه فانطلقت الالسن نادبة والاعين باكية ، وعلى الصراخ والعويل من بيت النبي صلى الله عليه وآله وكان اكثر أهل بيته لوعة واشدهم مصابا هي بضعته الزهراء فقد وقعت على جثمانه وهي مذهولة اللب من شدة الوله والحزن وهي تبكي امر البكاء وتقول :

« وا أبتاه ، الى جبرئيل انعاه !... وا أبتاه جنة الفردوس مأواه !.. وا أبتاه أجاب ربا دعاه !!.. » (١)

وسرى النبأ المفجع الى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله فتركها تمور في الحزن واجتمع المسلمون وهم حيارى قد أخرسهم الخطب وألم بهم الحادث المريع وهم ما بين واجم وصائح ومشدوه ونائح وانتهوا الى

فقلت له لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله راسه فى حجر من ؟ فقال توفى وهو الى صدر علي ، فقلت له ان عروة حدثنى عن عائشة انها قالت توفي رسول الله صلى الله عليه وآله بين سحري ونحري فقال لي : أتعقل ؟ ! والله لتوفي رسول الله وهو الى صدر علي وهو الذي غسله واخرجه ابن سعد فى ص ٥١ من القسم الثانى من الطبقات .

(١) سنن ابن ماجة وجاء فيه ان حماد بن زيد قال رايت ثابت راوى الحديث حينما يحدث به يبكي حتى تختلف اضلاعه

واد من الالم ماله قرار .

وقام أمير المؤمنين وقد حفت به الآلام والاحزان فأخذ في تجهيز الرسول صلى الله عليه وآله فغسله (١) وهو يقول : « بابي أنت وامي طبت حيا وميتا .. » (٢)

وبعد الفراغ من تجهيزه وضعه على السرير ، فاول من صلى عليه هو الله من فوق عرشه ثم جبرئيل ثم ميكائيل ثم اسرافيل ثم الملائكة زمراً زمرا (٣) ودخل المسلمون يلقون على الجثمان المقدس نظرة الوداع ، ويؤدون فريضة الصلاة (٤) وبعد الانتهاء قام الإمام فحفر القبر ولما فرغ منه

---

(١) وفاء الوفاء ١|٢٢٧ وجاء في كنز العمال ٤|٥٣ ان الامام عليا غسل رسول الله (ص) وكان الفضل واسامة يناولانه الماء من وراء الستر ، وجاء فيه ايضا انه قد اختلف في كفنه فقيل كفن في ثلاثة اثواب وقيل في حلة يمانية وقميص ، وذكراقوالا اخرى في كفنه (ص) ونقل ان اباقلاعة كان يقول الا تعجب من اختلافهم في كفن رسول الله (ص)

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢|القسم ٢|٦٣

(٣) حلية الاولياء ٤|٧٧

(٤) كنز العمال ٤|٥٤ وجاء فيه ان الامام امير المؤمنين (ع) لما وضع الجثمان ـ المعظم على السرير لاجل الصلاة عليه قال للمسلمين لايقوم عليه امام منكم ، هو امامكم ، حيا وميتا فكان الناس يدخلون رسلا رسلا فيصلون عليه صفا صفا ليس لهم امام وامير المؤمنين (ع) واقف الى جانب الجثمان وهو يقول السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته ، اللهم ، انا نشهد انه قد بلغ ما انزل اليه ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله حتى اعز الله دينه وتمت كلمته ، اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما انزل اليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه وكان الناس يقولون آمين آمين حتى صلى عليه الرجال والنساء والصبيان ، واختلف في تاريخ وفاته صلى الله عليه وآله فقيل ـ

القى المغـــيرة خاتمه في القبر ، وقال لأمير المؤمنـين عليه السلام خاتمي ، فقال عليه السلام لولده الحسن : أدخل فناوله خاتمه ، ففعل عليه السلام ذلك ، وكان مقصد المغيرة من ذلك أن يدخل القبر الشريف بعد ماخرج منه أمير المؤمنين ليفتخر على الصحابة بأنه آخر الناس عهدا برسول الله فالتفت أمير المؤمنين الى مقصده ، فامر الحسن بدخول القبر ، فكان آخر الناس عهدا برسول الله صلى الله عليه وآله (١)

وقام الامام أمير المؤمنين فوارى الجسد العظيم في مقره الأخير ووقف على القبر يرويه بماء عينيـــه ، وارسل كلمات تنم عن لواعج حزنه وثكله قائلا :

« ان الصبر لجميل الا عنك ، وان الجزع لقبيح الا عليك ، وان المصاب بك لجليل ، وانه قبلك وبعدك لجلل ... » (٢)

واذاب الهول العظيم ، والمصاب المؤلم قلب الامام الحسن (ع) وهو في سنه المبكر فذبلت منه نضارة الصبا وروعته فقد رأى من يحدب عليه ويفيض عليه من رقيق حنانه يوارى في الثرى ، ورأى أبويه وقد اضناهما الذهول واحاط بهما الأسى على فقد الراحل العظيم فترك ذلك في نفسهشديد الألم ولاذع الحزن ... لقد مضى الرسول (ص) الى الرفيق الاعلى وكان عمر

ـ في اليوم الثاني عشر من ربيع الاول (جاء في وفاء الوفا ١\٢٢٦ و ٢٢٧ وقيل في اليوم الثامن والعشرين من صفر ذكره الطبرسي في اعلام الورى ص ٧٧وقيل في اليوم الثاني من ربيع الاول ذكره ابن واضح في تاريخه ٢\٩٣ وقيل غير ذلك .

(١) طبقات ابن سعد ٢\٧٧

(٢) نهج البلاغة محمد عبده ٣\٢٢٤ ، والجلل الهين الحقير ، والمراد ان المصائب قبل مصيبة الرسول (ص) وبعدها هينة حقيرة .

الحسن سبع سنين (١) وهو دور تنمو فيه مدارك الطفولة ، وتكون فيه فكرة الطفل كالعدسة اللاقطة تنقل الى دخائل النفس كثيرا من المشاهدات والصور وينطبع فيها جميع ما يمر عليها من حزن وسعادة ، كما انه قد تكون لبعض الاطفال النابهين اللياقة والاستعداد لأن يفهم الغاية من بعض الاعمال والمواقف ، وقد رافق الامام الحسن في ذلك الدور الاحداث الخطيرة التي وقعت قبل وفاة جده الرسول صلى الله عليه وآله من امتناع القوم من الالتحاق بسرية أسامة وعدم استجابتهم للنبي صلى الله عليه وآله حينما امر باعطائه الدواة والكتف ليكتب لأمته كتابا يقيها من الفتن والضلال فعرف — من غير شك — الغاية من ذلك ، وعلم مادبره القوم من المؤامرات ضد أبيه فترك ذلك في نفسه كامن الحزن والوجد وانبرى ينكر على القوم غصبهم لحق أبيه كما سنبينه في عهد الشيخين .

---

(١) كشف الغمة : ص ١٥٤

في عهد الشيخين

وحينما مضى النبي (ص) الى جنة المأوى ، وسمت روحه الى الرفيق الاعلى ، اتثالت الفتن على المسلمين تترى كقطع الليل المظلم ، وعصفت بهم امواج عارمة من الانشقاق والاختلاف زعزعت كيانهم وصدعت شملهم ، ومزقت وحدتهم ، وقد بين تعالى مايمنى به المسلمون بعد وفاة نبيه من الارتداد والاختلاف قال تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم .. » (١)

فاي رزية اعظم من رزية الانقلاب ؟ وأي كارثة اقسى من كارثة الارتداد بعد الايمان !! لقد ترك القوم جثمان نبيهم لم يواروه في مقره الأخير وتهالكوا على الامرة والسلطان ، وصمموا على صرف الخلافة الاسلامية عن أهل بيت النبوة وموضع الرسالة ومختلف الملائكة ومهبط الوحي والتنزيل ، وقد تحدث الامام أمير المؤمنين عليه السلام عن غب مافعلوه وسوء ما ارتكبوه يقول عليه السلام :

« حتى اذا قبض رسوله رجع قوم على الاعقاب ، وغالتهم السبل واتكلوا على الولائج (٢) ووصلوا غير الرحم ، وهجروا السبب الذى أمروا بمودته ، ونقلوا البناء عن رص أساسه (٣) فبنوه في غير موضعه معادن كل خطيئة ، وأبواب كل ضارب في غمرة » (٤)

لقد استأثروا بالامر ، ونقلوه عن اهله ومعدنه ، ووضعوه في غير محله ، وقد فاجئوا أهل البيت (ع) — والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٤٤

(٢) الولائج : جمع وليجة وهي بطانة الانسان وخاصته

(٣) الرص : مصدر رصص الشيء اى الصق بعضه ببعض ومنه قوله تعالى « كأنهم بنيان مرصوص »

(٤) نهج البلاغة محمد عبده ٢|٤٨

بصرف الامر عنهم والاعتداء عليهم ، وتركوهم يتجرعون الغصص ، ويتوسدون الارق وتساورهم الهموم ، فما اعظم رزيتهم ؟ ! وما اشد محنتهم وبلاءهم !!

لقد تسرع القوم الى عقد البيعة ، وانتهزوا الفرصة في انشغال امير المؤمنين بتجهيز جثمان النبي صلى الله عليه وآله فلم يمهلوه حتى يفرغ من مواراته صلى الله عليه وآله لئلا يفوت الامر منهم ، وتضيع امانيهم وآمالهم في الاستيلاء على زمام الحكم والسلطان .. وعلى أي حال فلا بدلنا من البحث عن فصول تلك المأساة الكبرى - بايجاز - فانها ترتبط ارتباطاً وثيقا بحياة الامام الحسن عليه السلام ، فان صرف الامر عن أهل البيت عليهم السلام كانت له مضاعفاته السيئة ونتائجه الخطيرة ، واهمها طمع الطلقاء وابنائهم خصوم الاسلام واعداء الله في الخلافة الاسلامية ، ومناجزتهم لاهل بيت النبوة ومعدن الرحمة ، حتى اضطر سبط النبي صلى الله عليه وآله الامام الحسن عليه السلام في دوره الى الصلح مع معاوية وتسليم الامر له ، والى القراء بيان ذلك .

السقيفة

وترك القوم النبي صلى الله عليه وآله مسجى في فراش الموت ، لم يهتموا في شيء من أمره فقد سارع الانصار الى سقيفة بني ساعدة (١) وعقدوا لهم اجتماعا سريا أحاطوه بكثير من الكتمان والتحفظ ، واحضروا معهم شيخ الخزرج سعد بن عبادة (٢)

---

(١) السقيفة : الصفة تشبه البهو ، كانت مجمعا للانصار ودارا لندوتهم

(٢) سعد بن عبادة : سيد الخزرج ، وزعيم الانصار اعترف له قومه بالسيادة ، وقد اشتهر بالجود والسخاء هو وابوه وجده وابنه قيس ، ويقال لم -

فتداولوا في شؤون الخلافةوالسلطان ، وكانشيخالخزرج قدألم بهالمرضفخطب في القوم فلم يتمكن أن يسمع كلامه للناس وانما كان يقول ويبلغ مقالته بعض اقربائه ، وكان منطق خطابه ان الغنم بالغرم ، والانصار هم الذين غرموا في سلسلة الحروب وحركات الجهاد التي قام بها الرسول صلى الله عليه وآله فهم احق بالأمر وأولى به من غيرهم وهذا هو نص خطابه :

« يامعشر الانصار لكم سابقة في الدين وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة من العرب ، ان محمداً صلى الله عليه وآله وسلم لبث بضع عشر سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه الا القليل ، وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن انفسهم ضيما عموا به حتى إذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الايمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه ، فكنتم اشد الناس على عدوه منكم ، وأثقله على عدوه من غيركم حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها ، واعطى البعيد المقادة صاغراً

ـ يكن فى الأوس والخزرج بيت واحد فيه اربعة اشخاص اسخياء متتالون الا بيت سعد ، وهو احد النقباء ، شهد مع رسول الله (ص) العقبة وبدرا ، وقد تخلف عن بيعة ابي بكر ، وخرج غاضبا من المدينة فتبعه خالد بن الوليد وصاحب له فكمنا له ليلا فطعناه والقياه فى البئر ، واوهم خالد على بعض الحمقى ان الجن هي التى قتلته وانشدوا على لسانها بيتين من الشعر :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
ورميناه بسهمين فلم نخطىء فؤاده

كانت وفاته بحوران من ارض الشام سنة خمس عشرة من الهجرة وقبل سنة اربع عشرة ترجم في كل من الاصابة ، والاستيعاب واسد الغابة وغيرها

داخرا ، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الأرض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين ، استبدوا بهذا الأمر دون سائر الناس فانه لكم دون الناس ... » فاجابه الانصار بالرضا والطاعة قائلين

« وفقت في الرأي وأصبت في القول ، ولن نعدوا مارأيت نوليك هذا الامر فانك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى .. » (١)

لقد القى الانصار المقادة والسمع لسيد الخزرج ، واعربوا له عن رغبتهم الملحة في ترشيحه لمنصب الخلافة ، وهنا امور تدعو الى العجب وتبعث الى التساؤل في أمر الانصار وهي :

١ ــ إنهم حضنة الاسلام ، واعضاد الملة ، وحماة الدين فلماذا أسرعوا في شأن الخلافة ، وتناسوا مبايعتهم لأمير المؤمنين في غدير خم ، وتنكروا لوصايا النبي صلى الله عليه وآله في أهل بيته وعترته ؟!!

٢ ــ لماذا هذا التستر في مكان منزو عن الانظار والابصار ؟ ! ولماذا هذا التكتم والحيطة في اخفاء الامر ؟!!

٣ ــ لماذا لم يأخذوا رأي العترة الطاهرة في شأن البيعة واستبدوا بالأمر ؟؟!!

واكبر الظن انهم وقفوا على المؤامرة الخطيرة التي دبرها كبار المهاجرين ضد أمير المؤمنين فخافوا أن يفوز المهاجرون بالخلافة ، ويحرموا منها لذا اسرعوا لانتهاز الفرصة وبادروا الى ترشيح سعد الى مركز الخلافة .

فذلكة عمر

ولم يكن أبو بكر في يثرب عند وفاة النبي (ص) وانما كان بالسنح (٢)

---

(١) تاريخ الطبري ٣|٢٠٧

(٢) السنح : محل يبعد عن المدينة بميل ، وقيل هو احد عواليها يبعد عنها باربعة اميال او ثلاثة .

فخاف عمر بن الخطاب أن يفوز احد بالخلافة قبل مجيء أبي بكر فصنع فذلكة دلت على سياسته النفسية وخبرته الفائقة باحوال المجتمع فقد اوقف حركة البيعـــة ، وشغل الناس حتّى عن تفكيرهم فقد راح يهز بيده السيف ويهتف بصوت عال .

« إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات . وإنه والله مامات ولكنه ذهب الى ربـه كما ذهب موسى بن عمـران . . والله ليرجعن رسول الله فيقطعن أيدي رجـال وأرجلهم ممن ارجفوا بموته ... »

وجعل لايمر باحد يقول : مات رسول الله الا خبطه بسيفه ، وتهدده وتوعده (١) واستغرب المسلمون من هـــذه البادرة ، واستطابها السذج والبسطاء ، فقد جاءهم بالأمل اللذيذ والحلم الجميل فان النفوس تأبى أن تذعن بموت العظيم ، وتتمسك بحياته بالخيال والأوهام ، وقد ساق اليها عمر أطيب الاماني واروع الآمال ، اخبرها بحياة عزيزها ومنقذها ، وأملها باظهار دينه على الدين كله ، واضاف الى كلامه اعنف الارهاب والتهديد وعـزاه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بتقطيعـه الايدي والارجل ممن ارجف بموته ، كما توعد هو بالقتـل لمن فاه بموت النبي صلى الله عليـه وآله واستمر على هـذا الحال يبرق ويرعد ، ويتهدد ويتوعد حتّى وصل أبو بكر إلى يثرب فاحتف به عمر وانطلقا إلى بيت رسول الله صلى الله عليه وآله فكشف أبو بكر الرداء عن وجه النبي (ص) وإذا بجثمانه الطاهر قد رحلت منه روحه الزكية ، فخرج وهو يفند مقالة عمر والتفت إلى الجماهير الحائرة التي اذهلها الخطب فقال لها :

« من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فان

---

(١) شرح ابن ابي الحديد .

الله حي لايموت . . . وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وتلقى الجمهور مقالة أبي بكر بالأذعان ، وراحوا يلهجون بالآية وأسرع عمر الى تصديق مقالة أبي بكر ولم يبد اية معارضة له ، واحتف به ، وسار معه يشد عضده ، ويحمي جانبه .

ولا بد لنا من وقفة قصيرة امام هذه البادرة الغريبة فانها تدعو إلى التساؤل من عدة امور وهي :

١ — هل صحيح ان عمر قد خفي عليه موت الرسول صلى الله عليه وآله ؟؟ والقرآن الكريم قد أعلن أن كل انسان لابد أن يتجرع كأس الحمام قال تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون » وقال تعالى في نبيه : « إنك ميت وانهم ميتون » وقال تعالى : « أفإن مات أو قتل » الآية ، بالاضافة الى أن الرسول صلى الله عليه وآله قد نعى نفسه غير مرة الى المسلمين وأخبرهم بأنه يوشك أن يدعى فيجيب ، وكان عمر نفسه يقول لأسامة قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله : مات رسول الله وأنت علي أمير .

٢ — ما هو السر في تهديده وتوعيده لمن أرجف بموت رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولماذا ينكل رسول الله المرجفين ؟ فهل أن قولهم ارتداد عن الدين او خروج عن حظيرة الاسلام كي يستحقون تقطيع الأيدي والأرجل ؟

ان من امعن النظر في هذه الحادثة يتضح له المقصود من فعل عمر وهو اشغال الناس عن مبايعة أي انسان قبل مجيء أبي بكر . إن عمر لم يكن من البلهاء والأغبياء كي يخفى عليه موت الرسول صلى الله عليه وآله وان حماسه البالغ وقيامه بعمليات التهديد والتوعيد ، وسكون

ثورته حينما جاء أبو بكر كل ذلك يدل بوضوح لاخفاء فيه على أن هذه الحادثة جزء من المخطط المرسوم قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله في صرف الخلافة عن أهل بيته واستئثارهم بها ، ويذهب المستشرق لامنس الى أنه كانت بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة مؤامرة في صرف الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام قبل وفاة النبي صلى الله عليه وآله يقول :

« إن الحزب القرشي الذي يرأسه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح لم يكن وضع حاضر ، ولا وليد مفاجأة أو ارتجال ، وانما كان وليد مؤامرات سرية مبرمة حيكت أصولها وربت أطرافها بكل احكام ، وإن ابطال هذه المؤامرة ، أبو بكر ، عمر بن الخطاب ، أبو عبيدة بن الجراح ، ومن اعضاء هذا الحزب عائشة وحفصة ،. »

وهو رأي وثيق للغاية فان الامعان في تتبع خطوات القوم ، والتدبر في افعالهم يقضي بقدم المؤامرة ، وانهم حاكوا اصولها منذ زمان بعيد ، فان تثاقلهم من الالتحاق بسرية اسامة ، ومراسلة بعض ازواج النبي صلى الله عليه وآله لآبائهن في التريث عن المسير ، وترشيحهن لآبائهن لامامة الجماعة ، والرد على النبي صلى الله عليه وآله فسيما رامه من الكتابة وغير ذلك من القرائن والشواهد مما يدل بوضوح على قدم المؤامرة ، وانهم بنوها على خطط وثيقة مدروسة احيطت بالامعان والتدبر ، وليست وليدة الوقت الحاضر ، ولا وليدة المباغتة والمفاجأة .

مباغتة الانصار :

ولما عقد الانصار أمرهم على تولية سيد الخزرج سعد بن عبادة كان ابن عمه بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي ، واسيد بن حضير زعيم الاوس ينافسانه في السيادة ، وحسداه على ترشيحه لهذا المنصب الرفيع ، فاضمرا

له الحقد وأجمع رأيهما على صرف الأمر عنه وانضم اليهما عويم بن ساعدة الأوسي ، ومعن بن عـــدي حليف الانصار ، وكانا من حزب أبي بكر ومن اوليائه على عهد رسول الله صلى الله عليـه وآله بالاضافة الى ذلك انهما كانا يضمر ان الحقد والشحناء لسعد بن عبادة فانطلقا الى أبي بكر وعمر مسرعين فاخبرهما باجتماع الانصار في السقيفة وانهم قد اجمعوا على تولية سعد بن عبادة (١) فذهل أبو بكر وقام مسرعا ومعه عمر وتبعهما أبو عبيدة بن الجراح (٢) وسالم مولى أبي حذيفة ولحقهم آخرون من حزبهم من المهاجرين ، فكبسوا الانصار في ندوتهم فغاض لون سعد واسقط مافي أيدي الانصار وساد عليهم الوجوم والذهول ، واراد عمـــر أن يتكلم فمال اليه أبو بكر فهمس في أذنه قائلا :

« رويدك ياعمر حتى اتكلم ... »

وافتتح أبو بكر الحديث فقال :

« نحن المهاجرون أول الناس اسلاما ، وأكرمهم احسابا ، وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأمسهم برسول الله صلى الله عليه وآله رحما وانتم اخواننا في الاسلام ، وشركاؤنا في الدين نصرتم وواسيتم فجزاكم الله خيرا . فنحن الأمراء وانتم الوزراء ، لاتدين العرب إلا لهذا الحي من قريش ، فلا تنفسوا على أخوانكم المهاجرين مافضلهم الله به ، فقد رضيت لـــكم أحد هذين الرجـــلين — يعني عمر بن الخطاب وأبا عبيـــدة بن الجراح ... » (٣)

ان أوثق الأدلة التي أقامها أبو بكر على احقية المهاجرين بالخلافة

(١) العقد الفريد ٣|٦٢
(٢) تاريخ الطبري ٣|٢٠٨
(٣) العقد الفريد ٣|٦٢

والإمرة هي مايلي :

١ — إنهم أول الناس اسلاما

٢ — إنهم أمس الناس رحما برسول الله صلى الله عليه وآله

ولم يفصح في استدلاله عن أول من آمن بالله ، واستجاب لدعوة نبيه ، ووقف إلى جانبه يصد عنه الاعتداء ، ويحميه من جبابرة قريش وهو الامام أمير المؤمنين عليه السلام ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وزوج ابنته ، وأبو سبطيه ، وباب مدينة علمه ، فقد تناساه أبو بكر ورشح أبا عبيدة ، وابن الخطاب لمنصب الخلافة ، وهل كانت له ولاية على المسلمين حتى يرضى لهم ويختار من يتولى قيادتهم ويدير شؤونهم وقد علق الامام أمير المؤمنين على احتجاجه بقوله : « احتجوا بالشجرة واضاعوا الثمرة » وما ابلغ هذا القول !! وما أروع هذا الاحتجاج !! فقد تمسك المهاجرون بقربهم للنبي صلى الله عليه وآله واستدلوا به على احقيتهم بالأمر ، وتغافلوا عن عترته وذريته ووديعته وعدلاء كتاب الله ، وقد خاطب أمير المؤمنين أبا بكر بذلك ، واستدل عليه بعين ما استدل به أبو بكر على الانصار فقال له :

فان كنت بالقربى حججت خصيمهم ... فغيرك اولى بالنبي وأقرب

وإن كنت بالشورى ملكت أمورهم ... فكيف بهذا والمشيرون غيب

وخاطب عليه السلام القوم مرة أخرى فقال لهم : « والله ، إني لأخوه — اى أخ الرسول صلى الله عليه وآله — ووليه وابن عمه ووارث علمه ، فمن احق به مني » (١) لقد عدل القوم عن أبي الحسين وتناسوا فضائله ومآثره ووصايا النبي صلى الله عليه وآله فيه طمعا في الخلافة وتهالكا على الامارة .

(١) خصائص النسائي : ص ١٨ ، مستدرك الحاكم ٣/١٢٦

بيعة ابي بكر :

ولما انهى أبو بكر خطابه السالف الذي رشح فيه عمر وأبا عبيدة لمنصب الخلافة اسرع اليه عمر فقال له : « يكون هذا وأنت حي ؟ ! ما كان أحد ليؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسول الله (ص) ... »

ولا نعلم متى أقامه الرسول صلى الله عليه وآله في مقامه الذي هو فيه ، وقد أخرجه صلى الله عليه وآله من يثرب مع بقية اصحابه جنودا مسلحين وولى عليهم أسامة بن زيد وهو شاب حدث السن ، بمثل هذا اللف والدوران تمت البيعة لأبي بكر ، وقد تسابق إلى بيعته عمر وبشير ، وتبارى إلى البيعة جميع اعضاء حزبهم فبايعه اسيد بن حضير ، وعويم بن ساعدة ، ومعن بن عدي ، وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة وخالد بن الوليد ، واشتد هؤلاء على حمل الناس على البيعة ، وكان اشدهم حماسا عمر فقد لعبت درته شوطا في الميدان وارغم الممتنعين على البيعة وقابلهم بالقسوة والعنف ، وقد سمع الانصار يقولون في سعد :

« قتلتم سعدا »

فاندفع يقول :

« اقتلوه ، قتله الله فانه صاحب فتنة » (١)

ولما تمت البيعة لابي بكر بهذه الصورة التي يحف بها الارهاب والتهديد اقبل به حزبه يزفونه الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله زفاف العروس (٢) والنبي صلى الله عليه وآله ملقى على فراش الموت ، قد

---

(١) العقد الفريد ٣|٦٢

(٢) شرح النهج لابن ابي الحديد ٢|٨

انشغل أمير المؤمنين عليه السلام بتجهيزه ، فلما أخبر تمثل بقول القائل :

واصبح أقوام يقولون ما اشتهوا ويطغون لما غال زيدا غوائل (١)

لقد بويع أبو بكر بمثل هذه العجالة والمباغتة ، وكان عمر يرى عدم مشروعية هذه البيعة ووجه اليها لاذع النقد فقال فيها كلمته المشهورة :

« إن بيعة أبي بكر كانت فلتة ، وقى الله المسلمين شرها ، فمن دعاكم الى مثلها فاقتلوه . » (٢)

وحفلت هذه الكلمة باقسى الوان النقد والتشهير واحتوت على مايلي :

١ ـ إن عمر وصم البيعة (بالفلتة) وسواء أكان معناها الشر والخطيئة والزلة ، أو المباغتة والمفاجأة فانها اعظم ماتكون في ميدان القدح والذم .

٢ ـ إنه دعا الله أن ينقذ المسلمين من شرها ويقيهم من مضعفاتها السيئة .

٣ ـ انه حكم بقتل من دعا لمثل هذه البيعة

وانما طعن عمر في انتخاب أبي بكر وقدح في بيعته لانها لم تعتمد على اسس سليمة ، ولم تبتن على منطق رصين وحفلت بما يلي من المؤاخذات :

١ ـ إن القوم لم يأخذوا رأي العترة الطاهرة فيها واستبدوا بالأمر وقد تناسوا وصايا النبي صلى الله عليه وآله فيها ، واهملوا ما أمرهم الرسول صلى الله عليه وآله من الاقتداء والتمسك بذريته يقول الامام شرف الدين طيب الله مثواه :

---

(١) شرح النهج ٢|٥

(٢) صحيح البخاري ١٠|٤٤ ومسند احمد ١|٥٥ وتمام المتون ص ١٣٧

« فلو فرض أن لانص بالخلافة على أحد من آل محمد صلى الله عليه وآله وفرض كونهم مع هذا غير مبرزين في حسب أونسب اوالخلاق أو جهاد ، أو علم ، أو عمل ، او ايمان ، أو اخلاص ، ولم يكن لهم السبق في مضامير كل فضل ، بل كانوا كسائر الصحابة ، فهل كان مانع شرعي ، أو عقلي ، أوعرفي يمنع من تأجيل عقد البيعة الى فراغهم من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ ولو بأن يوكل حفظ الامن الى القيادة العسكرية موقتا حتى يستتب أمر الخلافة ؟

اليس هذا المقدار من التريث كان أرفق باولئك المفجوعين ؟ وهم وديعة النبي لديهم ، وبقيته فيهم . وقد قال الله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » اليس من حق هذا الرسول ـ الذي يعز عليه عنت الامـة ويحرص على سعادتها ، وهو الرؤوف بها الرحيم لها ـ أن لاتعنت عترته فلا تفاجأ بمثل مافوجئت به ـ والجرح لما يندمل والرسول لما يقبر » (١)

النبي صلى الله عليه وآله مسجى على فراش الموت لم يغيبه عن عيون القوم مثواه ، وراحوا بهلع وجشع يتسابقون الى الحكم والسلطان ، واهملوا عترته ، واجمعوا على مجافاتهم ، وهضم حقوقهم ، وسلب تراثهم ، ومنذ ذلك اليوم واجهت العترة الوانا قاسيـة من النكبات والخطوب فاريقت دماؤها ، وسبيت نساؤها ، ولم ترع فيها قرابة النبي صلى الله عليه وآله التي هي اولى بالرعاية والعطف من كل شيء .

٢ ـ ومما يؤخـذ على هذه البيعة انها لم تكن جامعة لاهل الحل والعقد الذي يعتبرونه هم شرطا اساسيا في حصول الاجماع وفي مشروعية الانتخاب ، فقد الغى القوم استشارة الطبقة الرفيعة في الاسلام فلم يعتنوا

---

(١) النص والاجتهاد ص ٧

بآرائها ولم يأخـذوا موافقتها في الخليفة الجديد ، كما ان المكان الذي اجرى فيه الانتخاب كان مخفياً الى ابعد الحدود يقول عبدالوهاب النجار

« يرى المطلع على الشكل الذي حصلت به بيعة أبي بكر ان الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصا ظاهرا لان المعقول في مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكانا يجتمعون فيه وان يؤذن الناس به من قبل .. » (١)

إن انتخاب أبي بكر كان مشوها الى أبعد الحدود ، فقد انسحبت عن اختياره وانتخابه الشخصيات الفذة التي ساهمت في بناء كيان الاسلام وفي طليعتها الامام أمير المؤمنين عليه السلام ومن يمت اليه من الهاشميين ووجوه الصحابة كسلمان الفارسي ، وأبي ذر وعمار بن ياسر ، وأبي بن كعب ، ومن الهاشميين الزبـير وعتبـة بن أبي لهب والعباس وغيرهم كما امتنع جميـع الانصار أو بعضهم عن البيعة ، وقالوا « لانبايع الا عليا »(٢) ومع انسحاب هـذا العـدد الضخم من الانتخاب ، وفيهم الضروس ، والرؤس ، والاعلام من المهاجرين والانصار كيف تكون البيعة مشروعة ، والانتخاب صحيحا ؟ !!

٣ ــ ان المسلمين قـد أرغموا على بيعة أبي بكر ، وأكرهوا عليها ولم تكن ناشئة عن اختيارهم وارادتهم فقد لعبت درة عمر في تحقيقها وايجادها حتى ذهـل المسلمون ، ولم يشترطوا في ضمن العقـد أن يسير الخليفة على كتاب الله وسنة نبيه كما اشترطوا ذلك على الخلفاء من بعده

ولعل لهذه الاسباب حكم عمر بعدم مشروعيتها ، وعدم مشروعية أساليبها ، كما حكم بالقتل لمن يعود لمثلها .

---

(١) الخلفاء الراشدون · ص ١٦

(٢) تأريخ ابن الاثير

امتناع امير المؤمنين عن البيعة :

وامتنع أمـــير المؤمنين عليه السلام عن البيعة ، واعلن سخطه البالغ على أبي بكر لأنه نهب تراثه ، وسلب حقه ، وهو يعلم أن محله من الخلافة محل القطب من الرحى ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير - على حد تعبيره - لذلك كان عليه السلام لايظن ان احدا يرقى منبر الخلافة غيره وقد اعلن ذلك بوضوح لما جاء اليـه عمه العباس وطلب منه أن يبايعـه فقال له :

يابن أخي امدد يدك أبايعك ، فيقول الناس : عم رسول الله صلى الله عليه وآله بايع ابن عم رسول الله فلا يختلف عليك اثنان . »

فاجابه الامام :

« ومن يطالب هذا الأمر غيرنا » (١)

لقد قلده النبي صلى الله عليه وآله بهذا المنصب الرفيع يوم غـدير خم ، واعلن له الولاية على ملأ من الناس ، بالاضافة الى وصاياه المتظافرة التي حث فيها أمته على متابعته ، وتسليم قيادتها بيده ، يقول الدكتور طه حسين فى هذا الموضوع مانصه :

«نظر العباس في الأمر فرأى ابن أخيه أحق منه بوراثة هذا السلطان لأنه ربيب النبي ، وصاحب السابقة فى الاسلام ، وصاحب البلاء الحسن الممتاز في المشاهد كلها ، ولأن النبي كان يدعوه أخاه حتى قالت له ام أيمن : ذات يوم مداعبة تدعوه أخاك وتزوجه ابنتك ! ولأن النبي قال له : انت مني بمنزلة هارون من موسى إلا انه لانبي بعدي . وقال للمسلمين يوما آخر : من كنت مولاه فعلي مولاه . من أجل ذلك اقبل العباس

---

(١) الامامة والسياسة ١/٤

بعد وفاة النبي على ابن اخيه فقال له : ابسط يدك ابايعك .. » (١)

لقد تخلف امير المؤمنين عن البيعة فلم يسالم القوم ، ولم يمنحهم الرضا واعلن سخطه عليهم ، وحاججهم وناظرهم ، وقد حفل نهجه بتذمره البالغ وسخطه الشديد على القوم لأنهم سلبوا تراثه ،وجحدوا ولايته وحقه .

احتجاج ومناظرات :

واحتج الامام أمير المؤمنين عليه السلام على القوم بأنه أولى بالامر واحق به منهم ، وكذلك احتج عليهم من يمت اليه من الهاشميين ، وذوي السابقة في الاسلام من اعلام المهاجرين والانصار ، والى القراء بعض تلك الاحتجاجات :

١ — الامام امير المؤمنين

ولما اخذ أمير المؤمنين عليه السلام قسرا ليبايع أبا بكر قال له القوم بعنف :

« بايع أبا بكر »

فاجابهم وهو رابط الجأش ثابت الجنان

« أنا احق بالأمر منكم ، لا أبايعكم وانتم اولى بالبيعة لي ، أخذتم هذا الامر من الانصار واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي صلى الله عليه وآله وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ، الستم زعمتم للانصار أنكم اولى بهذا الامر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة ، وسلموا اليكم الامارة ، وأنا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الانصار نحن اولى برسول الله حيا وميتا ، فانصفونا ان كنتم تؤمنون وإلا فبوءوا بالظلم وانتم تعلمون .. »

---

(١) علي وبنوه ص ١٩

وسلك عليــه السلام بهـذا الاحتجاج الصارم الطريقة التى سلكها المهاجرون أمام الانصار من انهم امس الناس رحما برسول الله ، وهـذا الملاك الذى هتف به المهاجرون واتخذوه وسيلة لتحطيم آمال خصومهم موجود فى الامام عليه السلام على النحو الاكمل فهو ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وختنه على ابنته ، وما وسع ابن الخطاب أمام هذا المنطق الا أن يسلك طريق العنف ، وهو طريق من يعوزه الدليل والبرهان فقال له :

« إنك لست متروكا حتى تبايع »

فصاح به أمير المؤمنين

« احلب حلبا لك شطــره ، واشدد له اليوم أمره يردده عليــك غدا .. »

وثار الامام وهتف يزأر

« والله ، ياعمر لا اقبل قولك ، ولا ابايعه .. »

وخاف ابو بكر ان يصل الأمر الى مالاتحمد عقباه فاقبل على الامام يتلطف به ويقول له بناعم القول .

« إن لم تبايع فلا أكرهك .. »

وحاول أبو عبيدة ارضاء الامام فقال له :

« يابن عم إنك حدث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالامور ولا ارى أبا بكر إلا أقوى على هــذا الامر منك وأشد احتمالا واضطلاعا به ، فسلم لأبي بكر هذا الأمر ، فانك إن تعش ويطل بك بقاء ، فانت لهذا الامر خليق وبه حقيق في فضلك ودينك وعلمك ، وفهمك وسابقتك ، ونسبك وصهرك .. »

وأثارت هذه المخادعة كوامن الالم والاستياء في نفس الامام فاندفع يخاطب المهاجرين ويذكر لهم مآثر اهل البيت عليهم السلام قائلا :

« الله الله يامعشر المهاجرين ! .. لاتخرجوا سلطان محمد في العرب عن داره ، وقعر بيته الى دوركم وقعور بيوتكم ، ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه ؟ .. فو الله يامعشر المهاجرين لنحن احق الناس به - لأنا أهل البيت - ونحن أحق بهذا الامر منكم ، ما كان فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الامور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله فتزدادوا من الحق بعدا .. » (١)

ودفع الامام باحتجاجه الرائع جميع شبه القوم فلم يترك لهم نافذة الا سدها ببليغ حجته وقوة برهانه ، فان أبلغ ماتمسك به أبو عبيدة لاثبات ولاية أبي بكر أنه اكبر سنا من امير المؤمنين وذلك عنده مقياس الصواب وفصل الخطاب ، ولكنه منطق مفلوج في نظر الاسلام ، فان المقياس عنده في قيم الرجال أن تتوفر فيهم المواهب والكفآت والعبقريات فمن تمتع بها فهو الخليق بزعامة الامة ، وبادارة شؤونها ، ولهذه الجهة نظر الامام في احتجاجه فبين لهم الصفات الرفيعة الماثلة في أهل البيت عليهم السلام من الفقه بدين الله ، والعلم بسنن رسوله والاضطلاع بامور الرعية ودفع الشر والمكروه عنها ، والقسم بينها بالسوية ، وهذه الصفات التي اعتبر الاسلام مثولها في الحاكمين والمسؤلين لم تتوفر الا عند أهل البيت عليهم السلام فهم احق بالأمر وأولى به من غيرهم .

٢ — الزهراء

واحتجت سيدة نساء العالمين بحجج بالغة على القوم ، وبينت لهم سوء مافعلوا ، وعظيم ما ارتكبوا قالت سلام الله عليها :

---

(١) الامامة والسياسة ١|١١ - ١٢

«ويحهم انى زحزحوها - أي الخلافة - عن رواسي الرسالة ؟ ! وقواعد النبوة ، ومهبط الروح الأمين ، الطبن (١) بأمور الدنيا والدين ، ألا ذلك هوالخسران المبين ، وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟ نقموا والله منه نكير سيفه وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره في ذات الله ، وتالله لو تكافأوا (٢) على زمام نبذه اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، لاعتقله (٣) وسار بهم سيرا سجحا (٤) لا يكلم خشاشه (٥) ولا يتتعتع راكبه (٦) ولأوردهم منهلا رويا فضفاضا (٧) تطفح ضفتاه (٨) ولا يترنم جانباه (٩) ولأصدرهم بطانة (١٠) ونصح لهم سرا واعلانا ، غير متحل منهم بطائل الا بغمر الناهل (١١) وردعة سورة الساغب (١٢) ولفتحت عليهم بركات من السماء والارض ، وسيأخذهم الله بما كانوا يكسبون ، الا هلمّ فاستمع وما عشت أراك الدهر عجبا !! وإن تعجب فقد اعجبك

---

(١) الطبن : الخبير

(٢) التكافؤ : التساوي

(٣) اعتقله : اي وضعه بين ركابه ، وساقه كما يعتقل الرمح

(٤) سجحا : أي سهلا

(٥) الخشاش : عود يجعل في انف البعير يشد به الزمام

(٦) لايتتعتع راكبه : اى لايصيبه اذى

(٧) فضفاضا : اي يفيض منه الماء

(٨) تطفح ضفتاه : اي يمتلأ ويفيض جانباه

(٩) الترنم : الصوت

(١٠) اصدرهم بطانة : اي اشبعهم وافاض عليهم بالنعم والخيرات

(١١) غمر الناهل : اي ري الظمآن

(١٢) ردعة سورةالساغب : كسر شدة الجوع

الحادث الى أي لجأ لجأوا ؟ ! وبأي عروة تمسكوا لبئس المولى ولبئس العشير ، بئس للظالمين بدلا ، استبدلوا والله الذنابا بالقوادم ، والعجز بالكاهل (١) فرغما لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، الا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، ويحهم أفمن يهدى الى الحق أحق أن يتبع امن لايهدّي إلا ان يهدى فما لكم كيف تحكمون ، أما لعمر إلهكن لقد لقحت ، فنظسرة ريثما تنتج ثم احتلبوها طلاع العقب دما عبيطا وذعافا ممقرا (٢) هنالك يخسر المبطلون ، ويعرف التالون غب ما اسس الاولون ، ثم طيبوا عن انفسكم نفسا وطامنوا للفتنة جأشا ، وابشروا بسيف صارم ، وبقرح شامل يدع فيئكم زهيدا ، وجمعكم حصيدا ، فياحسرة لكم انلزمكموها وانتم لها كارهون .. » (٣)

وشجبت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله في خطابها الرائع البليغ الإعتداء الصارخ على آل البيت عليهم السلام ، ونددت بمن غصب الخلافة الاسلامية منهم ، فان القوم قد وضعوها في غير موضعها ، وضيعوا بذلك عترة نبيهم وهم رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة والامامة ، وفي بيوتهم هبط الروح الامين ، وتنزل الذكر الحكيم ، وقد حفل خطابها القيم بامور بالغة الخطورة وهي :

١ — انها ذكرت اهم الاسباب الوثيقة التي من اجلها زهد القوم

---

(١) الكاهل : سند القوم ومعتمدهم يقال : « فلان شديد الكاهل » أي منيع الجانب

(٢) الذعاف : الطعام الذي يجعل فيه السم ، الممقر : المر

(٣) بلاغات النساء ص ٢٣ ، اعلام النساء ٣|١٢١٩ — ١٢٢٠ الاحتجاج للطبرسي البحار للمجلسي شرح النهج

في أبي الحسن ، ونقموا منه :

(أ) – نكير سيف الامام الذي حصد به رؤوس المشركين والملحدين ونافح به عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المواقف والمشاهد ، ووتر به الاقربين والابعدين في سبيل اقامة دعائم الدين ، ومن الطبيعي أن ذلك اولد في نفوس القوم عظيم الحقد والكراهية .

(ب) - شدة وطائته عليه السلام فقد كان حتف الكافرين ، وغيظ المنافقين ، لم يصانع ، ولم يحاب ، ولم تأخذه في الله لومة لائم وهو القائل « وأيم الله لانصفن المظلوم من ظالمه ، ولآخذن الظالم بخزا مته ، حتى اورده منهل الحق وان كان كارها »

(ج) - تنمره في ذات الله ، فقد وهب عليه السلام نفسه لله ، ورصد جميع طاقاته لاحياء دين الله ، واقامة سننه ، وقد قذف نفسه في لهوات الحروب ، وخاض الغمرات والأهوال ، ووطأ صماخ المشركين باخمصه حتى استقام امر هذا الدين ، وقام على سوقه عبل الذراع كل ذلك ببركة جهوده ، وعظيم جهاده .

ان هذه الاسباب : هي التي أدت الى بغض القوم وحقدهم عليه ، بالاضافة الى حسدهم على مامنحه الله من المواهب والكمالات ، والحسد يولد ضغنا وحقدا في النفوس ، ويلقى الناس في شر عظيم .

٢ – ان الامة لو قلدت امورها الى أمير المؤمنين ، وتابعت قول رسول الله صلى الله عليه وآله فيه لظفرت بما يلي :

١ – انه يسير فيهم بسيرة العدل والحق ، ويحكم بما انزل الله تعالى ولا يضام في ظل حكمه احد ، ولا تهدر كرامة اي فرد منهم .

٢ – انه يوردهم منهلا عذبا ، ويقود ركبهم الى شاطىء الامن والسلامة ويفيض عليهم بالخير والبركات ، ويغدق عليهم بالنعم فلا يشكو

احد في ظل عدله الحرمان والجوع والفقر .

٣ ـ انه ينصح لهم في السر والعلانية ، ويهديهم الى سواء السبيل

٤ ـ ان الامام سلام الله عليه لو تقلد زمام الحكم لما تحلى من دنياهم بطائل ، وما استأثر من اموالهم بشيء ، ولشاركهم في البأساء والضراء وقد حقق ذلك حينما آلت اليه أمور المسلمين ، فقد اكتفى من دنياه بطمريه ، ومن طعامه بقرصيه وما وضع لبنة على لبنة ، وواسى الفقراء والمحرومين وقد قال كلمته الخالدة في المواساة .

« أأقنع من نفسي بان يقال أمير المؤمنين ، ولا اشاركهم في مكاره الدهر وجشوبة العيش »

ولم يحفل تأريخ المسلمين بحاكم مثله في زهده ، وورعه ، وعدله ، وتجنبه عن اموال الرعية ، وقد بقيت سيرته من اروع الامثلة التي يعتز بها المسلمون .

٥ ـ ان الامام (ع) لو تولى الخلافة من بعد الرسول صلى الله عليه وآله لانتشرت الخيرات والبركات ، وعمت النعم جميع ارجاء البلاد ، واكل الناس من فوق رؤوسهم ومن تحت ارجلهم ، ولكن المسلمين حرموا انفسهم السعادة وحرموها للاجيال اللاحقة من بعدهم ، فقد استبدلوا الذنابي بالقوادم ، والعجز بالكاهل ، وتركوا من يهديهم الى الحق ويسير فيهم بسيرة العدل .

٣ ـ واستشفت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله من وراء الغيب النتائج الفظيعة التي تترتب على ماارتكبه القوم وهي كما يلي :

(أ) انتشار الفتن بين المسلمين ، وانشقاق صفوفهم وتفلل وحدتهم

(ب) ـ تنكيلهم وارهاقهم من قبل السلطات الجائرة .

(ج) ـ استبداد الظالمين بشؤونهم

وقد تحققت هـذه النتائج الخطيرة على مسرح الحياة حينما استولى الأمويون على زمام الحكم ، فقد حكم معاوية رقاب المسلمين وولى عليهم جلاوزته الجلادين امثال سمرة بن جندب ، وبسر بن ارطاة ، وزياد بن أبيه ، فامعنوا فى ارهاق المسلمين والتنكيـل بهم ، واذاعوا الخوف بين المسلمين ، وفي عهـد زياد كان الناس يقولون : « انج سعد فقد هلك سعيد » وتولى من بعـده يزيد فاستعمل على المسلمين ابن مرجانة ففعل الأفاعيـل المنكرة التي سود بها وجه التاريخ ، وهكذا اخذت الخلافـة الاسلامية تنتقل من ظالم الى ظالم ، ومن جائر الى جائر حتى ضجت البلاد من الظلم والجور والاستبداد .

ولهذه الاسباب الوثيقة التي بينتها فى خطابها ناهضت الحكم القائم ، وناجزته بجميع امكانياتها ، وطالبت المسلمين بالقيام لقلب الحكم ، ودعتهم الى الثورة لاستنقاذ الحق الغصيب فقد طاف بها زوجها المظلوم اربعين يوما على بيوت المهاجرين والانصار تسألهم النجـدة والنصرة فكانوا يقولون لها :

« يابنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا لهذا الرجل »

فتجيبهم مستنكرة

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ »

واخذوا يعتذرون لها قائلين :

« يابنت رسول الله ... لو أن زوجك سبق الينا قبل أبي بكر لما عدلنا به »

ويجيبهم أمير المؤمنين

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم ادفنه ، ثم أخرج انازع الناس سلطانه ؟ »

وتدعم بضعة الرسول قول أمير المؤمنين فتقول :

« ماصنع أبو الحسن إلا ماكان ينبغي له . . وقد صنعوا ما الله حسيبهم عليه » (١)

وقد خطبت سلام الله عليها خطبتها الشهيرة واستنهضت — في كثير من فصولها — همم المسلمين وحفزتهم على الثورة وطالبتهم بارجاع الخلافة الى أمير المؤمنين فقد قالت مخاطبة بني قيلة :

« ايها بني قيلة ، أأهضم تراث أبي وانتم بمرأى ، ومسمع تبلغكم الدعوة ، وشملكم الصوت وفيكم العدة ، ولكم الدار والجنن ، وانتم نخبة الله التي انتخبت وخيرته التي اختار . باديتم العرب ، وبادهتم الامور ، وكافحتم البهم ، حتى دارت بكم رحى الاسلام ، ودرحلبه وخبت نيران الحرب ، وسكنت فورة الشرك ، وهدأت دعوة الهرج ، واستوثق نظام الدين ، أفتأخرتم بعد الاقدام ، ونكصتم بعد الشدة ، وجبنتم بعد الشجاعة عن قوم نكصوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون .. » (٢)

وقد اثارت حفائظ النفوس ، والهبت نار الثورة في خطابها الكبير إلا أن أبا بكر استقبلها بالاعتذار ، واللين ، واظهر لها بالغ الاحترام والتقدير فاخمد الثورة وشل حركتها ، فلم تجد سلام الله عليها مجالا لاسترجاع حق امير المؤمنين عليه السلام واخذت تبث الشكوى والشجى الى أبيها وخلدت الى الصبر على ما انتابها من المحن والخطوب .

٣ — الامام الحسن

وما استقر في نفس أمير المؤمنين عليه السلام من اللوعة والأسى على

---

(١) الامامة والسياسة ١|١٢

(٢) اعلام النساء ٣|١٢١٤

ضياع حقه وغصب تراثه قد استقر في نفس وليده الامام الحسن عليه السلام فقد انطلق إلى مسجد جده صلى الله عليه وآله فرأى أبا بكر على منبر المسجد يخطب الناس فالتاع ووجه اليه لاذع النقد قائلا له :

« انزل ... انزل عن منبر أبي ، واذهب الى منبر أبيك !! »

وبهت ابو بكر ، وتطلعت ابصار الناس إلى القائل فاذا هو حفيد الرسول صلى الله عليه وآله وريحانته ، فاخذتهم الحيرة والدهشة ، وساد عليهم الوجوم ، واسترد أبو بكر خاطره فتدارك الموقف فقال له بناعم القول :

« صدقت والله . إنه لمنبر أبيك لامنبر أبي .. » (١)

إن احتجاج الامام الحسن عليه السلام - وهو في غضون الصبا - انبعث عن نضوج وطموح وذكاء ، وكشف عن آلام مرهقة كان يكنها في اعماق نفسه على ضياع حق أبيه .

كان يرى المنبر يرقاه جده الرسول صلى الله عليه وآله وهو يدعو الناس الى الله ، ويهديهم الى سواء السبيل ، وقد اختفى ذلك النور ، واحتجب ذلك الصوت ، وهو لايجد أحدا خليقا بأن يخلفه سوى أبيه سيد الاوصياء الذي نافح عن رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع المواقف والمشاهد .

---

(١) الرياض النضرة ١|١٣٩ ، شرح النهج لابن ابي الحديد ٢|١٧ مقتل الحسين للخوارزمي ١|٩٣ المناقب ٢|١٧٢ وجاء في الاصابة ٢|١٥ ان هذا الاحتجاج كان من الامام الحسين ، وجاء في الصواعق المحرقة ص ١٠٥ وفي الصبان المطبوع على هامش نور الابصار ص : ١٢٥ ان الحسن قال لأبي بكر هذه الكلمة ، ووقع للحسين ذلك مع عمر بن الخطاب .

٤ ــ سلمان الفارسي

واندفع سلمان الفارسي ابن الاسلام البار ، ومنبع التقوى والصلاح، الى الانكار على القوم والاحتجاج عليهم فقد راح يتكلم مع أبي بكر قائلا له :

« يا أبا بكر .. الى من تسند أمرك إذا نزل بك مالا تعرفه ؟ ! وإلى من تفزع اذا سئلت عما لاتعلمه ؟ وما عذرك في تقدم من هو اعلم منك ، واقرب الى رسول الله ، واعلم بتأويل كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ، ومن قدمه النبي في حياته ، واوصاكم به عند وفاته ، فنبذتم قوله، وتناسيتم وصيته ، واخلفتم الوعد ، ونقضتم العهد ، وحللتم العقد ، الذي كان عقده عليكم ، من النفوذ تحت راية أسامة بن زيد !» (١)

٥ ــ عمار بن ياسر

وانطلق الطيب ابن الطيب عمار بن ياسر الى محاججة القوم فقال لهم :

« يامعاشر قريش .. ويامعاشر المسلمين ، إن كنتم علمتم وإلا فاعلموا أن أهل بيت نبيكم اولى به واحق بارثه ، وأقوم بامور الدين ، وآمن على المؤمنين ، واحفظ لملته ، وانصح لأمته فمروا صاحبكم فليرد الحق الى أهله قبل أن يضطرب حبلكم ، ويضعف أمركم ، ويظهر شقاقكم ، وتعظم الفتنة بكم ، وتختلفون فيما بينكم ، ويطمع فيكم عدوكم ، فقد علمتم أن بني هاشم أولى بهذا الامر منكم ، وعلي أقرب منكم الى نبيكم ، وهو من بينهم وليكم بعهد الله ورسوله ، وفرق ظاهر قد عرفتموه في حال بعد حال عند سد النبي صلى الله عليه وآله أبوابكم التي كانت الى المسجد كلها غير بابه ، وايثاره اياه بكريمته فاطمة ، دون ساير من خطبها اليه منكم ، وقوله صلى الله عليه وآله : انا مدينة العلم ، وعلي بابها ، ومن

(١) احتجاج الطبرسي ص ٤٢ ــ ٤٣

أراد الحكمة فليأتها من بابها ، وانكم جميعا مضطرون فيا اشكل عليكم من أمور دينكم اليه ، وهو مستغن عن كل أحد منكم الى ماله من السوابق التي ليست لأفضلكم عنه نفسه ، فما بالكم تحيدون عنه ، وتبتزون عليا على حقه ، وتؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، بئس للظالمين بدلا ، اعطوه ماجعله الله له ، ولا تولوا عنه مدبرين ، ولا ترتدوا على اعقابكم فتنقلبوا خاسرين .. (١)

٦ — خزيمة بن ثابت

وانبرى الصحابي العظيم خزيمة بن ثابت فقال : « أيها الناس ، الستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قبل شهادتي وحدي ، ولم يرد معي غيري ؟ فقالوا بلى . قال : فاشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أهل بيتي يفرقون بين الحق والباطل ، وهم الأئمــة الذين يقتدى بهم ، وقد قلت ماعلمت ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين .. »

٧ — أبو الهيثم بن التيهان

وانطلق الصحابي الكبير أبو الهيثم بن التيهان فقال : « وأنا أشهد على نبينا صلى الله عليه وآله أنه أقام عليا يوم غدير خم ، فقالت الانصار ما أقامه الا للخلافـة ، وقال بعضهم : ما أقامه إلا ليعلم الناس أنه مولى من كان رسول الله صلى الله عليه وآله مولى له ، وكثر الخوض في ذلك فبعثنا رجالا منا الى رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه عن ذلك ؟ فقال : قولوا لهم : علي ولي المؤمنين بعدي ، وانصح الناس لأمــتي ، وقد شهدت بما حضرني فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إن يوم الفصل كان ميقاتا .. »

---

(١) احتجاج الطبرسي ص ٤٣

٨ ـ سهل بن حنيف

واندفع سهل بن حنيف فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي وآله ثم قال :

« يامعشر قريش ، اشهد على رسول الله صلى الله عليه وآله وقد رأيته في هذا المكان ـ يعني في جامعه ـ وقد أخذ بيد علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يقول : أيها الناس هذا علي إمامكم من بعدي ، ووصيي في حياتي ؟ وبعد وفاتي ، وقاضي ديني ، ومنجز وعدي ، وأول من يصافحني على حوضي ، وطوبى لمن تبعه ، ونصره ، والويل لمن تخلف عنه وخذله .. » .

٩ ـ عثمان بن حنيف

وقام عثمان بن حنيف فقال : « سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : أهل بيتي نجوم الأرض فلا تتقدموهم فهم الولاة من بعدي فقام اليه رجل فقال : يا رسول الله ، وأي أهل بيتك ؟ فقال : علي والطاهرون من ولده .. »

١٠ ـ أبو أيوب الانصاري

وقال أبو أيوب الانصاري : « اتقوا الله عباد الله في أهل بيت نبيكم ، وردوا اليهم حقهم الذي جعله الله لهم ، فقد سمعتم مثل ماسمع أخواننا في مقام بعد مقام لنبينا عليه السلام ومجلس بعد مجلس يقول : أهل بيتي أئمتكم بعدي ، ويومىء الى علي ويقول : هذا أمير البررة ، وقاتل الكفرة مخذول من خذله ، منصور من نصره فتوبوا الى الله من ظلمكم ، إن الله تواب رحيم ، ولا تتولوا عنه مدبرين ، ولا تتولوا عنه معرضين .. » (١)

---

(١) الاحتجاج للطبرسي ٤٣ ـ ٤٤ وذكره غيره .

١١ ـ عتبة بن أبي لهب

وقام عتبة بن أبي لهب وهو يذرف الدموع وينشد :

ماكنت أحسب أن الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي حسن
عن أول الناس إيمانا وسابقة واعلم الناس بالقرآن والسنن
وآخر الناس عهدا بالنبي ومن جبريل عون له في الغسل والكفن
من فيه مافيهم لايمترون به وليس في القوم مافيه من الحسن (١)

الى غير ذلك من الاحتجاجات الصارمة التي اقامها كبار المسلمين وثقاتهم على احقية الامام عليه السلام بالأمر ، ولكن القوم اعاروا ذلك أذنا صماء واصروا على صرف الخلافة عن أهل البيت عليهم السلام .

كبس دار الامام

وتخلف امير المؤمنين عليه السلام عن بيعة أبي بكر ، واحتج عليه بأنه اولى بالخلافة منه ، واعلن سخطه البالغ على القوم ، وقد انضم اليه اعلام الاسلام ، ووجوه المسلمين كعمار بن ياسر ، وأبي ذر ، والزبير ، وخالد بن سعيد ، وغيرهم ، فكانوا يعقدون الاجتماع في داره ، ويتداولون فيها الاحاديث ، وثقل على أبي بكر ذلك ، وعظم عليه ، فاقتضت سياسته أن يكبس دار الامام ، ويقابله بالشدة والصرامة ، ويتخذ معه جميع الإجراءات الحاسمة ، فاصدر أوامره الى عمر بكبس داره ، وحمله على البيعة قسرا ، فراح عمر يشتد ومعه الشرطة والجنود ، وقد رأى ان خير وسيلة لحمل الامام على الطاعة ان يحرق داره ، ويشعل فيها النار ، فحمل مشعلا من النار ، وحمل القوم حزمة الحطب وانطلقوا مسرعين يعلوهم الغضب ليحرقوا البيت الذي اذن الله أن يرفع ، ويذكر فيه اسمه !! البيت الذي

(١) تأريخ ابي الفداء ١|١٥٦

اذهب الله عن أهله الرجس ، وطهرهم تطهيرا !! وهجم عمر على الدار وهو مغيظ محنق يصيح باعلى صوته .

« والذي نفس عمر بيده ليخرجن ، اولأحرقنها على من فيها؟ » (١)

فعذلته طائفة ، وحذرته من عقوبة الله قائلة :

« ان فيها فاطمة .. »

فصاح فيها غير مكترث ولا مبال

« وإن ! وإن ! »

وطالعتهم حبيبة الرسول صلى الله عليه وآله وبضعته ، وقد علاها الرعب ، واستولى عليها الذهول فوجهت اليهم لاذع القول :

« لاعهد لي بقوم حضروا أسوأ محضر منكم ، تركتم رسول الله صلى الله عليه وآله جنازة بين أيدينا ، وقطعتم امركم بينكم لم تستأمرونا ، ولم تردوا لنا حقا » .

وتبدد جبروت القوم ، وذاب عنفهم ، واسرع عمر الى أبي بكر يحفزه على المضي في حمل الامام على البيعة قائلا :

(١) ان تهديد عمر لامير المؤمنين بحرق داره إن لم يبايع ثبت بالنصوص المتواترة ودونه اغلب المؤرخين فقد ذكرت في الامامة والسياسة ١|١٢ — ١٣ ، شرح النهج لابن ابي الحديد ١|٣٤ تاريخ الطبري ٣/٢٠٢ ط دار المعارف تاريخ ابي الفداء ١|١٥٦ ، تاريخ اليعقوبي ٢|١٠٥ ، اعلام النساء ٣|٢٠٥ ، الاموال لابي عبيد ١٣١ ، مروج الذهب ١|٤١٤ ، الامام علي لعبد الفتاح ١|٢١٣ وذكرها في الجزء الرابع ص ١٧١ ، ونظمها شاعر النيل حافظ ابراهيم فقال :

وقولة لعلي قالها عمر ... اكرم بسامعها اعظم بملقيها
حرقت دارك لاابقي عليك بها ... ان لم تبايع وبنت المصطفى فيها
ماكان غير ابي حفص بقائلها ... امام فارس عدنان وحاميها

« ألا تأخذ هذا المتخلف عنك بالبيعة ؟! »

فارسل أبو بكر قنفذا خلف الامام فابى عليه السلام من الحضور ، فانطلق عمر ومعـــه معاونوه الى بيت الامام فقرع الباب ، واقتحم على الاسد عرينه فانطلقت بضعة الرسول صلى الله عليه وآله وهي تهتف بابيها وتستغيث به قائلة :

« يا أبت ، يارسول الله ... ماذا لقينا بعـــدك من ابن الخطاب ، وابن أبي قحافة !! ؟ »

وتصدعت القلوب ، وذابت النفوس من هول المصاب ، وانصرف القوم باكين ، وبقى ابن الخطاب ومعه حزبه وبدا عليه الحنق والغضب ولم يجد معه تعنيف بضعة الرسول ، فاخرج أمير المؤمنين بعنف وانطلق به إلى أبي بكر ، فقال له :

« بايع »

« وإن لم افعل ؟ » »

فبادر القوم ، وقد اضلهم الهوى قائلين له :

« والله . الذي لا إله إلاّ هو نضرب عنقك .. »

فصمت عليه السلام برهة ، ونظر الى القوم ، فاذا ليس له معين ولا ناصر فقال بصوت حزين النبرات .

« إذاً تقتلون عبد الله ، وأخا رسوله !! »

واندفع ابن الخطاب ، وهو مندلع الثورة فرد على الامام

« اما عبدالله فنعم ، وأما أخو رسوله فلا !! »

وتناسى عمر ان امير المؤمنين اخو النبي ، ونفسه وباب مدينة علمه ، والتفت الى أبي بكر يحثه على الايقاع به ، قائلا :

« الا تأمر فيه بأمرك ؟؟ »

وحاذر أبو بكر من الفتنة ، وخاف ان تندلع نيران الثورة فقال :

« لا أكرهه على شيء ماكانت فاطمة الى جانبه .. »

واطلقوا سراح الامام فراح يهرول الى قبر النبي صلى الله عليه وآله يستنجد به ويناجيه وهو يبكي أمر البكاء رافعا صوته .

« يابن أم .. إن القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني .. »

لقد استضعفه القوم ، واستوحدوه ، واستباحوا حرمته ، وقفل عليه السلام الى البيت راجعا وهو كئيب حزين قد أحاط به الهم والاسى ، واتضح له مايكنه القوم في نفوسهم من الحقد والكراهية له .

مصادرة فدك

ولما فتحت الجيوش الاسلامية حصون خيبر قذف الله الهلع والرعب في قلوب أهالي فدك ، وخيم عليهم الذعر والخوف فهرعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ونزلوا على حكمه ، وصالحوه على نصف اراضيهم فكانت ملكا خالصا له لأن المسلمين لم يوجفوا عليها بخيل ولا ركاب ، ولما انزل الله تعالى على نبيه قوله : « وآت ذا القربى حقه » بادر صلى الله عليه وآله فانحل فاطمة فدكا ، ووضعت يدها عليها وتصرفت فيها تصرف الملاك في املاكهم ، وبعد وفاته صلى الله عليه وآله اقتضت سياسة أبي بكر أن يصادرها ، وينتزعها من يد الزهراء عليها السلام لئلا تقوى شوكة الامام ، ويغلب جانبه ، وهو حرب اقتصادي باعثه اضعاف الروح المعارضة ، وشل الحركة المعادية له ، وهذا ماعليه الدول قديما وحديثا أمام خصومها ، وقد مال الى هذا الرأي علي بن مهنأ العلوي قال :

« ماقصد أبو بكر ، وعمر بمنع فاطمة عنها — اي عن فدك — إلا

أن يقوى علي بحاصلها وغلتها على المنازعة في الخلافة .. » (١)

وبعد ما استولى أبو بكـر على فدك ، واخرج منها عامل الزهراء انبرت سلام الله عليها اليه فطالبته بردها فما اجابها الى ذلك ، وطلب منها إقامة البينة على صدق دعواها ، وهو من الغرابة بمكان — اولا — ان ذلك لاينطبق بحال على ماقرر في الفقه الاسلامي من أن صاحب اليد لا يطالب بالبينة ، وانما البينة على المدعي ومع عدم وجودها فلا حق له الا اليمين على المنكر ، والزهراء سلام الله عليها هي صاحبة اليد ، فلا تطالب بالبينة وانما يطالب بها أبو بكر ، ومع عدم وجودها عنده فلا حق له سوى اليمين عليها ، ولكنه أهمل ذلك وصمم على أن تقيم البينة — وثانيا — ان فاطمة سيدة نساء هذه الأمة ، وخير نساء العالمين ، على حد تعبير أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله واجمع المسلمون على أنها ممن انزل الله فيهم آية التطهير ، وهي تدل على طهارة ذيلها وعصمتها ، وهي اصدق الناس لهجة حسب قول عائشة (٢) افلا يكفي ذلك كله في تصديقها ، واجابة قولها ؟

وعلى اي حال فقد مضت ريحانة الرسول صلى الله عليه وآله فاحضرت أمير المؤمنين ، وأم أيمن فشهدا عنده ان رسول الله صلى الله عليه وآله انحلها فدكا ، فرد الشهادة واعتذربان البينة لم تتم ، وهذا لايخلو ايضا من المؤاخذات — اولا — انه لايتفق مع القواعد الفقهية فانها صريحة في أن الدعوى اذا كانت على مال أو كان المقصود منها المال فانها تثبت بشاهد ويمين فان اقام المدعي شاهدا واحدا فان على الحاكم أن يحلفه بدلا من الشاهد الثاني فان حلف اعطاه الحق ، وإن نكل رد الدعوى ،

---

(١) اعلام النساء ٣|٢١٥ ،

(٢) حلية الاوليا ٢|٤١ ، مستدرك الحاكم ٣|١٦٠

ولم يطبق ذلك أبو بكر فالغى الشهادة ورد الدعوى ، وثانيا — انه رد شهادة أمير المؤمنين ، وهو مع القرآن ، والقرآن معه لايفترقان كما قال رسول الله صلى الله عليـــه وآله (١) — وثالثا — انه رد شهادة السيدة الصالحة أم ايمن وقد شهد رسول الله صلى الله عليه وآله بأنها من أهل الجنة (٢)

وخرجت سيدة النساء من عند أبي بكر وهي تتعثر باذيالها من الخيبة قد انهـــد كيانها والم بها الشجى والحزن يقول الامام شرف الدين نضر الله مثواه .

فليته اتقى فشل الزهراء في مواقفها بكل مالديه من سبل الحكمة ، ولو فعل لكان ذلك أحمد في العقبى ، وابعد عن مظان الندم ، وأنأى عن مواقف اللوم ، واجمع لشمل الامة واصلح له بالخصوص

وقد كان فى وسعه أن يربأ بوديعة رسول الله ووحيدته عن الخيبة ويحفظها عن أن تنقلب عنه وهي تتعثر باذيالها ، وماذا عليه ، إذ احتل محل أبيها لو سلمها فدكا من غير محاكمة ؟! فان للامام أن يفعل ذلك بولايته العامـــة ، وما قيمة فدك في سبيل هذه المصلحة ، ودفع هـــذه المفسدة ؟ » (٣)

إن أبا بكر لم يصنع الجميل ، ولم يفعل المعروف مع بضعة الرسول صلى الله عليه وآله فقد كان بوسعه أن يقر يدها على فدك ، ولا يستعمل معها اللف والدوران ، ولا يواجهها بمثل هذه القسوة والجفوة ، ولكن الأمر كما حكاه على بن الفارقي احد اعلام بغداد ومن المدرسين في مدرستها

---

(١) مستدرك الحاكم ٣|١٢٤ الصواعق المحرقة ص ٧٥

(٢) الاصابة

(٣) النص والاجتهاد : ص ٣٧

الغربية ، واحد شيوخ ابن أبي الحديد فقد سأله

- أكانت فاطمة صادقة - في دعواها النحلة - ؟

- نعم

- فلم لم يدفع لها أبو بكر فدكا وهي عنده صادقة ؟

قال ابن أبي الحديد : فتبسم ، ثم قال : كلاما لطيفا مستحسنامع ناموسه ، وحرمته وقلة دعابته ، قال : لو اعطاها اليوم فدكا بمجرد دعواها لجاءت اليه غداً ، وادعت لزوجها الخلافة ، وزحزحته عن مقامه ولم يكن يمكن حينئذ الاعتذار بشيء ، لأنه يكون قد سجل على نفسه بأنها صادقة فيما تدعي كائنا ماكان من غير حاجة الى بينة ولا شهود »

نعم لهذه الجهة اجمع القوم على هضمها ، وسلب تراثها ، واستباحوا رد شهادة أمير المؤمنين ، وتركوا عترة النبي صلى الله عليه وآله يتقطعون حسرات ، ويتصعدون زفرات قد خيم عليهم الهم والغم واخذهم من الحزن مايذيب لفائف القلوب ومن الوجل ماتميد به الجبال .

ندم ابي بكر

وندم أبو بكر أشد الندم على مافرط مع بضعة الرسول صلى الله عليه وآله وأخذ يؤنبه ضميره على ما صدر منه من كبس دارها ، وحمل مشاعل النار لاحراقها فقال :

« وددت أني لم اكشف بيت فاطمة ، ولو انهم اغلقوه على الحرب . » (١)

وجزع جزعا شديدا على ما ارتكبه مع وديعة النبي صلى الله عليه وآله فانطلق مع صاحبه عمر الى بيتها ليطيبا خاطرها ويفوزا برضاها ،

(١) كنز العمال ٣|١٣٥ ، الطبري ٤|٥٢

فاستأذنا عليهـا فأبت أن تأذن لهما ، ثم استأذنا ثانيا فابت ، فسارا
الى أمير المؤمنين وطلبا منه أن يمنحهما الإذن لمقابلة وديعة النبي صلى الله
عليه وآله فانطلق عليه السلام الى الدار فالتمس من سيدة النساء أن تأذن
لهما فاجابتـه الى ذلك فأذن (ع) لهما ودخلا فسلما عليها فلم تجبهما ،
وتقـدما فجلسا أمامها فازاحت بوجهها عنهما ، وراحا يلحان أن تسمع
مقالتهما ، فاذنت لهما في ذلك فقال أبو بكر: « ياحبيبة رسول الله والله ان
قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وإنك لأحب الى من عائشة ابنتي
واوددت يوم مات أبوك أني مت ، ولا ابقى بعده ... أفتراني اعرفك
وأعرف فضلك وشرفك وامنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا أني
سمعت رسول الله يقول :

« لانورث ماتركناه فهو صدقة »

وقد فندت روايته بضعة الرسول صلى الله عليه وآله بما اقامته —
في خطابها الكبير — من اوثق الأدلة على بطلان قوله ومساواة النبي لعموم
المسلمين في الميراث ، والتفتت سلام الله عليها إلى أبي بكر وقد اشركت عمر
معه في خطابها قائلة :

« ونشدتكما الله ... ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من رضاي
وسخط فاطمة من سخطي ، فمن احب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن
أرضى فاطمة فقد أرضاني ، ومن اسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ »

فاجابا بالتصديق قائلين:

« اجل سمعناه يقول ذلك »

فرفعت كفيها إلى السماء وراحت تقول بفؤاد مكلوم

« فاني اشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني ، وما أرضيتماني ... ولئن
لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ! »

وانطلق أبو بكر يبكي فقالت له :

« والله لأدعون عليك في كل صلاة اصليها .. » (١)

(فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف ! مادت الارض تحتهما ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول مالقيا يترنحان . وغادرا الدار وقد خبا أملهما في رضا زهراء الرسول ، وعلما مدى الغضب الذي أثاراه عليهما في قلبها ومدى السخط الذي باءا به) (٢)

وحقا لأبي بكر أن يبكي ويحزن من غضب سيدة النساء عليه فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لها :

« إن الله يغضب لغضبك ، ويرضى لرضاك » (٣)

لقد ضاقت الدنيا على أبي بكر ، ولاذ بدموعه ليخفف بها آلامه واحزانه فقد فاته رضاء بضعة الرسول صلى الله عليه وآله الذي هو من رضاء الله

كل هذه الحوادث كانت بمرأى من الامام الحسن ومسمع فكان لها الاثر في موطن شعوره فقد جعلته واجداً على من تقمص حق أبيه وناقما على من احتل مركزه

شجون الزهراء

وطافت بوديعة النبي صلى الله عليه وآله موجات من الهموم والاحزان

---

(١) الامامة والسياسة ١|١٤ ، اعلام النساء ٣|١٢١٤ ، الامام علي ١|٢١٧

(٢) الامام علي ١|٢١٧ ـ ٢١٨

(٣) مستدرك الحاكم ٣|١٥٣ ، اسد الغابة ٥|٥٢٢ ، تهذيب التهذيب ١٢|٤٤١ ، ميزان الاعتدال ٢|٧٢ ، كنز العمال ٦|٢١٩ ، ذخائر العقبى ص ٣٩ مقتل الخوارزمي ١|٥٢

وغشيتها سحب من الكدر واللوعة ، على ضياع حقها ، وعلى فقد أبيها ، فقد حدثوا أنها لم تُر ضاحكة ، ولا داخلها السرور بعده حتى لحقت به فكانت لاتفكر الا به ، ولا تذكر اسمه إلا مقرونا بالتفجع والآلام .

وكانت تزور جــدثه الطاهر فتطوف به وهي حيرى فتبل أديمه المقدس بدموع سخيــة ، وتلقي بنفسها على القبر وهي ذاهلة اللب ، مصدوعة الجسم ، منهدة الكيان فتأخذ من ثرى القبر قبضة فتضمها على عينيها ووجهها وتطيل من شمها وتقبيلها وهي تبكي أمر البكاء وترفع صوتها الحزين النبرات قائلة :

ماذا على من شم تربة أحمد أن لايشم مدى الزمان غواليا
صبت علي مصائب لو أنها صبت على الأيام صرن لياليا(١)

ينظر الحسن عليه السلام الى هذا الحزن البهيم الذي حل بأمه الرؤم فينصدع قلبه ، ويذرف من الدموع مهما ساعدته الجفون ، يرى الحسن وهو في غضون الصبا لوعة المصائب التي دهت امه الحنون حتى وهت قوتها ولونّ الاسى وجهها كانها صورة جثمان قــد فارقته الحياة ، فيغرق في الدموع والشؤون .

أي حزن هذا الذى حل بابنة الرسول صلى الله عليه وآله وريحانته

---

(١) نور الابصار ص ٤٢ ، وذكر ابن شهرا شوب في المناقب ٢|١٣١ زيادة على هذين البيتين وهي :

قل للمغيب تحت اطباق الثرى إن كنت تسمع صرختي وندائيا
قد كنت ذات حمى بظل محمد لا اختشي ضيما وكان جماليا
فاليوم اخضع للذليل واتقي ضيمي وادفع ظالمي بردائيا
فاذا بكت قمرية في ليلها شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلن الحزن بعدك مؤنسي ولأجعلن الدمع فيك وشاحيا

حتى ضربوا بها المثل في الحزن ، وعدوها من البكائين الخمس (١) الذين مثلوا الحزن والاسى على مسرح الحياة ؟؟

وبلغ من عظيم حزنها ان أنس بن مالك استأذن عليها ليعزيها بمصابها الجليل فاذنت له وكان ممن وسد رسول الله صلى الله عليه وآله في مقره الأخير فقالت .

« أنس بن مالك »

« نعم ، يابنت رسول الله »

فقدمت له سؤالا مقرونا بالتفجع والآلام

« كيف طابت نفوسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ؟ . » (٢)

وخرج أنس وقلبه كاد أن يقضي حسرة ، قد علا صوته بالبكاء، وكانت سلام الله عليها تطالب أمير المؤمنين بالقميص الذي غسل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فاذا رأته شمته ووضعته على عينيها ، ويذوب قلبها من الم الحزن حتى يغشى عليها .

وهكذا بقيت بضعة الرسول بعد أبيها قد اضناها الحزن ، وزاد في احزانها جحد القوم حقها وسلبهم لتراثها ، وبقي الحسن يشاهد ما منيت به أمه من الكوارث والخطوب وهو مصدوع الجسم ، قد ذبلت نضارة صباه لايعرف في نهاره إلا شجرة الأراك حيث يمضي مع امه ليساعدها في النوح ويخفف عنها اللوعة والحسرة ويستمر معها طيلة النهار في حزن وكمد فاذا اوشكت الشمس أن تغرب تقدمها مع أبيه وأخيه قافلين الى الدار فيجد الوحشة والهم قد خيا عليها ،

(١) البكائون الخمس : آدم ، ويعقوب ، ويوسف ، وعلي بن الحسين ، وفاطمة ، ذكر ذلك المجلسي في البحار ١٠|٤٤

(٢) سنن ابن ماجة ص ١٨

وقلع القوم الشجرة التي كانت تستظل بها فكانت تبكي مع ولديها في حر الشمس ، فقام أمير المؤمنين فبنى لها بيتا أسماه بيت الاحزان فكانت تجلس فيه وتبكي على أبيها وتناجيه وتبثه الشكوى .

وأحاطت بها الآلام ، وفتكت بها الامراض فلازمت الفراش ، ولم تتمكن من النهوض والقيام وبادرت نساء المسلمين يعدنها فقلن لها :

« كيف اصبحت من علتك يابنت رسول الله ؟ . »

فرمقتهن بطرفها ، واعربت لهن عما تكنه في نفسها من الاسى قائلة « أجدني كارهة لدنياكن ، مسرورة لفراقكن ، القى الله ورسوله بحسرات منكن فما حفظ لي الحق ، ولا رعيت مني الذمة ، ولا قبلت الوصية ، ولا عرفت الحرمة . » (١)

وعدنها بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله فقلن لها :

« يابنت رسول الله ... صيري لنا في حضور غسلك حظا ... »

فأبت وقالت :

« اتردن أن تقلن في ، كما قلتن في امي ، لاحاجة لي في حضوركن »

الى الرفيق الاعلى

وبرح المرض بابنة الرسول ، وانهك الحزن جسمها النحيل ، واضر الأسى بقلبها الرقيق المعذب ، حتى مشى اليها الموت وهي في فجر الصبا وروعة الشباب . . . فوا لهفتاه على حبيبة النبي وريحانته ، لقد دنا اليها الموت سريعا ، وحان موعد اللقاء بينها وبين أبيها الذي اشتاقت اليه وتطلبت لقياه بفارغ الصبر .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢|٩٥

ولما علمت بدنو الاجل المحتوم منها استدعت امير المؤمنين فاوصته بوصيتها ، وأهم مافيها أن يواري جثمانها في غاس الليـــل البهيم ، وأن لايصلي عليها ، ولا يقوم على قـــبرها أحد من الذين ظلموها وجحدوا حقها لأنهم اعداؤها وأعداء أبيها -- على حد تعبيرها -- وانصرف الامام وهو غارق في البكاء ، قد استجاب لأحاسيس نفسه الولهى الذي لم يترك الزمن فيها فراغا لغير الاسى والحزن .

واحبت ان يصنع لها نعش يواري جثمانها المقدس لان الناس كانوا يضعون الميت على سرير تبدو فيه جثتـــه فكرهت ذلك ، وما احبت أن ينظر اليها أحد فاستدعت اسماء بنت عميس (١) واخبرتها بما ترومه فعملت لها سريرا يستر من فيـــه قد شاهدته يوم كانت في الحبشة ، فلما نظرت اليه تبسمت وهي اول ابتسامة شوهدت لها بعد وفاة أبيها (٢)

---

(١) اسماء بنت عميس بن سعيد بن الحارث الخثعمي ، وامها هند بنت عوف ابن زهير من كنانة ، اسلمت قبل دخول رسول الله (ص) دار الارقم بمكة ، وبايعت وهاجـرت الى ارض الحبشة مع زوجها جعفر بن ابي طالب . وقالت يارسول الله ، ان رجالا يفخرون علينا أن لسنا من المهاجرين الاولين ، فقال صلى الله عليه وآله : بل لكم هجرتان هاجرتم الى ارض الحبشة ونحن مرهنون بمكة ، ثم هاجرتم بعد ذلك .

روت عن النبي (ص) ستين حديثا ، وكان عمر بن الخطاب يسألها عن تفسير المنام، وفرض لها الف درهم، ولما استشهد زوجها تزوجها ابو بكر فولدت له الطيب محمد ولما مات ابو بكر تزوجها امير المؤمنين (ع) وهي اخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي (ص) واخت ام الفضل زوج العباس ، ترجمت في اسـد الغابة ٣٩٥|٥ وتهذيب التهذيب والاستيعاب ، واعلام النساء وطبقات ابن سعد وغيرها .

(٢) مستدرك الحاكم ٣|١٦٢

وفي اليوم الاخير من حياتها كانت فرحة مسرورة لعلمها باللحاق بابيها الذي بشرها انها تكون اول أهل بيته لحوقا به ، وعمدت لولديها فغسلتهما ، وأمرتهما ، بالخروج لزيارة قبر جدهما فخرجا وهما يفكران في الأمر هل ان أمهما قد انهكتها العلة ، واضر الداء بها حتى لاتستطيع ان تمضي الى بيت الاحزان الذي الفته ؟ ! او انها تريد أن تبكي في هـذا اليوم في ثوبها ؟! كيف البكاء وشيوخ المدينة قد منعوها من البكاء ؟ ! وغرقا في بحر من الهموم وتيار من الهواجس .

والتفتت الى سلمى بنت عميس (١) وكانت تتولى خدمتها وتمريضها فقالت لها .

« يا أماه »

« نعم ياحبيبة رسول الله »

« اسكبي لي غسلا »

فانبرت وأتت لها بما طلبته من الماء فاغتسلت فيه ، وهي على احسن ماتكون ، وقالت لها :

« إيتني بثيابي الجدد »

فناولتها ثيابها ، وهتفت بها ثانية

« اجعلي فراشي وسط البيت »

فذهلت المرأة وقامت تتعثر باذيالهـا فصنعت لها ذلك فاضطجعت على فراشها ، واستقبلت القبلة والتفتت الى سلمى قائلة :

« يا امه ... اني مقبوضة الآن ، وقد تطهرت ، فلا يكشفني احد »(٢)

---

(١) سلمى بنت عميس اخت اسماء وهي احدى الاخوات اللاتي قال فيهن رسول الله (ص) . الاخوات مؤمنات ، وهي زوج حمزة بن عبدالمطلب جاء ذلك في اسد الغابة ٥|٤٧٩

(٢) طبقات ابن سعد ٨|١٧ وفي مسند الامام احمد بن حنبل ٦|٤٦١ وفي

وقبضت في وقتها وقد انطوت في ذلك اليوم الخالد في دنيا الاحزان اروع صفحة من صفحات الفضيلة والطهر والعفاف ، وانقطع بموتها آخر من كان في دنيا الوجود من نسل رسول الله

وقفل الحسنان راجعين الى الدار فنظرا فاذا ليس فيها أمهم فبادرا الى سلمى فقالا .

« سلمى اين امنا ؟ »

فبادرت اليهما ، وقد احاطت بها رعشة الذهول والارتباك ، وغامت عيناها بالدموع فقالت :

« ياسيدي إن أمكما قد ماتت ... فاخبرا بذلك أباكما .. »

واشرفا على الموت بهذا النبأ المريع فبادرا الى المسجد ، وقد علا منهما البكاء فاستقبلهما المسلمون ، قائلين :

« مايبكيكما يابني رسول الله ؟ لعلكما نظرتما الى موقف جدكما فبكيتما شوقا اليه ؟ »

فاجابا بصوت مشفوع بالاسى والعبرات

« أوليس قد ماتت أمنا فاطمة »

وسلبا شعور المسلمين بهذا النبأ المؤلم ، وتركا الالم يحز في قلوبهم لانهم فقدوا بضعة نبيهم واعز ابنائه وبناته عنده ، وهم لم يحفظوا مكانتها ولم يؤدوا حقها ، وهرعوا من كل جانب الى دار الامام ليفوزوا بتشييع بقية النبوة ، القديسة الطاهرة ، وازدحموا على بيت الامام ، وقد علاهم الندم والاسى على عدم قيامهم بمراعاة بضعة نبيهم صلى الله عليه وآله الذي برّ بدينهم ودنياهم .

وامر الامام سلمان الفارسي أن يصرف الناس فخرج سلمان وصرفهم

ذخائر العقبى ص ٥٣ ان التي شهدت وفاة الصديقة هي ام سلمة لا سلمى بنت عميس .

واقبلت عائشة فارادت الدخول الى بيت الامام فنعتها اسماء وقالت لها :
« لقد عهدت الي فاطمة أن لايدخل عليها أحد .. » (١)

وقام الامام الثاكل الحـــزين فغسل الجسد الطاهر وطيبه بالحنوط ، وادرجه في الاكفان ودعا باطفالها الذين لم ينتهلوا من حنان امهم فالقوا عليها نظرة الوداع ، وقد علا منهم الصراخ والعويل ، وبعد الفراغ من ذلك انتظر الهزيع الاخـــير من الليل فلما حل خرج مع حفنة من الرجال وهم يحملون الجثمان المقدس الى مقره الاخير ، ولم يخبر امير المؤمنين احدا من الناس سوى الصفوة من اصحابه تنفيذا لوصيتها (٢) وحفر (ع) لها قبرا في البقيع على ماقيل (٣) ووسدها فيه واهال عليها التراب ، ولمـــا انصرف من كان معه من المشيعين وقف على حافة القبر وثار الحزن قد لسعت قلبه ، فجعل يناجي الرسول ، ويؤبن زهراءه بكلمات تنم عن قلب افعم بالآلام والحسرات .

---

(١) اسد الغابة ٥|٥٢٤ ، كنز العمال ٧|١١٣

(٢) ذكر ذلك شراح البخاري من المجلد الثامن ص ١٥٧ وفي مستدرا الحاكم ٣|١٦٢ عن عائشة قالت : دفنت فاطمة بنت رسول الله (ص) ليلا ودفنها علي(ع) ولم يشعر ابو بكر حتى دفنت وصلى عليها علي ، ويوجد هذا الحديث في مسند احمد ١|٦ و ٩ وفي صحيح مسلم ٢|٧٢ وفي تاريخ الطبري ٣|٢٠٢ وفي سنن البيهقي ٦|٣٠٠ وفي مشكل الآثار للطحاوي وذكره ابن كثير في تاريخه ٥|٢٨٥ وقال في ج ٦|٣٣٣ لم تزل فاطمة تبغضه مدة حياتها ، وفي السيرة الحلبية ٣|٣٩٠ قال الواقدي : ثبت عندنا ان عليا كرم الله وجهه دفنها رضي الله عنها وصلى عليها ومعه العباس والفضل ولم يعلموا بها احدا .

(٣) البحار ١٠|٥٢ وجاء فيه ان ابن بابويه يذهب الى انها دفنت في بيتها وذهب شيخنا ابو جعفر الطوسي الى انها دفنت اما في دارها اوفي الروضة .

« السلام عليك يارسول الله ، عني وعن ابنتك النازلة في جوارك ، والسريعة اللحاق بك ... قلّ يارسول الله عن صفيتك صبري ، ورق عنها تجلدي ... الا أن في التأسي بعظيم فرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعز فلقد وسدتك في ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدري نفسك ... إنا لله وإنا اليه راجعون ، لقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد وأما ليلى فمسهد (١) الى أن يختار الله لي دارك التي انت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتظافر أمتك على هضمها فاحفها السؤال (٢) واستخبرها الحال ... هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع لاقال ولا سئم (٣) فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .. » (٤)

---

(١) الليل المسهد : الذي ينقضي بالسهر .

(٢) الاحفاء بالسؤال : الاستقصاء ، ويطلب سلام الله عليه من النبي ان يكثر من سؤال بضعته لتخبره بما جرى عليها من الخطوب والكوارث والآلام التي تجرعتها من صحابته .

(٣) القالي : المبغض ، والسئم ماخوذ من السامة وهي ملال الشيء

(٤) شرح النهج محمد عبده ٢/٢٠٧ ـ ٢٠٨ واختلف في تأريخ وفاتها ففي طبقات ابن سعد ٨/١٨ انها توفيت بعد وفاة ابيها (ص) بثلاثة اشهر ، وكان عمرها يوم وفاتها عشرين سنة ، وفي مستدرك الحاكم ٣/١٦٢ انها توفيت بعد وفاة ابيها بثمانية اشهر ، وقيل لم تمكث الاشهرين ، وكان عمرها الشريف احدى وعشرين سنة ، وفي البحار ١٠/٦٠ انها توفيت بعد ابيها بخمسة وسبعين يوما ، وقيل باربعين يوما وكان عمرها ثماني عشر سنة وشهرين نقله عن السيد المرتضى علم الهدى وذكر اقوالا اخر .

واعلن الامام (ع) بهذه المناجاة الحزينة عن تظافر الأمة على هضم وديعة النبي صلى الله عليه وآله في الوقت الذي لم يطل فيه غيابه ، ولم ينقطع ذكره ويطلب منه أن يستقصي في السؤال من بضعته لتخبره بما جرى عليها بعده من الشؤون والشجون ، وتعرفه بما لاقته من الظلم والاذى والاضطهاد

يصغي الامام الحسن عليه السلام الى هذه المناجاة الحزينة من أبيه فتلم به آلام مبرحة ، ويعصف به حزن مرهق ، وتضاعف حزنه وشجاه حينما رأى أعز مافي الحياة عنده أمه الرؤوم قد عاشت في هذه الدنيا وعمرها كعمر الزهور ، وفاجأها الموت وهي في شبابها الغض الاهاب ، وقد حملت على الآلة الحدباء في غلس الليل البهيم ولم يحضر أحد من المسلمين تشييعها عدا نفر قليل ، وهي بضعة النبي صلى الله عليه وآله وريحانته ، ووديعته في امته واعز من أحب من أبنائه وبناته ، وقد ذاق من هذه الكوارث وهو في دوره الباكر مرارة الحياة ، وصار قلبه موطنا للهموم ، ومركزا للاحزان والشجون .

اعتزال الامام

وانصرف امير المؤمنين عليه السلام بعد أن ودع بضعة الرسول صلى الله عليه وآله في الثرى ، وهو يبكي أمر البكاء ، وعاد الى البيت وهو كئيب حزين ، ينظر الى اطفاله وهم يندبون امهم ويبكون على فادح المصاب ، فتهيج أحزانه ، وتزداد آلامه ، ويشاهد حقه وتراثه فيرى الرجال قد تناهبوه فتلم به الكوارث والخطوب ، فآثر عليه السلام العزلة ، واحب الخلود الى السكون في داره ، وقد اعتزل عليه السلام عن الناس فصار جليس بيته ، لايجتمع بالناس ، ولا يجتمعون به قد اعرض عن القوم ، واعرضوا عنه ، لايراجعهم ، ولا يراجعونه ، ولا يشاركونه في جميع الامور اللهم إلا إذا حلت في ناديهم مشكلة لايعرفون جوابها ، ولا يهتدون لحلها ، فزعوا اليه ليكشف لهم الستار عنها ، وكان عليه السلام تارة يتولى جواب ذلك

بنفسه ، واخرى يحيله الى ولده الحسن للتدليل على فضله ومواهبه ، فمن ذلك ماحدث به الرواة ان اعرابيا سأل أبا بكر فقال له :

« إني اصبت بيض نعام فشويته وأكلته ، وانا محرم فما يجب علي ؟ . »

فتحير ابو بكر ولم يطق جوابا ، واحال الجواب الى عمر فتحير أيضا ، واحال الجواب الى عبدالرحمن فعجز عنه ، وفزعوا جميعا الى باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله ليهديهم الى الجواب ، ووجه اليه الاعرابي السؤال السالف فقال (ع) :

« سل أي الغلامين شئت - واشار الى الحسن والحسين - »

ووجه الاعرابي سؤاله الى الامام الحسن فقال (ع) له

- ألك إبل ؟

- نعم

- فاعمد الى ما أكلت من البيض نوقا فاضرِبهن فى الفحول ، فما ينتج منها ، اهده الى بيت الله العتيق ، الذي حججت اليه .. »

والتفت اليه أمير المؤمنين

« يابني . إن من النوق السلوب ، وما يزلق (١) »

فاجابه الحسن عن اشكاله ،

« ياابة . إن يكن من النوق السلوب ، ومايزلق فان من البيض مايمرق (٢)

وكان جوابه عليه السلام على وفق ماقرر في الفقه الاسلامي في كفارة الاحرام ، واستحسن أمير المؤمنين جوابه فالتفت عليه السلام الى حضار مجلسه ، وهو يشيد بمواهب ولده ، وغزارة علمه وفضله ، قائلا :

« معاشر الناس .. إن الذي فهم هذا الغلام هو الذي فهمه سليمان بن داود (٣)

---

(١) السلوب : الناقة التي مات ولدها اوالقته بغير تمام ، الزلوق : الناقة التي تلقي ولدها بغير تمام .

(٢) يمرق : مأخوذ من مرقت البيضة اي فسدت

(٣) مناقب ابن شهراشوب ٢/١٥٠ نقله عن القاضي فى شرح الاخبار

لقد كان امير المؤمنين عليه السلام مرجعا للفتيا في حياة أبي بكر وعمر ومفزعا للمسلمين إن حلت ينادبهم مشكلة ، وقـد اتفقت الكلمة انه اعلم الصحابة بشؤون الدين واحكام الشرع .

وفاة ابي بكر

وظل أبو بكر متقمصا للخلافة زمنا يسيرا يدير شؤون الامة ، ويتصرف في أمورها ، قد اعتمد على عمر وأسند اليه مهام الدولة ، ولما مرض مرضه الذي توفي فيه وثقل حاله ادلى بالامر من بعده اليه وقد انكر عليه طلحة هذا الاختيار فقال له :

« ماذا تقول لربك ، وقد وليت علينا فظا غليظا ؟ تفرق منه النفوس وتنفض منه القلوب » (١)

فسكت أبو بكر ، واندفع طلحة قائلا :

« ياخليفة رسول الله ، إنا كنا لا نحتمل شراسته وأنت حي تأخذ على يديه ، فكيف يكون حالنا معه ، وأنت ميت وهو الخليفة .. » (٢)

ولم ينفرد طلحة بهذا الانكار بل شاركه جمهور المهاجرين والانصار فقد بادروا الى أبي بكر وقالوا له :

« نراك استخلفت علينا عمر ، وقد عرفته ، وعلمت بوائقه فينا ، وأنت بين أظهرنا ، فكيف اذا وليت عنا ، وانت لاق الله عـز وجل فسائلك ، فما أنت قائل ؟ .. »

فاجابهم أبو بكر بصوت خافض

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ١|٥٥

(٢) شرح النهج ٦|٣٤٣ ط دار احياء الكتب العربية

« لئن سألني الله لاقولن استخلفت عليهم خيرهم في نفسي ... »(١)

وكون عمر خيرهم في نفسه ليس مبررا له في ترشيحه للخلافة ، فان الاجدر أن يأخذ رأي المسلمين في ذلك ويستشير أهل الحل والعقد منهم عملا بقاعدة (الشورى) ولكنه اهمل ذلك ، واستجاب لعواطفه ورغبته الملحة في أن يتولى زمام الحكم من بعده خدنه وزميله ، وعلى أي حال فقد كان عمر الى جانبه يعزز مقالته ورأيه فيه قائلا :

« ايها الناس ، اسمعوا ، واطيعوا قول خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله .. » (٢)

ودعا أبو بكر عثمان بن عفان ، وامره أن يكتب له العهد في عمر وأملاه عليه وهذا نصه :

« هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة ، آخر عهده في الدنيا نازحا عنها . وأول عهده بالآخرة داخلا فيها ، إني استخلفت عليكم عمر ابن الخطاب ، فان تروه عدل فيكم فذلك ظني به ورجائي فيه ، وإن بدل وغير فالخير أردت ، ولا اعلم الغيب « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (٣)

وتناول عمر الكتاب ، وانطلق يهرول الى الجامع ايقرأه على الناس فقال له رجل :

« مافي الكتاب يا أبا حفص . ؟ »

« لا ادري . ولكني أول من سمع وأطاع .. »

فنظر الرجل اليه نظرة ريبه وانبرى قائلا :

---

(١) الامامة السياسة ١|١٩

(٢) تاريخ الطبري ٤|٥٢

(٣) الامامة والسياسة ١|١٩ ، تاريخ الطبري، طبقات ابن سعد

« ولكني والله أدرى مافيه : أمرته عام أول ، وأمرك العام .. » (١)

لقد مهد أبو بكر الأمر الى عمر ، وعبدّ له الطريق ، وتناسى أمير المؤمنين فلم يشاوره في الامر ، ولم يرع حقه ، وقد نطق عليه السلام بعد سنين عما يكنه في نفسه من عميق الالم والحزن يقول في خطبته الشهيرة بالشقشقية :

فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، أرى تراثي نهبا ، حتى مضى الاول لسبيله ، فادلى بها الى فلان بعده ، ثم تمثل بقول « الأعشى » :

شتان مايومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

فيا عجبا !! بينا هو يستقيلها في حياته (٢) إذ عقدها لآخر بعد وفاته لشد ماتشطرا ضرعيها .. (٣)

وهذه الكلمات قد عبرت عن عظيم الوجد ، وبالغ الاسى الذى استقر في نفس الامام على ضياع حقه ، ويعتقد بعض كتاب العصر أن السبب في عدول أبي بكر عن اختياره ، هو تخلفه عن بيعته ، واحتجاجه عليه بأنه أحق بالأمر منه لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله مما اوجب بغض أبي بكر له ، وحقده عليه .

وزاد المرض بأبي بكر ، وثقل حاله حتى وافاه الأجل المحتوم (٤)

---

(١) الامامة والسياسة ١|٢٠

(٢) اشارة الى قول ابي بكر بعد مابويع « اقيلوني فلست بخيركم »

(٣) نهج البلاغة محمد عبده ١|٢٦ ـ ٢٧

(٤) توفي ابو بكر ليلة الثلاثاء لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة اشهر ذكر ذلك المسعودي في مروج الذهب ٢|١٩١ وكان في الجاهلية معلما للصبيان ،

فقام عمر في شؤونه ، ودفنه في بيت النبي صلى الله عليه وآله وفي جواره ، وبيت النبي صلى الله عليه وآله لايخلو اما أن يكون ميراثا كما تقول به بضعة الرسول صلى الله عليه وآله أو يكون صدقة كما زعم أبو بكر فان كان ميراثا فلا يحل دفنه فيه الا بعد ارضاء الورثة ، وان كان صدقة فلا بد من ارضاء جماعة المسلمين ، ولم يتحقق كل ذلك .

خلافة عمر

وتولى عمر بن الخطاب أزمة الحكم بعد وفاة أبي بكر ، وتسلم قيادة الأمة بهدوء وسلام ، فساس البلاد بشدة وعنف بالغين ، وقد تحامى لقاءه أكابر الصحابة ، فلم يستطع أحد منهم أن يجاهر بآرائه ، أو ينقد الحكم القائم ، فان درة عمر ـ كما يقولون ـ كانت أهيب في النفوس من سيف الحجاج ، حتى ان ابن عباس لم يتمكن أن يصرح برأيه في جواز المتعة ، وحليتها الا بعد وفاة عمر ، وقد وصف الامام أمير المؤمنين عليه السلام بعد اعوام سياسة عمر ، وشدة عنفه يقول عليه السلام :

« فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلمها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها، فصاحبها كراكب الصعبة ، إن اشنق لها خرم وان اسلس لها تقحم ، فمني الناس لعمر الله بخبط وشماس ، وتلون واعتراض .. » (١)

وهو وصف دقيق للسياسة العمرية التي انتهجت منهج الشدة والغلظة في جميع مجالاتها حتى مني الناس بخبط وشماس وتلون واعتراض ، وبلغ من

وفي الاسلام خياطا ، وكان ابوه فقيرا ، يكتسب من صيد القماري والدباسي ، ولما عمي وعجز ابنه عن القيام به التجأ إلى عبدالله بن جدعان احد رؤساء مكة فنصبه ينادي على مائدته جاء ذلك في حق اليقين ١|١٨١

(١) نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١|١٦٢

عظيم عنفها ان امرأة جاءت تسأله عن أمر ، وكانت حاملا ، ولشدة خوفها اجهضت حملها (١) ويقول عثمان في شدة عمر وقسوته : « لقد وطئكم ابن الخطاب برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه فخفتموه ، ورضيتم به » ويذهب الناقدون الى هذه السياسة انها لاتمثل وجهة السياسة الاسلامية ، فانها لاتقر بحال سياسة العنف والارهاب ، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذته هيبة النبي فارتعدت اعضاؤه فنهره صلى الله عليه وآله وقال له : « انما أنا ابن أمرأة من قريش كانت تأكل القديد » إن الاسلام بني على الرفق ، واللين ، والتسامح وليس لرئيس الدولة أن يسلك أي طريق يؤدي الى ارهاق المواطنين وعنائهم .

ومما يؤخذ على السياسة العمرية انها كانت تنهج إلى ايجاد الطبقية في الاسلام ، فقد التزم في سياسته المالية بتقديم بعض الطبقات على بعض في العطاء ، فقدم امهات المؤمنين على غيرهن ، وقدم البدريين على من سواهم ، والمهاجرين على الانصار (٢) ومن الطبيعي أن ذلك يتنافى مع المساوات التي جاء بها الاسلام .

ومما يرد على سياسة عمر أنه فرض الحصار على الصحابة في يثرب ولم يسمح لهم بمغادرتها وذلك يجافي الحرية التامة التي اقرها الاسلام ، ومنحها لجميع المواطنين .

ولعل لهذه الجهات وصف أمير المؤمنين عهد عمر بأن المجتمع قد مني فيه بخبط وشماس وتلون واعتراض .

---

(١) نهج البلاغة ١|١٧٤

(٢) الأموال لأبي عبيد ص ٢٢٤

اعتزال الامام

واعتزل الامام امير المؤمنين عليه السلام في دور الخليفة الثاني كما اعتزل في عهد الخليفة الاول ، فلم يشترك في شأن من شؤون القوم ، ولم يتدخل في أمر من أمورهم ، حتى خفت صوته في جميع الحروب والمواقف اللهم الا رأيه الوثيق اذا استفتي حتى اشتهرت كلمة عمر في ذلك : لولا علي لهلك عمر » (١) فقد كان عمر لايستغني عن الامام من ناحية الفتيا لأن معلومات الخليفة في الفقه الاسلامي كانت ضئيلة للغاية فقد قضى في ميراث الجد مع الاخوة قضايا كثيرة مختلفة ثم خاف في الحكم في هذه المسألة فقال : من أراد أن يقتحم جراثيم جهنم فليقل في الجد برأيه ، (٢) وقال : لايبلغني أن امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبي صلى الله عليه وآله الا ارتجعت ذلك منها ، فقالت اليه امرأة :

« ماجعل الله لك ذلك ، إنه تعالى قال : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا اتأخذونه بهتاناً وإثما مبيناً » (٣)

فانطلق عمر وهو يبدي للمسلمين عجزه قائلا :

« كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال ! ألا تعجبون من إمام أخطأ ، وامرأة اصابت فاضلت إمامكم ففضلته.. (٤)

---

(١) السنن الكبرى ٧|٤٤٢ ، تفسير الرازي ٧|٤٨٤

(٢) نهج البلاغة ١/ ١٨١

(٣) سورة النساء : آية ٢٠

(٤) نهج البلاغة ١|١٨٢

وعلى أي حال فقد كان عمر قليل البضاعة في الفقه الاسلامي ليست له دراية في كثير من مسائله ، فكان بطبيعة الحال مضطراً الى الرجوع الى باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله ووصيه ليكشف له الستار عما أشكل عليه ، وقد تصدى عليه السلام بسخاء لهذه الناحية ، ولم يظن على القوم بعلومه ومعارفه لئلا تهمل أحكام الله وتتعطل حدوده ، وهو في نفس الوقت كان بعيداً عن القوم كل البعد فلم يشترك في شأن من شؤونهم قد خلد الى الانعزال ، والابتعاد عنهم ، وأظهر لهم المسالمة حرصاً منه على كلمة الأسلام ، وخوفاً على كلمة المسلمين من الانشقاق .

وقد قطع الامام الحسن عليه السلام في عهد عمر دور الصبا حتى أشرف على ميعة الشباب ، وقد اقتضت سياسة عمر أن يجل السبطين ويجعل لهما نصيباً فيما يغتنمه المسلمون ، ووردت اليه حلل من وشي اليمن فوزعها على المسلمين ونسائها ، فبعث الى عامله على اليمن أن يرسل له حلتين ، فأرسلهما اليه فكساهما وقد جعل عطاءهما مثل عطاء أبيهما ، وألحقهما بفريضة أهل بدر ، وكانت خمسة آلاف (١) .

ولم تظهر لنا أي بادرة عن الامام الحسن عليه السلام ما عدا ذلك ، ويعود السبب الى عدم تدخل أبيه أمير المؤمنين عليه السلام في شؤون عمر وعدم اشتراكه في أي جانب من الجوانب العامة .

اغتياله :

واغتاله أبو لؤلؤة غلام المغيرة فطعنه ثلاث طعنات إحداهن تحت سرته وهي التي قضت عليه ، وتعزو بعض المصادر سبب ذلك الى ان المغيرة جعل

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤/٣٢١

عليه خراجاً ثقيلا فشكا حاله الى عمر فزجره وقال له :

« ماخراجك بكثير من أجل الحرف التي تحسنها .. »

فتأثر أبو لؤلؤة ، وأضمر له الشر في نفسه ، واجتاز عليه في وقت آخر فسخر منه عمر قائلا :

« بلغني أنك تقول : لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت .. »

فاندفع أبو لؤلؤة وقد لسعته سخريته فاخبره بما يبيت له من الشر قائلا :

لأصنعن لك رحى يتحدث الناس بها .. »

وفي اليوم الثاني قام بعملية الاغتيال (١) وقيل ان اغتياله كان وليد مؤامرة دبرها الناقمون على سياسته التي انتهجت منهج الشدة والقسوة ، وخلقت الطبقية بين المسلمين .

ومهما يكن من أمر فقد حمل عمر الى داره ، وجراحاته تنزف دماً وبادر أهله فأحضروا له طبيباً فقال له :

« أي الشراب أحب إليك ؟ . »

« النبيذ »

فسقوه منه ، فخرج من بعض طعناته ، فقال الناس : خرج صديداً ثم سقوه لبناً فخرج من بعض طعناته ، فيئس منه الطبيب وقال له : لا أرى أن تمسي (٢) ولما أيقن ولده عبد الله بموته قال له :

«يا أبة . استخلف على امة محمد صلى الله عليه وآله فانه لو جاءك راعي إبلك أو غنمك ، وترك إبله أو غنمه لاراعي لها لمته ، وقلت له :

---

(١) مروج الذهب ٢|٢١٢ ، الاستيعاب

(٢) الامامة والسياسة ١|٢١

كيف تركت أمانتك ضائعة ؟ ! فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وآله فاستخلف عليهم .. »

فنظر اليه نظرة ريبة فقال له :

« إن استخلف عليهم فقد استخلف أبو بكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وآله .. » (١)

وأقام عبد الله في حديثه برهاناً تدعمه الفطرة على ضرورة نصب الوصي ، وتعيين ولي العهد ، وان من أهمله يستحق اللوم والتقريع ،وهو أمر واضح لامجال للشك فيه ، والعجب من عمر وهو في ساعاته الأخيرة كيف يقول إن رسول الله صلى الله عليه وآله ترك امته ولم يستخلف عليها أحداً من بعده !! وهو صلى الله عليه وآله الحريص على امته الذي يعز عليه عنتها واختلافها ، وانشقاقها وقد لاقى في سبيل هدايتها أعظم العناء وأشقه ، ولعل (الوجع) قد غلب على عمر فنسي النصوص المتضافرة من رسول الله صلى الله عليه وآله في أمير المؤمنين عليه السلام وأنه ولي عهده وخليفته من بعده ، وتناسى بيعته له يوم غدير خم ، وقوله له : « بخ بخ لك ياعلي أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة »ولكن إنا لله ، وإنا اليه راجعون .

الشورى :

ولما يئس عمر من الحياة ، وأيقن بنزول الأجل المحتوم أخذ يطيل التفكير ، ويمعن النظر فيمن يتولى شؤون الحكم من بعده ، وتذكر أقطاب حزبه الذين شاركوه في تمهيد الأمر الى أبي بكر ، وصرفه عن أهل بيت

(١) مروج الذهب ٢/٢١٢

النبوة فطافت به آلام مبرحة لأنه لم يكن أحد منهم إلا اختطفته يد المنون فجزع عليهم وقال بنبرة الآسف : « لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته لأنه أمين هذه الامة ، ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته لأنه شديد الحب لله تعالى ... »

لقد اسف على هلاك أبي عبيدة وسالم ، ولو كانا حيين لرشحها لمنصب الخلافة ، فهل لهما سابقة الجهاد في الاسلام ؟ أو أنهما كانا أثيرين عند رسول الله صلى الله عليه وآله ليستحقا هذا المنصب الخطير .

لقد فتش عمر في سجل الاموات عمن هو أهل للخلافة ، ونسي أمير المؤمنين عليه السلام الذي هو نفس النبي صلى الله عليه وآله وباب مدينة علمه ، وباب دار حكمته ، وأقضى امته ، وأبو سبطيه ، وناصره في جميع المشاهد والمواقف ، لقد نساه عمر فلم يذكره بقليل ولا بكثير ،

وعلى اي حال فقد رأى عمر ان يجعلها شورى في جماعة زعم أن الامام أحدهم ، وهي مؤامرة خطيرة دبرت ضد أمير المؤمنين عليه السلام يقول الامام كاشف الغطاء رحمه الله :

« الشورى بجوهرها وحقيقتها مؤامرة واقعية ، وشورى صورية ، وهي مهارة بارعة لفرض عثمان خليفة على المسلمين رغماً عليهم ولكن بتدبير بارع عاد على الاسلام والمسلمين بشر ماله دافع .. »

ودعا عمر أعضاء الشورى فلما مثلوا عنده قال لهم :

« أكلكم يطمع بالخلافة بعدي ؟ .. »

ووجموا عن الكلام ، فأعاد القول عليهم ثانياً فانبرى اليه الزبير فرد عليه مقالته قائلا :

« وما الذي يبعدنا منها !! وليتها أنت فقمت بها ولسنا دونك في

قريش ، ولا في السابقة ولا في القرابة .. »

والتفت اليهم فقال :

« أفلا أخبركم عن أنفسكم ؟ ! »

« قل : فانا لو استعفيناك لم تعفنا .. »

وأخذ يدلي برأيه فيهم ، ويخبر عن نفسياتهم واتجاهاتهم واحداً بعد واحد فقال في الزبير :

« أما أنت يازبير ، فوعق لقس (١) مؤمن الرضا كافر الغضب ، يوماً انسان ، ويوماً شيطان ، ولعلها لو أفضت اليك ظلت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير !! أفرأيت إن أفضت اليك ، فليت شعرى من يكون للناس يوم تكون شيطاناً ، ومن يكون يوم تغضب !! وما كان الله ليجمع لك أمر هذه الامة ، وأنت على هذه الصفة . »

ومع علمه بنفسية الزبير ، وأنه يوم إنسان ، ويوم شيطان وأنه مبتل بالبخل والشح ويلاطم بالبطحاء على مد من شعير كيف يرشحه للخلافة ، ويجعله من أعضاء الشورى ؟؟ !!

وأقبل على طلحة فقال له :

« أقول ام أسكت ؟ . »

فزجره طلحة وقال له :

« إنك لاتقول من الخير شيئاً .. »

« أما إني أعرفك منذ اصيبت إصبعك يوم أحد وائياً (٢) بالذي حدث لك ، ولقد مات رسول الله صلى الله عليه وآله ساخطاً عليك بالكلمة

---

(١) الوعق : الضجر المتبرم ، واللقس من لايستقيم على وجه

(٢) وائياً : غاضباً

التي قلتها يوم انزلت آية الحجاب ... »

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد توفي وهو ساخط على طلحة كيف يرشحه للخلافة الاسلامية التي هي نيابة عن الرسول ؟ كما أنه يناقض ماقاله أخيراً في أعضاء الشورى من أن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عنهم ، يقول الجاحظ : « لو قال لعمر قائل : أنت قلت : إن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن الستة فكيف تقول الآن لطلحة : إنه مات عليه السلام ساخطاً عليك للكلمة التي قلتها ، لكان قد رماه بمشاقصه (١) ولكن من الذى كان يجسر على عمر أن يقول له مادون هذا فكيف هذا »

وأقبل على سعد بن ابي وقاص فقال له :

« إنما أنت صاحب مقنب (٢) من هذه المقانب ، تقاتل به ، وصاحب قنص وقوس ، وأسهم ، وما زهرة والخلافة وأمور الناس !! »

فسعد بن أبي وقاص - حسب فراسة عمر - رجل حرب ، وقتال ، وصاحب قنص وقوس فلا يصلح للخلافة ، وليس خليقاً بها هو وأسرته فكيف يرشحه عمر لها ويجعله من أعضاء الشورى الذين لهم الأهلية لتسلم قيادة الحكم ؟ !

والتفت الى عبد الرحمن بن عوف فقال له :

« وأما أنت ياعبد الرحمن ، فلو وزن نصف إيمان المسلمين بايمانك لرجح إيمانك به ، ولكن ليس يصلح هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما زهرة وهذا الامر ! . »

---

(١) المشاقص : جمع مشقص وهو نصل السهم اذا كان طويلا

(٢) المقنب : جماعة الخيل

ان عبد الرحمن رجل إيمان وتقوى ـ حسب رأي عمر ـ ومن إيمانه الذي اضفاه عليه الخليفة أنه عدل عن انتخاب العترة الطاهرة ، وسلم قيادة الامة ، ومقدراتها بأيدي الامويين خصوم الاسلام واعداء الرسول صلى الله عليه وآله ثم ان الايمان بذاته ـ كما يقول عمر ـ لايصلح لترشيح صاحبه للخلافة ما لم تكن له دراية تامة بشؤون المجتمع ، وخبرة وافرة بما تحتاج اليه الامة في جميع مجالاتها ، وعبد الرحمن ـ حسب اعتراف عمر ـ رجل ضعيف لايليق للخلافة فكيف يرشحه لها ويجعله من أعضاء الشورى البارزين ؟!

وأقبل على أمير المؤمنين فقال له :

« لله أنت ، لولا دعابة فيك ! أما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح ، والمحجة البيضاء .. »

ومتى كانت لأمير المؤمنين عليه السلام الدعابة والمزاح ، وهو الذي ما الف في حياته لغير الجد في القول والعمل ، وعلى تقدير اتصافه بها ، فهي من خلق الانبياء ومن خلق الرسول صلى الله عليه وآله بالاخص ، فقد ورد أنه كان صلى الله عليه وآله يداعب الرجل ليسره بذلك .

وهل من الحيطة على الاسلام ، والمحافظة على وحدة الامة ، ورعاية صالحها أن يفتل عمر حبل الشورى ويجعل أمير المؤمنين عليه السلام أحد أعضائها ، وهو ـ حسب اعترافه ـ لو تولى زمام الحكم لحمل المسلمين على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، ولسار بهم سيراً سجحا لايكلم خشاشه ، ولا يتعتع راكبه ، ولأوردهم منهلا روياً فضفاضا تطفح ضفتاه ، ولايترنم جانباه ، ولأصدرهم بطانا ، ونصح لهم سرا واعلانا ـ كما تقول بضعة الرسول ووديعته ـ ويقول النبي صلى الله عليه وآله : « إن ولوا علياً فهادياً مهدياً » (١)

---

(١) الاستيعاب ٣|٥

ان الامام أمير المؤمنين عليه السلام لو استولى على زمام السلطة لوفر للمسلمين ما يحتاجون اليه من خيرات الحياة وأوجد لهم الفرص المتساوية ، وصان المثل الاسلامية من التدهور والانحطاط ، فهل من الانصاف أن تصرف الخلافة عنـــه وتجعل شورى بأسلوب يؤدي الى فوز الامويين بالحكم ؟ !!

وأقبل عمر على عثمان فقال له :

« هيها اليك !! كأني بك قد قلدتك قريش هذا الامر لحبها إياك فحملت بني أمية ، وبني أبي معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفيء فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب ، فذبحوك على فراشك ذبحاً . والله لئن فعلوا لتفعلن ، ولئن فعلت ليفعلن ، ثم أخذ بناصيته ، فقال : فاذا كان ذلك فاذكر قولي .. » (١)

ومع علمه بأنه يحمل بنى أمية ، وبنى أبي معيط على رقاب الناس ، ويؤثرهم بفيء المسلمين كيف يرشحه للخلافة ، ويمكنه من رقاب المسلمين ويعرض الامة للويلات والخطوب !!

وبعد ما أدلى بحديثه التفت الى الجمهور قائلا :

إن رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عن هؤلاء الستة من قريش ، وقد رأيت أن أجعلها شورى بينهم ليختاروا لأنفسهم واحداً منهم .. »

ثم قال للمرشحين : « احضروا معكم من شيوخ الانصار ، وليس لهم من أمركم شيء ، واحضروا معكم الحسن بن علي ، وعبد الله بن عباس فان لهما قرابة ، وارجو لكم البركة فى حضورهـــا وليس لهما من

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ١|١٨٥ - ١٨٦

أمركم شيء .. » (١)

وما هي البركة التي تحصل لأعضاء الشورى بحضور الامام الحسن، وعبد الله بن عباس، وهما لايملكان من الامر شيئاً، قد جردهما من الادلاء بالرأي، كما جرد شيوخ الانصار من ذلك، ولم يسمح لأحد منهم أن يبدي برأيه، ثم التفت الى أبي طلحة الانصاري (٢) فقال له:

« يا أبا طلحة، إن الله أعز الاسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الانصار، فالزم هؤلاء النفر بامضاء الامر وتعجيله .. »

والتفت الى المقداد بن الاسود فاوصاه بمثل ذلك ثم قال:

« اذا اتفق خمسة، وأبى واحد منهم فاضربوا عنقه، وان اتفق أربعة وأبى اثنان فاضربوا عنقيهما، وان اتفق ثلاثة منهم على رجل، ورضي ثلاثة منهم برجل آخر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس .. »

وخرج الامام أمير المؤمنين المظلوم المهتضم، وهو ملتاع حزين من الشورى العمرية قد أيس من الامر والتقى بعمه العباس فبادره قائلا:

« ياعم لقد عدلت عنا .. »

---

(١) الامامة والسياسة ١|٢٤

(٢) ابو طلحة الانصاري هو زيد بن سهل النجار، شهد مع النبي صلى الله عليه وآله بدرا، ولما آخى صلى الله عليه وآله بين اصحابه آخى بينه وبين ابي عبيدة الجراح، وكان ابو طلحة من الرماة المعدودين، ومن الشجعان المشهورين، قتل يوم حنين عشرين رجلا، وتزوج بام انس بن مالك، توفي بالمدينة سنة احدى وثلاثين، وكان عمره سبعين عاماً، وقد صلى عليه عثمان بن عفان، اسد الغابة ٥|٣٣٤

ومن أعلمك بذلك ؟ ! »

« لقد قرن بي عثمان .. وقال : كونوا مع الاكثر ، ثم قال : كونوا مع عبد الرحمن ، وسعد لايخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر لعثمان ، وهم لايختلفون فاما أن يوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن .. » (١)

لقد كشف عليه السلام عن المؤامرة التي دبرها الخليفة الراحل ضده فقد فتل حبل الشورى بهذا الاسلوب ليصرف الامر عنه ، وقد كوت هذه الصور المؤلمة قلبه فراح يقول بعد سنين :

« حتى اذا مضى لسبيله ، جعلها في جماعة زعم أني أحدهم ، فيا لله وللشورى متى اعترض الريب في مع الاول منهم حتى صرت أقرن الى هذه النظائر .. »

أجل والله ، متى اعترض الريب فيه مع أبي بكر حتى صار يقرن بطلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف فهل في هؤلاء من هو كفؤ للامام في دينه وعلمه ، وجهاده ، وسابقته للاسلام ، وإنما استجاب عليه السلام لئن يكون من أعضاء الشورى مع وجود هذه المفارقات بينه ، وبين القوم ، فقد بينه في حديثه مع عبد الله بن عباس ، وخلاصته أن عمر قد أهله للخلافة وكان من قبل يقول : لاتجتمع النبوة والخلافة في بيت واحد فاراد أن يظهر أن أقواله تناقض أفعاله ، ولهذا السبب الوثيق انضم مع أعضاء الشورى

نظرة في الشورى :

وتواجه الشورى العمرية عدة من المؤاخذات فقد ذكر الناقدون لها

---

(١) الطبري ٥|٣٥

أنها لم تستند الى الاساليب الصحيحة ، ولم تبتن على الاسس الوثيقة ، وانها لم تنشد بأي حال صالح الامة ، ولم تهدف الى حماية المجتمع وصيانته من القلق والاضطراب ، وإنما الغرض منها صرف الخلافة عن أمير المؤمنين عليه السلام وحرمان الامة من التمتع في ظل حكمه العادل ، فهي لم تكن شورى واقعية ، وإنما كانت شورى صورية مشفوعة بالعصبية والاحقاد ، والى القراء بعض تلك النقود التي ترد عليها :

١ ـ إن حقيقة الشورى ان تشترك الامة بجميع هيآتها في الانتخاب والاختيار في جو تتوفر فيه الحريات العامة لجميع الناخبين ، والشورى العمرية قد فقدت هذه العناصر فقد حيل بين الشعب والاختيار فان عمر منح الاختيار الى ستة اشخاص ومن الطبيعي أنهم لايملكون إلا آراءهم الخاصة فلا يمثلون الامة ولا يحكون ارادتها على أنه ضيق الدائرة فجعل المناط بآراء الثلاثة الذين ينضم اليهم عبد الرحمن بن عوف ، وجعل آراءهم تعادل آراء بقية الشعوب الاسلامية ، وهذا شكل من اشكال التزكية التي تستعملها بعض الحكومات التي تفرض ارادتها على شعوبها ، لقد تصادمت هذه الشورى مع إرادة الشعوب الاسلامية ، وتنافت مع حرياتهم ، وقد فرضت عليهم فرضا .

٢ ـ إن هذه الشورى قد ضمت اكثر العناصر المعادية لأمير المؤمنين عليه السلام والحاقدة عليه ففيها طلحة التيمي وهو من أسرة أبي بكر الذي نافس الامام على الخلافة ، وكانت بين تيم والامام أشد المنافرة والخصومة وضمت الشورى عبد الرحمن بن عوف ، وهو صهر عثمان ، بالاضافة الى أنه كان حقوداً على امير المؤمنين عليه السلام فهو من جملة الذين حملوا الحطب في بيعة أبي بكر لحرق بيت الامام ، وضمت الشورى سعد بن أبي

وقاص ، وكان يحقد على الامام من أجل اخواله الامويين فان امه حمنة بنت سفيان بن امية ، وقد أباد الامام صناديدهم في سبيل الاسلام فكانت نفس سعد مترعة بالحقد والعداء على الامام من أجلهم ، ولما بايع المسلمون الامام كان سعد في طليعة المتخلفين عن بيعته ، واحتوت الشورى على عثمان وهو شيخ الاسرة الاموية التي عرفت بالنصب لآل بيت النبي صلى الله عليه وآله وقد ألب عمر هذه القوى كلها ضد الامام ، لئلا تؤل الخلافة اليه ، وقد تحدث عليه السلام بعد ان ولى الامر عن ضغن أعضاء الشورى وحقدهم عليه فقال :

« لكني اسففت إذ أسفوا ، وطرت إذ طاروا ، فصغى رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره مع هن وهن »

لقد ألب عمر عن عمد جميع أحقاد قريش ، واضغانها ضد أخي رسول الله ووصيه وباب مدينة علمه استجابة لأحقاد قريش التي وترها الامام في سبيل الاسلام .

٣ ـ لقد عمد عمر الى اقصاء جميع العناصر الموالية للامام فلم يجعل لها نصيباً في الشورى ولم يرشح أحداً من الانصار وهم الذين آووا النبي صلى الله عليه وآله ونصروه لأنه كان لهم هوى وميل للامام عليه السلام كما لم يجعل نصيباً فيها لعمار بن ياسر الذي هو أحد المؤسسين في بناء الاسلام ، وكذلك أقصى أبا ذر ، والمقداد وأمثالهم من أعلام الاسلام لأنهم كانوا شيعة لعلي ، وقصر الشورى على القوى المنحرفة عن الامام والمعادية له .

٤ ـ ومن عجيب أمر الشورى التي وضع براجها عمر أنه يشهد بحق أعضائها ان رسول الله صلى الله عليه وآله مات وهو راض عنهم ثم يأمر

بضرب أعناقهم إن تأخروا عن انتخاب أحدهم فهل ان ذلك موجب للخروج عن الدين ، والمروق من الاسلام حتى تباح دماؤهم !! ؟

٥ ـ ومن غريب أمر هذه الشورى ان عمر جعل الترجيح للكفة التي تضم عبد الرحمن فيما اذا اختلف أعضاؤها ، وغض طرفه عن الجماعة التي تضم أمير المؤمنين عليه السلام فلم يعرها أي اهتمام بل الزمها بالخضوع لرأي عبد الرحمن بن عوف ، وتقديمه على أمير المؤمنين وهو صاحب المواهب والعبقريات الذي لاند له في علمه وورعه وتقواه فكيف يساويه بغيره ، والله تعالى يقول : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » أف لك يازمان ، وتعسا لك يادهر أيكون أمير المؤمنين نداً لأعضاء الشورى ، ويرجح عليه عبد الرحمن ، ولكنها الاحقاد والعصبيات التي أترعت نفوسهم بها قد أنستهم المقاييس ، وصدتهم عن جادة العدل .

٦ ـ ومما يؤخذ على هذه الشورى انها أوجدت التنافس بين أعضائها فقد رأى كل واحد منهم أنه كفؤ للآخر ، ولم يكونوا قبلها على هذا الرأي فقد كان سعد تبعاً لعبد الرحمن ، وعبد الرحمن تبعاً لعثمان ، والزبير من شيعة الامام ، وهو القائل على عهد عمر : « والله لو مات عمر بايعت علياً » ولكن الشورى قد نفخت فيه روح الطموح ففارق أمير المؤمنين وخرج عليه يوم الجمل ، وقد تولدت في نفوسهم بسبب الشورى الاطماع والاهواء ، ورجا الخلافة وتطلبها من ليس أهلا لها حتى ضجت البلاد بالفتن والاختلاف ، واضطربت كلمة المسلمين ، وتصدع شملهم ، وقد صرح بهذا الواقع المرير معاوية بن ابي سفيان في حديثه مع ابن حصين الذي أوفده زياد لمقابلته ، فقد قال له معاوية :

ـ بلغني ان عندك ذهناً ، وعقلا فاخبرني عن شيء أسألك عنه ؟

ـ سلني عما بدا لك :
ـ أخبرني ما الذي شتت أمر المسلمين ، وملأهم وخالف بينهم ؟؟
ـ قتل الناس عثمان
ـ ما صنعت شيئا
ـ مسير علي اليك وقتاله اياك
ـ ماصنعت شيئاً
ـ مسير طلحة ، والزبير ، وعائشة ، وقتال علي إياهم !!
ـ ما صنعت شيئاً
ـ ما عندي غير هذا يا أمير المؤمنين
ـ أنا أخبرك انه لم يشتت بين المسلمين ، ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التي جعلها عمر الى ستة نفر ، وذلك ان الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فعمل بما أمره الله به ، ثم قبضه الله اليه ، وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله صلى الله عليه وآله لأمر دينهم ، فعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته ، ثم جعلها شورى بين ستة نفر فلم يكن رجل منهم إلا رجاها لنفسه ، ورجاها له قومه ، وتطلعت الى ذلك نفسه ، ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك خلاف .. » (١)

هذه بعض آفات الشورى التي فتحت باب الفوضى والنزاع بين المسلمين ، وتركت الطلقاء وأبناءهم يتسابقون الى ميدان الخلافة الاسلامية وينزون على منابر المسلمين ، ويستأثرون بالفيء وينكلون باخيار المسلمين

---

(١) العقد الفريد ٣|٧٣ ـ ٧٤

وصلحائهم فانا لله وإنا اليه راجعون .

الانتخاب :

ولاقى عمر ربه ، ومضى الى مقره الأخير (١) فاحاط البوليس بأعضاء الشورى ، وألزمهم بالاجتماع لينفذوا وصية عمر ، ويختاروا للمسلمين حاكماً منهم ، فاجتمع المرشحون في بيت المال ، وقيل في بيت مسرور بن مخرمة وأشرف على الانتخاب الامام الحسن عليه السلام وعبد الله بن عباس ، وازدلف عمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة الى محل الانتخاب فجلسا في الباب ، فعرف قصدهما سعد بن أبي وقاص فنهرهما وقال :

« تريدان ان تقولا : حضرنا ، وكنا في أهل الشورى ؟! »

وتداول الاعضاء الحديث فيما بينهم عمن هو أحق بالامر وأولى به وأكثرهم قدرة وقابلية على ادارة شؤون الحكم ، وانبرى اليهم أمير المؤمنين عليه السلام فأقام عليهم الحجة ، وحذرهم مغبة مايحدث في البلاد من الفتن ان استجابوا لنزعاتهم ولم يؤثروا الحق فقال عليه السلام :

« لم يسرع أحد قبلي الى دعوة حق ، وصلة رحم ، وعائدة كرم فاسمعوا قولي ، وعوا منطقي ، عسى أن تروا هذا الامر من بعد هذا اليوم

---

(١) توفي عمر يوم الاربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ، وكانت ولايته عشر سنين وستة اشهر ، واربع ليال وهو ابن ثلاث وستين سنة جاء ذلك في مروج الذهب ٢|١٩٨ وكان قبل الاسلام من الفقر والبؤس بمكان ، يقول عمرو بن العاص : « والله لقد رايت عمر واباه على كل واحد منهما عباءة قطوانية ، لاتجاوز مأبض ركبتيه ، وعلى رقبته حزمة حطب » ذكر ذلك ابن ابي الحديد في شرح النهج ١|١٧٥

تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلال وشيعة لأهل الجهالة .. » (١)

ولم يعوا منطق الامام ، ولم يتأملوا فيه ، وانطلقوا مدفوعين وراء أطماعهم وأهوائهم ، وكشف الزمن بعد حين صدق تنبؤ الامام ، فقد انتضوا السيوف ، وخانوا العهود ليصلوا الى صولجان الحكم والسلطان وصار بعضهم أئمة لأهل الضلالة ، وشيعة لأهل الجهالة

وعلى اي حال ، فقد كثر الجدال في الموضوع ، وانفضت الجلسة ولم تنته على محصل ، وكان الناس ينتظرون بفارغ الصبر النتيجة الحاسمة التي تسفر عن اجتماعهم ، فلم يظفروا بشيء ، وانعقد الاجتماع مرة أخرى ولكنه لم يسفر عن اي نتيجة وأخذت فترة الزمن التي حددها عمر تضيق فأشرف أبو طلحة الانصاري على الاعضاء وقال لهم :

« لا والذي نفس عمر بيده ! .. لا أزيدكم على الايام الثلاثة التي أمرتم .. »

واقترب اليوم الثالث ، فانعقد الاجتماع فانبرى طلحة ، ووهب حقه لعثمان وانما فعل ذلك لعلمه بانحرافه عن أمير المؤمنين عليه السلام ، فاراد يقوي جانبه ، ويضعف جانب الامام ، وانطلق الزبير فوهب حقه للامام لأنه رأى الامام قد ضعف جانبه ، واندفع سعد فوهب حقه لعبد الرحمن ابن عوف لأنه ابن عمه (٢) أما عبد الرحمن الذي أناط به عمر أمر الشورى وجعل رأيه هو الفيصل فكان يرى في نفسه الضعف وعدم القدرة على ادارة شؤون الحكم ، فاتجه الى ترشيح غيره ، وكانت ميوله مع عثمان ،

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢/٣١

(٢) شرح النهج لابن ابي الحديد ١/١٨٩

واستشار القرشيين فزهدوه في أمير المؤمنين وحببوا له عثمان ، ودفعوه الى اختياره وانتخابه .

وحلت الساعة الرهيبة التي تغير فيها مجرى التأريخ فقال عبد الرحمن لابن اخته :

« يامسور .. اذهب فادع لي علياً وعثمان .

« بأيهما أبدأ ياخال ؟ »

« بأيهما شئت . »

فانطلق مسور ، فاحضر الامام ، وعثمان وحضر المهاجرون والانصار وازدحمت الجماهير في الجامع لتأخذ القرار الحاسم فقام عبد الرحمن وقال :

« أشيروا علي في هذين ـ واشار الى سليل هاشم ، وشيخ الامويين ـ »

فانبرى اليه الطيب ابن الطيب عمار بن ياسر فقال له :

« ان أردت ألا يختلف الناس فبايع علياً .. »

وأشار عليه بالرأي الصائب الذي يصون الامة من الاختلاف ، ويحميها من النزاع والانشقاق ، وانطلق المقداد فأيد مقالة عمار ، فقال :

« صدق عمار .. وإن بايعت علياً ، سمعنا واطعنا .. »

فقام عبد الله بن ابي سرح أحد أعلام الامويين الذين ناهضوا النبي صلى الله عليه وآله وناجزوه فخاطب ابن عوف فقال له :

« إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان .. »

واندفع عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي فقال :

« صدق إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا .. »

وانبرى عمار بن ياسر فشتم ابن أبي سرح وقال له :

« متى كنت تنصح للإسلام ؟؟ ! »

وصدق عمار فمتى كان ابن أبي سرح يقيم وقارا للاسلام ، او ينصح المسلمين ، ويهديهم الى طريق الحق ، وقد كان من اعدى الناس الى رسول الله صلى الله عليه وآله ولما فتح مكة أمر صلى الله عليه وآله بقتله ولو كان متعلقاً باستار الكعبة (١) ، أمثل هذا الوغد يتدخل في شؤون المسلمين ؟ ولكن إنا لله وإنا اليه راجعون .

وتكلم بنو هاشم وبنو امية ، واحتدم الجدال بين الاسرتين ، فانطلق ابن الاسلام البار عمار بن ياسر فقال :

« أيها الناس إن الله اكرمكم بنبيه ، وأعزكم بدينه ، فالى متى تصرفون هذا الامر عن اهل بيت نبيكم !! ؟ »

لقد كان كلام عمار حافلا بمنطق الاسلام الذي وعاه قلبه فان قريشاً وسائر العرب إنما اعزها الله بدينه وأسعدها بنبيه ، فهو مصدر عزهم وشرفهم ومجدهم ، فليس من الانصاف ولا من العدل أن يصرفوا الامر عن أهله وعترته ويضعونه تارة في تيم واخرى في عدي ، ويجهدون الآن ليضعونه في قبيلة اخرى وانبرى اليه رجل من مخزوم فقطع عليه كلامه قائلا :

« لقد عدوت طورك يابن سمية .. وما أنت وتأمير قريش لأنفسها !!؟ »

وقد أترعت نفس الرجل بروح الجاهلية فراح يندد بابن سمية ، ويرى أنه عدا طوره ، وتجاوز حده لتدخله في شؤون قريش ، وأي حق لقريش في هـذا الامر ؟! وهي التي ناهضت النبي صلى الله عليه وآله وناجزته ، ووقفت في وجه دعوته ، وإنما الامر للمسلمين يشترك فيه ابن سمية ـ الذي أعزه الله بدينه ـ وسائر الضعفاء الذين ساندوا الرسول ، وحاموا عن دعوته فهؤلاء لهم الرأى ولهم الحكم وليس لطغاة قريش أي رأي

(١) الاستيعاب ٢|٣٧٥

لو كان هناك منطق أو حساب

وعلى أي حال فبعد ما كثر النزاع بين القوى الاسلامية الواعية، وبين القوى المنحرفة عنه التفت سعد الى عبد الرحمن فقال له:

« يا عبد الرحمن .. افرغ من امرك قبل أن يفتتن الناس .. »

فاسرع عبد الرحمن الى الامام:

« هل أنت مبايعي على كتاب الله وسنة نبيه، وفعل ابي بكر وعمر؟:

فرمقه الامام بطرفه واجابه بمنطق الايمان، ومنطق الاحرار قائلا

« بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي .. »

ولا يتوقع من الامام عليه السلام غير ذلك فان مصدر التشريع في الاسلام كتاب الله وسنة نبيه فعلى ضوئها تسير الدولة، وتعالج مشاكل الرعية، وليس فعل ابي بكر وعمر من مصادر التشريع، وقد نهج أبو بكر في سياسته منهجاً خاصاً لم يوافقه عمر فيه ويرى انه كان بعيداً عن سنن التشريع فقد كان لأبي بكر رأيه الخاص في خالد بن الوليد حينما قتل مالك بن نويرة (١) وزنى بزوجته فقد رأى أبو بكر أن خالدا تأول فأخطأ

---

(١) مالك بن نويرة بن حمزة التميمي، اليربوعي، يكنى أبا حنظلة، ويلقب « الجفول » كان شاعراً فارساً شريفاً، معدوداً في قومه من فرسان بني يربوع في الجاهلية، وكان من ارداف الملوك، استعمله النبي صلى الله عليه وآله لوثاقته ونباهته على صدقات قومه، فلما بلغه وفاة النبي صلى الله عليه وآله امسك عن الصدقة، وفرقها في قومه، ولعله عمل في ذلك بالسنة التي نصت على توزيع الزكاة على فقراء المنطقة فان فضل منها شيء يحمل الى بيت المال وإلا فلا، ويقول في ذلك

فقلت خذوا اموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجيء من الغد
فان قام بالدين المخوف قائم اطعنا وقلنا الدين دين محمد

فلا يستحق أن يقام عليه الحد ، ويرى عمر أنه لابد من اقامة الحد عليه ولا مجال لاعتذار ابي بكر ، وسلك أبو بكر في سياسته المالية منهجاً اقرب الى المساواة من سياسة عمر التي انتهجت في كثير من شؤونها منهج الطبقية وتقديم بعض المسلمين على بعض في العطاء ، وحرم عمر المتعتين وهما حسب اعترافه كانتا مشروعتين في عهد رسول الله صلى عليه وآله ولعمر فتواه المتعارضة في ميراث الجدة وغيرها فعلى أي منهج منها يسير ابن أبي طالب رائد العدالة الاجتماعية الكبرى في الارض ، ولو كان عليه السلام يروم الأمرة والسلطان لالتزم لابن عوف بشرطه ، وبعد ذلك يسير برأيه الخاص في الحكم ، ويعتقل المعارضين له ولكنه عليه السلام أبى ذلك وحجزه إيمانه الوثيق أن يقر شيئاً لايراه مشروعاً .

ولما يئس ابن عوف من الامام انبرى الى عثمان فشرط عليه ذلك فابدا عثمان الموافقه لأي شرط وأرسل يده فصفق عبد الرحمن بكفه عليها وقال :

« اللهم . إني قد جعلت ما في رقبتي من ذاك في رقبة عثمان .. »

وعلا الضجيج والصخب بين الناس ، فقد فاز عميد الامويين بالحكم وآلت اليه امور الخلافة ، وانطلق أمير المؤمنين عليه السلام فقال لابن عوف :

« والله مافعلتها إلا لأنك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه ،

— وهذا الشعر يدل على إيمانه وتمسكه الوثيق بدينه ، وقد زحف اليه خالد بن الوليد ، ولم يؤمن بقتاله فغشيه في الليل ، وبعد اداء فريضة الصلاة خف بجيشه الى الاستيلاء على اسلحتهم . وامساكهم ، وساقوهم اسرى الى خالد ، وفيهم زوجة مالك ليلى بنت المنهال ، وهي من اشهر نساء العرب في جمالها ، فافتتن بها خالد ، وتجادل بالكلام مع مالك فقال له خالد : إني قاتلك : قال له مالك : —

دق الله بينكما عطر منشم » (١)

والتفت الى القرشيين فقال لهم :

« ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . »

واندفع ابن عوف الى الامام يهدده

« ياعلي ، لاتجعل على نفسك سبيلا »

وغادر الامام المسجد وهو يقول :

« سيبلغ الكتاب أجله . »

وانطلق الطيب ابن الطيب عمار بن ياسر ، وهو يخاطب ابن عوف :

ـ أوبذلك امرك صاحبك ـ يعني ابا بكر ـ قال والله إني قاتلك ، وكان عبد الله ابن عمر وابو قتادة الانصاري الى جانبه فعذلاه عن قتله فأبى وقال : لا اقالني الله إن لم اقتله ، وامر ضرار بن الازور بضرب عنقه ، فالتفت مالك الى زوجته ، وقال لخالد : هذه التي قتلتني ، فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الاسلام ، فرد عليه مالك قائلا : إني على الاسلام ، وقام ضرار فقتله صبرا وجعل خالد رأسه اثفية لقدر ، وقبض على زوجته وبنى بها في تلك الليلة ، ودرأ ابو بكر عنه الحد بدعوى انه تأول فأخطأ ، يراجع في تفصيل الحادث المؤسف النص والاجتهاد للامام شرف الدين .

(١) منشم : ـ بكسر الشين ـ اسم امرأة كانت بمكة عطارة ، وكانت خزاعة وجرهم اذا ارادوا القتال تطيبوا من طيبها ، وكانوا اذا فعلوا ذلك كثرت القتلى فيما بينهم ، فكان يقال اشأم من عطر منشم ، صحاح الجوهرى ٥|٢٠٤١ وقد استجاب الله دعاء الامام فكانت بينهما اشد المنافرة والخصومة واوصى ابن عوف ان لايصلي عليه عثمان .

« يا عبد الرحمن .. أما والله لقد تركته ، وانه من الذين يقضون بالحق ، وبه كانوا يعدلون .. »

وخرج المقداد ، وهو مثقل الخطا ويقول :

« تالله مارأيت مثل ماأتى الى أهل هذا البيت بعد نبيهم !! واعجبا لقريش !! لقد تركت رجلا ما اقول ولا أعلم أن أحداً أقضى بالعدل ولا اعلم ولا اتقى منه أما لو أجد أعواناً .. »

وقطع عليه عبد الرحمن كلامه فقال له :

« اتق الله يامقداد ، فاني خائف عليك الفتنة .. » (١)

واشرف الامام الحسن على الانتخاب فراعه ما رأى من انقياد القوم نحو الاغراض الشخصية ، والمطامع ، واستبان له أن المهاجرين من قريش يحملون في نفوسهم حقداً وضغناً على أبيه ، وان الدين لعق على ألسنتهم يحوطونه حيث مادرت معائشهم ، وقد تركت تلكم الصور التي اجتازت عليه في نفسه أشد الاستياء والتذمر ، وعرفته ان القوم يسيرون وراء مصالحهم وأطماعهم ، ولا شأن لهم بالمصلحة العامة ، وهنا نودع الامام الحسن لنلتقي معه في عهد الخليفة الثالث .

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ١|١٩٤



في عهد عثمان

نستقبل الحسن عليه السلام في عهد عثمان وهو في شرخ الشباب وعنفوانه فقد كان عمره ينيف على عشرين عاماً وهو دور يسمح لصاحبه أن يخوض معترك الحياة ، وأن يعطي رأياً في الناحية الاجتماعية فدخل الامام عليه السلام في دوره هـــذا - على ماقيل - ميدان الجهاد « والجهاد باب من أبواب الجنة » فانضم الى المجاهدين حيث اتجهت ألويتهم الفاتحة الى احتلال افريقية ، سنة ست وعشرين من الهجرة (١) وتذكر المجاهدون في حفيد الرسول صلى الله عليه وآله شخصية جده ، فأبلوا بلاءاً حسناً حتى فتح الله على أيديهم وبعد ما وضعت الحرب أوزارها اتجه الحسن عليه السلام الى عاصمة جده صلى الله عليه وآله والنصر حليفه وقلبه مفعم بالسرور والارتياح لتوسع النفوذ الاسلامي وانتشار دين جده ، ولما كانت سنة ثلاثين من الهجرة اتجهت الجيوش الاسلامية الفاتحة والتي يرف النصر عليها

(١) العبر ٢ ص ١٢٨ و ١٢٩ لابن خلدون ، وجاء فيه ان عثمان وجه جيشا الى غزو افريقية في سنة خمس وعشرين وكانت قيادة الجيش بيد عبد الله ابن نافع وعقبة بن نافع بن عبد القيس ، فتوجه الجيش الى افريقية وكان عدده عشرة آلاف ، فلما وصلوا اليها لم يتمكنوا على فتحها وصالحهم اهلها على مال يؤدونه اليهم ، ثم ان عبد الله بن ابى سرح اخا عثمان من الرضاعة استأذن عثمان على غزو افريقية وطلب منه ان يمده بالجيش فاستشار عثمان الصحابة فحبذ اليه اكثرهم ذلك ، فجهز عثمان اليه جيشا من المدينة فيهم ابن عباس وابن العاص وابن جعفر والحسن والحسين فساروا الى افريقية ففتحوها وذلك في سنة ست وعشرين ولم يذكر صاحب الفتوحات الاسلامية انضمام الحسن والحسين عليهما السلام الى الجيش .

الى احتلال طبرستان فانضم الحسن عليه السلام اليها (١) وببركته فتح الله على أيديهم ورف لواء الاسلام عليها ، في سبيل المصلحة العامة وخدمة الدين اللذين هما فوق سائر الاعتبارات دخل الامام الحسن عليه السلام في ميدان الجهاد والكفاح ، والقى الدثار على مايكنه في نفسه من الاستياء على ضياع حق أبيه ، وهو درس رائع يجب أن تستفيد منه الاحزاب السياسية القائمة في البلاد من ان عنعنات الحزبية يجب ان تلغى أمام صالح البلاد والمجتمع .

وساس عثمان الامة حفنة من السنين فكانت سياسته بعيدة كل البعد عن سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسيرة الشيخين وبعيدة كل البعد عن روح ذلك العصر لأنها لم تتفق مع الناحية الدينية والاجتماعية لذلك كتب لها الفشل والخذلان ، وسبب ذلك يرجع الى عدم قدرة الخليفة على ادارة شؤون الامة وعجزه من الناحية الادارية ، وضعف ارادته ضعفاً يلمس في كافة أعماله ، وصدق « امرسن » في قوله :

« إن قوة الارادة سر النجاح ، والنجاح غاية الوجود ، فان قوة إرادة نابليون ، وكرنت ، والاسكندر وغيرهم من رجال التأريخ هي التي

---

(١) تأريخ الامم والملوك ج ٥ ص ٥٧ و ٥٨ العبر ج ٢ ص ١٣٤ الفتوحات الاسلامية ج ١ ص ١٧٥ جاء في كل هذه المصادر انه غزا سعيد بن العاص طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة ، وكان الاصبهد قد صالح سويد بن مقرن على مال بذله له في ايام عمر بن الخطاب ، فلما كان دور عثمان جهز اليهم جيشاً بقيادة سعيد بن العاص ، كان فيه الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وغيرهم فلما وصلوا اليها فتحوها ، وقال الراغب الاصفهاني في محاضرات الادباء ج ١ ص ٧٦ الاصبهيد هو صاحب الجيل وهو الصواب لا الاصبهد .

خلدت اسماءهم ، وإنا لنرى عددا كبيرا من رجال التأريخ لم ينتج انخذالهم على ما اشتهروا به من الشجاعة والحنكة والذكاء إلا عن ترددهم ، وضعف إرادتهم ، وان من المحال أن ندخل معترك الحياة ، ونرجو الفوز فيها دون أن تكون لدينا إرادة قوية » (١)

إن قوة الارادة لها الاثر التام في تكوين الشخص وفي خلوده في هذه الحياة ، وان الشخص الضعيف المغلوب على امره يستحيل أن يحقق أي هدف للامة أو يبني لها كيانا ، وقد حرص الاسلام كل الحرص على ابعاد ضعيف الارادة عن قيادة الامة ، ومنعه من مزاولة الحكم لأنه يعرض البلاد للاخطار ، ويجر لها الويلات والخطوب ، ويذهب بهيبة الحكم ومعنويته ويغري ذوي القوة بالتمرد والخروج من الطاعة .

إن عثمان كان فاقد الارادة الى حد بعيد ، فلم تكن له قدرة لمواجهة الاحداث ، ولا قابلية له للتغلب عليها فقد اوكل شؤون الدولة الى مروان يتصرف بها حسب مايشاء ، ونقل ابن ابي الحديد عن بعض مشايخه ان الخليفة في الحقيقة والواقع مروان ، وعثمان له اسم الخلافة لاغير .

وعلى أي حال فلا بد لنا أن نتبين قصة عثمان ، ونقف على حقيقتها وواقعها فان لها ارتباطاً وثيقاً بما نحن فيه ، فقد زعم غير واحد من المؤرخين أن الامام الحسن عليه السلام كان عثماني الهوى ، وانه وقف يوم الدار مدافعاً عن عثمان ، وحزن عليه بعد مقتله حزناً بالغاً ، وانه كان يندد بأبيه لأنه لم يقم بنجدته وحمايته ، وقد مال لذلك الدكتور طه حسين وأرسلها الى القراء ارسال المسلمات من دون ان يتبين فيها ، ولا يعرف مدى واقعية ذلك إلا بعد التعرف على سياسة عثمان وسيرته فانها هي التي

(١) قوة الارادة لاوريسون سويت ماردن

تكشف عن زيف هذه الامور وعدم التقائها بواقع الامام عليه السلام الذى كان يحمل هدي جده الرسول صلى الله عليه وآله وسيرة أبيه .

وقبل التحدث عن سياسة عثمان نود أن نبين أنا نلتقي في كثير من بحوثنا الآتية مع الدكتور طه حسين فقد حاول تبرير عثمان ، وتنزيهه عن التهم التي الصقت به بوجوه بعيدة خالية من التحقيق العلمي ، وقد تنصل في طليعة بحوثه عن عثمان عن كل هوى وتعصب طائفي ، فليس هو شيعة لعثمان وليس شيعة لعلي ، وانما يريد أن يخلص في بحوثه للحق ما وسعه اخلاصه للحق وحده (١) ولكنه لم يلتزم بوعده فانطلق يتمسك بالاسباب الواهية لتصحيح أخطاء السياسة العثمانية التى لم تساير فى اي مرحلة من مراحلها كتاب الله وسنة نبيه ، وسيرة الشيخين ، حتى نقم عليها خيار المسلمين وصلحاؤهم ، وثارت عليه الاقاليم الاسلامية ، واحاطت به جماهير المسلمين يطالبونه أن يعتدل في سياسته وأن يسير على الطريق الواضح والمحجة البيضاء فلم يستجب لذلك فاردوه صريعاً ، قد شقيت الامة بحكمه ، وامتحنت بعد مقتله .

إن الواجب يقضي بأن ننظر الى هذه الاحداث بدقة وأمانة ، ونتعمق فيها ، ونبين معطياتها فانها ترتبط بواقعنا الديني ، وليس لنا ان نلتمس المعاذير لأي شخص كان فيما اذا جافت سيرته تعاليم الاسلام ، وتنافت مع مبادئه واحكامه ، والى القراء بعض تلك المؤاخذات التي تواجه سياسة عثمان :

---

(١) الفتنة الكبرى ١/٥

عفوه عن عبيد الله

واستقبل عثمان خلافته بالعفو عن عبيد الله بن عمر الذى ثار لمقتل أبيه فقتل بغير حق الهرمزان ، وجفينة ، وبنت أبي لؤلؤة ، وأراد قتل كل سبي بالمدينة فانتهى اليه سعد بن أبي وقاص فساوره وقابله بناعم القول حتى أخذ منه السيف ، وأودع في السجن حتى ينظر عثمان في امره ، ولما تمت البيعة لعثمان اعتلى أعواد المنبر ، وعرض على المسلمين قصة عبيدالله فقال :

« وقد كان من قضاء الله ان عبيد الله بن عمر أصاب الهرمزان ، وكان الهرمزان من المسلمين ، ولا وارث له إلا المسلمون عامة ، وأنا إمامكم وقد عفوت أفتعفون ؟ .. »

فانبرى جمع من الناس فاعلنوا الرضا ، والاقرار للعفو سوى الامام أمير المؤمنين عليه السلام فقد انكر على عثمان ولم يرض بقضائه وقال له :

« أقد الفاسق فانه أتى عظيما ، قتل مسلماً بلا ذنب .. »

وصاح الامام بعبيدالله « يا فاسق .. لئن ظفرت بك لأقتلنك بالهرمزان . »(١)

واندفع المقداد بن عمر فرد على عثمان قائلا :

« إن الهرمزان مولى لله ولرسوله ، وليس لك أن تهب ما كان لله ولرسوله .. » (٢)

ولم يرض ثقات المسلمين وصلحاؤهم بهذا العفو واعتبروه تعدياً على الاسلام وخرقاً لحدوده فكان زياد بن لبيد إذا لقي عبيد الله يقول له :

ألا ياعبيد الله مالك مهرب ولا ملجأ من ابن أروى ولاخفر

---

(١) الانساب للبلاذري ٥|٢٤

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢|١٤١

أصبت دما والله في غير حله حراماً وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة نعم أتهمه قد أشار وقد أمر
وكان سلاح العبد في جوف بيته يقلبه والامر بالامر يعتبر

وشكا عبيد الله الى عثمان فدعا زياداً فنهاه عن ذلك، ولكنه لم ينته وقد تناول بالنقد عثمان فقال فيه:

أبا عمرو عبيد الله رهن - فلا تشكك - بقتل الهرمزان
فانك ان غفرت الجرم عنه وأسباب الخطا فرسا رهان
لتعفو إذ عفوت بغير حق فما لك بالذي تحلي يدان

وغضب عثمان على زياد فنهاه وزجره حتى انتهى (١) واخرج عبيد الله من يثرب الى الكوفة، وأنزله داراً فنسب الموضع اليه فقيل «كويفة ابن عمر» وروى الطبري ان عثمان استشار الصحابة في شأن عبيد الله، فاشار عليه قوم بالعفو، وقالوا: يقتل عمر امس ويقتل ابنه اليوم، وأشار عليه جماعة منهم الامام أمير المؤمنين بالقود، فقال له عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين، ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث، ولا سلطان لك، فاستجاب عثمان لرأيه وقال: أنا وليهم وقد جعلتها دية، واحتملها في مالي (٢)

وقد حفلت هذه البادرة بما يلي من المؤاخذات:

١ - ان الاسلام قد ألزم ولاة الامور باقامة الحدود وعدم التسامح

---

(١) تاريخ الطبري ٥|٤١

(٢) تاريخ الطبري ٥|٤١

والتساهل فيها للحفاظ على النظام العام ، وصيانة النفوس ، وحمايتها من الاعتداء وليس للحاكم ان يقف موقف اللين والتسامح مع المعتدى مهما كانت له من مكانة مرموقة في المجتمع ، وقد أعلن ذلك الرسول صلى الله عليه وآله وطبقه على واقع الحياة فقد سئل أن يعفو عن سارقة لشرف أسرتها فأجاب :

« انما هلك من كان قبلكم لأنهم كانوا إذا أذنب الضعيف فيهم عاقبوه ، واذا أذنب الشريف تركوه ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .. » (١)

وجلد صلى الله عليه وآله أصحاب الافك ، وفيهم سطح بن اثاثة (٢) وكان من أهل بدر ، هذا مايقتضيه العدل الاسلامى الذي لايفرق بين الابيض والاسود ، والضعيف والقوي ، والرئيس والمرؤس فهم سواسية أمام القانون ، وقد جافى عثمان ذلك ، وخالف مايقتضيه العدل فلم يقد عبيد الله لأنه ابن عمر ، وفتى من فتيان قريش فآثر رضا آل الخطاب ورضا قريش فعفا عنه ، وابعده الى الكوفة ، ومنحه داراً يسكن فيها ، وقد فتح بذلك باب الفوضى والفساد ، ومكن ذوي النفوذ أن ينالوا من الضعفاء ، الذين ليس لهم ركن يأوون اليه .

٢ ـ ان عثمان قد الغى رأى أمير المؤمنين الذى الزم بالقود ، وهو من دون شك أعلم بحدود الله واحكامه ، واستجاب لرأي ابن العاص الذي عرف ببغيه وحقده على الاسلام .

٣ ـ ان المصلحة العامة كانت تقضي بالقود وعدم العفو عنه لأنه

---

(١) النظام السياسي فى الاسلام ص٢٢٧ نقلا عن الخراج لأبي يوسف ص٥٠

(٢) اسد الغابة

لو قتله لكان اقطع للفساد، وأنفى للقتل ، ولم يقدم أحد من ذوي النفوذ على ارتكاب هذه الجريمة ، فان ابن الخليفة قد اقتص منه ولكن عثمان لم يرع المصلحة العامة ، واستجاب الى الاغراض الخاصة التي تتنافى مع مصلحة الامة .

٤ ـ إن الولاية للامام إنما تثبت فيما اذا علم ان المقتول لاوارث له والهرمزان من فارس فكان اللازم على عثمان أن يفحص عن وارثه ويتبين واقعيته ، ومع عدمه تثبت له الولاية ، ولكنه لم يفعل ذلك ، ولم يتحقق في أمره فاضفى على نفسه أنه وارثه ووليه .

٥ ـ وليس للحاكم ان يعفو عن الدية ، وإنما له ان يصالح عليها كما يرى ذلك ملك العلماء الحنفي يقول :

« ان الامام له ان يصالح على الدية إلا أنه لايملك العفو ، لأن القصاص حق المسلمين بدليل أن ميراثه لهم ، وإنما الامام نائب عنهم في الاقامة ، وفي العفو إسقاط حقهم أصلا ورأساً وهذا لايجوز ، ولهذا لايملكه الاب والجد وإن كانا يملكان استيفاء القصاص ، وله ان يصالح على الدية » (١) . وعلى ضوء هذه الفتيا الحنفية فليس لعثمان صلاحية العفو عن الدية ، وهذا الاشكال يسجل على عثمان على مارواه بعضهم من انه عفا عن الدية . هذه بعض المؤاخذات التي تواجه عثمان في عفوه عن عبيد الله وعدم قوده .

دفاع طه حسين

وحاول الدكتور طه حسين تبرير عثمان ، ونفي المسؤلية عنه ، وكان اعتذاره لايحمل طابعاً علمياً ، ونسوق الى القراء مواضع دفاعه :

(١) بدايع الصنايع ٧/٢٤٥

١ ـ فما كان عثمان ليستفتح خلافته بقتل فتى من فتيان قريش ، وابن من أبناء عمر . وما كان عثمان ليهدر دم مسلم وذميين . وهو من أجل ذلك آثر العافية ، فأدى دية القتلى من ماله الخاص الى بيت مال المسلمين وحقن دم عبيد الله بن عمر ، وفي امضائه الحكم على هذا النحو سياسة رشيدة او نظر الناس الى القضية نظرة سياسية خالصة (١) .

ان عثمان لو استفتح خلافته بقتل عبيد الله اوفى للمسلمين ماعاهدهم عليه من السير على ضوء كتاب الله وسنة نبيه ، وتطبيق أحكام الشرع على واقع الحياة ولكنه انطلق في ميدان السياسة فآثر العافية وأهمل أحكام الدين وقد علق سماحة الامام كاشف الغطاء رحمه الله على هذا الاعتذار بقوله :

« هذا من الاغلاط الواضحة فان دم عبيد الله قد هدره الشرع ولم يحقنه ـ هذا أولا ـ وثانياً ان القتل كان عن عمد وحكمه القصاص لا الدية وقد غلط الاولون وجاء الآخرون يوجهون غلطهم بغلط آخر .. » (٢)

٢ ـ ونعود فنقول إن عثمان كان ولي أمر المسلمين وله بحكم هذه الولاية أن يعفو ، ونزيد على ذلك أنه حين عفا لم يعطل حداً من حدود الله ، ولم يهدر دم الهرمزان وصاحبيه ، وإنما ادى ديتهم من ماله لبيت مال المسلمين الذي كان يرثهم وحده .. » (٣)

وقد علق عليه سماحة المغفور له كاشف الغطاء قال مانصه :

---

(١) الفتنة الكبرى ١/٦٦

(٢) تعليقة مهمة للامام كاشف الغطاء على الفتنة الكبرى مخطوطة توجد فى مكتبته العامرة ، ودفاع طه حسين وتقد كاشف الغطاء إنما يتم على رواية الطبري من انه دفع الدية من ماله ولم يعف عنه .

(٣) الفتنة الكبري ١/٦٧

« وهذا أيضاً غلط ادهى وأمر فان واجب ولي أمر المسلمين اقامة حدود الله لاتعطيلها ، واعطاء الدية في مورد القصاص من دون رضاء أولياء الدم تحكم في احكام الشرع وتلاعب بالدين .»

٣ ـ وقد أمر النبي ان تدرأ الحدود بالشبهات ، فلعل عثمان قد درأ هذا الحد عن عبيد الله بالشبهة التي تأتي من غضبه لأبيه واندفاعه مع شهوته الجامحة . والله قد حبب الى المسلمين العفو حين يقدرون وجزاهم عليه خيراً ... »

وهذا من الاغلاط القطيعة فان الغضب لايصلح أن تدرأ به الحدود وإلا لوجب أن يدرأ الحد عن كل قاتل على نحو الـ[illegible]ب القتل على الاكثر إنما يصدر عن الغضب والثورة الجامحة ، وقاعدة الحدود تدرأ بالشبهات لاتنطبق على ما نحن فيه فلها مواردها الخاصة والمورد ليس من مصاديقها ، ولو كان الغضب موجباً لسقوط القود لاعتذر به عثمان ، ودافع به عن نفسه حينما أنكر عليه أمير المؤمنين وغيره ، فهل الدكتور اعرف بمواقع السنة من عثمان ؟ !

إن دفاع الدكتور خال من التحقيق ، وليست له أي صبغة تشريعية ولايمكن ان يبرر عثمان ويقصي عنه المسؤلية .

ومهما يكن من أمر فان عفو عثمان عن عبيد الله لم يكن المقصود منه إلا تطييب قلوب آل الخطاب ، وارضاء القرشيين ، وليس فيه أي مصلحة للامة .

سياسته المالية

واحتاط الاسلام احتياطاً شديداً في أموال الدولة ، وألزم الولاة

والحكام ان ينفقوها على المرافق العامة وعلى اصلاح الحياة ، ومكافحة الفقر ، واعالة الضعيف ، والانفاق على العاجزين كالارامل والايتام ، وليس لهم ان يدخروا منها لأنفسهم ، ولا أن يصطفوا منها لذراريهم ، فليست طعمة لهم ، ولا ملكاً يتصرفون فيها حيثما شاءوا ، يقول الامام أمير المؤمنين لعبد الله بن زمعة لما قدم عليه في خلافته يطلب منه مالا :

« إن هذا المال ليس لي ولا لك ، وإنما هو فيء للمسلمين وجلب أسيافهم ، فان شركتهم في حرب كان لك مثل حظهم ، وإلا فجناة ايديهم لاتكون لغير أفواههم .. » (١)

وكتب عليه السلام الى قثم بن العباس عامله على مكة :

« وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه الى من قبلك من ذوي العيال والمجاعة ، مصيباً به مواضع الفاقة والخلات ، وما فضل عن ذلك فاحمله الينا لنقسمه فيمن قبلنا » (٢)

ويقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « ان رجالا يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة » (٣)

هذا هو نظر الاسلام بإيجاز في الناحية المالية فهو يلزم المسؤلين بصرف أموال الدولة على انعاش المواطنين ، وانقاذهم من البؤس والحاجة ، وليس لهم بأي حال أن يتاجروا بها في شراء الضمائر ، وصلة غير المحتاج ، ولكن عثمان لم يطبق ذلك لابكثير ولا بقليل ، فقد تسلط على الخزينة المركزية ، ووهب الاموال الطائلة بسخاء الى الامويين والى آل أبي معيط لتقوية نفوذهم

(١) نهج البلاغة ١|٤٦١

(٢) نهج البلاغة ٢|١٢٨

(٣) صحيح البخاري ٥|١٧

وتركيزهم في البلاد ، فقاموا بدورهم باستغلال المسلمين ، والتلاعب بمقدراتهم والتحكم في مصيرهم ، كما منح الاموال الطائلة الى الوجوه والاعيان الذين يخاف جانبهم ، ويحذر سطوتهم نظراً لنفوذهم السياسي في البلاد ، وقد أدى ذلك الى تضخم الثراء وتكدس الاموال عند طائفة من الناس حاروا في صرفها وفي انفاقها ، ومن الطبيعي أن ذلك يؤدي الى نشر الفاقة وذيوع الفقر والبؤس بين الناس الامر الذي يتنافى مع اتجاه الاسلام الذي يحرص كل الحرص على اسعاد المجتمع ، ونشر الرفاهية ، وبسط السعة بين الناس ونسوق بعض البوادر للاستدلال بها على ماذكرناه :

١ ـ هباته للأمويين

ومنح عثمان أموال المسلمين الى اسرته ، وذوي قرباه الذين تنكروا للإسلام ، وقابلوه ، وناجزوه الحرب ، فأوصلهم وبرّ بهم ، وحملهم على رقاب الناس ، ووهبهم الثراء العريض يتمتعون فيه ، ويبالغون في البذخ والاسراف ، والى القراء بعض اولئك الذين أغدق عليهم بهباته :

أ ـ أبو سفيان

ووهب عثمان الى أبي سفيان مائتي الف من بيت المال (١) أعطاه هذه المنحة وهو رأس المشركين يوم أحد ، ويوم الاحزاب ، وفي طليعة الحاقدين على الاسلام ، والناقمين منه ، وما دخل الدين في قلبه ، ولا انتزعت روح الجاهلية من نفسه ، وهو الذي انطلق الى قبر حمزة فركله برجله ، وقال : « يا أبا عمارة ! .. إن الامر الذي اجتلدنا عليه بالسيف أمسى في يد غلماننا يتلعبون به . » ثم مضى مثلوج القلب ، ودخل على عثمان بعد أن فقد بصره فقال :

---

(١) شرح النهج ١|٦٧

« اللهم ، اجعل الامر أمر جاهلية ، والملك ملك غاصبية ، واجعل أوتاد الارض لبني أمية .. » (١)

فهل من العدل والانصاف أن تمنح أموال المسلمين الى هذا المنافق الذي اترعت روحه بالعداء والبغض للإسلام ؟ !! وهل تبيح الشريعة الاسلامية إعطاء هذه الاموال الى شخص ما آمن بالله طرفة عين ؟ !

ب ـ الحارث بن الحكم

وأجزل عثمان بالعطاء الى الحارث بن الحكم لأنه صهره من عائشة فقد أعطاه ثلاثمائة الف درهم (٢) ووردت ابل الصدقة الى المدينة فوهبها له (٣) وأقطعه سوقاً في يثرب يعرف بنهروز بعد أن تصدق به رسول الله صلى الله عليه وآله على جميع المسلمين (٤) وبماذا استحق الحارث أن يمنح هذه الاموال الطائلة ؟ فهل اسدى خدمة للاسلام او قام بعمل نفع به المسلمين حتى يستحق أن يوصل بهذه الاموال ؟ ! هذا مع ان ابل الصدقة يجب ان تنفق على الفقراء والمعوزين ، كما أنه كيف خصه بصدقة رسول الله صلى الله عليه وآله مع أنها لجميع المسلمين ، فلا مبرر ولا مسوغ له في هذا العطاء الذي خالف أحكام الله ، وتنافى مع صالح الامة

ج ـ عبد الله بن سعد

وأعطى عبد الله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة جميع ما أفاء الله به من فتح أفريقية بالمغرب وهي من طرابلس الغرب الى طنجة ، ولم

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٦/٤٠٧

(٢) انساب الاشراف ٥/٥٢

(٣) الانساب ص ٢٨

(٤) شرح النهج ١/٦٧

يشرك في عطائه أحداً من المسلمين (١) وهو أحد أعلام المشركين، ومن الذين تنكروا للإسلام، وكفروا بقيمه، وسنذكر ترجمته في البحوث الآتية مايثبت ذلك، فكيف جاز لعثمان أن يوصله بهذه الاموال الهائلة، ويمنحه هذا الثراء العريض.

د ـ الحكم بن أبي العاص

ويجدر بنا قبل أن نذكر هبات عثمان وصلاته للحكم أن نتعرف على واقعيته، وبعض شؤونه ليتضح أنه كان خليقاً بالقطيعة والاقصاء، وجديراً بالتوهين والاستخفاف، وإن منحه أموال المسلمين أمر لامبرر له بأي حال والى القراء ذلك:

١ ـ محاربته للإسلام

ووقف الحكم في وجه الدعوة الاسلامية فكان يحرض الناس على البقاء على عبادة الاوثان، ويمنعهم من الدخول في حظيرة الاسلام، وقد التقى مروان بحويطب فسأله عن عمره فأخبره به فقال له مروان: «تأخر اسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الاحداث؟!»

فقال حويطب:

«والله لقد هممت بالاسلام غير مرة، كل ذلك يعوقني أبوك يقول: تضع شرفك، وتدع دين آبائك، لدين محدث، وتصير تابعاً..» (٢)

إن الحكم وبقية الاسرة الاموية ناهضت الاسلام، وبذلت جميع امكانياتها في صد الدعوة الاسلامية ومكافحتها بشتى الاساليب، ولكن الله رد كيدهم، ونصر الاسلام واعز دينه.

---

(١) شرح النهج ١|٦٧

(٢) تاريخ ابن كثير ٨|٧٠

٢ ـ استهزاؤه بالنبي

كان الحكم من ألد أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله ومن أحقدهم عليه وقد بالغ في إيذائه والتوهين به ، والاستخفاف بمقامه الرفيع ، فكان يمر خلفه فيغمز به ، ويحكيه ، ويخلج بأنفه وفمه (١) والتفت النبي فرآه يفعل ذلك فقال : كذلك فلتكن ، فكان الحكم مختلجاً يرتعش حتى مات ، وقد عيره بذلك عبد الرحمن بن حسان بن ثابت فقال في هجاء عبد الرحمن بن الحكم :

إن اللعين أبوك فارم عظامه   إن ترم ترم مخلجاً مجنونا
يمسي خميص البطن من عمل التقى   ويظل من عمل الخبيث بطينا (٢)

٣ ـ لعن النبي له

واستأذن هذا الخبيث الماكر على النبي صلى الله عليه وآله فقال صلى الله عليه وآله : ائذنوا له لعنة الله عليه وعلى من يخرج من صلبه إلا المؤمنين ، وقليل ماهم ، ذوو مكر وخديعة يعطون الدنيا ، ومالهم في الآخرة من خلاق (٣) وأمر صلى الله عليه وآله الامام علياً أن يقوده كما تقاد الشاة ويأتي به اليه فأنطلق الامام وجاء به وهو آخذ بأذنه حتى أوقفه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله فلعنه ثلاثا ، ثم قال : أحله ناحية حتى راح اليه قوم من المهاجرين والانصار ، ثم دعا به ثانيا فلعنه ، وقال : إن هذا سيخالف كتاب الله وسنة نبيه ، وستخرج من صلبه فتن يبلغ دخانها السماء ، فقال اليه قوم هو أقل ، وأذل من أن

---

(١) الانساب ٥|٢٧

(٢) الاستيعاب ١|١١٨

(٣) السيرة الحلبية ١|٣٣٧

يكون هذا منه ، فقال صلى الله عليه وآله : بلى وبعضكم يومئذ شيعته (١)

٤ ـ نفيه الى الطائف

وكان هذا الرجس الخبيث يفشي أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله ويبالغ في ايذائه فنفاه الى الطائف ، وقال : لايساكنني (٢) ولم يزل منفياً هو وأولاده طيلة خلافة الشيخين ، وقد توسط عثمان في شأنه عندهما فلم يستجيبا له وظل مبعداً منفياً .

٥ ـ رجوعه الى يثرب

ولما آل الامر الى عثمان أصدر عنه العفو فقدم الى يثرب ، وعليه فزر خلق وهو يسوق تيساً والناس ينظرون الى رثة ثيابه ، وسوء حاله ، فدخل دار عثمان ثم خرج وعليه جبة خز وطيلسان (٣) وأوصله بمائة الف (٤) .

٦ ـ توليته على الصدقات

وولاه على صدقات قضاعة فبلغت ثلاث مائة الف درهم فوهبها له (٥) وقد ادى ذلك الى شيوع السخط والانكار عليه لأنه آوى طريد رسول الله صلى الله عليه وآله ومنحه أموال الصدقة التي جعلها الله للفقراء والمحرومين وذوي الحاجة ، فكيف ساغ له أن يمنحها لهذا اللعين على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله ، والحكم في هذه المسألة للقراء .

---

(١) كنز العمال ٦/٣٩

(٢) الانساب ٥/٢٧

(٣) تاريخ اليعقوبي ٢/٤١

(٤) المعارف : ص ٨٤

(٥) الانساب ٥/٢٨

٥ ـ سعيد بن العاص

ومنح عثمان سعيد بن العاص مائة الف درهم (١) وهو من فساق بني أمية ، ومن فجارهم ، وكان أبوه من أعلام المشركين قتله الامام أمير المؤمنين يوم بدر (٢) وقد أثار ذلك السخط على عثمان فانكر عليه ثقات المسلمين وصلحاؤهم .

٦ ـ الوليد بن عقبة

والوليد بن عقبة أخو عثمان من أمه ، وكان فاسقاً ماجناً لايرجو لله وقاراً ـ كما سنبين ذلك عند التحدث عن ولاة عثمان وعماله ـ قدم الكوفة فاستقرض من عبد الله بن مسعود أموالا طائلة من بيت المال فأقرضه ، وطلبها منه عبد الله فكتب الوليد الى عثمان بذلك ، فرفع عثمان مذكرة الى ابن مسعود جاء فيها ، إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من المال ، فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال : كنت أظن أني خازن للمسلمين فأما اذا كنت خازناً لكم فلا حاجة لي في ذلك ، وأقام بالكوفة بعد ان استقال من منصبه (٣) وكيف ساغ لعثمان أن يبـدد أموال المسلمين ، ويهبها الى أعداء الله وخصوم الاسلام ، ولنترك الحكم في ذلك للقراء .

٧ ـ مروان بن الحكم

ومروان بن الحكم هو الذي لعنه رسول الله صلى عليه وآله وهو في صلب أبيه كما رواه الامام الحسن عليـه السلام (٤) ولما ولد جيء

(١) الانساب ٥|٢٨

(٢) اسد الغابة ٢|٣١٠

(٣) الانساب ٥|٣٠

(٤) مجمع الزوائد ١٠|٧٢

به الى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : هو الوزغ ابن الوزغ ، الملعون ابن الملعون (١) ونظر اليه الامام أمير المؤمنين فقال له :

« ويل لك ، وويل لأمة محمد منك ومن بيتك إذا شاب صدغاك » (٢)

وكان رأساً من رؤوس المنافقين ، ووجهاً من وجوه أهل الضلال والباطل ، وكان يلقب خيط باطل وفيه يقول الشاعر :

لعمرك ما أدرى واني لسائل حليلة مضروب القفا كيف يصنع

لحى الله قوماً أمروا خيط باطل على الناس يعطي مايشاء ويمنع (٣)

وقد عرف بالغدر ، ونقض الوعد ، وخيانة العهد ، يقول الامام أمير المؤمنين حينما كلمه السبطان في مبايعة مروان له :

لاحاجة لي في بيعته ، إنها كف يهودية لو بايعني بيده لغدر بسبابته أما إن له امرة كلعقة الكلب انفه ، وهو أبو الاكبش الاربعة ، وستلقى الامة منه ومن ولده يوماً أحمر .. » (٤)

وهذا الوزغ الرجس قد بر به عثمان وأحسن اليه ، ومكنه من بيت المال يهب منه لمن شاء ، ويمنع عنه من شاء ، ونسوق الى القراء الهبات الضخمة التي منحها عثمان لمروان وهي :

١ ـ اعطاه خمس غنائم أفريقية ، وقد بلغت خمس مائة الف دينار وقد عيب عثمان على ذلك وهجاه عبد الرحمن بن حنبل بقوله :

سأحلف بالله جهد اليمين ما ترك الله أمراً سدى

(١) مستدرك الحاكم ٤|٤٧٩

(٢) شرح ابن ابي الحديد ٢|٥٥

(٣) اسد الغابه ٤|٣٤٨

(٤) نهج البلاغة

ولكن خلقت لنـــا فتنـــة | لكي نبتلي بك أو تبتلى
فان الامينين قد بينـــا | منار الطريق عليه الهدى
فما أخــذا درهماً غيلـــة | وما جعلا درهما في الهوى
دعوت اللعين فأدنيتـــه | خلافا لسنة من قد مضى
وأعطيت مروان خمس العبا | د ظلماً لهم وحميت الحمى (١)

٢ ـ انه منحه الف وخمسين أوقية ولا نعلم انها من الذهب او الفضة وهي من جملة الامور التي سببت النقمة على عثمان (٢)

٣ ـ اعطاه مائة الف من بيت المال ، فجاء زيد بن أرقم صاحب بيت المال بالمفاتيح فوضعها بين يدي عثمان وبكى فنهره عثمان وقال له :

« اتبكي إن وصلت رحمي ؟ »

« ولكن أبكي لأني أظنك أنك أخذت هذا المال عوضاً عما كنت انفقته في سبيل الله ، في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله لو اعطيت مروان مائة درهم لكان كثيراً .. »

فزجره عثمان وصاح به

« الق المفاتيح .. يا بن أرقم ، فانا سنجد غيرك . » (٣)

٤ ـ واقطعه فدكاً ، ووهبها له (٤) وهي على كل حال لاتصح هبتها لأنها إن كانت نحلة لفاطمة عليها السلام كما تقول فهي لأبنائها ، وان كانت صدقة كما زعم أبو بكر فهي لجميع المسلمين ، وليس لعثمان ان

---

(١) تأريخ ابي الفداء ١|١٦٨
(٢) سيرة الحلبي ٢|٨٧
(٣) شرح ابن ابي الحديد ١|٦٧
(٤) تأريخ ابي الفداء ١|١٦٨ ، المعارف ص ٨٤

يتصرف فيها على كلا الوجهين .

وعلى اي حال ، فأي خدمة أسداها مروان للامة ، وأي مكرمة أو مأثرة صدرت منه حتى يستحق هذا العطاء الجزيل ، ويمنح هذا الثراء العريض

هذه بعض اعطيات الخليفة ومنحه الى اسرته ، وذوى قرباه ، وهي من دون شك لاتتفق مع كتاب الله وسنة نبيه فانهما الزما بالمساواة بين القريب والبعيد ، وأهابا بالحاكمين ان لايميزوا قوماً على آخرين وأن يطبقوا العدل في جميع المجالات .

الانكار على عثمان :

وكان من الطبيعي أن تثير هذه السياسة سخط الاخيار ، والصلحاء والمتحرجين في دينهم بل وسخط العامة الذين ينظرون الى بني امية نظرة ريبة وشك في اسلامهم ، ويرون في هذا العطاء امتداداً لهم وتقوية لنفوذهم وبسطاً لسلطانهم ، حتى نقم من عثمان عبد الرحمن بن عوف الذي انتخبه وعينه حاكما على المسلمين ، فكان يقول : عاجلوه قبل ان يتمادى في ملكه وكان يقول للإمام أمير المؤمنين : خذ سيفك وآخذ سيفي فانه قد خالف مااعطاني ، ولما حضرته الوفاة اوصى أن لايصلي عليه (١)

لقد شاع التذمر بين المسلمين من جراء هذه السياسة الملتوية ، وقد انكرت عليه الخاصة والعامة حينما استأثر بالسفط الذي كان في بيت المال فأخذ منه ما حلى به بعض أهله وصعد على أثر ذلك أعواد المنبر فقال :

« لنأخذن حاجتنا من هذا الفيء وإن رغمت به أنوف أقوام .. »

وقد اثار سخط الناس هذا الكلام فتصدى أمير المؤمنين الى رده فقال له :

---

(١) الانساب للبلاذري

« إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه » .

واندفع الصحابي العظيم عمار بن ياسر فأيد مقالة الامام ، وأعلن نقمته على عثمان فقال :

« أشهد ان أني أول راغم من ذلك .. »

ولما منح سعيد بن العاص مائة الف درهم ، انطلق الامام أمير المؤمنين مع جماعة من اعلام الصحابة فعابوا عليه عمله ، وانكروا عليه هذا العطاء فقال لهم :

« إن له قرابة ورحماً .. »

فردوا عليه حجته ، وقالوا له :

« أفما كان لأبي بكر وعمر قرابة ؟ .. »

فأجابهم :

« ان ابا بكر ، وعمر كانا يحتسبان في منع قرابتهما وأنا أحتسب في اعطاء قرابتي .. » (١)

لقد نقم المسلمون من عثمان ، وسخط عليه خيارهم لأنه استأثر بالفيء ، ومنح أموال المسلمين الى بني امية ، ولم يطبق فى سياسته العدل الاجتماعي الذي جاء به الاسلام .

اعتذار عثمان

واعتذر عثمان للناقدين لسياسته بأنه أوصل رحمه ، وبرّ بذي قرباه وليس فى ذلك مأثم عليه او مخالفة للشرع ـ كما يراه ـ ولا بد لنا من وقفة قصيرة أمام هذا الاعتذار لنعرف مدى واقعيته ، وصحته ، والذي

(١) الانساب ٥/٢٨

يقتضيه النظر أنه منطق مفلوج لايتفق مع الشرع ، ولا يلتقي بصالح الامة وذلك ـ أولا ـ ان الاموال التي منحها لأسرته لم تكن من أمواله الخاصة لتكون له مندوحة في انفاقها عليهم ، وانما هي أموال المسلمين فيجب انفاقها عليهم ، وليس لرئيس الدولة أن يتصرف فيها بقليل ، ولا بكثير فقد ورد عقيل من يثرب وهو بائس مضطر الى أخيه أمير المؤمنين عليه السلام فطلب منه وفاء دينه ، فقال له الامام :

ـ كم دينك ؟

ـ أربعون الفاً

ـ ما هي عندي ، ولكن اصبر حتى يخرج عطائي فادفعه اليك

ـ بيوت المال بيدك وأنت تسوفني بعطائك ؟

ـ أتأمرني ان أدفع اليك أموال المسلمين ، وقد ائتمنوني عليها . (١)

هذا هو منطق الاسلام ، وهذا عدله ، وهذه مساواته إنه لايفرق بين القريب والبعيد فالجميع سواسية في العطاء وغيره .

و ـ ثانياً ـ إن اسرته التي برّ بها خليقة بالقطيعة وجديرة بأن لاتوصل لأنها ناهضت الاسلام وناجزته الحرب ، وهي الشجرة الملعونة في القرآن فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمرو ان النبي صلى الله عليه وآله قال : رأيت وُلد الحكم بن ابي العاص على المنابر كأنهم القردة فانزل الله : وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة : يعني الحكم وولده (٢) وقالت عائشة لمروان سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول

---

(١) اسد الغابة ٣|٤٢٣

(٢) تفسير الطبري ١٥|٧٧ ، تفسير القرطبي ١٠|٢٨٣

لأبيك : « أبي العاص بن امية » انكم الشجرة الملعونة في القرآن (١) وقـد نهى الله عن موادة المعادين له ، وحرم مواصلتهم قال تعالى : « لاتجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » (٢)

لقد كان عثمان شديد الحب للامويين فقد قال : « لو أن بيدي مفاتيح الجنة لأعطيتها بني امية حتى يدخلوا عن آخرهم .. » (٣) وهذا الحب العارم لأسرته هو الذي اجهز عليه ، وحفز القوى الاسلامية الى الثورة عليه والاطاحة بحكمه وقتله .

٢ ـ منحه للاعيان

ووهب عثمان أموال المسلمين الى الوجوه والاعيان ، وذوي النفوذ السياسي ممن يحذر جانبهم ، فوصل طلحة بمائتي الف دينار (٤) وكانت له عليه خمسون الفاً ، فقال له طلحة : تهيأ مالك فاقبضه ، فوهبه له ، وقال : هو لك يا أبا محمد على مروءتك (٥) ووصل الزبير بستمائة الف ، ولما قبضها جعل يسأل عن خير المال ليستغل صلته فدل على اتخاذ الدور في الاقاليم والامصار (٦) فبنى احدى عشرة دارا بالمدينة ، ودارين بالبصرة

---

(١) الدر المنثور ٤|١٩١

(٢) سورة المجادلة : آية ٢٢

(٣) مسند احمد ١|٦٢

(٤) طبقات ابن سعد

(٥) تاريخ الطبري ٥|١٣٩

(٦) طبقات ابن سعد

وداراً بالكوفة ، وداراً بمصر (١) ووهب أموالا طائـــلة لزيد بن ثابت حتى بلغ به الثراء انه لما توفى خلف من الذهب والفضة ما يكسر بالفؤوس غير ما خلف من الاموال والضياع مائة الف دينار (٢) ومنح أموالا أخرى الى السائرين في ركابه ، والمؤيدين لسياسته ، وقد ذكر بالتفصيل تلك الهبات شيخ المحققين الاميني في موسوعته الخالدة (٣)

وبأي وجه تصحح هذه الهبات وهي أموال المسلمين وقد فرض فيها ان تصرف على اصلاح المجتمع ، وانقاذ الفقير والمحروم من البؤس والفاقة ، لا أن يتاجر بها في شراء الضمائر ، وتأييد الحكم القائم فان ذلك لايقره الاسلام بحال من الاحوال .

٣ ـ استئثاره بالاموال

واستنزف عثمان بيوت الاموال فاصطفى منها ماشاء لنفسه وعياله ، وبالغ في البذخ والاسراف فبنى داراً في يثرب شيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة (٤) وكان ينضد اسنانه بالذهب ، ويتلبس بأثواب الملوك ، وانفق اكثر بيت المال في عمارة ضياعه ودوره (٥) ولما قتل كان عند خازنه ثلاثون الف الف درهم ، وخمسمائة الف درهم وخمسون ومائة الف دينار ، وترك الف

---

(١) صحيح البخاري ٥|٢١

(٢) مروج الذهب ١|٣٣٤

(٣) الغدير الجزء الثامن

(٤) مروج الذهب ١|٤٣٣

(٥) السيرة الحلبية ٢|٨٧

بعير وصدقات ببراديس وخيبر ، ووادي القرى قيمة مائتي الف دينار (١)

إن عثمان قد نهج منهجاً خاصاً في سياسته المالية ، فلم يتقيد بكتاب الله ، ولا بسنة نبيه ، فتصرف في بيت المال تصرفاً كيفياً فأخذ منه ماشاء ومنح من أحب ، ووهب لمن سار في ركابه ، وقد وصف الامام امير المؤمنين هذه السياسة الملتوية بقوله :

« الى ان قام ثالث القوم - يعني عثمان - نافجا حضنيه (٢) بين نثيله ومعتلفه (٣) وقام معــه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الابل نبتة الربيع .. »

وهذا أبدع ماتوصف به السياسة المنحرفة التي تتخذ الحكم وسيلة للثراء والتمتع بملاذ الحياة ، ولا تقيم وزناً للامة ، ولاتعتني بمصالحها وأهدافها .

وقد أصدر الامام أمير المؤمنين قراره الحاسم بعد ان استولى على زمام الحكم بمصادرة جميع الاموال التي استأثر بها عثمان لنفسه ، والتي وهبها لخاصته وأقربائه ، وهذا نص قراره :

« الا ان كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال ، فان الحق القديم لايبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وفرق في البلدان لرددته الى حاله فان في العدل سعة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣|٥٣

(٢) نافجا حضنيه : اي رافعاً لهما ، والحضن ما بين الابط والكشح ، يقال للمتكبر : جاء نافجا حضنيه ، ويقال لمن امتلأ بطنه طعاماً : جاء نافجاً حضنيه ، ومراده (ع) هو الثاني .

(٣) النثيل : الروث ، والمعتلف : موضع العلف يريد به ان همه الاكل والرجيع ، وهذا من محض الذم كما يقول ابن ابي الحديد .

ومن ضاق عنه الحق فالجور عنه أضيق .. » (١)

وكان هذا الاجراء الذى اتخذه الامام على وفق العدل الاسلامي الذي حدد صلاحية المسؤلين ، ولم يطلق لهم العنان فى التصرف بأموال الامة ، والاستئثار بها ، فليس لهم أن يصطفوا منها لأنفسهم ولا لذراريهم فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جاءته ابنته الوحيدة التي لاعقب له سواها تطلب منه ان يبغي لها وصيفاً يخدمها لأن يديها قد مجلت من الرحي ، فلم يجد صلى الله عليه وآله مجالا لأن يأخذ من بيت المال مايشتري به وصيفاً يعين ابنته فردها ، وعلمها التسبيح الذي ينسب لها ، وقد سار على هذه السيرة وصيه وباب مدينة علمه الامام امير المؤمنين عليه السلام فقد جاء أخوه عقيل يستميحه البر ، ويطلب منه السعة والرفاهية فاحمى له حديدة كاد ان يحترق من ميسمها ، هذا هو منطق الاسلام الذي جاء لاسعاد الشعوب واصلاحها وانقاذها من البؤس والفقر والحرمان .

مع الدكتور طه حسين

وتناقضت أقوال الدكتور طه حسين تناقضا صريحا في تصوير السياسة المالية التي انتهجها عثمان ، فتارة يسف في قوله فيزعم انه كان محافظاً على سيرة عمر فى سياسة المال فلم يخالفه فى ذلك ، ولم يشذ عنه فى جميع أعماله الادارية والحربية ، وفيما كان يأخذ به عامة المسلمين من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتزام السنة الموروثة ، واجتناب التكلف والابتداع (٢) واخرى يستقيم فى قوله فيذهب الى أنه انحرف عن سياسة عمر فى الابقاء على بيت المال ، وفى ألا ينفق منه إلا بمقدار الحاجة الى الانفاق ، وأنه

---

(١) نهج البلاغة ١|٤٦

(٢) الفتنة الكبرى ١|٧٢

كان ينكر تشدد عمر ، ويرى أن فى بيت المال مايسع الناس اكثر مما وسعهم أيام عمر فهو نقد غير مباشر لسيرة عمر فى سياسة بيت المال (١) ومعنى هذا انه لم يتقيد بسيرة عمر ، ولم يطبق سياسته على واقع حكومته وهذا ينافى ماذكره أولا ، من انه كان يسير على وفق الاهداف التى سار عليها عمر .

وعلى أي حال فقد مال أخيراً الى تصحيح سياسته المالية وانها لم تخالف السنة الموروثة ، ولم تخل من الخير ومراعاة الصالح العام ، ونسوق نص كلامه فى ذلك مع مواقع النظر فيه وهو كما يلي :

أفاد الدكتور مانصه : « الشيء المحقق هو ان عثمان لم يدهن في دينه والشيء المحقق أيضا هو ان عثمان لم ير في سياسته تلك مخالفة خطيرة او غير خطيرة لسيرة الشيخين ، فهو لم يعتمد الجور ولا المحاباة ، وإنما وسع على الناس من أموالهم ، رأى فى بيت المال غنى فآثر الناس به ، ولم يغل فى الادخار . وأي حرج فى أن يصل اصحاب النبي بشيء من هذا المال قليل او كثير ، وهم أئمة الاسلام وبناة الدولة وأصحاب البلاء الحسن ايام النبي ، وهم قد احتملوا من الشدة والحرمان شيئاً كثيراً ! وقد صدق الله وعده واكثر الخير ، فأي الناس أحق من هؤلاء المهاجرين ان يستمتعوا بشيء من هذا الخير الكثير .. » (٢)

ومواقع النظر فى كلامه مايلي :

١ ـ انه ذهب الى أن عثمان لم يدهن فى دينه ، وأنه لم ير في سياسته مخالفة خطيرة او غير خطيرة لسيرة الشيخين ، ولم يتعمد الجور ولا المحاباة .

---

(١) الفتنة الكبرى ١|٧٤

(٢) الفتنة الكبرى ١|٧٧

أما ان عثمان لم يدهن فى دينه فيزيفه اعلانه للتوبة ، وانه قد جافى العدل ، وانحرف عن الطريق القويم وهذا نص توبته :

« أما بعد : أيها الناس ، فو الله ماعاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت إلا وأنا أعرفه ، ولكني منتني نفسي ، وكذبتني ، وضل عني رشدي ، ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : من زلّ فليتب (١) ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادى في الهلكة إن من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق ، فانا أول من اتعظ ، استغفر الله عمـا فعلت وأتوب اليه »(٢)

وهي صريحة في أنه سلك غير الجادة ، وشذ عن السنة الموروثة ، وأنه على بصيرة من ذلك لم يجهاه ، ولم يغب عنه علمه وانما ارتكب ما ارتكب من المخالفات للسنة كهباته للأمويين ، وصلاته لآل أبي معيط ، وتنكيله باعلام الصحابة الناقدين لسياسته ، وغير ذلك من الاحداث الجسام ، انما هو استجابة لعواطفه ورغباته فان نفسه قد منته بذلك حتى ضل عنه رشده وفقد صوابه ـ على حد تعبيره ـ ومع اعترافه بذلك ، وتسجيله على نفسه انه انحرف عن الطريق كيف يمكن ان يقال إنه لم يدهن في دينه ، ولم يتعمد الجور والمحاباة .

٢ ـ أما ماذكره من أن عثمان وسع على الناس من أموالهم لأنه رأى فى بيت المال غنى فآثر الناس به ، ولم يغل في الادخار .. فان هذا لايمكن المساعدة عليه بوجه فان عثمان لم يوسع على الناس ، ولم يبسط لهم فى العيش وإلا لما ثاروا عليه ، وقتلوه ، وإنما وسع على نفسه وخاصته ،

(١) في روايه البلاذري من زل فلينب

(٢) تاريخ الطبري

ووسع على بني امية والمؤيدين لسياسته فآثرهم بالفيء ، وخصهم بأموال الدولة الامر الذي اوجب شيوع التذمر ، ونقمة المسلمين عليه في جميع اقطارهم وأقاليمهم حتّى أطاحوا بحكمه ، وأردوه قتيلا لم يواروه فى قبره حتى ندم خيار المسلمين على عدم حرق جثته (١)

٣ ـ وأما ما أفاده من أنه لاحرج ، ولا اثم على عثمان في صلته لأصحاب النبي صلى الله عليه وآله بالاموال لأنهم أئمة المسلمين ، وأصحاب البلاء الحسن ، فأي الناس احق منهم بالاستمتاع بشيء من هذا الخير . فانه ظاهر البطلان لأن بيت المال ـ كما ذكرنا غير مرة ـ هو للمسلمين جميعاً لايختص به قوم دون آخرين ، ويجب صرفه على مصالحهم ، واصلاح شؤونهم ، وليس لطائفة مهما علا شأنها ان تختص به ، وتحرم منه الاكثرية الساحقة ، على ان الاسلام فى ذلك الوقت احوج مايكون الى بسط عدله الاجتماعي بين الشعوب المتعطشة الى مساواته العادلة التي لاتميز قوماً على آخرين ، ولكن عثمان آثر بني امية في كل شيء آثرهم بالاموال والوظائف وحملهم على رقاب الناس الامر الذي أدى الى تحطيم المساواة التي جاء بها الاسلام .

وأما سبق المهاجرين من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله الى الاسلام ودفاعهم عن حياضه ، وتحملهم للعناء والبلاء فى سبيله فامر لامجال للشك فيه ، وهم مشكورون عليه ، والله هو الذي يتولى جزاءهم عن ذلك ، ولكن منحهم بالاموال والأغداق عليهم بالنعم فامر لامساغ له لأن فيه احياءاً للطبقية التى حاربها الاسلام وشجب جميع مظاهرها .

ويمضي الدكتور فى تصحيح سياسة عثمان ، ومشروعية هباته للصحابة

(١) قال ذلك الصحابي العظيم عمار بن ياسر انظر الغدير ٩/٢١٦

وانه لم يخالف بذلك السنة الموروثة ، وإنما جرى على طبعه السخي ، ولم يذكر هباته الضخمة ، وعطاياه الوافرة للامويين وآل أبي معيط فقد اعرض سيادته عن ذلك ولم يذكره بقليل ولا بكثير ، وهو فيما نحسب من أهم الاسباب التي أدت الى الانكار عليه ، لقد أهمل الدكتور هذه الناحية أما لأنه لم يجد مجالا للاعتذار عنها أو انه لايرى بأساً في ذلك كما لايرى بأساً في عطاياه للصحابة ، ومن المؤسف ان يسف في ذلك ، ويبرر ماخالف السنة .

ولاته على الامصار

ويحتم الاسلام على خليفة المسلمين ، وولي أمرهم أن يجهد نفسه في اختيـــار ذوي القابليات والمواهب ممن تتوفر فيهم الشروط المطلوبة من العدالة والتقوى ، والنزاهة ، والنصح للرعية ، والسهر على صالحها ، ورعاية شؤونها بأمانة واخلاص ليجعلهم ولاة على الامصار والاقاليم ، ولا يجوز ان يولي أي احـــد مهما كان قريباً له محاباة او اثرة فان ذلك خيانة لله ولرسوله ، وللمسلمين لأن الولاة يتحملون مسؤولية الحكم ، والقضاء بين الناس ، وادارة شؤونهم والاصلاح فيما بينهم ، والائتمان على أموالهم ودمائهم فلا بد ان يكونوا من خيرة الرجال ومن اكثرهم ديناً ، ووقوفاً في الشبهات ، وأبعدهم عن الطمع والحرص ، واصبرهم على تكشف الامور هذا هو رأي الاسلام ، وهذه خطته التي حفل بها نظامه الخالد ، وقـــد ابتعد عثمان عن ذلك فعمد الى توظيف اسرته وذوى قرباه الذين حاربوا الله ورسوله وسعوا في الارض فساداً فحملهم على رقاب المسلمين وأسند اليهم اهم الوظائف فجعلهم أمراءاً على الامصار والاقاليم ، ونشير الى بعضهم مع بيان تراجمهم وهم :

١ ـ الوليد بن عقبة

وكان على الكوفة والياً سعد بن أبي وقاص الزهري فعزله عثمان عنها وولى عليها الوليد بن عقبة بن ابي معيط ولم يعهد الى اهل الكفاية والقدرة من المهاجرين والانصار الذين احسنوا البلاء في الاسلام ليتولوا شؤون هذا المصر الذي هو من اعظم امصار المسلمين أهمية وأكثرها ثغوراً .

وعلى أي حال فهل ان الوليد كان خليقاً لأن يعهد اليه بهذا المنصب الخطير الذي يوكل اليه القضاء بين الناس وإئتمامهم به في الصلاة ، والائتمان على بيت المال وغير ذلك من الشؤون التي تتوقف على العدالة والتقوى والحريجة في الدين ونقدم عرضاً موجزاً لبعض شؤونه ليتضح حاله وهي :

أ ـ نشأته

نشأ في مجتمع جاهلي ، وتربى تربية جاهلية ، ولم يدخل بصيص من نور الاسلام في قلبه ، كان ابوه من ألد اعداء رسول الله صلى الله عليه وآله روت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : كنت بين شرّ جارين بين أبي لهب وبين عقبة بن ابي معيط ، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي حتى أنهم ليأتون ببعض مايطرحونه من الاذى فيطرحونه على بابي (١) وقد بصق هذا اللعين في وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وشتمه ، فقال له النبي : إن وجدتك خارجاً من جبال مكة اضرب عنقك صبراً ، فلما كان يوم بدر وخرج اصحابه امتنع من الخروج فقال له اصحابه اخرج معنا ، قال وعدني هذا الرجل إن وجدني خارجاً من جبال مكة ان يضرب عنقي صبراً ، فقالوا له : لك جمل احمر لايدرك فلو كانت الهزيمة طرت عليه فخرج معهم ، فلما هزم الله المشركين حمل به جمله في جدود من الارض فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) طبقات ابن سعد ١|١٨٦ ط مصر

أسيراً في سبعين من قريش فقدم اليه فقال عقبة اتقتلني من بين هؤلاء ؟ قال نعم بما بزقت في وجهي ، ثم أمر علياً فضرب عنقه (١) وقد اترعت نفس الوليد بالحقد والكراهية من النبي صلى الله عليه وآله لأنه قد وتره بأبيه ، ولما لم يجد بداً من الدخول فى الاسلام اسلم ولكن قلبه كان مطمئناً بالكفر والنفاق .

ب - فسقه

ونطق القرآن الكريم بفسقه ، وعدم ايمانه مرتين « الاولى » انه جرت بينه وبين امير المؤمنين مشادة ، فقال الوليد له : اسكت فانك صبي وأنا شيخ ، والله اني ابسط منك لساناً ، وأحد منك سناناً ، واشجع منك جناناً ، وأملأ منك حشوا في الكتيبة ، فقال له علي : اسكت فانك فاسق فانزل الله تعالى فيها قوله : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً » (٢) وقد نظم ذلك حسان بن ثابت بقوله :

أنزل الله والكتاب عزيز — في علي وفى الوليد قرانا
فتبوا الوليد من ذاك فسقاً — وعلي مبوء إيمانا
ليس من كان مؤمنا عرف الله — كمن كان فاسقاً خوانا
فعلي يلقى لدى الله عزا — ووليد يلقى هناك هوانا
سوف يجزى الوليد خزياً ونارا — وعلي لاشك يجزى جنانا (٣)

« الثانية » أنه غش النبي وكذب عليه وذلك حينما ارسله في بنى المصطلق ، فعاد الى النبي يزعم انهم منعوه الصدقة ، فخرج النبي

(١) الغدير ٨|٢٧٣
(٢) تفسير الطبري ٢١|٦٢
(٣) تذكرة الخواص ص ١١٥

صلى الله عليه وآله إليهم غازيا فتبين له كذب الوليد ، ونزلت عليه الآية بفسقه قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » (١)

ومع اعلان القرآن بفسقه وأثمه كيف يجوز أن يجعل حاكماً على المسلمين واماماً لهم ومؤتمناً على أموالهم ودمائهم .

ج ـ ولايته على الكوفة

واستعمله عثمان والياً على الكوفة بعد عزله لسعد ، فسار فيها سيرة عبث ومجون وتهتك ، ولم يرع للدين حرمة ووقارا ، وأخذ يعيث فسادا في الارض حتى ضجت الكوفة من مجونه واستهتاره وتذمر الاخيار والصلحاء من سوء سيرته .

د ـ شربه للخمر

واقترف الوليد افحش جريمة ، وافظع ذنب فقد ثمل وصلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات ، وصار يقول : في ركوعه وسجوده : اشرب واسقني . ثم قاء في المحراب وسلم ، وقال هل ازيدكم ؟ فقال له ابن مسعود : لازادك الله خيرا ، ولا من بعثك الينا ، وأخذ فردة نعله ، وضرب به وجـــه الوليد ، وحصبه الناس فدخل القصر والحصباء تأخذه ، وهو مترنح (٢) وفي فعله يقول الحطيئة جرول بن أوس العبسي :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه ... إن الوليد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكم ؟ ثملا ولا يدرى

---

(١) سورة الحجرات : آية ٦ يقول ابن عبد البر في الاستيعاب ٢/٦٢ لاخلاف بين اهل العلم بتأويل القران فيما علمت ان الآية نزلت في الوليد .

(٢) السيرة الحلبية ٢/٣١٤

ليزيدهم خيراً ولو قبلوا منه لزادهم على عشر
فأبوا أبا وهب ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك اذ جريت ولو خلوا عنانك لم تزل تجري (١)

وقال الحطيئة فيه ايضا :

تكلم في الصلاة وزاد فيها علانية وجاهر بالنفاق
ومج الخمر عن سنن المصلي ونادى والجميع الى افتراق
أزيدكم على أن تحمدوني فما لكم ومالي من خلاق (٢)

وهذه البادرة قد دلت على تهتكه ، وتماديه في الاثم والفسوق ، فلم يرع حرمة للصلاة التي هي من اهم الشعائر الدينية ، واعظمها حرمة عند الله

رأي طه حسين

ويعتقد طه حسين ان صلاة الوليد بالمسلمين ، وهو ثمل وزيادته فيها قصة مخترعة لانصيب لها من الصحة قد وضعها خصوم الوليد والصقوها به ويستدل على ذلك أنه لو زاد فيها لما تبعته جماعة المسلمين من اهل الكوفة ، وفيهم نفر من اصحاب النبي ، وفيهم القراء والصالحون ، ولما رضي المسلمون من عثمان بما اقام عليه من حد الخمر ، فان الزيادة في الصلاة والعبث بها اعظم خطرا عند الله وعند المسلمين من شرب الخمر ، كما يذهب الى ان الشعر الذي هجي به الوليد لم يقله الحطيئة ، وانما قال الحطيئة شعراً يمدح به الوليد مدح محب حريص على رضاه ، وذكر أبياتاً قالها في مدحه والثناء عليه (٣) والذي ذكره الدكتور لايمكن المساعدة

---

(١) الاغاني ٤/١٧٨ ـ ١٧٩
(٢) الاغاني ٤/١٧٨ ، الاستيعاب
(٣) الفتنة الكبرى ١/٩٦ ـ ٩٧

عليه بوجه وذلك ـ أولا ـ ان النصوص قد تضافرت بذلك ودونها الكثير ممن ترجم الوليد أو تعرض لأحداث عثمان فقد قال ابو عمر في الاستيعاب : « ان صلاته ـ اي الوليد ـ بهم وهو سكران ، وقوله ازيدكم ؟ بعد ان صلى الصبح اربعاً مشهورة من رواية الثقاة من أهل الحديث وأهل الاخبار» وقال ابن حجر في الاصابة : « قصة صلاته بالناس الصبح وهو سكران مشهورة مخرجة » وحكى أبو الفرج في الاغاني (١٧٨/١٤) عن ابي عبيد والكلبي والاصمعي ان الوليد بن عقبة كان زانياً شريب خمر فشرب الخمر بالكوفة وقام ليصلي بهم الصبح في المسجد الجامع فصلى بهم اربع ركعات ثم التفت اليهم ، وقال لهم ازيدكم ؟ وتقيأ في المحراب ، وقرأ بهم في الصلاة :

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا

إن التشكيك في هذا الحادث والاعتقاد بأنه من الموضوعات انكار للضروريات ، وتشكيك في البديهيات وفي الهامش نثبت الى المصادر التي دونت ذلك ، وهي توجب القطع بصحته ، وعدم الريب فيه (١) ـ وثانياً ـ إن الله تعالى هو العالم بسرائر عباده ونياتهم ، وقد اعلن في كتابه الكريم فسق الوليد وفجوره في آيتين فلا يستبعد منه بعد ذلك أن تصدر منه افحش الموبقات واعظم الجرائم ـ وثالثاً ـ ان صلحاء المسلمين وخيارهم

---

(١) مسند احمد ١٤٤|١ ، سنن البيهقي ٣١٨|٨ ، اسد الغابة ٩١|٥ ـ ٩٢ ، مروج الذهب ٢٢٤|٢ ، الكامل لابن الاثير ٤٢|٣ ، تأريخ ابي الفدا ١٧٦|٢ ، تأريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٠٤ ، تأريخ اليعقوبي ١٤٢|٢ ، الاصابة ٦٣٨|٣ ، هذه بعض المصادر التي نصت على ذلك ، فعلى اي مصدر اعتمد الدكتور في افتعال القصة وعدم صحتها .

قد انكروا عليه ونقموا منه وثاروا في وجهه ، فقد ضربه عبد الله بن مسعود بنعله ، وحصبه الناس - كما تقدم - وخرج رهط من الكوفة فاستجاروا باعلام الصحابة ، لينقذوهم من امارة الوليد واستهتاره - كما سنذكر ذلك - وما زعمه الدكتور طه حسين ان جماعة من المسلمين من أهل الكوفة قد تبعته وفيهم من أصحاب النبي والصالحين ، قد غالط بذلك الحقائق التأريخية التي نصت على ماذكرناه - ورابعاً - ان الحطيئة وان كان قد مدح الوليد واخلص له فانه لاينافي أنه نقم منه وهجاه على ارتكابه هذه الجريمة النكراء التي سود بها وجه التأريخ الاسلامي والعربي .

إن الحطيئة عرف بالهجاء والمدح فهو قد يمدح شخصاً يأمل منه البر والخير فاذا لم يعطه هجاه وذمه فقد قصد بني ذهل يسترفدهم ، ويستميحهم العطاء ، ويقول في مدحهم :

إن اليمامة خير ساكنها أهل القرية من بني ذهل
قوم اذا أنتسبوا ففرعهم فرعي وأثبت أصلهم اصلي

فلم يعطوه شيئاً فقال يهجوهم :

ان اليمامة شر ساكنها أهل القرية من بني ذهل

وكان اذا غضب على بني عبس يهجوهم ويقول انا من بني ذهل وإذا غضب على بني ذهل يهجوهم ويقول لهم : أنا من بني عبس ، وقد غضب على امه فهجاها بقوله :

تنحي فاجلسي مني بعيداً أراح الله منك العالمينـا
أغربالا اذا استودعت سراً وكانونا على المحدثينا
حياتك ماعلمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا

والتمس انساناً يهجوه فلم يجده فانشأ يقول :

أبت شفتاي اليوم إلا تكلما   بشر فما ادري لمن انا قائله

وجعل يردد البيت ، ولايرى انساناً حتى اذا طلع على حوض فرأى وجهه فقال :

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه   فقبح من وجه وقبح حامله (١)

هذا هو الحطيئة فهل خفى حاله على الدكتور حتى يستبعد منه ان يمدح الوليد ويهجوه ؟

وعلى أي حال فان طه حسين قد حاول تبرير الوليد ، وتنزيهه عن الموبقات والآثام وإلحاقه بالامراء الصالحين الذين لم يجوروا عن القصد فى حكمهم وقد قال فيه مانصه :

« إن الوليد قد سار في اثناء ولايته على الكوفة سيرة فيها كثير جداً من الغناء وحسن البلاء . فهو لم يقصر في سد الثغور والامعان فى الفتح ، وإنما بلغ من ذلك غاية عرفت له وتحدث بها الناس في حياته وبعد موته وهو قد ساس الكوفة سياسة حزم وعزم ومضاء ، فاقر الامن ، وضرب على ايدي المفسدين من الاحداث والذين لايرعون للنظام حرمة ، ولايرجون للدين وقارا . » (٢)

وهل يستطيع الدكتور ان يثبت ذلك ويدلنا على معالم تلك السياسة الرشيدة التى سار عليها الوليد وتحدث الناس بها في حياته وبعد وفاته ، ولو كان الامر كما ذكره لما قام سعيد بن العاص - الذى عينه عثمان والياً على الكوفة بعد عزله للوليد - بغسل المنبر تحرجاً من موبقات الوليد

---

(١) الاغاني المجلد الثاني القسم الاول ص ٧٦ — ٨٤ ط دار الفكر

(٢) الفتنة الكبرى ١|٩٤ - ٩٥

وآثامه . نعم لقد تحدث الناس ، ولا زالوا يتحدثون عن مهازل الحكم الاموي الذي بنى على الاثرة والاستغلال والتحكم في رقاب المسلمين ، وخيانة الامة ، وقهرها واذلالها باستعمال الوليد وأمثاله من الماجنين والمستهترين حكاماً وولاة عليها وإنا لنأسف من الدكتور ان يدافع عن هؤلاء الخونة الذين هم صفحة عار وخزي على الامة العربية والاسلامية .

هـ ـ اقامة الحد عليه

واسرع قوم من الكوفيين ممن يهمهم الاصلاح الى يثرب ليعرضوا على عثمان جريمة الوليد ، وانتهاكه لحرمة الاسلام ، وقد صحبوا معهم خاتمه الذي انتزعوه منه وهو في حالة السكر ، ولما انتهوا الى يثرب قابلوا عثمان ، وشهدوا عنده ان الوليد قد شرب الخمر فزجرهم عثمان وقال لهم :

« وما يدريكما أنه شرب خمراً ؟ . »

« هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية »

وأخرجوا له خاتمه الذي انتزعوه منه ، فثار عثمان ، وقام فدفع في صدورهم ، وقابلهم بأمر القول ، فانطلقوا الى امير المؤمنين (١) وأخبروه بالامر فأقبل الامام الى عثمان وقال له :

(١) وذكر ابو الفرج في الاغاني ١٧٩|٤ ان القوم فزعوا الى عائشة فاستجاروا بها واصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتاً وكلاماً فيه بعض الغلظة فقال : اما يجد مراق اهل العراق وفساقهم ملجأ الا بيت عائشة ، فسمعت فرفعت نعل رسول الله «ص» وقالت تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل. فتسامع الناس فجاءوا حتى ملأوا المسجد فمن قائل : احسنت ، ومن قائل ماللنساء ولهذا ؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا بالنعال ودخل رهط من اصحاب رسول الله على عثمان فقالوا له : إتق الله لاتعطل الحد واعزل اخاك .

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود ؟ »

« ماترى ؟ »

« أرى ان تبعث الى صاحبك فان اقاما الشهادة في وجهه ، ولم يدل بحجة أقمت عليه الحد . »

ولم يجد عثمان بدا من الاذعان ، والاستجابة لقول الامام فكتب الى الوليد يأمره بالشخوص اليه ، ولما وصلت رسالته اليه نزح عن الكوفة فانتهى الى يثرب ، ودعا عثمان الشهود فأقاموا عليه الشهادة ، ولم يدل الوليد بأي حجة يدافع بها عن نفسه ، وامتنع حضار المجلس من القيام بحده نظراً لقربه من عثمان ، فانبرى امير المؤمنين فأخذ السوط ودنا منه فسبه الوليد ، وقال : ياصاحب مكس (١) فاندفع عقيل بن أبي طالب ، فرد على الوليد قائلا :

« إنك لتتكلم يابن ابي معيط ، كأنك لاتدري من انت ، وانت علج من أهل صفورية - وهي قرية بين عكة واللجون من اعمال الاردن من بلاد طبرية ، كان ذكوان اباه يهودياً منها -

وجعل الوليد يروغ من الامام فاجتذبه ، وضرب به الارض وعلاه بالسوط ، فثار عثمان ، وقد علاه الغضب فقال للامام :

« ليس لك ان تفعل به هذا .. »

« بلى وشر من هذا اذا فسق ومنع حق الله ان يؤخذ منه .. » (٢)

واقام الامام عليه الحد وكان اللازم بعد هذا الحادث أن يبعده عثمان ولا يقربه اليه حتى يرتدع هو وغيره من ارتكاب المنكر والفساد ولكنه

---

(١) المكس : النقص والظلم

(٢) مروج الذهب ٢|٢٢٥

لم يلبث ان رق عليه وولاه صدقات كلب ، وبلقين (١) وكيف يؤتمن هذا الخليع الفاسق على صدقات المسلمين وأموالهم ؟

إن الامصار الاسلامية التى استجد تأسيس بعضها ، والتي لم يستجد تأسيسها كان يقيم فيها العربي وغيره من النازحين عن أوطانهم لطلب الرزق والعيش ، والاسرى الذين كانوا يقيمون مع الفاتحين وكل اولئك كانوا جديدى عهد بالاسلام فكانوا ينتظرون من خليفة المسلمين وولي أمرهم ان يستعمل عليهم رجالا انزعت نفوسهم بالتقوى والصلاح ، وتوفرت فيهم النزعات الخيرة ليكونوا قدوة لهم وهداة قبل ان يكونوا حكاماً وامراءاً ولكن عثمان آثر في الحكم بنى امية وآل أبي معيط وهم لايمثلون إلا الترف والدعارة والبطالة والفراغ والتهالك على اللذة والمجون .

٢ ـ سعيد بن العاص

وبعد ان اقترف الوليد تلك الجريمة النكراء اقصاه عثمان عن امارة الكوفة على كره منه ، وكان من المتوقع ان يسند الحكم الى أحد اعلام الصحابة من الذين أبلوا في الاسلام بلاءاً حسناً ، ولكنه عمد الى سعيد ابن العاص فولاه هذا المصر العظيم ، وقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شابا مترفاً (٢) لايتحرج من الاثم ولا يتورع من الافك روى ابن سعد أنه قال مرة في فطر رمضان ـ بعد أن ولي المصر ـ من رأى منكم الهلال ؟ فقال اليه هاشم بن عتبة الصحابي العظيم « انا رأيته »

فوجه اليه لاذع القول وأقساه قائلا :

« بعينك هذه العوراء رأيته ؟ ! »

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢|١٤٢

(٢) طبقات ابن سعد ٥|٢١ ، تاريخ ابن عساكر ٦|١٣٥

فالتاع هاشم واجابه

« تعيرني بعيني ، وإنما فقئت في سبيل الله - وكانت عينه اصيبت يوم اليرموك - » .

واصبح هاشم في داره مفطراً عملا بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » وفطر الناس لإفطاره ، وبلغ ذلك سعيدا ، فأرسل اليه وضربه ، وحرق داره ، وقد أثار حفائظ النفوس بهذا الاعتداء الصارخ على علم من أعلام الاسلام .

وأثر عنه انه قال : إنما السواد - اي سواد الكوفة - بستان لقريش فقام اليه الاشتر فقال له : أتجعل مراكز رماحنا ، وما أفاء الله علينا بستانا لك ولقومك ؟ والله لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه ، وانضم الى الاشتر قراء المصر وفقهاؤهم فأيدوا مقالته ، وغضب صاحب شرطة سعيد فرد عليهم رداً غليظاً فقاموا اليه فضربوه ضرباً منكراً حتى اغمي عليه ، وقاموا من مجلسه وهم يطلقون ألسنتهم بنقده ، ويذكرون مثالب عثمان ، وسيئات قريش ، وجرائم بنى امية وكتب سعيد الى عثمان يخبره بأمر هؤلاء ، فأجابه عثمان ان يسيرهم الى الشام ، وكتب في نفس الوقت الى معاوية يأمره بأستصلاحهم .

والمهم ان هؤلاء لم يرتكبوا اثماً او فساداً ، ولم يقترفوا جرماً حتى يستحقوا هذا التنكيل والنفي وانما نقدوا اميرهم لأنه شذ عن الطريق ، وقال غير الحق ، والاسلام قد منح الحرية التامة للمواطنين ، ومنها حرية النقد للحاكمين إن سلكوا غير الجادة ، وعدلوا عن الطريق القويم ، فعلى اي وجه يصحح نفيهم عن اوطانهم وهم لم يخلعوا يدا عن طاعة ولم يفارقوا جماعة .. وعلى أي حال فقد اخرجهم سعيد بالعنف ، وأرسلهم الى الشام

الى بلد لايألفون الى اهلها ولا يسكنون الى من فيهسا ، وتلقاهم معاوية فانزلهم في كنيسة ، واجرى عليهم بعض الرزق ، وجعل يناظرهم ، ويعظهم ولكنه لم ينجح في اقناعهم ، فقد كان منطقهم منطق الاحرار ، فأي مزية تمتاز بها قريش حتى يكون السواد ملكا لها ، وأي مأثرة صدرت لها حتى تمتاز على بقية العرب والمسلمين ، ولما يئس منهم معاوية كتب الى عثمان يستعفيه من بقائهم فى الشام خوفاً من ان يفسدوا أهلها عليه ، فأعفاه عثمان وأمره ان يردهم الى الكوفة ، فعادوا اليها وهم مصرون على نقد الحكم القائم وأطلقوا السنتهم في ذكر مثالب سعيد ومعاوية وعثمان وأعاد سعيد الكتابة الى عثمان يطلب منه ابعاد القوم عن مصرهم ، فأجابه عثمان الى ذلك ، وأمره ان ينفيهم الى حمص والجزيرة فاخرجهم من وطنهم الى حمص ، فقابلهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عامل معاوية على حمص اعنف لقاء وأشده ، وأخذ يسومهم سوء العذاب ، ويقابلهم بأغلظ القول وأفحشه ، وكان اذا ركب أمر بهم فساروا حول ركابه ، ليظهر هوانهم واذلالهم ، ويغري الناس بانتقاصهم ولما رأوا تلك القسوة اظهروا الطاعة وأعلنوا التوبة ، وطلبوا منه ان يقيلهم من ذنوبهم فأقالهم ، وكتب الى عثمان يسترضيه عنهم ويسأله العفو عنهم فأجابه الى ذلك وردهم الى الكوفة ونزح سعيد بن العاص الى يثرب في مهمة له فوجد القوم هناك يشكونه الى عثمان ويسألونه عزله ، ولكن عثمان ابى وامتنع من اجابتهم ، وأمره ان يرجع الى عمله فقفل القوم راجعين الى مصرهم قبله فاحتلوا الكوفة وأقسموا ان لا يدخلها سعيد ما حملوا سيوفهم ، ثم خرجوا في جمع بقيادة الاشتر حتى بلغوا الجرعة ، فانتظروا سعيداً فلما أقبل ردوه ومنعوه من دخول المصر ، وأجبروا عثمان على عزله وتولية غيره فاستجاب عثمان على

كره منه لذلك . (١)

والمهم ان عثمان قد نكل بالناقدين لسعيد بن العاص وهم قراء المصر وفقهاؤه ونفاهم عن اوطانهم وبالغ في ارهاقهم من أجل شاب طائش لأنه من ذويه واسرته الامر الذي أوجب شيوع التذمر وانتشار السخط عليه ، وكراهية الامة لحكمه .

٣ ـ عبد الله بن عامر

وعزل عثمان أبا موسى الاشعري عن ولاية البصرة ، واختار لها ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز (٢) فولاها اياه وهو ابن أربع اوخمس وعشرين سنة (٣) وبلغ ذلك ابا موسى فقال للناس : « يأتيكم غلام خراج ولاج ، كريم الجدات والخالات والعمات يجمع له الجندان . (٤)

والمهم أنه ولاه هذا المصر العظيم وهو شاب حدث السن ، وكان الاولى ان يختار له من خيار الصحابة وثقاتهم ليستفيد الناس من هديه وصلاحه ، ولكنه عمد الى اختيار هذا الفتى لأنه ابن خاله ، وقد سار في اثناء ولايته سيرة ترف وبذخ ، فكان ـ كما قال الاشعري ـ ولاجاً خراجا فهو أول من لبس الخز في البصرة ، وقد لبس جبة دكناء فقال الناس : لبس الامير جلد دب ، فغير لباسه ولبس جبة حمراء (٥) وقد انكر عليه

(١) الانساب ٣٩/٥ ـ ٤٣ ، تأريخ الطبري ٨٨/٥ ، تأريخ ابي الفداء ١٦٨/١

(٢) تهذيب التهذيب ٢٨٢/٥ ، وجاء فيه ان ام عثمان اروى بنت كريز

(٣) الاستيعاب المطبوع على هامش الاصابة ٢٥٣/٢

(٤) الكامل ٣٨/٣

(٥) اسد الغابة ١٩٢/٣

عامر بن عبد الله التميمي الزاهد العابد وعاب عليه سياسته كما عاب على عثمان فقد روى الطبري : انه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان ، وما صنع فاجتمع رأيهم أن يبعثوا اليه رجلا يكلمه ويخبره باحداثه فارسلوا اليه عامر بن عبد الله ، ولما التقى به قال له :

« إن ناسا من المسلمين اجتمعوا فنظروا في اعمالك فوجدوك قد ركبت اموراً عظاماً ، فاتق الله عز وجل وتب اليه ، وانزع عنها . »

فاحتقره عثمان وقد لسعه قوله فقال لمن حوله :

« انظروا الى هذا فان الناس يزعمون انه قاريء ثم هو يجيء فيكلمني في المحقرات ، فو الله مايدري أين الله ؟ . »

فقال له عامر : أنا لا أدري اين الله ؟

ـ نعم

ـ اني لأدرى أن الله بالمرصاد

وارسل عثمان الى مستشاريه وعماله فعرض عليهم الامر فأشار عليه عبد الله بن عامر فقال له :

« رأيي لك ، يا أمير المؤمنين ان تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وان تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون همة احدهم إلا نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته .. »

واشار عليه آخرون بغير ذلك إلا انه استجاب الى رأي عبد الله فرد عماله ، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث ، كما عزم على تحريم اعطياتهم ليطيعوه ، ويحتاجوا اليه . (١)

ولما وصل عبد الله بن عامر الى البصرة عمد الى التنكيل بعامر بن

---

(١) تاريخ الطبري ٥|٩٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢|٣٩

عبد الله ، فقد اوعز الى عملائه واذنابه أن يشهدوا عنده بأن عامراً قد خالف المسلمين في امور أحلها الله فهو لا يأكل اللحم ، ولا يرى الزواج ولا يشهد الجمعة (١) ورفع تقريراً الى عثمان فامره بنفيه الى الشام على قتب فحمل اليها ، وانزله معاوية (الخضراء) وبعث اليه بجارية ، وأمرها ان تتعرف على حاله وتكون عيناً عليه ، فرأت أنه يقوم في الليل متعبداً ويخرج من السحر فلا يعود إلا بعد العتمة ولا يتناول من طعام معاوية شيئاً ، وكان يجيء بكسر من الخبز ويجعلها في ماء ، ويشرب من ذلك الماء ، فأخبرته الجارية بشأنه ، فكتب معاوية الى عثمان بأمره ، فأوعز اليه بصلته (٢)

وقد نقم المسلمون من عثمان لأنه نفى رجلا من صلحاء المسلمين (٣) وأبعده عن اهله ووطنه لأنه نقد عماله وعاب ولاته ، وليس لولي الامر الصلاحية في هذا النفي فانه إنما شرع لمن حارب الله ورسوله وسعى في الارض فساداً .

وعلى اي حال فان عبد الله بن عامر ظل والياً على البصرة الى أن قتل عثمان فلما سمع بمقتله نهب ما في بيت المال ، وسار الى مكة فوافى بها طلحة والزبير وعائشة فانضم اليهم ، وأمد المتمردين بالاموال ، وكان من عزمهم ان يتوجهوا الى الشام إلا انه صرفهم عنه ، وأشار عليهم بالمسير الى البصرة (٤)

---

(١) الفتنة الكبرى ١|١١٦

(٢) الاصابة ٣|٨٥

(٣) العقد الفريد ٢|٢٦١

(٤) اسد الغابة ٣|١٩٢

٤ ـ معاوية بن أبي سفيان

ومعاوية بن أبي سفيان اكثر ولاة عثمان حظا ، وأعظمهم نفوذاً ، واسبقهم امرة كما ان شعبه من اكثر الشعوب طاعة واخلاصاً له قد أحبه وأحبهم ، وقد منحه عمر بالامارة ، وحباه بالولاية ، وأيده بجميع ألوان التأييد فرفع شأنه ، وأعلا قدره فكان في كل سنة يحاسب عماله ، ويشاطرهم أموالهم وان اكتسبوها بالتجارة او ربحوها بسائر الوجوه المشروعة ، سوى معاوية فانه لم يحاسبه ، ولم يشاطره ، ولم يتفقد اموره وانما كان يضفي عليه المديح والثناء ، ويبالغ في تسديده والاعتذار عنه ، فكانوا يقولون له : إنه يلبس الديباج والحرير وهو لباس محرم في الاسلام ، وانه يسرف ويبذخ وهو مجاف للنظم الادارية التي جاء بها الاسلام فانها تلزم الولاة بالاقتصاد وعدم البسط في العيش من أموال المسلمين .

كانوا يقولون لعمر ذلك : فيعتذر عنه ، ويقول : ذاك كسرى العرب ، ولو فرضنا انه كان كـذلك فهل يباح له أن يلبس المحرم ، ويسرف في أموال المسلمين ؟ ولم يكتف بهذا المد والتأييد ، فقد نفخ فيه روح الطموح ، وفتح له باب الامل بالخلافة ، فقد قال لأعضـاء الشورى : « ان تحاسدتم وتقاعدتم ، وتدابرتم ، وتباغضتم ـ غلبكم على هذا معاوية بن ابي سفيان ، وكان إذ ذاك أميراً على الشام (١) وقد دفعه ذلك الى الاتجاه للخلافة ، واتخاذ جميع الوسائل للظفر بالحكم ، واعلانه للتمرد على حكومة الامام أمير المؤمنين ، ومناجزته له ، كما سنذكر ذلك بالتفصيل في غضون هذا الكتاب .

وعلى اي حال فقد ظل معاوية والياً على الشام والاردن طيلة خلافة

---

(١) نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١|١٨٧

عمر يتصرف حيثما شاء ، قد استأثر بالاموال فشرى بهـا الضمائر ، واحاط نفسه بالاتباع لا رقيب عليه ، ولم توجه له اي مسؤلية ، وانما يرى التسديد ، والمديح والرضا بما يعمل ، وبعد وفاة عمر أقره عثمان على عمله ، وزاد في سلطانه فضم اليه فلسطين بعد موت عاملها عبد الرحمن ابن علقمة الكناني ، كما ضم اليه حمص بعد ان استعفاه عاملها عميربن سعد الانصاري ، وبذلك خلصت له ارض الشام كلها ، واصبح من اعظم الولاة قوة ، ومن اكثرهم نفوذاً ، واصبح قطره من اهم الاقطار الاسلامية وامنعها واكثرها هدوءاً واستقرارا .

ومما لاشبهة فيه ان عثمان قد زاد في نفوذه ، ووسع رقعة سلطانه ، ومهد له نقل الخلافة الاسلامية الى آل ابي سفيان ، وقد صرح بذلك الدكتور طه حسين قال مانصه :

« وليس من شك في ان عثمان هو الذي مهد لمعاوية ما اتيح له من نقل الخلافة ذات يوم الى آل أبي سفيان وتثبيتها في بنى امية . فعثمان هو الذي وسع على معاوية في الولاية فضم اليه فلسطين وحمص ، وأنشأ له وحدة شامية بعيدة الأرجاء ، وجمع له قيادة الاجناد الاربعة ، فكانت جيوشه أقوى جيوش المسلمين . ثم مد له في الولاية أثناء خلافته كلها كما فعل عمر ، واطلق يده في امور الشام اكثر مما اطلقها عمر . فلما كانت الفتنة نظر معاوية فاذا هو أبعد الامراء بالولاية عهدا وأقواهم جنداً وأملكهم لقلب رعيته . » (١)

إن عثمان قد عبد له الطريق ، وأتاح له الفرصة لمنازعة أمير المؤمنين ومحاربته ، وارتكابه لفظائع المنكرات والموبقات ، وقتله صلحاء المسلمين

(١) الفتنة الكبرى ١|١٢٠

وثقاتهم كحجر بن عدي واخوانه المؤمنين ، وغير ذلك من المآثم والجرائم

٥ - عبد الله بن سعد

وحبا عثمان اخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح بولاية مصر ، ومنحه إمارة هذا القطر العظيم فجعل بيده امر صلاته وخراجه (١) وقبل ذلك منحه الاموال الطائلة ، ووهبه خمس غنائم إفريقية ، ولم يكن خليقاً بذلك كله لأن له تأريخاً أسوداً حافلا بالآثام والموبقات فقد ارتد مشركاً بعد اسلامه ، وصار الى قريش بمكة يسخر بالنبي ويقول لهم : اني اصرفه حيث اريد ، واهدر النبي دمه يوم الفتح ، وان وجد متعلقاً باستار الكعبة ، ففر الى عثمان ، واستجار به فغيبه ، وبعد ما اطمأن أهل مكة أتى به الى النبي صلى الله عليه وآله فصمت طويلا ثم آمنه وعفا عنه فلما انصرف عثمان قال النبي صلى الله عليه وآله : ماصمت الا ليقوم اليه بعضكم فيضرب عنقه ، فقال له رجل من الانصار : هلا اومأت الي يارسول الله ؟ فقال : إن النبي لاينبغي ان تكون له خائنة الاعين (٢)

ونزل القران الكريم بكفره وذمه قال تعالى : « ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا او قال أوحي الي ولم يوح اليه شيء ومن قال سانزل مثل ما انزل الله (٣) واجمع المفسرون أنه هو المعنى بهذه الآية ، وسبب ذلك انه لما نزلت الآية « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » دعاه النبي فأملاها عليه فلما انتهى الى قوله : « ثم انشأناه خلقاً آخر » عجب عبد الله في تفصيل خلق الانسان فقال : تبارك الله أحسن الخالقين ، فقال

---

(١) الولاة والقضاة : ص ١١

(٢) تفسير القرطبي ٧|٤٠ ، تفسير الشوكاني ٢|١٣٤ ، سنن ابي داود ٢|٢٢٠

(٣) سورة الانعام : آية ٩٣

النبي : هكذا انزلت علي فشك عبد الله ، وقال : لئن كان محمد صادقاً لقد اوحي الي كما اوحي اليه ، وإن كان كاذباً لقد قلت كما قال : فارتد عن الاسلام ولحق بالمشركين (١)

أمثل هذا المرتد الذي سخر بالنبي ورجع عن حظيرة الاسلام يكون والياً على المسلمين وتسلم له قيادتهم ، ويكون مؤتمناً على أموالهم ، ودمائهم إن ذلك والله هو الرزء القاصم الذى يذيب لفائف القلوب ، وتذوب النفوس من هوله اسى وحسرات ، أتعطى امارة المسلمين ، وتمنح اقطارهم وامصارهم الى اعداء الاسلام وخصومه الذين لم يألوا جهدا في البغي على الاسلام والكيد اه فانا لله وإنا اليه راجعون .

وعلى اي حال فقد مكث الرجل والياً على مصر سنين ، وكلف المصريين فوق مايطيقون ، وساسهم سياسة عنف وجور ، واظهر الكبرياء والغطرسة ، فضجر الناس منه ، وسئموا حكمه فخف أخيارهم يشكونه الى عثمان فبعث اليه رسالة يتهدده فيها ، ويتوعده بالعزل ان لم يثوب الى الرشاد ولكنه ابى أن ينزع عما نهاه ، ونكل بمن شكاه الى عثمان حتى قتله فخرج سبع مائة رجل من مصر الى يثرب فنزلوا الجامع ، وشكوا الى اصحاب النبي ماصنع بهم ابن ابي سرح ، فانبرى طلحة الى عثمان فكلمه بكلام شديد ، وأرسلت اليه عائشة ان ينصف القوم من عاملهم ، ودخل عليه أمير المؤمنين فقال له :

« إنما يسألك القوم رجلا مكان رجل ، وقد ادعوا قبله دماً فأعزله عنهم ، واقض بينهم ، فان وجب عليه حق فانصفهم منه » .

فاستجاب لذلك ، وقال لهم : اختاروا رجلا اوليه عليكم مكانه ،

---

(١) تفسير الرازي ٤\|٩٦ تفسير الخازن ٢\|٣٧ الكشاف ١\|٤٦١

فاشار الناس عليه بمحمد بن ابي بكر فكتب عهده الى مصر ، ووجه معه عدة من المهاجرين والانصار ينظرون فيما بينهم وبين ابن ابي سرح (١) ونزحوا عن يثرب فلما بلغوا الى المحل المعروف (بحمس) وإذا بقادم من المدينـــة تأملوه فاذا هو ورش غلام عثمان فتفحصوا عن حالـــه واذا يحمل رسالة الى ابن ابي سرح يأمره التنكيل بالقوم ، تأملوا الكتاب فاذا هو بخط مروان ، فرجعوا الى يثرب ، وصمموا على خلع عثمان او قتله .

إن عثمان قد سعى لحتفه بظلفه ، وجر البلاء لنفسه ، وعرض الامة للخطوب والويلات في سبيل اسرته ، وتدعيم كيانها ، ولو أنه استجاب لرأي الامام ، والناصحين له فاقصى بني امية عن مراكز الحكم لكان بمنجاة عن تلك الثورة التي اودت بحياته ، وفتحت باب الفتن بين المسلمين ، وفرقت كلمتهم ، وجعلتهم احزاباً « كل حزب بما لديهم فرحون » وبهذا ينتهي بنا الحديث عن بعض عماله وولاته الذين ما استعملهم الا اثرة ومحاباة .

تنكيله بالصحابة :

ونكل عثمان بخيار المسلمين وثقاتهم من الذين أبلوا في الاسلام بلاءاً حسناً . وساهموا في بنائه ، لأنهم عابوا عليه سياسته ، وطلبوا منه أن يسير على المحجة البيضاء ، ويهتدي بسنة الرسول ، ويقتفي اثره ، فلم يستجب لارشادهم ولم يثب لنصحهم ، فشددوا عليه في المعارضة والنكير فصب عليهم جام غضبه ، وبالغ في اضطهادهم وارهاقهم ، وهم كما يلي :

١ ـ عبد الله بن مسعود

وعبد الله بن مسعود اشبـــه الناس هدياً وسمتاً برسول الله صلى الله

---

(١) الانساب ٥|٢٦

عليه وآله (١) ويقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله : « من سره ان يقرأ القرآن غضا او رطبا كما انزل فليقرأه على قراءة ابن ام عبد » (٢) واثنى عليه قوم عند أمير المؤمنين فقال عليه السلام : أقول فيـه مثل ماقالوا : وهو أفضل من قرأ القران ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه في الدين ، عالم بالسنة (٣) وهو ممن نزلت فيهم الآية الكريمة (٤) « الذين استجابوا لله والرسول من بعـد ما اصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا اجر عظيم » (٥) وهو ايضاً ممن نزلت فيهم الآية (٦) قال تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين » (٧)

ان عبد الله بن مسعود من أقطاب المسلمين في هديه ، وصلاحه ، وورعه ، وتحرجه في الدين ، سيره عمر في عهده الى الكوفة مع عمار بن ياسر ، وكتب لأهل الكوفة كتاباً جاء فيه :

« إني قد بعثت عمار بن ياسر اميراً وعبد الله بن مسعود معلما ووزيراً وهما من النجباء من اصحاب رسول الله من اهل بدر فاقتدوا بهما ، واطيعوا

---

(١) مسند احمد ٥|٣٨٩ ، حلية الاولياء ١|١٢٦ كنز العمال ٧|٥٥

(٢) صفة الصفوة ١|١٥٦ سنن ابن ماجة ١|٦٣

(٣) مستدرك الحاكم ٣|٣١٥

(٤) طبقات ابن سعد ٣ | ١٠٨

(٥) سورة آل عمران آية ١٧٢

(٦) تفسير الطبري ٧|١٢٨ الدر المنثور ٣ | ١٣

(٧) سورة الانعام آيه ٥٢

واسمعوا قولها وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي (١)

وبقى ابن مسعود فى الكوفة طيلة خلافة عمر وهو يفقه المسلمين فى دينهم ، ويعلمهم كتاب الله ، ويغذيهم بمعارف الاسلام وهديه ويرشدهم الى سواء السبيل ، وكان في نفس الوقت خازناً لبيت المال ، ولما آل الامر الى عثمان وبعث الوليد والياً على الكوفة جرت بينه وبين الوليد مشادة - ذكرناها عند البحث عن امارة الوليد على الكوفة - أوجبت أن يستقيل من منصبه وبقى فى الكوفة وقتاً ثم غادرها فشيعه الكوفيون وحزنوا على فراقه ، وقالوا له عند وداعه :

« جزيت خيرا فلقد علمت جاهلنا ، وثبت عالمنا ، وأقرأتنا القرآن وفقهتنا في الدين ، فنعم أخو الاسلام أنت ، ونعم الخليل »

ثم ودعوه وانصرفوا وواصل ابن مسعود المسير حتى انتهى الى يثرب وكان عثمان على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله يخطب فلما رآه قال للمسلمين وأشار الى ابن مسعود « ألا انه قدمت عليكم دويبة سوء ، من يمشي على طعامه يقيء ويسلح .. »

أيشتم صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا الكلام المر ، ويقابل بمثل هذه الجفوة من أجل الوليد الذي خان الله ورسوله ونهب أموال المسلمين ؟ ! ورد عليه ابن مسعود قائلا :

« لست كذلك ، ولكني صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، ويوم بيعة الرضوان . »

وقد اثار كلام عثمان حفائظ النفوس فاندفعت عائشة تعلن انكارها وسخطها عليه قائلة :

---

(١) اسد الغابة ٣ | ٢٥٨

« أي عثمان . اتقول هذا لصاحب رسول الله ؟ ! »

وأمر عثمان جلاوزته فاخرجوا الصحابي العظيم من المسجد اخراجاً عنيفاً ، وقام اليه عبد الله بن زمعة فضرب به الارض ، وقيل بل احتمله « يحموم » غلام عثمان ورجلاه تختلفان على عنقه حتى ضرب به الارض فدق ضلعه .

وثار أمير المؤمنين فانبرى الى عثمان فقال له :

ـ ياعثمان ، أتفعل هذا بصاحب رسول صلى الله عليه وآله بقول الوليد بن عقبة ؟؟

ـ ما بقول الوليد فعلت هذا ، ولكن وجهت زبيد بن الصلت الكندي الى الكوفة ، فقال له ابن مسعود : إن دم عثمان حلال

ـ احلت عن زبيد على غير ثقة !! (١)

وحمل امير المؤمنين ابن مسعود الى منزله فقام برعايته حتى أبل من مرضه ، فقاطعه عثمان ، وهجره ، ولم يأذن له في الخروج من يثرب ، كما قطع عطاءه ، ومرض ابن مسعود مرضه الذي توفى فيه فدخل عليه عثمان عائداً فقال له :

ـ ماتشتكي ؟

ـ ذنوبي

ـ فما تشتهي ؟؟

ـ رحمة ربي

ـ ألا ادعو لك طبيباً ؟

ـ الطبيب امرضني

---

(١) الانساب ٥ / ٣٦

- آمر لك بعطائك

- منعتنيه وأنا محتاج اليه : وتعطينه وأنا مستغن عنه

- يكون لولدك

- رزقهم على الله

- استغفر لي يا ابا عبد الرحمن ؟

- أسأل الله ان يأخذ لي منك بحق

وانصرف عثمان ولم يظفر برضائه ولما ثقل حاله اوصى ان لايصلي عليه عثمان ، وان يصلي عليه صاحبه عمار بن ياسر ، ولما انتقل الى دار الحق قامت الصفوة من اصحابه بأمره فدفنوه بالبقيع ، ولم يخبروا عثمان فلما علم غضب وقال : سبقتموني ، فرد عليه الطيب ابن الطيب عمار بن ياسر قائلا :

« انه اوصى ان لاتصلي عليه .. »

وقال ابن الزبير :

لأعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي (١)

لقد صب عثمان جام غضبه على ابن مسعود فاهانه وحقره وجفاه ، وقطع عطاءه ، واوعز الى شرطته بضربه ، وفرض عليه الاقامة الجبرية في يثرب ، ولم يرع شبهه بالنبي في هديه وسمته ، وماله من عظيم الجهاد وحسن البلاء في الاسلام ، لقد نقم منه عثمان لأنه انكر عليه منحه للوليد أموال المسلمين وهو خازن لها ، ولم يجد اي مبرر لهذا التلاعب في ميزانية الدولة ، فراح بوحي من دينه وعقيدته ينكر عليه ويشجب تصرفاته

---

(١) الانساب تاريخ ابن كثير ٧ | ١٦٣ ، مستدرك الحاكم ٣ | ١٣ وغيرها

٢ ـ أبو ذر

وأبو ذر أعظم شخصية عرفها التأريخ الاسلامي فقد تجسدت فيه جميع طاقات الاسلام، وعناصره ومقوماته، ووعى حقيقة الاسلام، وتغذى بجوهره وواقعه، وهو اقدم من سبق الى اعتناقه والايمان به (١) وجهر بالشهادتين أمام قريش فانبرت اليه عتاتهم فأوجعوه ضرباً ، والهبوا جسمه بالسياط حتى كاد أن يتلف (٢) ولم يثنه ذلك فقد انطلق كالمارد الجبار يدعو قومه الى الاسلام ، وهجر الاوثان ، وكان من ابرز الصحابة في علمه وورعه وتقواه وزهده وتحرجه في الدين ، وقد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال فيه :

« ما أظلت الخضراء ، ولا أقلت الغبراء على ذي لهجة اصدق من أبي ذر ، من سره أن ينظر الى زهد عيسى بن مريم فلينظر الى ابي ذر .. » (٣)

لقد كان ازهد الناس في الدنيا ، وأقلهم احتفالا بمنافعها ، وأشدهم خوفاً من الله وانصرافاً عن اباطيل الحياة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأتمنه حين لايأتمن أحدا ، ويسر اليه حين لايسر الى احد (٤) وهو أحد الثلاثة الذى أحبهم الله ، وامر نبيه بحبهم (٥) كما انه احد

---

(١) طبقات ابن سعد ٤|١٦١ ، وجاء فيه عن ابي ذر قال : كنت في الاسلام خامساً .

(٢) مسند الامام احمد ٥|١٧٤ ، مجمع الزوائد ٩|٣٢٩

(٣) سنن ابن ماجة ١|٦٨

(٤) كنز العمال ٨|١٥

(٥) مجمع الزوائد ٩|٣٣٠

الثلاثة الذين تشتاق لهم الجنة (١) .

ولما حدثت الفتن ، واستأثر عثمان مع بني امية بأموال المسلمين فكنزوا لأنفسهم ، وا كثروا من شراء الضياع وبناء القصور وقف ابو ذر عملاق الامة الاسلامية فأخذ يندد ، ويهدد عثمان ، ويدعو المسلمين الى الثورة ، وقلب الحكم ، واعادة النظام الاسلامي الحافل بكل مقومات النهوض والارتقاء وتطبيق سياسته البناءة على واقع الحياة .

إن صيحة ابي ذر كانت صيحة رجل يقظ وعى الاسلام ، ووقف على اهدافه ، واحاط بواقعه فانه ليس من الاسلام فى شيء أن تستغل أموال المسلمين ، وتمنح للوجوه والاعيان ، فيمعنون في التلذذ والاسراف وقد اخذ الفقر بخناق المسلمين ، وعمت في بلادهم المجاعة والفاقة والبطالة فانكر ابو ذر ذلك ، واندفع بوحي من عقيدته الى تلك الصيحة التي دوخت عثمان وانكرها المستغلون من اتباعه . يقول الاستاذ السيد قطب : « إن صيحة ابي ذر كانت دفعة من دفعات الروح الاسلامي أنكرهـا الذين فسدت قلوبهم ولا يزال ينكرها امثالهم من مطايا الاستغلال فى هذه الايام ، لقد كانت هذه الصيحة يقظة ضمير لم تخدره الاطماع امام تضخم فاحش فى الثروات يفرق الجماعة الاسلامية طبقات ، ويحطم الاسس التي جاء هذا الدين ليقيمها .. » (١)

وانطلق ابو ذر يوالي انكاره ، ومعارضته للحكم القائم لايعبأ به ، ولا يبالي بشدة ارهابه وقسوته فكان يقف على اولئك الذين منحهم عثمان بهباته فيتلو قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها

(١) مجمع الزوائد ٩ | ٣٣٠

(٢) العدالة الاجتماعية : ص ٢١١

في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ورفع ذلك مروان بن الحكم الى عثمان فارسل اليه ينهاه عن ذلك فقال ابو ذر :

« اينهاني عثمان عن قراءة كتاب الله ... فو الله لأن ارضي الله بسخط عثمان أحب الي وخير لي من أن اسخط الله برضاه .. »

فالتاع عثمان من ذلك ، ولكنه كظم غيظه ، وقد أعياه امر ابي ذر وضاق به ذرعاً .

نفيه الى الشام

واستمر صاحب رسول الله في اداء رسالته الاصلاحية لم يصانع ولم يحاب ، وانما يبغي الحق ويلتمس وجه الله ورضاه ، وقد وجد عليه عثمان وامر بنفيه الى الشام ، ويقول الرواة : إن السبب في ذلك هو ان عثمان سأل حضار مجلسه فقال لهم :

« أيجوز ان يأخذ من المال فاذا ايسر قضى ؟ »

فانبرى كعب الاحبار فأجاب عن سؤاله فقال :

« لا ارى بذلك بأساً .. »

ولما رأى أبو ذر كعب الاحبار يتدخل في امور الدين وهو يهودي النزعة ، ويشك في اسلامه غضب من ذلك ورد عليه قائلا :

« يابن اليهوديين . أتعلمنا ديننا ؟ »

فثار عثمان وقال له :

« ما اكثر أذاك ، وأولعك بأصحابي ؟ الحق بمكتبك في الشام . »

وذهب ابو ذر الى الشام ، فلما انتهى اليها ورأى منكرات معاوية وبدعه جعل ينكر على معاوية ويندد بالسياسة الاموية ، ويذيع مساويه

عثمان وبُعد سيرته عن سيرة الرسول وسنته ، وقد نقم من معاوية حينما قال : المال مال الله ، فقال له : المال مال المسلمين ، وانكر عليه بناء الخضراء التي انفق عليها الاموال الطائلة من بيت المال فكان يقول له :

« يامعاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة ، وان كانت من مالك فهذا الاسراف ؟ »

واخذ يوقظ النفوس ، ويبعث روح الثورة على معاوية فكان يقول لأهل الشام :

« والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها . والله ماهي فى كتاب الله ولا في سنة نبيه ، والله اني لأرى حقاً يطفأ ، وباطلا يحيي ، وصادقاً يكذب ، وإثرة بغير تقى ، وصالحا مستأثراً عليه .. » (١)

وكان الناس يسمعون قوله ، ويؤمنون بحديثه ، وخاف معاوية من دعوة أبي ذر فكتب الى عثمان يخبره بخطره على الشام ، فكتب عثمان اليه أن يرسله على اغلظ مركب وأوعره ، فارسله معاوية مع جماعة لايعرفون مكانته ، ولا يحترمون مقامه فساروا به ليلا ونهارا حتى تسلخت بواطن أفخاذه وكاد ان يتلف ، ولما بلغ المدينة مضى في دعوته فكان ينكر على عثمان أشد الانكار ويقول له :

« تستعمل الصبيان ، وتحمي الحمى (٢) وتقرب أولاد الطلقاء ؟ ! »

---

(١) الانساب ٥|٥٢

(٢) اشار بذلك الى مافعله عثمان فى منحه جميع المراعى التي حول المدينة لبني امية ترعي فيها اغنامهم ، وحمى مواشي المسلمين منها وهو مناف للسنة فانها جعلت المراعي التي لا مالك لها لجميع المسلمين لأنها من المباحات الاصلية ، وقد قال رسول الله (ص) : الناس شركاء في ثلاث فى الكلأ والماء والنار .

وانطلق يبين للمسلمين ماسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله في ذم الامويين ، ومدى خطرهم على الاسلام يقول : قال رسول الله :

« اذا كملت بنو أمية ثلاثين رجلا اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا ودين الله دغلا .. »

واصدر عثمان اوامره بمنع مجالسة أبي ذر ، كما حرم الكلام معـــه ، والاختلاط به .

نفيه الى الربذة

وثقل ابو ذر على عثمان ، وضاق به ذرعاً ، فقد ايقظ النفوس ، واوجد فيها وعياً أصيلا يبعثها على الثورة العارمة ، والاجهاز على النظام القائم الذي آثر الاغنياء بأموال الدولة ، وحجبها عن المصالح العامة ، الامر الذي أدى الى فقدان التوازن في الحياة الاقتصادية ، وشيوع الفقر والمجاعة في البلاد .

ورأى عثمان ان خير وسيلة له من الخطر الذي يتهدده ابعاد ابي ذر عن يثرب ونفيه عن سائر الامصار الاسلامية الى بعض المجاهل والقرى التي لاتزدحم بالسكان ، فأرسل خلفه فلما حضر بادره ابو ذر بالكلام فقال له :

« ويحك ياعثمان !! أما رأيت رسول الله ، ورأيت ابا بكر وعمر هل رأيت هذا هديهم ؟ إنك لتبطش بي بطش الجبارين . »

فقطع عثمان كلامه ، وصاح به

ـ اخرج عنا من بلادنا

ـ اتخرجني من حرم رسول الله ؟

ـ نعم وانفك راغم

- اخرج الى مكة ؟
- لا
- الى البصرة ؟
- لا
- الى الكوفة
- لا
- الى اين اخرج ؟
- الى الربذة حتى تموت فيها

وأوعز الى مروان باخراجه فوراً من المدينة ، وهو مهان الجانب محقر الكيان ، وحرم على المسلمين ان يشايعوه ويخرجوا لتوديعه ، ولكن أهل الحق ، ومن طبعوا على نصرته ابوا إلا مخالفة عثمان فقد خف الامام أمير المؤمنين لتوديعه ، ومعه عقيل وعبدالله بن جعفر ، والحسن والحسين وبادر مروان الى الحسن فقال له :

« إيه ياحسن !! ألا تعلم ان عثمان قد نهى عن كلام هذا الرجل ؟ فان كنت لاتعلم فاعلم ذلك .. »

فحمل امير المؤمنين عليه ، وضرب أذني راحلته بالسوط ، وصاح به : تنح نحاك الله الى النار ، وولى مروان منهزماً الى عثمان يخبره بالحال .

ووقف الامام أمير المؤمنين على أبي ذر فودعه والقى اليه كلمات كانت له سلوى طيلة حياته في تلك البقعة الجرداء قال له :

« يا أبا ذر ، انك غضبت لله فارج من غضبت له ، إن القوم خافوك على دنياهم ، وخفتهم على دينك ، فاترك في أيديهم ما خافوك عليه ، واهرب بما خفتهم عليه ، فما احوجهم الى ما منعتهم وما اغناك عما

منعوك ، وستعلم من الرابح غداً ، والاكثر حسداً ؟ ولو ان السموات والارض كانتا على عبد رتقا ، ثم اتقى الله لجعل الله منهما مخرجاً ، لايؤنسنك إلا الحق ، ولا يوحشنك إلا الباطل فلو قبلت دنياهم لاحبوك ، ولو قرضت منها لآمنوك .. »

وحدد الامام ـ بهذه الكلمات الرائعة ـ الموقف الرهيب الذي وقفه أبو ذر من عثمان فانه لم يكن من اجل المادة ، ولا من اجل سائر الاعتبارات الاخرى التي يؤل امرها الى التراب ، وانما كان من أجل المبادىء الاصيلة والقيم العليا التي جاء بها الاسلام وهي تهيب بالحاكمين والمسؤلين أن لايستأثروا بأموال المسلمين ، وقد جافى عثمان ذلك ، وانتهج سياسة خاصة بنيت على الاستغلال والإثرة ، فلهذا ثار ابو ذر في وجهه وناجزه ، وقد خافه عثمان على ملكه وسلطانه ، وخافه أبو ذر على دينه وعقيدته ، وقد امره الامام ان يترك ما بأيديهم ، ويهرب بدينه ليكون بمنجاة من شرور القوم وآثامهم .

وبيّن عليه السلام ـ في كلماته ـ اتجاه ابي ذر وميوله ، فانه لايؤنسه إلا الحق ، ولا يوحشه إلا المنكر والباطل ولو انه غيّر اتجاهه فسالم القوم ووادعهم لأحبوه واخلصوا له ، وأجزلوا له العطاء ، ومنحوه الثراء .

وبادر اليه الامام الحسن فصافحه وودعه ، وألقى عليه كلمات تنم عن قلب موجع لهذا الفراق قائلا :

« ياعماه . لولا انه ينبغي للمودع أن يسكت ، وللمشيع ان ينصرف لقصر الكلام وإن طال الاسف ، وقد اتى القوم اليك ماترى ، فضع عنك الدنيا بتذكر فراغها ، وشدة ما اشتد منها برجاء ما بعدها ، واصبر حتى تلقى نبيك ، وهو عنك راض .. »

لقد امره الامام الحسن عليه السلام بالصبر على ما انتابه من الكوارث والخطوب التي صبها عليه القوم ليلقى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو عنه راض .

والقى ابو ذر على أهل البيت نظرة مقرونة بالتفجع والاسى والحسرات وتكلم بكلمات يلمس فيها ذوب قلبه على هذا الفراق المرير قال :

« رحمكم الله يا أهل بيت الرحمة ، اذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وآله مالي بالمدينة سكن ولا شجن (١) غيركم إني ثقلت على عثمان بالحجاز كما ثقلت على معاوية بالشام ، وكره أن اجاور أخاه وابن خاله بالمصرين (٢) فأفسد الناس عليهما فسيرني الى بلد ليس لي به ناصر ولا دافع إلا الله ، والله ما أريد إلا الله صاحباً ، وما اخشى مع الله وحشة .. »

وانصرف ابو ذر طريداً في فلوات الارض شريداً عن حرم الله وحرم رسوله قد باعدته السياسة العمياء ، وفرقت بينه وبين اهل البيت الذين يكن لهم أعمق الود وخالص الحب من أجل حبيبه وصاحبه رسول الله صلى الله عليه وآله .

لقد مضى أبو ذر الى الربذة ليموت فيها جوعاً ، وفي يد عثمان ذهب الارض يصرفه على بني أمية ، وعلى آل ابي معيط ، ويحرمه على شبيه المسيح عيسى بن مريم في هديه وسمته .

ورجع الامام امير المؤمنين مع اولاده من توديع ابي ذر ، وقد علاه الاسى والحزن فاستقبلته جماعة من الناس فاخبروه بغضب عثمان واستيائه منه

---

(١) السكن : الاهل والشجن : من يهواه ويحبه

(٢) المصرين : البصرة ، ومصر وكان والي البصرة عبد الله بن عامر ابن خال عثمان ، ووالي مصر عبد الله بن سعد بن ابي سرح وهو اخو عثمان .

لأنه خالف أمره وخرج لتوديع خصمه فقال عليه السلام :

« غضب الخيل على اللجم . » (١)

وبادر عثمان الى الامام فقال له :

ـ ماحملك على رد رسولي ؟

ـ امـــا مروان فانه استقبلني يردني فرددته عن ردي ، وأما امرك فلم ارده

ـ اولم يبلغك أني قد نهيت الناس عن تشييع ابي ذر ؟

ـ أو كل ما أمرتنا به من شيء يرى طاعة الله والحق في خلافه أتبعنا فيه أمرك ؟ !!

ـ أقد مروان

ـ وما أقيده ؟

ـ ضربت بين اذني راحلته

ـ أما راحلتي فهي تلك ، فأن اراد ان يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فو الله لئن شتمني لأشتمنك أنت بمثلها بما لا اكذب فيه ولا أقول إلا حقاً .

ـ ولم لايشتمك إذ شتمته ، فو الله ما أنت عندي بأفضل منه .

وغضب الامام من عثمان لأنه ساوى بينه وهو من النبي بمنزلة هارون من موسى ، وبين الوزغ ابن الوزغ مروان بن الحكم الذي لعنه رسول الله وهو في صلب أبيه ، فقال عليه السلام له :

ـ إلي تقول هذا القول ؟ وبمروان تعدلني ؟ !! فانا والله افضل منك وأبي افضل من أبيك ، وأمي أفضل من أمك ؛ وهذه نبلي قد نثلتها .. »

(١) يضرب مثلا لمن يغضب غضباً لا ينتفع به

فسكت عثمان ، وانصرف الامام وهو ملتاع حزين منه لأنه لم يرع مقامه ، ولم يلحظ جانبه وقرن بينه وبين مروان .

٣ - عمار بن ياسر

وعمار بن ياسر فذ من أفذاذ الاسلام ، وعلم من أعلامه ، وقطب من أقطابه ، وصاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وخليله لقي في سبيل الاسلام أعظم الجهد ، وأمر البلاء ، وعذب مع أبويه اعنف التعذيب وأقساه ، فقد استضعفتهم جبابرة قريش فصبت عليهم وابلا من العذاب الأليم فألهبت ابدانهم بمكاوى النار ، وضربتهم ضرباً موجعاً ، ووضعت على صدورهم الاحجار الثقيلة ، وصبت عليهم قربا من الماء ، وكان النبي صلى الله عليه وآله يجتاز عليهم فيرى ماهم فيه من المحنة والعذاب فتذوب نفسه اسى وحزنا ، ويقول :

« اصبروا آل ياسر : موعدكم الجنة .. » (١)

ويقول وقد اضناه الحزن : « اللهم اغفر لآل ياسر وقد فعلت .. » (٢)

وبقيت هذه الاسرة التي وهبت حياتها لله تحت التعذيب والارهاق لم تحتفل بما تعانيه من ألم التعذيب وشدته وأصرت على ايمانها بدعوة محمد صلى الله عليه وآله وهي تسخر بأوثان قريش واصنامها فورم من ذلك أنف أبي جهل ، وانتفخ سحره ، وجعلت عيناه تقدحان شرراً وغيظاً فعمد الى سمية فطعنها في قلبها فماتت وهي اول شهيدة في الاسلام ، وعمد الاثيم بعد ذلك الى ياسر فقتله .

وظل عمار تحت التعذيب حتى اعياه ، وأرهقه فعرضت عليه قريش

---

(١) كنز العمال ٦|٨٥ ، مجمع الزوائد ٩|٢٩٣

(٢) مسند احمد ١|٦٢

سب النبي والعدول عن دينه فاجابهم على كره فعفوا عنه، فانطلق الى رسول الله صلى الله عليه وآله يبكي فجعل رسول الله يمسح عينيه، وقال: إن عادوا لك فعد لهم بما قلت، وانزل الله تعالى فيه:

«من كفر بالله من بعد ايمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان.» (١)

وملئت نفس عمار بالايمان بالله فكان الدين قطعة من طبعه، وعنصرا مقوماً لمزاجه، وانزل الله فيه غير آية من القرآن كلها ثناء عليه وتمجيد له، واشادة به، وقد عناه تعالى بقوله: «أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائما يحذر الآخرة» (٢) ونزلت فيه الآية الكريمة: «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس» (٣) كما نزلت فى الثناء عليه وفى ذم الوليد الآية المباركة وهي قوله تعالى: «أفمن وعدناه وعــدآ حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيـــا ثم هو يوم القيامة من المحضرين.» (٤)

واهتم النبي صلى الله عليه وآله في شأن عمار اهتماماً بالغاً فكان يرفع من شأنه، ويشيد بذكره، ويقدمه على غيره فقد رأى خالداً يغلظ له

(١) سورة النحل: آية ١٠٦ ذكر نزولها في عمار ابن سعد في طبقاته ٣|١٧٨ الواحدي في اسباب النزول صفحة ٢١٢ الطبري في تفسيره ١٤|١٢٢ وغيرهم

(٢) سورة الزمر: آية ٩ ذكر نزولها في عمار القرطبي في تفسيره ١|٢٣٩ وابن سعد في طبقاته ٣|١٧٨

(٣) سورة الانعام: آية ١٢٢ نص على نزولها في عمار السيوطي في تفسيره ٣|٤٣، وابن كثير في تفسيره ٢|١٧٢

(٤) سورة القصص: آية ٦١ نص على نزولها في عمار والوليد الزمخشري في تفسيره ٢|٣٨٦، الواحدي في اسباب النزول صفحة ٢٥٥

في القول فالتاع من ذلك وانبرى يقول : « من عادى عماراً عاداه الله ، ومن أبغض عماراً ابغضه الله . » (١) وجرت بينه وبين شخص مشادة فقال لعمار : سأعرض هذه العصا لأنفك ، فلما سمع ذلك رسول الله (ص) غضب واندفع يقول : « مالهم ولعمار يدعوهم الى الجنة ، ويدعونه الى النار ، إن عماراً جلدة مابين عيني وأنفي فاذا بلغ ذلك من الرجل فاجتنبوه » (٢) ويقول فيه : « ماخير عمار بين امرين الا اختار ارشدهما »(٣)

وظل عمار موضع عناية النبي وتبجيله وتقديره لما يرى فيه من الاخلاص والزهد في الدنيا ، والحب للحق وقد شهد مع النبي بدراً وأحداً والمشاهد كلها ، وشارك في بناء المسجد النبوي فكان المسلمون يحمل كل واحد منهم لبنة لبنة ، وهو يحمل لبنتين لبنتين ، وهو يقول : « نحن المسلمين نبتني المساجد » وكان النبي يرجع عليه بعض قوله فيقول « المساجد » وشارك كذلك في حفر الخندق وكان يمسح التراب عنه ، وهكذا كان عمار في طليعة أصحاب النبي صلى الله عليه وآله في ايمانه واخلاصه وعظيم بلائه وعنائه في سبيل الاسلام ، ولما انتقل النبي الى حضيرة القدس لازم أمير المؤمنين وكان متفانياً في حبه ، ولا يرى أحداً خليقاً بالخلافة غيره ومن أجل ذلك تخلف عن بيعة أبي بكر واحتج عليه ، وقد تقدم بيان ذلك

ولما آل الامر الى عثمان ، وسلك غير الجادة نقم منه عمار واشتد في معارضته والانكار عليه ، وقد نكل به عثمان ، واعتدى عليه ، وقابله بافحش القول وأمره ، وكان ذلك في مواضع عدة وهي :

---

(١) مسند احمد ٤|٨٩

(٢) سيرة ابن هشام ٢|١١٤

(٣) سنن ابن ماجة ١|٦٦ مصابيح السنة ٢|٢٨٨

١ ـ انه لمـــا استأثر بالسفط ، وحلى به بعض نسائه انكر عليـــه أمير المؤمنين ، وايد عمار معارضته ، كما تقدم بيانه قال له عثمان : أعليّ يابن المتكاء (١) تجتريء ؟ واوعز الى شرطته بأخذه فأخذوه وأدخلوه عليه فضربه حتى غشي عليه ، وهو شيخ قد علاه الضعف وحمل الى منزل السيدة أم سلمة زوج النبي ، ولم يفق من شدة الضرب حتى فاتته صلاة الظهرين والمغرب ، فلما افاق توضأ وصلى العشاء ، وقال : الحمد لله ليس هذا اول يوم أوذينا فيه في الله ، وغضبت من اجل ذلك السيدة عائشة فاخرجت شعراً من شعر رسول الله وثوباً من ثيابه ، ونعلا من نعاله ، ثم قالت ما اسرع ماتركتم سنة نبيكم ، وهذا شعره وثوبه ونعله لم يبل بعد وغضب عثمان حتى لايدري مايقول ، ولا يعرف كيف يعتذر عن عمله؟ (٢)

٢ ـ ان أعلام الصحابة رفعوا مذكرة لعثمان ذكروا فيها احداثه ، ومخالفة سياسته للسنة ، وانهم يناجزونه إن لم يثب الى الرشاد ، ولم يغير خطته ، وقد دفع اليه المذكرة عمار ، فأخذها عثمان وقرأ صدراً منها فثار واندفع وهو مغيظ محنق فقال له :

ـ أعلي تقدم من بينهم ؟؟ !

ـ إني انصحهم لك

ـ كذبت يابن سمية

ـ أنا والله ابن سمية وابن ياسر

وأمر عثمان غلمانه فمدوا بيديه ورجليه ، ثم ضربه عثمان برجليه ، وهي

---

(١) المتكاء : العظيمة البطن ، والتي لاتمسك البول

(٢) الانساب ٥|٤٨

في الخفين على مذاكيره فاصابه الفتق ، وكان ضعيفاً فأغمي عليه (١)

٣ - ولما نفى عثمان أبا ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله الى الربذة ، وتوفى فيها غريباً ، وجاء نعيه الى يثرب قال عثمان أمام جماعة من الصحابة :

« رحمه الله »

فاندفع عمار قائلا :

« نعم رحمه الله من كل أنفسنا .. »

فانتفخت اوداج عثمان ، وقال لعمار بافحش القول ، وأقساه :

« يا عاض أير أبيه ، أتراني ندمت على تسييره ؟ »

وأمر غلمانه فدفعوا عماراً ، وأرهقوه ، كما أمر بنفيه الى الربذة ، فلما تهيأ للخروج أقبلت بنو مخزوم الى امير المؤمنين فسألوه ان يذاكر عثمان في شأنه ، فانطلق الامام اليه ، وقال له :

- اتق الله ، فانك سيرت رجلا صالحا من المسلمين فهلك في تسييرك ثم انت الآن تريد ان تنفي نظيره ؟ فثار عثمان وقال للامام :

- أنت احق بالنفي منه

- رم إن شئت ذلك

واجتمع المهاجرون فعذلوه ، ولاموه على ذلك فاستجاب لقولهم ، وعفا عن عمار (٢) .

لقد بالغ عثمان في اضطهاد عمار وارهاقه ، فضربه اعنف الضرب وأقساه ، واغلظ له فى القول ، ولم يرع بلاءه فى الاسلام ، ونصرته للنبي

(١) الانساب ٥|٤٩ ، العقد الفريد ٢|٢٧٢

(٢) الانساب ٥|٥٤ ، اليعقوبي ٢|١٥٠

في جميع المواقف والمشاهد ، واهتمام النبي بشأنه ، وتقديمه على غيره ، وانه جلدة مابين عينيه - على حد تعبيره - كل ذلك لم يلحظه فاعتدى عليه ، ونقم منه لأنه أمره بالعدل ، ودعاه الى الحق الواضح ، والى الاعتدال في سياسته .

الى هنا ينتهي بنا الحديث عن تنكيله باعلام الصحابة من الذين سبقوا الى الاسلام ، وجاهدوا اعظم الجهاد في سبيله ، وهم - من دون شك - لم يكونوا مدفوعين بدافع الرغبة في الحكم أو الامرة على بعض الامصار والاقاليم الاسلامية ، او الظفر بالمال ، كل ذلك لم يدفعهم الى الصيحة عليه ، وإنما رأوا أنه احدث من الاعمال ماليست في كتاب الله ، ولا في سنة نبيه ، رأوا حقاً يطفأ ، وباطلا يحيى ، وصادقاً يكذب ، وإثرة بغير تقى - كما يقول أبو ذر - من اجل ذلك اعلنوا نقمتهم وانكارهم عليه ، وطالبوه بأن يسلك الجادة الواضحة ، ويسير على الطريق القويم ، ويتبع هدي النبي ويقتفي اثره .

الافتراء على الامام الحسن

وافترى بعض المؤرخين على الامام الحسن فزعم أنه كان عثماني الهوى وانه يكن له في دخائل نفسه أعمق الحب ومزيد الولاء والاخلاص ، وقد حزن عليه بعد مقتله حزنا بالغاً ، وقد ذهب الى ذلك الدكتور طه حسين قال مانصه :

« ولم يفارق الحسن حزنه على عثمان ، فكان عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، إلا انه لم يسل سيفا للثأر بعثمان لأنه لم ير ذلك حقاً له ، وربما غلا في عثمانيته حتى قال لأبيه ذات يوم مالايحب

فقد روى الرواة أن عليا مر بأبنه الحسن وهو يتوضأ فقال له : اسبغ الوضوء فاجابه الحسن بهذه الكلمة المرة : « لقد قتلتم بالأمس رجلا كان يسبغ الوضوء » فلم يزد علي على ان قال : لقد اطال الله حزنك على عثمان . » (١)

إن السياسة التي انتهجها عثمان ، والاحداث الجسام التي صدرت منه لم تترك له أي حميم أو صديق في البلاد فقد سخط عليه عموم المسلمين ، وخافوه على دينهم ، فكانت عائشة تخرج ثوب رسول الله صلى الله عليه وآله ، وتقول للداخلين اليها : هذا ثوب رسول الله لم يبل ، وعثمان قد أبلى سنته ، ونقم عليه حتى طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وغيرهم ممن اغدق عليهم بالنعم والاموال ، ولم يعد له أي صديق أو مدافع عنه سوى بني أمية وآل ابي معيط ، وبعد هذه الكراهية الشاملة في نفوس المسلمين لعثمان كيف يكون الامام الحسن - الذي يحمل هدي جده الرسول - عثمانياً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة - كما يقول طه حسين - لقد كان الحسن من جملة الناقمين على عثمان والناكرين عليه لأنه رأى مالاقاه أصحاب أبيه كأبي ذر وعمار ، وابن مسعود من الاضطهاد والارهاق ، وشاهد مالاقاه أبوه بالذات من الاستهانة بحقه ، والاعتداء عليه حينما خرج لتوديع ابي ذر وبعد هذا كيف يكون الحسن عثمانياً ، او مغالياً في حبه له ؟ !!

وأي مظهر من مظاهر الكآبة والحزن بدت من الامام الحسن على عثمان بعد مقتله ، أفي قيامه بالدور البطولي في بعث الجماهير ، واخراجها الى ساحة الحرب في موقعة الجمل التي اثيرت للطلب بدم عثمان ، وقد كان معه في كثير من تلك المواقف عمار بن ياسر ، وكان ينال من عثمان

(١) الفتنة الكبرى ٢/١٩٣ - ١٩٤

ويتهمه في دينه ، ويقول فيه : قتلنا عثمان يوم قتلناه وهو كافر (١) وكان الحسن يسنده ، ويدعم أقواله ، أو أنه ظهر منه الاسى على عثمان في حرب صفين الذي ثار فيه معاوية للطلب بدم عثمان ، ففي أي موقف أظهر الامام حزنه وأساه على عثمان ؟؟

وأما الرواية التي استند اليها الدكتور طه حسين لتدعيم قوله ، فقد رواها البلاذري عن المدائني (٢) الذي عرف بالنصب والعداء لأهل البيت وافتعال الروايات الحسنة في بني امية (٣) والغرض من وضع هذه الرواية أن يضفي على عثمان ثوب القداسة ، ويجعل له رصيداً من الحب في نفوس صلحاء المسلمين ، ومضافاً لضعف سندها فيرد عليها بعض المؤاخذات وهي

١ ـ إن الامام امير المؤمنين قد تلطف في خطابه مع ولده الحسن ، وبين له الحكم الشرعي ، ولم يواجهه بلاذع القول فما الذي دعا الحسن ان يقابله بتلك الكلمات المرة ، وهو وارث النبي صلى الله عليه وآله وشبيهه في سمو أخلاقه وكريم طباعه

٢ ـ إن الامام الحسن كان من جملة المدافعين عن عثمان ـ كما يقولون ـ وكان ذلك بأمر من أبيه فكيف يتهمه بقتل عثمان ؟

٣ ـ إن الامام لم يكن له أي دخل في قتل عثمان ، ولا في التآمر عليه ، وإنما قتلته أعماله ، وأجهزت عليه الاحداث التي ارتكبها ، فكيف يتهم الحسن أباه بقتله ؟

وبعد الاحاطة بما ذكرنا لاتبقى للرواية اي قيمة في سندها ولا في

---

(١) التمهيد للباقلاني صفحة ٢٢٠

(٢) الانساب ٥|٨١

(٣) الطبري ٤|٢٤٠

دلالتها ، والغريب من الدكتور أن يعتمد عليها ، ولا يمعن النظر فيها وفي امثالها من الروايات التي تعمد وضعها ذوو النزعات الاموية وأجراء السلطة

الثورة

وأخذ المسلمون يتحدثون في أنديتهم عن مظالم عثمان ، وعن احداثه واستبداده بشؤونهم ، وتبديده لثرواتهم ، وتنكيله بأخيار الصحابة وأعلام الدين ، وتلاعب مروان وبني امية بشؤون الدولة ، وغير ذلك من الاحداث الجسام ، وقد انتشر التذمر ، وعم السخط والاستياء جميع انحاء البلاد ، فاجتمع أهل الحل والعقد ، وذوو السابقة في الاسلام فكاتبوا الامصار يستنجدون بهم ، ويطلبون منهم العون ، وارسال القوات المسلحة للقيام بقلب الحكم القائم وهذا نص مذكرتهم لأهل مصر :

« من المهاجرين الاولين وبقية الشورى ، الى من بمصر من الصحابة والتابعين ، أما بعد : ان تعالوا إلينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها ، فان كتاب الله قد بدل ، وسنة رسوله قد غيرت ، واحكام الخليفتين قد بدلت ، فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية اصحاب رسول الله والتابعين باحسان إلا أقبل الينا ، وأخذ الحق لنا ، وأعطاناه ، فأقبلوا الينا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وأقيموا الحق على المنهاج الواضح الذي فارقتم عليه نبيكم ، وفارقكم عليه الخلفاء ، غلبنا على حقنا ، واستولى على فيئنا ، وحيل بيننا وبين أمرنا ، وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة ، وهي اليوم ملك عضوض ، من غلب على شيء أكله .. » (١)

وحفلت هذه الرسالة بذكر الاحداث الخطيرة التي ابتلي بها العالم

---

(١) الامامة والسياسة ١/٣٥

الاسلامي من جراء الحكم القائم وهي :

١ ـ تبديل كتاب الله ، والغاء أحكامه العادلة

٢ ـ تغيير سنة النبي صلى الله عليه وآله واهمال ما اثر عنه في عالم الحكم والسياسة

٣ ـ الاعراض عن سيرة الشيخين

٤ ـ استئثار السلطة بالفيء وصرفه على مصالحها الخاصة

٥ ـ صرف الخلافة الاسلامية عن مفاهيمها البناءة ، وطاقاتها الثرة الى ملك عضوض لايعتني باهداف الامة ، ولا يرع مصالحها

وقد اوجبت هذه الاحداث زعزعة الكيان الاسلامي ، وتهديد الحياة الاسلامية بالدمار ، وقد واصل الناقمون على عثمان جهادهم فبعثوا برسالة أخرى الى المرابطين في الثغور من اصحاب النبي يطلبون منهم القدوم الى يثرب لإقامة الخلافة ، وهذا نص رسالتهم :

« انكم انما خرجتم ان تجاهدوا في سبيل الله عز وجل ، تطلبون دين محمد صلى الله عليه وآله فان دين محمد قد أفسده خليفتكم فاقيموه .. »

واستجابت الامصار الاسلامية لهذا النداء فارسلت وفودها الى يثرب للاطلاع على الاوضاع الراهنة ودراسة الموقف ، وما يحتاجه من علاج ، والوفود التي أقبلت هي :

أ ـ الوفد المصري

وأرسلت مصر وفداً عدده اربع مائة شخص ، وقيل اكثر من ذلك بقيادة محمد بن أبي بكر ، وعبد الرحمن بن عديس البلوي

ب ـ الوفد الكوفي

وأرسلت الكوفة وفدها بقيادة الزعيم مالك الاشتر ، وزيد بن صوحان

العبدي ، وزياد بن النضر الحارثي ، وعبد الله بن الاصم العامري ، وعلى الجميع عمرو بن الاهثم

ج ـ الوفد البصري

ونزح من البصرة حكيم بن جبلة في مائة رجل ، ولحقه بعد ذلك خمسون ، وفيهم ذريح بن عباد العبدي وبشر بن شريح القيسي ، وابن المحرش وغيرهم من الاعيان والوجوه

ورحبت الصحابة بالوفود ، واستقبلتها بمزيد من الابتهاج والشكر وأخذت تذكر لها احداث عثمان التي لاتتفق بظاهرها وواقعها مع الدين وحرضوها على الايقاع به والاجهاز عليه لتستريح الامة من حكمه .

ورأى الوفد المصري ـ قبل كل شيء ـ أن يرفع مذكرة الى عثمان يدعوه فيها الى التوبة والاستقامة في سياسته فكتبوا ذلك ، وهذا نصه :

« أما بعد فاعلم ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم فالله الله ثم الله الله ، فانك على دنيا فاستتم معها آخرة ، ولا تنسى نصيبك من الآخرة ، فلا تسوغ لك الدنيا ، واعلم انا لله ولله نغضب ، وفي الله نرضى وإنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مجلحة مبلجة (١) فهـذه مقالتنا لك وقضيتنا إليك والله عـذيرنا منك والسلام .. » (٢)

واضطرب عثمان من الامر ، وقرأ الرسالة بامعان ، وأحاط الثوار به فبادر اليه المغيرة وطلب منه الاذن بالكلام معهم ، فاذن له وانطلق

(١) مجلحة . من جلح على الشيء اقدم عليه اقداماً شديداً، مبلجة : واضحة بينـة

(٢) الانساب ٥|٦٤ ـ ٦٥ ، تاريخ الطبري ٥|١١١ـ١١٢

اليهم فلما رأوه صاحوا به

« يا أعور وراءك! يا فاجر وراءك! يافاسق وراءك! »

فرجع خائباً ودعا عثمان عمرو بن العاص، وطلب منه ان يكلم القوم فمضى اليهم وسلم فما ردوا عليه السلام، وقالوا له:

« ارجع ياعدو الله! ارجع يابن النابغة! فلست عندنا بأمين ولا مأمون »

وعلم عثمان ان لاملجأ له إلا الامام أمير المؤمنين فاستغاث به، وطلب منه ان يدعو القوم الى كتاب الله وسنة نبيه، فأجابه الامام الى ذلك ولكن شرط عليه ان يعطيه عهد الله وميثاقه على الوفاء بما قال فأعطاه ذلك ومضى الامام الى القوم فلما رأوه قالوا له:

- وراءك!

- لا. بل امامي، تعطون كتاب الله، وتعتبون من كل ماسخطتم

وعرض عليهم مابذله عثمان لهم

- أتضمن ذلك عنه؟

- نعم

- رضينا

وأقبل وجوههم وأشرافهم مع أمير المؤمنين حتى دخلوا على عثمان، فعاتبوه على اعماله فاعتبهم من كل شيء، وطلبوا منه أن يكتب لهم كتاباً يلتزم فيه على نفسه بالعمل على كتاب الله وسنة نبيه وتوفير الفيء للمسلمين فأجابهم الى ذلك، وكتب لهم مانصه:

« هذا كتاب من عبد الله عثمان أمير المؤمنين لمن نقم عليه من المؤمنين والمسلمين أن لكم أن اعمل فيكم بكتاب الله وسنة نبيه، يعطى المحروم ويؤمن الخائف، ويرد المنفي، ولاتجمر فى البعوث. ويوفر الفيء، وعلي

ابن أبي طالب ضمين للمؤمنين والمسلمين ، على عثمان الوفاء بما في هذا الكتاب »

وشهد فيه كل من الزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد ابن مالك أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وسهل بن حنيف ، وأبو ايوب خالد بن زيد ، وكتب ذلك في ذي القعدة سنة خمس وثلاثين من الهجرة ، وأخذ القوم الكتاب وانصرفوا (١) ، وطلب منه الامام أمير المؤمنين ان يخرج الى الناس ، ويعلن لهم أنه قد استجاب لهم ونفذ طلباتهم ، ففعل عثمان ذلك ، واعطى الناس عهداً ان يسير فيهم على كتاب الله وسنة نبيه ، وأن يوفر لهم الفيء ، ولا يؤثر به أحداً من أرحامه ، وذوي قرباه ، ورجع المصريون الى بلادهم ، ودخل مروان على عثمان فقال له :

« تكلم واعلم الناس ان اهل مصر قد رجعوا ، وان مابلغهم عن امامهم كان باطلا ، فان خطبتك تسير في البلاد قبل ان يتحلب الناس عليك من امصارهم فيأتيك من لاتستطيع دفعه .. »

لقد دعاه ان يعلن الكذب ، ويقول غير الحق فامتنع من اجابته - اولا - ولكنه انصاع أخيراً لقوله فخرج ، واعتلى أعواد المنبر وقال :

« أما بعد : إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلغهم عن امامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل مابلغهم رجعوا الى بلادهم ... »

واندفع المسلمون الى الانكار عليه فناداه عمرو بن العاص

« إتق الله ياعثمان فانك قد ركبت نهابير (٢) وركبناها معك فتب الى الله نتب معك .. »

---

(١) الانساب

(٢) النهابير : المهالك

فزجره عثمان وصاح به :

« وإنك هناك يابن النابغة ؟ قملت والله جبتك منذ تركتك من العمل ؟ .. »

وأرتفعت من جميع جنبات المسجد أصوات الانكار وهي ذات لهجة واحدة

« اتق الله ياعثمان اتق الله . »

فانهارت قواه ، ولم يجد بدأ من أن يعلن التوبة على هذا الافك ، ونزل عن المنبر ومضى الى منزله (١)

وهذه البادرة تدل على ضعفه ، وهزال ارادته ، وتلاعب مروان فى شؤونه ، وسيطرته على جميع اموره ، وأنه لاقدرة له على مخالفته ، والتغلب عليه .

استنجاده بالامصار

ولما ازداد نشاط الثوار ، وحاصروه فى داره استنجد بمعاوية ، واستغاث به ، وكتب اليه هذه الرسالة :

« أما بعد : فان اهل المدينة قد كفروا ، وخلعوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث إلي من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول .. »(٢)

وتربص معاوية حينما اطلع على الكتاب فلم يندفع الى نصرته واجابته وتنكر للأيادي التي اسداها عليه ، وعلى اسرته .

ولما ابطأ معاوية على عثمان ، ولم يقم بنجدته بعث عثمان رسالة الى يزيد بن اسد بن كرز والى أهل الشام يستفزهم ويحثهم على الخروج

(١) تاريخ الطبري ٥|١١٠ ، الانساب ٥|٧٤

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢|١٥٢ الكامل لابن الاثير ٥|٦٧

لنصرته ، ولما انتهى اليهم الكتاب نفروا للخروج تحت قيادة يزيد القسري ولكن معاوية أمره أن يقيم بذي خشب ، ولايتجاوزه ، فأقام الجيش هناك حتى قتل عثمان ، والسبب في ذلك هو أن يتخذ من قتلـه وسيلة للمطالبة بدمه لتؤل الخلافة الى بني امية ، إن معاوية ممن دبر الحيلة في قتله ، والى ذلك يشير أبو أيوب الانصاري بقوله لمعاوية : « إن الذي تربص بعثمان ، وثبط يزيد بن اسد عن نصرته لأنت . »

وعلى اي حال فان عثمان قد كتب رسائل متعددة الى الامصار ، والى من حضر الموسم في مكة يستنجد بهم ويطلب منهم القيام بنجدته .

يوم الدار

ورجع الوفد المصري من اثناء الطريق لما تبينت له المكيدة الخطيرة التي دبرت ضده ، فاحاطوا بقصر عثمان وهم يهتفون بسقوطه ، ويطالبونه بالاستقالة من منصبه ، وخرج اليهم مروان فشتمهم ونال منهم قائلا :

« ماشأنكم ؟ كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه . تريدون ان تنزعوا ملكنا من ايدينا اخرجوا عنا . »

فألهبت هذه الكلمات نار الثورة في نفوسهم فاحاطوا بعثمان ، وعزموا على قتله فاستنجد بالامام فاقبل اليه وقد نقلت له كلمات مروان فقال (ع):

« أما رضيت من مروان ، ولا رضي منك إلا بتحرفك عن دينك وعن عقلك ، مثل جمل الضعينة يقاد حيث يسار به ، والله مامروان بذي رأي في دينه ، ولا في نفسه ، وأيم الله لأراه سيوردك ثم لايصدرك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك ، اذهبت شرفك ، وغلبت على امرك .. »

إن الذي اجهز على عثمان وقتله هو مروان وبنو امية ، وقد صرحت

بذلك نائلة زوج عثمان فقالت للامويين :

« أنتم والله قاتلوه وميتمو أطفاله .. »

ونصحت زوجها بأن لايطيع مروان تقول له : « انك متى اطعت مروان قتلك .. »

إن عثمان يحمل قسطاً ليس بالقليل في الجناية على نفسه لأنه لما علم أنه ضعيف الارادة ، ولاقابلية له للتغلب على الاحداث وان بني أمية قد استولوا على اموره ، وهو يعلم من دون شك كراهية المسلمين لهم ، فكان اللازم عليه أن يترك الامر لغيره ويستقيل من منصبه ، ولا ينكب الامة بقتله . وأيقن الثوار أنه لامجال لإصلاحه لأنه إن ابرم أمراً نقضه مروان فاصروا عليه أن يخلع نفسه عن الخلافة فأبى وقال : « انما هي ثوب البسنيها الله . » وفي الحقيقة انها ثوب كساه بها عمر ، وألبسها اياه عبد الرحمن بن عوف .

وعلى أي حال فقد اندلعت نيران الثورة ، واشتد أوارها حتى بلغ السيل الزبى فقد صمم الثوار على قتله بعد إبائه عن الاستقالة من منصبه فمنع عنه طلحة الماء ، واستولى على بيوت الاموال ، واحاط الثوار بقصره وتسلق بعضهم عليه الدار فجعلوا يرمونه بالحجارة ، ويبالغون في سبه وشتمه وقذفه

موقف الامام الحسن

وزعم غير واحد من المؤرخين ان الامام الحسن وقف يوم الدار مدافعاً عن عثمان بايعاز من أبيه ، وقد أبلى في ذلك بلاءاً حسناً حتى خضب بدمائه ، وهذا القول - من دون شك - من موضوعات الامويين

ومن مفترياتهم فان الامام الحسن (ع) وسائر البقية الصالحة من المهاجرين والانصار كانوا في معزل عن عثمان بل ومن الناقمين عليه ، ولم يحضر من يدافع عنه في حصاره سوى بني أمية وبعض المنتفعين منهم ولو كان له أي رصيد في المجتمع لما تمكن الثائرون من قتله .

لقد اتفقت كلمة الصحابة على خذلانه ، ولم تظهر منهم بادرة من بوادر المساعدة والمؤازرة له بل كانوا يمجدون الثورة ، ويبعثون روح الحماس في نفوس الثوار ، وبعد هذا فكيف يمكن ان يخرق الامام الحسن الاجماع ويمضي للدفاع عنه

وعلى أي حال فقد تعرض المحقق الاميني الى تزييف تلك الاخبار ، وعدها في سلسلة الموضوعات (١)

الاجهاز على عثمان

واجهز الثوار على عثمان ، وقد تولى قتله جماعة في طليعتهم محمد ابن ابي بكر فكان من أحقدهم عليه فقد شهر السيف في وجهه وقال له :

- على أي دين أنت يانعثل ؟

- على دين الاسلام ولست بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين

- غيرت كتاب الله

- كتاب الله بيني وبينكم

وأخذ بلحيته فسحبه الى الارض وهو يقول : إنا لايقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل .

وهجم القوم عليه فاردوه قتيلا يتخبط بدمائه ، وتركوه جثـة

---

(١) الغدير ٩|٢١٨ – ٢٤٧

هامدة (١) لم يواروه ، ولم يسمحوا لأحد بمواراته ، وتكلم بعض خواصه مع الامام أمير المؤمنين في ذلك فتوسط في شأنه فأذنوا لهم في ذلك ولكنهم لم يسمحوا لهم بدفنه في البقيع فدفنوه في حش كوكب (٢)

لقد امتحن المسلمون امتحاناً عسيراً في امر عثمان ، وقد أورثهم قتله عناءاً أي عناء ، وقد تولدت في ايام حكومته وبعد مقتله أحزاب نفعية لايهمها إلا الوصول الى الحكم لتتخذ منه وسيلة الى الثراء ، وأخذت تلك الاحزاب تعيث فساداً في الارض ، وتتآمر على مصالح المسلمين فأبادت وحدتهم ، وفرقت كلمتهم ، وخلقت في المجتمع أهم المصاعب والمشاكل حتى أصبح من المتعذر على الامام أمير المؤمنين في دور حكومته أن يصلح الاوضاع الراهنة ، ويعيد سيرة الرسول وسنته بين الناس ، واتسعت تلك المشاكل حتى بلغت الذروة في دور الامام الحسن ، فرأى أن لاخطة له أفضل ولا أحسن من الاستسلام كما سنوضحه بالتفصيل في البحوث الآتية .

وبهذا ينتهي بنا المطاف عن عهد عثمان ، وقد اسهبنا القول في امره واطلنا الحديث في تصوير سياسته التي أشعلت نار الفتنة الكبرى في البلاد وفتحت باب الخلاف والنزاع بين المسلمين ، ومهدت الطريق للامويين ان يتدخلوا في شؤون المسلمين ، ويختلسوا السلطة من أيديهم ، ويمعنوا في قتل الاخيار ومطاردة المصلحين ، وإبادة جميع الاسس التي جاء هذا الدين ليقيمها وبسطنا القول في ذكر بعض المؤاخذات التي تواجه بحوث الدكتور

---

(١) قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشر ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً وعمره اثنان وثمانون سنة .

(٢) اسم بستان في المدينة كانت اليهود تدفن موتاهم فيها

طه حسين في عثمان ، وتبرير سياسته ، ولم نكن - يعلم الله - مدفوعين في ذلك كله بدافع العصبية أو الحقد على عثمان ، وإنما رائدنا الاخلاص للحق وحده ، وخدمة القضية الاسلامية ، فان الكثير من كتاب العصر قد حاول تصحيح تلكم الاحداث بوجوه بعيدة لايسندها منطق ، ولايدعمها برهان، ونحن في أمس الحاجة الى دراسة التأريخ الاسلامي على واقعه ، والامعان في الحوادث التي جرت في العصور الاسلامية الاولى ، لنقف على الذوات الخيرة التي خدمت الاسلام ورفعت مناره ونتميز الذين خدعتهم السلطة ، وغرهم الثراء فتنكروا لدينهم وأمتهم في سبيل مصالحهم الضيقة ، وعسى ان تكون هذه البحوث التي رسمناها بدقة وامانة قد صورت لنا الواقع الذي جرى في تلكم العصور .





المثل العليا

وتوفرت في الامام أبي محمد الصفات الرفيعة والمثل الكريمة ، وتجسدت فيه طاقات الاسلام وعناصره ومقوماته ، فهو بحكم قابلياته ونزعاته فذ من أفـذاذ العقل الانساني ، ومثل من امثلة التكامل البشري ، وعظيم من عظماء الاسلام .

لقد بلغ الامام الذروة في فضائله ، ومآثره ، واصالة رأيه ، وسمو تفكيره ، وشدة ورعه ، وسعة حلمه ، ودماثة اخلاقه الى غير ذلك من ملكاته التي كان بها موضع اعتزاز المسلمين وفخرهم ، ونشير الى بعضها

امامته

ومن أبرز الصفات الماثلة فيه هي الامامة وذلك لما تستدعيه من المثل والقابليات التي لاتتوفر إلا عند من اصطفاه الله واختاره من بين عباده ، وقد حباه تعالى بها ، وأعلن ذلك الرسول الكريم بقوله فيه وفي أخيه :

« الحسن والحسين إمامان إن قاما وإن قعدا »

ولا بد لنا من وقفة قصيرة لنتبين فيها معنى الامامة ، وبعض الشؤون التي تتعلق بهـا فانها تكشف عن سمو مكانة الامام وعظيم شأنه والى القراء ذلك :

أ ـ معنى الامامة

وحددها علماء الكلام فقالوا : « الامامة رئاسة عامة في امور الدين والدنيا لشخص انساني . » فالامام ـ حسب هذا التحديد ـ هو الزعيم العام والرئيس المتبع وله السلطة الشاملة على الناس في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية

ب ـ الحاجة الى الامامة

والامامة ضرورة من ضروريات الحياة لايمكن الاستغناء عنها بحال

من الاحوال فبها يقام ما أعوج من نظام الدنيا والدين ، وبها تتحقق العدالة الكبرى التي ينشدها الله في ارضه ، ويتحقق الامن العام والسلام بين الناس ، ويدفع عنهم الهرج والمرج ، ويمنع القوي من أن يتحكم في الضعيف ، ومن اهم الامور الداعية الى وجود الامام ايصال الناس الى عبادة الله ، ونشر احكامه وتعاليمه ، وتغذية المجتمع بروح الايمان والتقوى ليبتعد الانسان بذلك عن الشر ويتجه الى الخير ، ويجب على الامة كافة الانقياد اليه ، والامتثال لأوامره ليقيم أودها ، ويلم شعثها ويهديها الى سواء السبيل .

ج ـ واجبات الامام

إن على امام المسلمين وولي أمرهم ان يقوم بما يلي :

١ ـ حفظ الدين ، وحراسة الاسلام ، وصيانته من المستهترين بالقيم والاخلاق .

٢ ـ تنفيذ الاحكام ، والقضاء على الخصومات ، وانصاف المظلوم من ظالمه .

٣ ـ حماية البلاد الاسلامية من الغزو الخارجي سواء اكان الغزو عسكرياً أم فكرياً كما في هذه العصور التي غزت بلادنا بعض المبادىء الهدامة التي تدعو الى تحطيم الاسس التي أقامها الاسلام .

٤ ـ اقامة الحدود ، والقضاء على كافة الجرائم التي توجب شقاء الانسان .

٥ ـ تحصين الثغور

٦ ـ الجهاد

٧ ـ جباية الاموال كالزكاة والخراج وغيرها من الامور التي نص

عليها التشريع الاسلامي .

٨ ـ استخدام الامناء في جهاز الحكم ، وعـــدم استعمال الموظف محاباة او اثرة .

٩ ـ النظارة على امور الرعية بالذات ، ولا يجوز له أن يعول على الغير لينظر ؛ لأن ذلك من حقوق الرعية (١)

١٠ ـ القضاء على البطالة ، ونشر الرفاهية الشاملة في ربوع الامة ، وانقاذها من الفقر والحرمان .

هذه بعض الامور التي يجب على الامام أن يطبقها على مسرح الحياة العامة ، وقد استوفينا البحث فى هذه الجهات في كتابنا « النظام الاداري فى الاسلام » .

د ـ اوصافه

ولابد في الامام ان تتوفر فيه الشروط الآتية وهي :

١ ـ العدالة على شروطها الجامعة وهي الامتناع من ارتكاب كبائر الذنوب والاصرار على صغائرها

٢ ـ العلم بما تحتاج اليه الامة في جميع مجالاتها ، ومعرفة النوازل والاحكام

٣ ـ سلامة الحواس ، كالسمع ، والبصر ، واللسان ، ليصح معها مباشرة مايدرك كما يشترط سلامة الاعضاء الاخرى من أي نقص .

٤ ـ الرأي المفضي الى سياسة الرعية وتدبير المصالح العامة .

٥ ـ الشجاعة والنجدة ، والقدرة على حماية بيضة الاسلام وجهاد العدو

٦ ـ النسب وهو ان يكون الامام من قريش

---

(١) السياسة الشرعية : ص ٧

وقد ذكر هذه الشروط والاوصاف كل من الماوردي وابن خلدون (١)

٧ ـ العصمة ، وعرفها المتكلمون : بأنها لطف من الله يفيضها على اكمل عباده وبها يمتنع من ارتكاب الجرائم والموبقات عمداً وسهواً ، وقد أجمعت الشيعة على اعتبارها في الامام ، ويدل عليها حديث الثقلين ، فقد قرن الرسول صلى الله عليه وآله بين الكتاب والعترة وكما ان الكتاب معصوم من الخطأ والزلل فكذلك العترة الطاهرة وإلا لما صحت المقارنة والمساواة بينهما وقد تقدم الكلام في بيان ذلك .

وهذه الاوصاف لم تتوفر إلا في أئمة أهل البيت حضنة الاسلام وحماته ، والادلاء على مرضاة الله وطاعته ، وقد وصفهم الكميت شاعر العقيدة الاسلامية بقوله :

القريبين من ندى والبعيدين من الجور في عرى الاحكام
والمصيبين ما أخطأ النا س ومرسي قواعد الاسلام
والحماة الكفاة في الحرب إن لف ضرام وقوده بضـرام
والغيوث الذين ان أمحل النا س فأوى حواضن الايتـام
راجحي الوزن كاملي العدل في الـ سيرة طبين بالامور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعيـة الاغنام (٢)

إن أئمة أهل البيت سلام الله عليهم قد دللوا بسيرتهم وهديهم على عصمتهم من الخطأ والزيغ ، وقد برهنت الحوادث والوقائع على ذلك ، ودلت على أنهم نسخة لامثيل لها في تأريخ الانسانية وذلك لما لهم من عظيم الفضل والتقوى والحراجة في الدين .

---

(١) الاحكام السلطانية صفحة ٤ المقدمة ص١٣٥

(٢) الهاشميات

هـ ـ تعيينه

وذهبت الشيعة الى أن تعيين الامام ليس بيد الامة ، ولا بيد أهل الحل والعقد منها ، والانتخاب في الامامة باطل والاختيار فيها مستحيل ، فحالها كحال النبوة فكما أنها لاتكون بايجاد الانسان وتكوينه كـذلك الامامة لأن العصمة ـ التي هي شرط في الامامة ـ لايعرفها الله المطلع على خفايا النفوس ، وقد اوضح ذلك واستدل عليه حجة آل محمد ومهدي هذه الامة القائم المنتظر عليه السلام في حديثه مع سعد بن عبد الله فقد سأل الامام عن العلة التي تمنـع الناس من اختيار امام لأنفسهم فقال عليه السلام له :

ـ يختارون مصلحا او مفسداً ؟

ـ بل مصلحاً

ـ فهل يجوز ان تقع خيرتهم على المفسد بعد ان لايعلم أحد بما يخطر ببال غيره من صلاح او فساد

ـ بلى

ـ فهي العلة أوردها لك ببرهان يثق به عقلك ، اخبرني عن الرسل الذين اصطفاهم الله ، وانزل الكتب عليهم ، وأيدهم بالوحي والعصمة ، إذ هم أعلام الامم ، وأهدى الى الاختيار ، منهم مثل موسى وعيسى ، هل يجوز مع وفور عقلهما ، وكمال علمهما إذا هما بالاختيار أن تقع خيرتهما على المنافق وهما يظنان أنه مؤمن

ـ لا

ـ هذا موسى كليم الله مع وفور عقله ، وكمال علمه ونزول الوحي عليه اختار من أعيان قومه ووجوه عسكره لميقات ربه سبعين رجلا ممن

لايشك في ايمانهم واخلاصهم ، فوقعت خيرته على المنافقين ، قال الله عز وجل : « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » الى قوله « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فاخذتهم الصاعقة بظلمهم . » فلما وجدنا اختيار من قد اصطفاه الله للنبوة واقعاً على الافسد دون الاصلح وهو يظن أنه الاصلح علمنا ان الاختيار ليس إلا لمن يعلم ماتخفي الصدور ، وتكن الضمائر .. » (١)

إن الطاقات البشرية قاصرة عن ادراك الاصلح الذي تسعد به الامة فليس اختياره بيد الانسان وإنما هو بيد الله العالم بخفايا الامور ، هذه صورة مجملة عن الامامة وتفصيل الكلام يجده المتتبع مستوفى في كتب الكلام .

الخلق الرفيع

قال بعض علماء الاجتماع : إنما تتفاضل الامم في حال البداوة بالقوة البدنية فاذا ارتقت تفاضلت بالعلم ثم اذا بلغت من الارتقاء غايته تفاضلت بالاخلاق . فالاخلاق هي غاية مايصل اليه الانسان في سموه وكماله وتهذيبه

إن الخلق الكامل اذا انطبع في النفس لايمكن ان تنحرف عن الطريق القويم ، أو تحل الانانية محل الايثار ، او تستولي عليها المغريات والنقائص من اجل ذلك كانت الاخلاق من أهم العناصر التي تبتني عليها الحياة الاجتماعية والفردية ، كما انها من اوثق الاسباب في بقاء الامم وفي دوام حضارتها واصالتها .

إن من أقوى العلل في ظهور الشرائع السماوية ، وبقاء سلطانها الروحي عنايتها بالاخلاق واهتمامها بتهذيب النفوس وتربيتها بالنزعات الخيرة ، وقد

(١) البحار ١٣|١٢٧

اهتم النبي بها اهتماماً بالغاً واعتبرها من ابرز الاسباب التي بعث من اجلها يقول صلى الله عليه وآله « إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » وقد استطاع بمكارم اخلاقه أن يوقظ البشر من سباته ، ويؤسس معالم الحضارة في العالم ويغير مجرى التأريخ فقد الف مابين القلوب ، ووحد المشاعر والعواطف وجمع الناس على صعيد المحبة والاخاء .

كان النبي في عظيم أخلاقه مثالا للرحمة الآلهية التي تملأ القلوب البائسة الحزينة رجاءاً ورحمة ، كان يزور ضعفاء المسلمين ، ويعود مرضاهم ، ويشهد جنائزهم ، ويجيب دعوة من دعاه ، ولا يرد دعوة مملوك ولا فقير (١) ومن جالسه صابره حتى يكون جليسه هو المنصرف ، وما أخذ أحد بيده فجذبها منه حتى يكون الآخذ هو الذي يرسلها ، وكان حريصاً على تطييب النفوس واجتناب الاساءة لأي انسان .

وهذه الاخلاق الرفيعة قد تمثلت في الامام الحسن بحكم ميراثه من جده العظيم ، وقد ذكر التأريخ بوادر كثيرة من مكارم اخلاقه نسوق بعضها وهي :

١ ـ انه اجتاز على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الارض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق ، وهم يأكلون منها فدعوه الى مشاركتهم فأجابهم الى ذلك وهو يقول : « إن الله لايحب المتكبرين » ولما فرغ من تناول الطعام دعاهم الى ضيافته فاطعمهم وكساهم (٢) واغدق عليهم بنعمه واحسانه .

إن التواضع دليل على كمال النفس وسموها وشرفها ، وفي الحديث

(١) مستدرك الحاكم ٢|٤٦٦

(٢) اعيان الشيعة ٤|٢٤

« إن التواضع لايزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرحمكم الله » (١)

٢ - ومن آيات أخلاقه أنه مرّ على صبيان يتناولون الطعام فدعوه لمشاركتهم فاجابهم الى ذلك ثم حملهم الى منزله فمنحهم ببره ومعروفه وقال : « اليـد لهم لأنهم لم يجدوا غير ماأطعموني ونحن نجد ممـا اعطيناهم » (٢)

٣ - ومن مكارم اخلاقه أنه كان يغضي عمن اساء اليه ، ويقابله بالاحسان ، فقد كانت عنده شاة فوجدها يوماً قد كسرت رجلها فقال عليه السلام لغلامه :

- من فعل هذا بها ؟

- أنا

- لم ذلك ؟ !

- لأجلب لك الهم والغم

فتبسم عليه السلام ، وقال له : لأسرك ، فاعتقه وأجزل له في العطاء (٣)

٤ - ومن عظيم أخلاقه أنه كان جالساً في مكان فأراد الانصراف منه فجاءه فقير فرحب به ولاطفه وقال له :

- إنك جلست على حين قيام منا أفتأذن لي بالانصراف ؟؟

- نعم يابن رسول الله (٤)

(١) نهاية الارب في فنون الادب ٣|٤٤٣

(٢) الصبان المطبوع على هامش نور الابصار : ص ١٧٦

(٣) مقتل الحسين للخوارزمي ١|١٤٧

(٤) تأريخ الخلفاء للسيوطي ص ٧٣

إن مراعاة حق الجليس من الآداب الاجتماعية التي توجب المحبة والإلفة ، وتوجد التعاون والترابط بين الناس فلذا أمر الإسلام بها وحث عليها .

٥ ـ واجتاز على الامام شخص من أهل الشام ممن غذاهم معاوية بالكراهية والحقد على آل البيت فجعل يكيل للامام السب والشتم ، والامام ساكت لم يرد عليه شيئاً من مقالته ؛ وبعد فراغه التفت الامام فخاطبه بناعم القول وقابله ببسمات فياضة بالبشر قائلا :

« أيها الشيخ : أظنك غريبا ؟ لو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، ولو استحملتنا حملناك ، وإن كنت جائعاً أطعمناك ، وإن كنت محتاجاً أغنيناك ، وإن كنت طريداً آويناك . . » وما زال (ع) يلاطف الشامي بهذا ومثله ليقلع روح العداء والشر من نفسه حتى ذهل ولم يطق رد الكلام وبقي حائرا خجلا كيف يعتذر للامام ، وكيف يمحو الذنب عنه ؟ وطفق يقول :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته فيمن يشاء . » (١)

وهكذا كان عليه السلام مثالا للانسانية الكريمة ، ورمزا للخلق العظيم لا يثيره الغضب ، ولا يزعجه المكروه قد وضع نصب عينيه قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . » وقد قابل جميع ما لاقاه من سوء وأذى ومكروه من الحاقدين عليه بالصبر والصفح الجميل ، حتى اعترف الد خصومه مروان بن الحكم بسمو حلمه ، وعظيم خلقه ، وذلك حينما انتقل الامام إلى الرفيق الاعلى

(١) مناقب ابن شهر اشوب ٢ / ١٤٩ ، الكامل للمبرد ١ / ١٩٠ وجاء فيه ان الأعرابي انصرف وهو يقول والله ما على وجه الأرض أحد أحب الي منه.

فبادر مروان إلى حمل جثمانه فقال له سيد الشهداء :

— تحمل اليوم سريره ، وقد كنت بالأمس تجرعه الغيظ ؟ ! !

— إني كنت افعل ذلك بمن يوازن حلمه الجبال (١)

لقد كان الامـــام كجده الرسول في سعة حلمه ، وعظيم أخلاقه ، وصفحه عمن أساء إليه ، وقد روى التأريخ بوادر كثيرة من أخلاقه دلت على أنه في طليعة الأخلاقيين والمساهمين في بناء الأخلاق والآداب في دنيا العرب والمسلمين .

كرمه وسخاؤه :

من كان ندى الكف مبسوط اليدين بالعطاء متمسكاً بأهداب السخاء بعيداً عن البخل وضروبه فاعظم به من خير عميم ، كبير الثقة بالله ، عظيم النفس ، شريف الذات ، وقد تحدث رسول الله (ص) عن شرف هذه الظاهرة فقال : « خلقان يحبهما الله وهما : حسن الخلق والسخاء » وقال : « السخاء من الايمان » .

إن السخاء ينم عن طيب القلب ، ويكشف عن الفضائل النفسية ، ويحكي عن رحمة الانسان ورأفته ، ومن الطبيعي انه انما يكون كذلك فيما اذا كان بذله بداعي الخير والمعروف لابداعي السمعة والمديح والثناء وغير ذلك من الدواعي التي لا تمت إلى الاحسان بصلة ، وقد حدث التأريخ عن أناس كانوا يهبون الألوف للوافدين ، ويبذلون القرى للاضياف ، ولكن سرعان مـــا انكشف أنه تصنع لا اتصال له بحقيقة الكرم والمعروف ، وذلك كعطاء معاوية بن أبي سفيان وهباته للوافدين عليه فان ذلك لم يكن

---

(١) شرح النهج ٤|٥ .

بداعي الاحسان وإنما كان لشراء الضمائر لأجل التمسك بزمام الحكم .

إن السخاء الحقيقي هو بذل الخير بداعي الخير ، وبذل الاحسان بداعي الاحسان ، وقد تجلت هذه الصفة الرفيعة بأجلى مظاهرها ، واسمى معانيها في الامام أبي محمد (ع) حتى لقب بكريم أهل البيت .

تلقى هـذه المكرمة من سلفه الطاهر الذي عرف بالسخاء والمعروف ونجـدة الضعيف والاحسان إلى كل منقطع ومحروم وفي جده الاعلى يقول القائل :

عمرو العلى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

وزاد الحسن على سلفه الطاهر في ذلك فقد كان لا يعرف للمـال قيمة ، ولا يرى له أهمية سوى مـا يرد به جوع جائع ، أو يكسو به عاريا ، أو يغيث به ملهوفاً ، أو يفي به دين غارم .

ان السخاء عنصر من عناصر ذاته ، ومقوم من مقومات مزاجه ، وقد أثر عنه أنه ما قال لسائل لا قط (١) وقيل له لأي شيء لا نراك ترد سائلا ؟ فأجاب :

« إني لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا استحي أن أكون سائـلا ، وأرد سائلا ، وان الله عودني عـادة أن يفيض نعمه علي ، وعودته أن أفيض نعمه على الناس فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعني العـادة وأنشأ يقول :

إذا ما أتاني سائل قلت مرحبا بمن فضله فرض علي معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل وأفضل أيام الفتى حين يسأل (٢)

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ١|٢٣، جوهرة الكلام للقراغولي ص ١١٢
(٢) نور الابصار ص ١١١ .

ونسبت له أبيات نظمها في الجود والسخاء منها قوله :

إن السخاء على العباد فريضة لله يقرأ في كتاب محكم
وعد العباد الأسخياء جنانه وأعد للبخلاء نار جهنم
من كان لا تندى يداه بنائل للراغبين فليس ذاك بمسلم

وله أيضاً :

خلقت الخلائق من قدرة فنهم سخي ومنهم بخيل
فأما السخي ففي راحة وأما البخيل فحزن طويل (١)

وكانت الوفود من المرتزقة والمحتاجين تزدحم عليه فيغدق عليهم ببره واحسانه ، ويجزل لهم المزيد من العطاء ، وقد ذكر التأريخ بوادر كثيرة من كرمه وجوده نسوق إلى القراء بعضها .

١ ـ جاءه اعرابي سائلا فقال (ع) : اعطوه ما في الخزانة ، وكان فيها عشرة آلاف درهم فقال له الاعرابي : يا سيدي هلا تركتني أبوح بحاجتي ، وأنشر مدحتي ؟ فاجابه الامام :

نحن أناس نوالنا خضل يرتع فيه الرجاء والأمل
تجود قبل السؤال أنفسنا خوفا على ماء وجه من يسل
لو علم البحر فضل نائلنا لغاض من بعد فيضه خجل (٢)

٢ ـ واجتاز عليه السلام على غلام أسود بين يديه رغيف يأكل منه لقمة ويدفع لكلب كان عنده لقمة اخرى .

فقال له الامام :

ـ ما حملك على ذلك ؟

---

(١) المناقب ٢/ ١٥٦ .

(٢) اعيان الشيعة ٤ | ٨٩ — ٩٠ .

- إني لأستحي أن أكل ولا أطعمه .

رأى الامام فيه خصلة من أحب الخصال عنده ، فاحب أن يجازيه على صنعه ، ويقابل أحسانه بأحسان فقال له :

لا تبرح من مكانك ، ثم انطلق فاشتراه من مولاه وأشترى الحائط (١) الذي هو فيه فاعتقه ، وملكه إياه (٢) .

٣ - وأجتاز يوما في بعض أزقة المدينة فسمع رجلا يسأل الله أن يرزقه عشرة الآف درهم ، فانطلق إلى بيته ، وأرسلها إليه بالوقت (٣) .

٤ - وجاءه شخص يظهر الاعواز والحاجة فقال له (ع) ما هذا حق سؤالك ، يعظم لدى معرفتي بما يجب لك ، ويكبر علي ويدي تعجز عن نيلك بما أنت اهله ، والكثير في ذات الله قليل ، وما في ملكي وفاء لشكرك ، فان قبلت منا الميسور ، ورفعت عنا مؤنة الاحتفال والاهتمام فعلت ، فأجابه الرجل : يا بن رسول الله (ص) أقبل القليل واشكر العطية ، واعذر على المنع ، فاحضر (ع) وكيله وحاسبه وقال له : هات الفاضل ، وكان الفاضل خمسين الف درهم فدفعها إليه ولم يكتف (ع) بذلك بل قال لوكيله ما فعلت بالخمس مائة دينار التي عندك ؟ فقال له : هي عندي ، فأمره باحضارها ثم دفعها إلى الرجل وهو يعتذر منه (٤)

---

(١) الحائط : البستان .

(٢) البداية والنهاية ٨ | ٣٨ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ١ | ٢٣ ، الصبان ص ١٧٧ .

(٤) دائرة المعارف للبستاني ج٧ ص٣٩ ، إحياء العلوم للغزالي ج٣ص١٧١ وزاد فيه انه « ع » قال للرجل هات من يحمل هذه الاموال فاتاه بحمالين فدفع عليه السلام رداءه لكراء الحمالين ، فقال له مواليه يا بن رسول الله والله ما عندنا درهم ، فقال « ع » لهم : ارجو ان يكون لي عند الله اجر عظيم .

إن قوله (ع) (الكثير في ذات الله قليل) ينم عن أن هذا العطاء إنما هو في سبيل الله تعالى لا يبتغي من احد جزاءاً أو شكورا .

٥ ـ ومن مكارمه (ع) انه خرج هو وأخوه الحسين (ع) وابن عمهما عبد الله بن جعفر (١) وافدين إلى بيت الله الحرام ، وفي أثناء الطريق أصابهم جوع وعطش وقد سبقتهم اثقالهم ، فانعطفوا على بيت قد ضرب أطنابه في وسط تلك البيداء القاحلة ، فلما وصلوا إلى البيت لم يروا فيه إلا عجوزا فطلبوا منها شرابا وطعاما ، فأجابت بما طبعت عليه نفس الكريم قائلة :

نعم .

---

(١) عبد الله بن جعفر بن ابي طالب الهاشمي ، وامه اسماء بنت عميس الخثعمية ولد بأرض الحبشة لما هاجر اليها ابوه ، ولما قتل جعفر مسح النبي على راس عبد الله وقال : اللهم اخلف جعفراً في ولده ، وقال فيه صلى الله عليه وآله عبد الله يشبه خلقي وخلقي ، واطلع (ص) عليه يوما وهو يبيع مع الصبيان فقال اللهم بارك له في بيعه او صفقته ، وهو احد الاجواد المشهورين ، ونقلت عن جوده وسخائه اخبار كثيرة وفيه يقول عبد الله بن قيس الرقيات

وما كنت إلا كالأغر ابن جعفر   راى المال لا يبقى فأبقى له ذكرا

ويقول فيه الشماخ بن ضرار :

إنك يابن جعفر نعم الفتى   ونعم مأوى طارق إذا اتى
ورب ضيف طرق الحي سرى   صادف زادا وحديثا ما اشتهى

توفي سنة ثمانين من الهجرة ، وقد عرف ذلك العام الذي توفي فيه بعام الجحاف لحدوث سيل كان يبطن مكة اجحف الحاج وذهب بالابل وعليها الحمولة جاء ذلك في الاصابة ج ٢ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

إنها النفس إذا جبلت على الخير وطبعت فيها الأريحية قدمت في سبيل العز والمجد كل ما تملك ، لم يك عند العجوز سوى شاة هي كل ما تملك مما أظلته الخضراء وأقلته الغبراء ، فتقدمت وبيدها الشاة قائلة لهم :

دونكم هذه الشاة فاحلبوها واشربوا لبنها ، فلما فعلوا ذلك تقدمت إليهم مرة أخرى قائلة :

أقسم عليكم إلا ما ذبحها أحدكم حتى أهيء لكم الحطب لشيها ، ففعلوا ذلك وهيأت العجوز الحطب ، وبعد الفراغ من تناول الطعام عزموا على الرحيل فتقدموا إليها وعرفوها بشخصياتهم ليجازوها على صنعها خيرا إن رجعوا إلى وطنهم ، قائلين :

« يا أمة الله إنا نفر من قريش نريد حج بيت الله الحرام ، فاذا رجعنا سالمين فهلمي إلينا لنكافئك على هذا الصنع الجميل » .

ثم انصرفوا لشأنهم ، ولما عن غياب القرص عن السماء أقبل رب البيت على عادته فأخبرته العجوز بالقصة ، فاستولى عليه الغضب ، ذلك لأن الشاة هي مصدر القوت وإدرار الرزق عليهم ، فقال لها : ويحك أتذبحين الشاة لأناس لا تعرفينهم ؟ ثم تقولين إنهم نفر من قريش .

وطوى الدهر عجلته فمضت سنة وأقبلت أخرى فاعترت البادية أزمة شديدة لأن السماء قد منعتها قطرها حتى قلت موارد العيش وانعدمت أسباب القوت ، فرحلا عن البادية ونزلا المدينة ، ولم يجدا عملا يحيطان به خبرا سوى التقاط البعر من الطرقات والشوارع ، فاتخذا ذلك مهنة لهما ، وفي يوم من الأيام وهما على عملهما ارادت السعادة أن تحنو عليهما فلمح الحسن (ع) العجوز فعرفها ، وقد حل وفاء الدين ، والمعروف في ذمة الأحرار دين فأمر (ع) غلامه أن يأتي بها إليه ، فلما مثلت بين يديه

قال (ع) لها :

أتعرفيني يا أمة الله ؟

ـ لا . .

ـ أنا أحد ضيوفك يوم كذا سنة كذا .

ـ لست أعرفك .

ـ إن لم تعرفيني فانا أعرفك ، ثم أمر (ع) غلامه فاشترى لها من غنم الصدقة الف شاة وأعطاها الف دينار ، ثم أمر (ع) غلامه أن يذهب بها الى أخيه الحسين (ع) ويعرفه بها ، فأخذها الغلام فلما دخلت عرفها الحسين (ع) ، فقال للغلام : كم اعطاها أخي ؟ فأخبره الغلام بعطائه ، فأوصلها (ع) بمثل ذلك ، ثم بعث الحسين بها إلى عبد الله بن جعفر ، فلما دخلت عليه عرفها ، فأمر لها بألفي شاة والفي دينار فأخذت ذلك جميعا وانصرفت (١) وقد تغير حالها من فقر مدقع إلى غناء وثروة حسدها عليه كل من عرفها كل ذلك من بر الحسن وفضله ، .

٦ ـ ومن آيات مكارمه (ع) أنه اشترى حائطاً من الأنصار بأربعمائة الف فبلغه أنهم قد احتاجوا إلى ما في أيدي الناس فرده اليهم (٢) إن إنقاذ هؤلاء من ذل السؤال ورد شرفهم إليهم من أفضل أنواع السخاء ومن أسمى مراتب الجود .

٧ ـ ومن مكارمه (ع) أن جارية حيته بطاقة من ريحان ، فقال عليه السلام لها : أنت حرة لوجه الله ، فلامه أنس على ذلك ، فأجابه عليه السلام : أدبنا الله فقال تعالى : « إذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها »

(١) إحيا. العلوم للغزالي ٣/١٧٣ ، دائرة المعارف للبستاني ٧/٣٩ .

(٢) الصبان ص ١٧٦ .

وكان أحسن منها إعتاقها (١) .

٨ ـ ومن مكارمه (ع) أن مروان بن الحكم قال : إني لمشغوف ببغلة الحسن بن علي فمن يأتيني بها ؟ فأنبرى إليه ابن أبي عتيق قائلا :

ـ أنا آتيك بها لكن بشرط أن تقضي لي ثلاثين حاجة ؟

ـ ألتزم لك بذلك .

فقال ابن أبي عتيق لمروان : إذا اجتمع الناس عنـدك العشية فاني آخذ في مآثر قريش وأمسك عن الحسن فلمني على ذلك ، فلما اجتمع الناس أخذ ابن أبي عتيق في مآثر قريش وسكت عن ذكر فضائل الامام الحسن (ع) ، فقال له مروان الا تذكر أولية أبي محمد ، وله في هذا ما ليس لأحد منا ، فقال ابن أبي عتيق : إنما كنا في ذكر الاشراف ولو كنا في ذكر الأنبياء لذكرنا فضائل أبي محمد ، ولما خرج الامام (ع) تبعه ابن ابي عتيق فلما نظر إليه الحسن (ع) تبسم وعرف الغاية من مديحه فقال (ع) له : ألك حاجة ؟ فقال : نعم ذكرت البغلة ، فنزل (ع) عنها ودفعها إليه (٢) .

٩ ـ ومن جوده (ع) أن رجلا سأله أن يعطيه شيئاً فقال له (ع) إن المسألة لا تصلح إلا في غرم فادح (٣) أو فقر مدقع أو حمـالة مفظعة (٤) فقال ما جئت إلا في إحداهن ، فأمر (ع) له بمائة دينار ،

---

(١) المناقب ٢/٢٣ .

(٢) الكامل للمبرد ٢/١٣ .

(٣) الغرم الفادح هو الدين الثقيل .

(٤) الحمالة ـ بالفتح هو ما يتحمله الشخص من الدية والغرامة عن قومه ، المفظعة الشيء الشديد .

ثم انعطف الرجل نحو الحسين (ع) فسأله مثل سؤال اخيه فأعطاه مائة دينار سوى دينار لأنه كره أن يساوى أخاه في عطائه وانعطف الرجـــل بعد ذلك إلى عبد الله بن عمر فسأله فأعطاه سبعة دنانير ، فقال الرجل : لعبد الله إني أتيت الحسن والحسين وحكى له ما جرى له معهما فقال ابن عمر : ويحك أنى تجعلني مثلهما ؟ ! انهما غرا العلم (١) . غرا المال (٢) .

١٠ - ومن مكارمه (ع) أنه ما أشترى من أحد حائطا ثم أفتقر البائع إلا ورده عليه وأردفه بالثمن معه (٣) .

١١ - وجاءه فقير يشكو حاله ولم يك عنده (ع) في ذلك اليوم شيء فعز عليـــه الامر واستحى من رده فقال (ع) له : إني أدلك على شيء يحصل لك منه الخير ، فقال الفقير يا بن رسول الله ما هو ؟ ! قال عليه السلام إذهب إلى الخليفة فان ابنته قد توفيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية بليغة فعزه بهذه الكلمات يحصل لك منه الخير ، قال يابن رسول الله حفظني أياها ، قال (ع) قل له الحمد لله الذي سترها بجلوسك على قبرها ولم يهتكها بجلوسها على قبرك ، وحفظ الفقير هذه الكلمات وجاء إلى الخليفة فعزاه بها ، فذهب عنه حزنه وأمر له بجائزة وقال له :

أكلامك هذا ؟

- لا : وإنما هو كلام الامام الحسن .

الخليفة : صدقت فانه معدن الكلام الفصيح وأمر له بجائزة أخرى (٤) .

---

(١) غرا العلم اي القما العلم ومنه حديث معاوية كان النبي يغر عليا بالعلم .

(٢) عيون الاخبار لابن قتيبة ٣|١٤٠ .

(٣) الطبقات الكبرى للشعراني ١|٢٣ .

(٤) نور الابصار ص ١١١ .

وذكر المترجمون للإمام صوراً كثيرة من ألوان بره ومعروفه على الفقراء وقيامه بانقاذهم من كابوس الحاجة والفقر الى الدعة والسعة في العيش ، وجميع تلك المبرات التي أسداها عليهم كانت خالصة لوجه الله ، ولم تكن مشفوعة بأي غرض من الاغراض فأنه كان يمنحهم العطاء والبر قبل أن يبوحوا بحاجاتهم ، ويذكروا مديحهم وثناءهم لئلا يظهر عليهم ذل السؤال والاحتياج .

عبادته وتقواه

ان الانسان كلما ازداد معرفة بالله ازداد إيماناً به ، وحبا له ، وانقيادا لأوامره وطاعته ، وسعياً في جميع الوسائل التي تقربه اليه .

والامام الحسن قد تغذى بلباب المعرفة ، وبجوهر الايمان ، وبواقع الدين وانطبعت مثله في دخائل نفسه واعماق ذاته ، فكان من اشد الناس إيمانا ، ومن اكثرهم اخلاصاً بطاعة الله ، وقد حدث الرواة عن مدى طاعتـــه فقالوا : إنه لم ير في وقت من الاوقات إلا وهو يلهج بذكر الله ، (١) وانه اذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم (٢) فسأل الله الجنة وتعوذ من النار ، واذا ذكر الموت وما يعقبه من البعث والنشور بكى بكاء الخائفين والمنيبين (٣) واذا ذكر العرض على الله شهق شهقة يغشى عليه منها (٤) ، وكان من اشد المعتبرين بالموت فاذا حضر جنازة

---

(١) امالي الصدوق صفحة ١٠٨

(٢) السليم : من لسعه العقرب

(٣) اعيان الشيعة ٤|١١

(٤) امالي الصدوق : صفحة ١٠٨

ظهرت عليه السكينة أياماً ، واذا مات في جواره ميت سمع منه النحيب والبكاء كما يسمع من دار الميت (١) ودلت هذه الامور على عظيم طاعته وخوفه من الله ، ونسوق الى القراء بعض مظاهر عبادته :

١ - وضوؤه وصلاته

كان الامام اذا اراد الوضوء تغير حاله ، وداخله خوف عميق حتى يصفر لونه وترتعد فرائصه ، وسئل عن سر ذلك فقال :

« حق على من وقف بين يدي رب العرش أن ترتعد فرائصه ، ويصفر لونه .. »

واذا فرغ من الوضوء وأراد الدخول الى المسجد رفع صوته قائلا :

« الهي : ضيفك ببابك ، يامحسن قد أتاك المسيء ، فتجاوز عن قبيح ماعندي بجميل ماعندك ياكريم » (٢)

واذا اقبل على صلاته بدا عليه الخضوع والخشوع ، وظهر عليه الخوف حتى ترتعد جميع فرائصه واعضائه (٣) واذا فرغ من صلاة الفجر لايتكلم الا بذكر الله حتى تطلع الشمس (٤)

٢ - حجه

ومن مظاهر عبادته وعظيم اخلاصه وطاعته لله تعالى انه حج بيت الله الحرام خمساً وعشرين حجـة ماشياً على قدميه وكانت النجائب (٥) ،

---

(١) مجموعة ورام صفحة ٣١٧

(٢) البحار ١٠|٩٣ ، امالي الصدوق صفحة ١٠٨ ، روضة الواعظين

(٣) امالي الصدوق صفحة ١٠٨

(٤) البحار ١٠|٩٣

(٥) النجائب : جمع ، مفرده نجيبة وهي الفاضل من الحيوانات وفي بعض -

تقاد بين يديه (١) وسئل عن كثرة حجه ماشياً فأجاب : « اني استحي من ربي أن لا امضي الى بيته ماشياً على قدمي (٢)

٣ ـ تلاوته للقرآن

كان الامام يتلو الذكر الحكيم تلاوة امعان وتدبر فلا يمر بآية تشتمل على نداء المؤمنين إلا قال : لبيك . اللهم لبيك (٣) وكان يقرأ في كل ليلة سورة الكهف (٤)

٤ ـ التصدق بأمواله

وقدم الامام في سبيل مرضاة الله كل غال ونفيس ، فقد خرج عن جميع مايملك مرتين ، وشاطر الله أمواله ثلاث مرات حتى أعطى نعلا وامسك اخرى (٥)

زهده

ورفض الامام جميع مباهج الحياة ، وزهد في ملاذها ونعيمها ، واتجه الى الدار الآخرة التي أعدها الله للمتقين من عباده ، وقد تحدث عليه السلام

ـــ المصادر وان الجنائب لتقاد بين يديه ، والجنائب . جمع جنيبة وهي الدابة التي تقاد .

(١) اللمعة كتاب الحج واعيان الشيعة ، وقيل انه حج خمس عشرة حجة ، وقيل عشرون ، وذكر الصدوق في اماليه انه ربما مشى حافياً الى بيت الله .

(٢) اعيان الشيعة ٤|١١

(٣) امالي الصدوق ص ١٠٨

(٤) تاريخ ابن كثير ٨|٣٧

(٥) اسد الغابة ٢|١٣ ، البحار ١٠/٩٤

عن عزوفه عن الدنيا ، واقتناعه بالقليل منها يقول :

لكسرة من خسيس الخبز تشبعني وشربة من قراح الماء تكفيني
وطرة من دقيق الثوب (١) تسترني حيا وان مت تكفيني لتكفيني (٢)

ورسم على خاتمه بيتين من الشعر يلمس فيهما مدى زهده وهما :

قدم لنفسك ما استطعت من التقى إن المنيـة نازل بك يافتى
أصبحت ذا فرح كأنك لاترى أحباب قلبك في المقابر والبلى (٣)

وكان كثيراً مايتمثل بهذا البيت

يا اهل لذات دنيا لا بقاء لها ان اغتراراً بظل زائل حمق (٤)

ومما ينسب له في ذم المغرور في الدنيا والمفتون بحبها قوله :

قل للمقيم بغير دار اقامة حان الرحيل فودع الاحبابا
ان الذين لقيتهم وصحبتهم صاروا جميعاً في القبور ترابا (٥)

ومن مظاهر زهده ماحدث به مدرك بن زياد (٦) قال : كنا في حيطان ابن عباس فجاء الحسن والحسين ، وابنا العباس فطافوا في تلك البساتين ثم جلسوا على ضفاف بعض السواقي ، فقال الحسن : يامدرك : هل عندك غذاء ؟ فقلت له : نعم ثم انطلقت فجئته بخبز وشيء من الملح

(١) الدقيق : الحقير من الثياب

(٢) البحار ١٠/٩٤

(٣) تاريخ ابن عساكر ٤/٢١٩

(٤) الفصول المهمة لابن الصباغ : ص ١٦٢

(٥) المناقب ٢/١٤٥

(٦) مدرك بن زياد احد الصحابة ، توفي في دمشق بقرية يقال لها « راوية» وهو اول مسلم دفن فيها ، الاصابة ٣/٣٩٤

مع طاقتين من بقل فأكل منه ، وقال يامدرك ما أطيب هذا ؟

وجيء بعد ذلك بالطعام وكان في منتهى الحسن والجودة فالتفت عليه السلام الى مدرك وأمره بأن يجمع الغلمان ويقدم لهم الطعام ، فدعاهم مدرك فأكلوا منه ولم يأكل الامام منسه شيئاً فقال له مدرك : لماذا لاتأكل منه ؟ فقال عليه السلام : ان ذاك الطعام أحب عندي (١) لأنه طعام الفقراء والمحرومين ، ومما يدل على عظيم زهده أنه زهد في الملك طلباً لمرضاة الله ، وخوفاً على دماء المسلمين ، وقد الف فى زهده محمد ابن بابويه القمي (٢) كتاباً اسماه زهد الحسن وأجمع المترجمون له انه كان أزهد الناس وأفضلهم بعد جده وأبيه

هيبته ووقاره

إن شخصية الامام كانت تملأ العيون وتهيمن على النفوس لأنه قد التقت بها عناصر النبوة والامامة ، وتمثلت فيها هيبة النبي ، وقد حدث واصل بن عطاء (٣) قال :

---

(١) تاريخ ابن عساكر ٤|٢١٢

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي ، من اعظم علماء الشيعة ، ورئيس المحدثين لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه ، وهو استاذ الشيخ المفيد ، له من المؤلفات ثلاث مائة مؤلف توفى بالري سنة ٣٨١ هـ جاء ذلك في الكنى والالقاب ١|٢١٢

(٣) واصل بن عطاء البصري : كان متكلما بليغاً متشدقاً ، وكان يلثغ بالراء نقل عنه انه هجر الراء وتجنبها فى خطابه وقيل فيه

ويجعل البر قمحاً فى تصرفه   وخالف الراء حتى احتال للشعر –

« كانت على الحسن سيماء الانبياء وبهاء الملوك » (١)
وقال ابن الزبير :
« والله ماقامت النساء عن مثـل الحسن بن علي في هيبته وسمو منزلته » (٢)
وبلغ من عظيم هيبته انه كان يفرش له على باب البيت فاذا خرج وجلس انقطع الطريق لأنه لا يمر أحد إلا جلس اجلالا واكباراً له ، فاذا علم ذلك قام ودخل البيت (٣)
ومن عظيم هيبته وسمو مكانته في نفوس المسلمين أنه ما أجتاز مع أخيه على ركب في حال سفرهما إلى بيت الله الحرام ماشيين إلا ترجـل ذلك الركب تعظيما واكبارا لهما حتى ثقل المشي على جماهير الحجاج فكلموا سعد بن أبي وقاص في ذلك فبادر إلى الامام وقال له :
« يا أبا محمد ، إن المشي قد ثقل على الحجاج لأنهم إذا رأوكما لم تطب نفوسهم بالركوب ، فلو ركبتما رحمة لهم . . »
فاجابه الامام بما ينم عن نفس قد عاهدت الله أن تبذل في مرضاته

— ولم يطق مطرا والقول يمحله فعاذ بالغيث اشفاقاً من المطر
له من المؤلفات : اصناف المرجئة ، التوبة ، معاني القرآن ، وكان يتوقف من القول بعدالة اهل الجمل ، وهو شيخ المعتزلة ومن اجلائها ، ولد في يثرب سنة ثمانين ، وتوفي سنة مائة واحدى وثلاثين من الهجرة جاء ذلك في لسان الميزان ٦|٢١٤

(١) اعيان الشيعة ٤|١٢ ، المناقب .
(٢) تاريخ ابن كثير ٨|٣٧ .
(٣) اعلام الورى في اعلام الهدى ص ١٢٥ .

كل غال ونفيس قائلا :

« لا نركب فقد عاهدنا الله أن نؤم بيته ماشين ، ولكن نتنكب الطريق . . » (١)

وسار عليه السلام في بعض طرق يثرب وقد لبس حلة فاخرة ، وركب بغلة فارهة ، ووجهه الشريف يشرق حسنا وجمالا ، وقد حفت به خدمه ، وحاشيته فرآه بعض اغبياء اليهود فبادر إليه وقال له :

يا بن رسول الله عندي سؤال ؟

ـ ما هو ؟

ـ إن جدك رسول الله (ص) يقول : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فأنت المؤمن وأنا الكافر ، وما الدنيا إلا جنة لك تتنعم فيها ، وتستلذ بها وأنت مؤمن ، وما أراها الا سجنا قد أهلكني حرها وأجهدني فقرها ؟

ـ لو نظرت إلى ما أعد الله لي وللمؤمنين في الدار الآخرة مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر لعلمت أني قبل انتقالي إليها وأنا في هذه الحالة في سجن ، ولو نظرت إلى ما أعد الله لك ولكل كافر في دار الآخرة من سعير نار جهنم ، ونكال العذاب الأليم المقيم لرأيت قبل مصيرك إليه أنك في جنة واسعة ونعمة جامعة (٢) وتركه الامام ، واليهودي يتميز من الغيظ والحقد .

ورأى هيبة الامام ووقاره بعض الأغبياء من الحاقدين عليه فقال له إن فيك عظمة فاجابه الامام ان في عزة ثم تلا قوله تعالى : « ولله العزة

---

(١) المناقب ٢/١٤٢ ، اعيان الشيعة ٤/٢٠ .

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٦١ .

ولرسوله وللمؤمنين » (١) ان الحسن كان يحكي جده الرسول (ص) في هيبته وسؤدده وكريم طباعه .

فصاحته وبلاغته :

وكل ظاهرة من ظواهر الكمال قد تمثلت في الامام أبي محمد ، وتحلت بها شخصيته الكريمة ، ومن أروع صفاته البلاغة والفصاحة في الكلام فقد كان (ع) من أبرع البلغاء في اصابته للمناسبات ، ومن أقدرهم على الايجاز والاعجاز والابداع في الكلام ، وحقا أن يكون كذلك فقد تفرع من دوحة الفصاحة والبلاغة وفصل الخطاب ، فالجد رسول الله (ص) أفصح من نطق بالضاد ، والأب علي (ع) سيد البلغاء وامير البيان .

إن الحسن (ع) في فصاحته وبلاغته كأبيه ، وقد ترك (ع) تراثا رفيعا وحكما بالغة تحتوى على أصول الآداب الاجتماعية والنصح والارشاد والوعظ الخالد ، قد رصعت بجمال اللفظ وسمو المعنى والى القراء بعضها .

الآداب الاجتماعية :

وجه الامام علي (ع) الى الحسن اسئلة تتعلق بأصول الأخلاق والفضائل ، فأجابه الحسن (ع) بما هو عفو البداهة والخاطر فكان الجواب آية من آيات البلاغة والاعجاز :

الامام علي : يا بني ما السداد ؟

الحسن : يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف .

ـ ما الشرف ؟

ـ اصطناع العشيرة وحمل الجريرة .

ـ ما المرؤة ؟

---

(١) المناقب ٢|١٤٩ .

- العفاف واصلاح المرء ماله .

- ما الدنيئة ؟

- النظر في اليسير ومنع الحقير .

- ما اللوم ؟

- احتراز المرء نفسه وبذله عرسه (١) .

- ما السماحة ؟

- البذل في العسر واليسر .

- ما الشح ؟

- أن ترى ما في يديك شرفا وما أنفقته تلفا .

- ما الاخاء ؟

- الوفاء في الشدة والرخاء .

- ما الجبن ؟

- الجرأة على الصديق والنكول عن العدو .

- ما الغنيمة ؟

- الرغبة في التقوى والزهادة في الدنيا .

- ما الحلم ؟

- كظم الغيظ وملك النفس .

- ما الغنى ؟

- رضى النفس بما قسم الله وإن قل فانما الغنى غنى النفس .

- ما الفقر ؟

---

(١) وفي رواية انه قال ما اللؤم ؟ إحتراز المرء ماله وبذله عرضه جاء ذلك في دائرة المعارف للبستاني ٧/٣٩ .

- شره النفس في كل شيء .
- ما المنعة ؟
- شدة البأس ومقارعة أشد الناس .
- ما الذل ؟
- الفزع عند المصدوقية ؟
- ما الجرأة ؟
- موافقة الأقران .
- ما الكلفة ؟
- كلامك فيما لا يعنيك .
- ما المجد ؟
- أن تعطى في الغرم وأن تعفو عن الجرم .
- ما العقل ؟
- حفظ القلب كل ما استرعيته . (١)
- ما الخرق ؟
- معاداتك إمامك ورفعك عليه كلامك .
- ما الثناء ؟
- اتيان الجميل وترك القبيح .
- ما الحزم ؟
- طول الأناة (٢) والرفق بالولاة والاحتراس من الناس بسوء الظن

(١) وفى رواية ابى نعيم في الحلية ٢/٣٦ حفظ القلب كل ما استوعيته ، وفى رواية اخرى حفظ القلب لكل ما استرفيه .

(٢) الأناة : الوقار والحلم والانتظار .

هو الحزم .

- ما الشرف ؟

- موافقة الاخوان .

- ما السفه ؟

- إتباع الدناة ومصاحبة الغواة .

- ما الغفلة ؟

- تركك المسجد وطاعتك المفسد .

- ما الحرمان ؟

- تركك حظك وقد عرض عليك .

- ما السيد ؟

- الأحمق في ماله المتهاون في ... ، يشتم فلا يجيب ، المتحزن (١) بأمر العشيرة هو السيد (٢) .

إن النفس لتقف حائرة أمام هذا الاسترسال العجيب من الامام الحسن وعدم تكلفه في الجواب واحاطته خبرا بمعاني هذه النقاط الحيوية ، فلن يسع النفس إلا الاكبار والاعجاب والاعتراف بالعظمة والخضوع لتلك المواهب العلمية .

مكارم الأخلاق :

قال جابر : سمعت الحسن (ع) يقول : مكارم الأخلاق عشرة ، صدق اللسان ، وصدق البأس ، واعطاء السائل ، وحسن الخلق ، والمكافاة

---

(١) وفي رواية المهتم بأمر عشيرته .

(٢) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ٣٩ .

بالصنائع ، وصلة الرحم ، والتذمم (١) على الجار ، ومعرفة الحق للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء (٢) .

والتفت معاوية يوماً إلى الامام (ع) قال له : يا أبا محمد ثلاث خلال لم أجد من يجيبني عنها ! ! !

- ما هي ؟

- المروءة ، الكرم ، النجدة .

- أما (المروءة) فاصلاح الرجل أمر دينه وحسن قيامه على ماله وإفشاء السلام والتحبب إلى الناس .

(الكرم) العطية قبل السؤال ، والتبرع بالمعروف والاطعام في المحل .

(النجدة) الذب عن الجار ، والمحامات في الكريهة ، والصبر عند الشدائد .

وجـاء إليه شخص فقال : يا بن رسول الله « ص » من أحسن الناس ؟

- من أشرك الناس في عيشه .

- من أشر الناس ؟

- من لا يعيش فى عيشه أحد (٣) .

الجرائم الاخلاقية :

قال « ع » : هلاك الناس في ثلاث ، الكبر ، الحرص ، الحسد .

« الكبر » به هلاك الدين ، وبه لعن إبليس .

---

(١) التذمم ماخوذ من اذمه اي اجاره واخذه تحت حمايته .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢/٢٠١ .

(٣) تأريخ اليعقوبي ٢/٢٠٢ .

« الحرص » عدو النفس وبه اخرج آدم من الجنة .

« الحسد » رائد السوء وبه قتل هابيل قابيل (١) .

لا شك ان هذه الرذائل الثلاث التي حرض الامام « ع » على اجتنابها واقام الشواهد على اضرارها هي اصول الاجرام وامهات الرذائل .

التحريض على طلب العلم :

قال « ع » : لبنيه تعلموا العلم فانكم صغار القوم ، وكبارهم غداً ، ومن لم يحفظ منكم فليكتب (٢) .

وقال « ع » علم الناس ، وتعلم علم غيرك فتكون قد اتقنت علمك وعلمت ما لم تعلم (٣) .

وقال « ع » : حسن السؤال نصف العلم (٤) .

فضل العقل :

قال « ع » : لا أدب لمن لا عقل له ، ولا مودة لمن لا همة له ، ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل ، وبالعقل تدرك سعادة الدارين ، ومن حرم العقل حرمها جميعاً (٥) .

فضل القرآن الكريم :

قال « ع » : إن هذا القرآن فيه مصابيح النور ، وشفاء الصدور ،

---

(١) نور الابصار ص ١١٠ .

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٤٢ .

(٣) الاثنى عشرية ص ٣٧ .

(٤) نور الابصار ص ١١٠ .

(٥) اعيان الشيعة ٤|٨٨ .

فليجل جال بضوئه ، وليلجم (١) الصفة قلبه ، فان التفكير حياة القلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور (٢) .

الدعاء :

قال « ع » ما فتح الله عز وجل على أحد باب مسألة فخزن (٣) عنه باب الاجابة ، ولا فتح على رجل باب عمل فخزن عنه باب القبول ، ولا فتح لعبد باب شكر فخزن عنه باب المزيد (٤) .

السياسة :

سأله شخص عن رأيه في السياسة ؟ فقـال « ع » : هي أن ترعى حقوق الله ، وحقوق الاحياء ، وحقوق الأموات (فأما حقوق الله) فأداء ما طلب ، والاجتناب عما نهى « وأمـا حقوق الأحياء » فهي أن تقوم بواجبك نحو اخوانك ، ولا تتأخر عن خدمة أمتك ، وأن تخلص لولي الأمر ما اخلص لأمته ، وأن ترفـع عقيرتك في وجهه إذا ما حاد عن الطريق السوى « وأما حقوق الأموات » فهي أن تذكر خيراتهم ، وتتغاضى عن مساوئهم فان لهم ربا يحاسبهم (٥) .

وقال له معاوية : ما يجب لنا في سلطاننا ؟

الامام : ما قال سليمان بن داود ! ! !

---

(١) لجم : اي شد .

(٢) كشف الغمة ص ١٧١ .

(٣) خزن : اغلق وسد .

(٤) اعيان الشيعة ٤|٨٨ .

(٥) مجلة العرفان الجزء الثالث المجلد الاربعون ص ٢٥٤ نقلا عن المجلد التاسع من التذكرة المعلوفية .

معاوية : وما قال سليمان ؟

الامام : انه قال لبعض أصحابه ، أتدري ما يجب على الملك فى ملكه وما لا يضره إذا أدى الذي عليه منه ، إذا خاف الله في السر والعلانية وعدل في الغضب والرضا ، وقصد في الفقر والغنى ، ولم يأخذ الأموال غصبا ، ولم يأكلها إسرافا وتبذيرا ، ولم يضره ما تمتع به من دنياه إذا كان من خلته (١) .

هذه هي السياسة الصحيحة التي لو سارت عليها الدول لدام لها البقاء وكان الشعب والحكومة في راحة ونعيم ، وقد ادلى الامام « ع » بهذه الآراء القيمة إلى عدوه لأجل المصلحة العامة علّه أن يسير خصمه على ضوء الحق .

الصديق والصاحب :

قال « ع » : ألا اخبركم عن صديق كان لي من اعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما عظم به في عيني صغر الدنيا في عينه ، كان خارجا من سلطان بطنه فلا يتشهى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان خارجا من سلطان الجهالة فلا يمد يدا إلا على ثقة لمنفعة ، كان لا يتشكى ولا يتبرم ، كان أكثر دهره صامتا فاذا قال بذ (٢) القائلين ، كان ضعيفا مستضعفاً فاذا جاء الجد فهو الليث عاديا ، كان إذا جامع العلماء على أن يسمع احرص منه على أن يقول ، كان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت كان لا يقول ما يفعل ويفعل ما لا يقول كان إذا عرض له أمران لا يدري أيهما أقرب إلى الحق نظر اقربهما من هواه فخالفه كان

---

(١) تأريخ اليعقوبي ٢|٢٠٢ .

(٢) بذ اي تفوق وغلب .

لا يلوم أحدا على ما قد يقــع العذر في مثله ، كان لا يقول حتى يرى قاضيا عدلا وشهودا عدولا (١)

وقال « ع » لبعض ولده : يا بني لا تواخ احداً حتى تعرف موارده ومصادره القريب من قربته المودة والبعيد من باعــدته المودة وإن قرب نسبه .

وسأله رجل أن يكون صديقاً له وجليسا ، فقال له « ع » : أياك أن تمدحني فانا اعلم بنفسي منك ، أو تـكذبني فانه لا رأى لمكذوب ، أو تغتاب عندى أحداً ، فقال الرجل : إئذن لي في الانصراف قال له : نعم إذا شئت (٢) .

السخاء والمعروف :

كان « ع » يطوف في بيت الله الحرام فسأله رجل عن معنى الجواد فقال له : إن لكلامك وجهين : فان كنت تسأل عن المخلوق فان الجواد الذي يؤدى ما افترض عليه ، والبخيل الذي يبخل بمــا افترض عليه ، وإن كنت تسأل عن الخـالق فهو الجواد إن اعطى وهو الجواد إن منع لأنه إن أعطى عبداً اعطاه ما ليس له وإن منــع منع ما ليس له (٣) وقال « ع » المعروف ما لم يتقدمه مطل ولا يتبعه منّ ، والاعطاء قبل السؤال من اكبر السؤدد (٤) .

---

(١) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٢ ص ٥٥ ، وذكره غيره مع اختلاف في التعبير .

(٢) تحف العقول ص ٥٥ .

(٣) مجمع البحرين مادة جود .

(٤) اعيان الشيعة ج ٤ ص ٨٨ .

البخل :

قال « ع » البخل جامع للمساوئ والعيوب ، وقاطع للمودات من القلوب .

وسئل « ع » عن البخل فقال : هـو أن يرى الرجل ما انفقه تلفا وما امسكه شرفاً (١) .

التواضع :

قال « ع » : أعرف الناس بحقوق اخوانه واشدهم قضاءاً لها اعظمهم عند الله شأناً ، ومن تواضع في الدنيا لاخوانه فهو عند الله من الصديقين ومن شيعة علي بن أبي طالب « ع » (٢) .

التوكل على الله :

قيل له « ع » : إن أبا ذر كان يقول الفقر أحب إلى من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة . فقال : رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول من اتكل على حسن اختيار الله لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختارها الله له (٣) .

ابطال الجبر :

ورفع أهالي البصرة إليه « ع » رسالة يطلبون منه رأيه في مسألة الجبر (٤) فأجابهم عليه السلام :

---

(١) نهاية الارب في فنون الادب ج ٣ ص ٣٩٨ .

(٢) مجموعة ورام ص ٣١٢ .

(٣) تاريخ ابن كثير ج ٨ ص ٣٩ .

(٤) مبحث الجبر والتفويض من اهم المسائل الكلامية واشكلها ، وقد اضطربت فيها اقوال العلماء واختلفت إلى ابعد الحدود ، وقد شاعت فكرة الجبر في البصرة بسبب الحسن البصري وابي الحسن الاشعري حفيد ابي موسى الاشعري ، وبجمل

من لم يؤمن بالله وقضائه وقدره فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لغلبة لأنه المليك لما ملكهم والقادر على ما أقدرهم فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا فاذا لم يفعلوا فليس هو الذي أجبرهم على ذلك ، فلو اجبر الله الخلق على الطاعة لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصي لاسقط عنهم العقاب ، ولو اهملهم لكان عجزاً فى القدرة ولكن له فيهم المشيئة التي غيبها عنهم فان عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت الحجة عليهم «١» .

تقوى الله :

قال « ع » إن الله لم يخلقكم عبثاً وليس بتارككم سدى ، كتب آجالكم وقسم بينكم معائشكم ليعرف كل ذي منزلة منزلته وإن ما قدر له أصابه وما صرف عنه فلن يصيبه قد كفاكم مؤنة الدنيا وفرغكم لعبادته وحثكم على الشكر وافترض عليكم الذكر وأوصاكم بالتقوى وجعل التقوى منتهى رضاه ، والتقوى باب كل توبة ورأس كل حكمة وشرف كل عمل بالتقوى فاز من فاز من المتقين ، قال الله تبارك وتعالى : « إن للمتقين

فكرة الجبر ان الفعل الصادر من العبد ليس مخلوقا له وإنما هو مخلوق لله تعالى ، وإن ارادة العبد وقدرته لا مدخل لهما في ايجاد الفعل سواء كان الفعل الصادر من العبد باختياره اومضطرا عليه ، وقد تعرض آية الله الأستاذ السيد ابوالقاسم الخوئي سلمه الله فى بحثه إلى المسألة فأوفاها بالتحقيق وبين فساد الجبر والتفويض واثبت (ان الأمر بين الأمرين) وهي الفكرة التى تذهب اليها الشيعة وقد كتبنا ما افاده سلمه الله برسالة مستقلة .

(١) رسائل جمهرة العرب ج ٢ ص ٢٥ .

مفازا » وقال : « وينجي الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » فاتقوا عباد الله واعلموا أن من يتق الله يجعل له مخرجا من الفتن ويسدده في أمره ويهيأ له رشده ، ويفلحه بحجته ويبيض وجهه ويعطيه رغبته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » «١» .

الوعظ والارشاد

قال عليه السلام : يابن آدم عف عن محارم الله تكن عابداً وارض بما قسم الله تكن غنياً ، واحسن جوار من جاورك تكن مسلماً وصاحب الناس بمثل ماتحب أن يصاحبوك به تكن عادلا ، إنه كان بين أيديكم قوم يجمعون كثيراً ويبنون مشيداً ويأملون بعيداً اصبح جمعهم بوراً وعملهم غروراً ومساكنهم قبوراً ، يابن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك ، فجد بما في يديك فان المؤمن يتزود والكافر يتمتع وكان يتلو عقيب كلامه هذا ، قوله تعالى : « وتزودوا فان خير الزاد التقوى (٢) .

وقال عليه السلام : اتقوا عباد الله وجدّوا في الطلب وتجاه الهرب وبادروا العمل قبل مقطعات النقمات وهادم اللذات ، فان الدنيا لايدوم نعيمها ولا تؤمن فجيعتها ولا تتوقى في مساويها ، غرور حائل ، وسناد مائل فاتعظوا عباد الله بالعبر واعتبروا بالأثر وازدجروا بالنعم وانتفعوا بالمواعظ ، فكفى بالله معتصما ونصيرا وكفى بالكتاب حجيجا وخصيما وكفى

---

(١) تحف العقول ص ٥٥ .

(٢) نور الابصار ص ١١٠

بالجنة ثوابا وكفى بالنار عقابا ووبالا (١) .

وعزى عليه السلام رجلا قد مات بعض ذويه فقال له . إن كانت هذه المصيبة احدثت لك موعظة وكسبتك اجراً فهو ، وإلا فمصيبتك في نفسك أعظم من مصيبتك في ميتك (٢) .

وجاءه رجـــل من الاثرياء فقال له : يابن رسول الله اني أخاف من الموت !!!

فقال له عليه السلام : ذاك لأنك أخرت مالك ولو قدمته لسرك أن تلحق به (٣) .

ومر عليه السلام على قوم يلعبون ويضحكون في يوم عيد الفطر فوقف عليه السلام والتفت اليهم قائلا : إن الله جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه يستبقون فيه بطاعته الى مرضاته فسبق قوم ففازوا ، وقصر آخرون فخابوا ، فالعجب كل العجب من ضاحك لاعب في اليوم الذي يثاب فيه المحسنون ويخسر فيه المبطلون ، وأيم الله لو كشف الغطاء لعلموا ان المحسن مشغول باحسانه والمسيء مشغول باسائته . ثم تركهم عليه السلام وانصرف (٤)

وقال عليه السلام : اوصيكم بتقوى الله وادامة التفكر فان التفكر أبو كل خير وأمه .

وقال عليه السلام : من عرف الله احبه ومن عرف الدنيا زهد فيها

(١) كذا وجد في تحف العقول ص ٥٦

(٢) مجموعة ورام ص ٤١١

(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٢٠٢

(٤) جامع السعادات ج٣ ص٣٧٦ ، تحف العقول ص ٥٦ مجموعة ورام ص٥٤

والمؤمن لايلهو حتى يغفل واذا تفكر حزن (١) .

ومر عليه السلام على ميت يراد دفنه فقال : إن امرأ هذا آخره لحقيق بأن يزهــد في اوله ، وان امرا هذا اوله لحقيق أن يخاف من آخره (٢) .

وقال عليه السلام : الناس في دار سهو وغفلة يعملون ولا يعلمون فاذا صاروا الى دار الآخرة صاروا الى دار يقين يعلمون ولايعملون (٣) .

طلب الرزق

قال عليه السلام : لاتجاهد الطلب جهاد الغالب ولا تتكل على القدر إتكال المستسلم فان ابتغاء الفضل من السنة والاجمال في الطلب من العفة وليست العفة بدافعة رزقا ولا الحرص بجالب فضــلا فان الرزق مقسوم واستعمال الحرص استعمال المآثم (٤) .

المساجد

قال عليه السلام : من ادام الاختلاف الى المسجد أصاب ثمان خصال آية محكمة ، وأخا مستفاداً ، وعلماً مستطرفاً ، ورحمة منتظرة ، وكلمة تدله على هدى أو تردعه عن ردى ، وترك الذنوب حياء اوخشية (٥) .

آداب المائدة

قال عليه السلام : غسل اليدين قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي

---

(١) مجموعة ورام صفحة ٣٧

(٢) المحاسن والمساويء للجاحظ صفحة ٢٥٦

(٣) الاثنى عشرية صفحة ٣٧

(٤) تحف العقول صفحة ٥٥

(٥) عيون الاخبار لابن قتيبة ج ٣ ص ٣

الهم (١) .

وقال عليه السلام : في المائدة إثنتاعشرة خصلة يجب على كل مسلم أن يعرفها ، أربع فيها فرض ، واربع سنة ، واربع تأديب .

الفرض : المعرفة ، الرضا ، التسمية ، الشكر .

السنة : الوضوء قبل الطعام ، الجلوس على الجانب الايسر ، الاكل بثلاثة اصابع ولعق الاصابع .

التأديب : الاكل مما يليك ، تصغير اللقمة ، تجويد المضغ . قلة النظر فى وجوه الناس ، (٢)

ولاء اهل البيت

قال له رجل : يابن رسول الله إني من شيعتكم !!!

فقال عليه السلام : ياعبد الله إن كنت لنا فى أوامرنا وزواجرنا مطيعاً فقد صدقت ، وان كنت بخلاف ذلك فلا تزد في ذنوبك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها ، لاتقل أنا من شيعتك ، ولكن قل أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادى اعدائكم وأنت في خير والى خير (٣) .

التحذير من المحرفين لكتاب الله

قال عليه السلام : أيها الناس إنه من نصح لله وأخذ قوله دليل هدى للتي هي أقوم ، وفقه الله للرشاد وسدده للحسنى ، فان جار الله آمن محفوظ وعدوه خائف مخذول ، فاحترسوا من الله بكثرة الذكر واخشوا

---

(١) الاثنى عشرية ص ٣٧

(٢) مصابيح الانوار فى حل مشكلات الاخبار للحجة السيد عبد الله شبر اعلى الله مقامه ج ٢ ص٢٧١ وقد اوضح السيد فقرات الحديث .

(٣) مجموعة ورام صفحة ٣٠١

الله بالتقوى وتقربوا الى الله بالطاعة فانه قريب مجيب ، قال الله تعالى : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون » فاستجيبوا لله وآمنوا به فانه لاينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعاظم ، فان رفعة الذين يعلمون عظمة الله أن يتواضعوا ، والذين يعرفون ماجلال الله ان يتذللوا وسلامة الذين يعلمون ما قدرة الله ان يستسلموا له ولا ينكرون انفسهم بعد المعرفة ولا يضلون بعد الهدى ، واعلموا علماً يقيناً انكم لن تعرفوا التقى حتى تعرفوا صفة الهدى ولن تمسكوا بميثاق الكتاب حتى تعرفوا الذي نبذه ولن تتلوا الكتاب حق تلاوته حتى تعرفوا الذي حرفه ، فاذا عرفتم ذلك عرفتم البدع والتكلف ورأيتم الفرية على الله ورأيتم كيف يهوي من يهوي ولا يجهلنكم الذين لايعلمون ، والتمسوا ذلك عند أهله فانهم خاصة نور يستضاء بهم وأئمة يقتدى بهم ، بهم عيش العلم وموت الجهل وهم الذين اخبركم حلمهم عن جهلهم ، وحكم منطقهم عن صمتهم ، وظاهرهم عن باطنهم لايخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، وقد خلت لهم من الله سابقة ومضى فيهم من الله حكم ، إن في ذلك لذكرى للذاكرين ، واعقلوه اذا سمعتموه عقل رعاية ، ولا تعقلوه عقل رواية فان رواة الكتاب كثير ورعاته قليل والله المستعان (١) .

الشاهد والمشهود

وجاء رجل الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله ليسأل عن المراد من قوله تعالى : « وشاهد ومشهود » فرأى في المسجد ثلاثة اشخاص قد احتف بكل واحد منهم جمع من الناس وهم يحدثونهم عما سمعوه من

(١) كذا وجد في تحف العقول صفحة ٥٣

رسول الله صلى الله عليه وآله من الاحكام والآداب فقصد واحدا منهم فسأله عن مسألته ؟ !!!

فقال له : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة . ثم انعطف الى الثاني ، فسأله عن مسألته ؟ !!!

فقال له : الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم النحر . ثم انعطف نحو الشخص الثالث فسأله عن مسألته ؟ !!!

فقال له : الشاهد رسول الله صلى الله عليه وآله والمشهود يوم القيامة ودعم كلامه بالبرهان قائلا : أما سمعت الله يقول في كتابه العزيز : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيرا » وقال تعالى : « وذلك يوم مشهود » فسأل من هو الاول ؟ قيل له هو عبد الله بن عباس (١)

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي صلى الله عليه وآله امه ام الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وقيل بخمس وقد دعا له رسول الله صلى الله عليه وآله فقال اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل وقال صلى الله عليه وآله : اللهم زده علما وفقها ، فكان ببركة دعاء رسول الله (ص) من اساطين العلماء ، وقال مسروق إذا رايت عبد الله بن عباس قلت اجمل الناس فاذا تكلم قلت افصح الناس وإذا تحدث قلت اعلم الناس ، وقيل لو سمعت فارس والروم والترك كلامه لأسلمت ، وقد عمي في آخر عمره فقال :

إن يأخذ الله من عيني نورهما   ففي لساني وقلبي منهما نور
قلبي ذكي وعقلي غير ذي دخل   وفي فمي صارم كالسيف مأثور

مات في الطائف سنة ثمان وستين في ايام ابن الزبير وكان عمره سبعين سنة وقيل إحدى وسبعون وقيل اربع وسبعون ، وصلى عليه محمد بن الحنفية وكبر عليه اربعاً وقال : اليوم مات رباني هذه الامة جاء ذلك في الاستيعاب المطبوع على —

فسأل من هو الثاني ؟ قيل له عبد الله بن عمر (١) .

فسأل من هو الثالث ؟ قيل له الحسن بن علي (٢) .

بعض خطبه :

وكان عليه السلام خطيباً مفوهاً من أبرع الخطباء واقدرهم على الارتجال والابداع في القول والياك أيها القارىء الكريم بعضاً من خطبه :

قال عليه السلام : نحن حزب الله المفلحون ، وعترة رسول الله صلى الله عليه وآله الاقربون ، وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله صلى الله عليه وآله ، والثاني كتاب الله فيه تفصيل كل شيء لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء لايخطئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه ، فاطيعونا فاطاعتنا مفروضة إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولي الامر مقرونة « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ولو ردوه الى الرسول والى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وأحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان إنه

ـ هامش الاصابة ج ٢ ص ٣٥٠

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب ولد بعد المبعث النبوي بثلاث سنين ومات سنة اربع وثمانين من الهجرة ، وقيل غير ذلك ، جاء ذلك في الاصابة ج ٢ ص ٣٤٧ وجاء في الاستيعاب ج ٢ ص ٣٤٣ انه لم يتبع علياً وقعد وندم على ذلك ولما حضرته الوفاة قال : ما اجد في نفسي شيئاً إلا اني لم اقاتل الفئة الباغية مع علي بن أبي طالب عليه السلام وذكر المسعودي في مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ جماعة تخلفوا عن بيعة علي ذكر منهم عبد الله بن عمر وكان سبب تخلفهم خروجاً عن الامر ، ومخالفة لعلي عليه السلام .

(٢) الفصول المهمة لابن الصباغ ص ١٦٠ .

لكم عدو مبين فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : « لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم إني أرى مالا ترون » فتلقون للرماح أزرا ، وللسيوف جزرا ، وللعمد خطأً ، وللسهام غرضاً ، ثم لاينفع نفساً إيمانها مالم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا ، والله اعلم .

ومرض الامام علي عليه السلام يوماً فأمر الحسن ان يصلي بالناس صلاة الجمعة ، فصعد عليه السلام المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله لم يبعث نبيا إلا اختار له نفساً ورهطاً وبيتا ، فو الذي بعث محمدا بالحق لاينتقص من حقنا أهل البيت أحد إلا نقصه الله من عمله ، مثله ولا يكون علينا دولة إلا وتكون لنا العاقبة ، ولتعلمن نبأه بعد حين (١)

كلماته الحكمية القصار :

فضح الموت الدنيا (٢) .

كن في الدنيا ببدنك وفي الآخرة بقلبك .

اجعل ماطلبت من الدنيا فلم تظفر به بمنزلة مالم يخطر ببالك .

ماتشاور قوم إلا هدوا الى رشدهم .

إن من طلب العبادة تزكى لها .

المزاح يأكل الهيبة وقد اكثر من الهيبة الصامت .

تجهل النعم ما أقامت فاذا ولت عرفت .

الوعد مرض في الجود والانجاز دواؤه .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ صفحة ٣٠٦

(٢) مجموعة ورام صفحة ٢٠١ ، وقال خالدبن صفوان افصح الناس الحسن ابن علي عليه السلام لقوله هذه الكلمة الذهبيه التى مثلت الاعجاز والابداع والايجاز

المسؤول حر حتى يعد ومسترق بالوعد حتى ينجز .

لاتعاجل الذنب بالعقوبة ، واجعل بينهما للاعتذار طريقاً .

قطع العلم عذر المتعلمين .

اليقين معاذ السلامة .

لايغش العاقل من استنصحه :

إذا أضرت النوافل بالفريضة فاتركوها .

الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

وسأله شخص عن الصمت ؟ فقال «ع» : هو ستر العي وزين العرض وفاعله في راحة وجليسه في أمن .

فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها .

أشد من المصيبة سوء الخلق .

من تذكر بعد السفر إعتد .

القريب من قربته المودة وإن بعد نسبه ، والبعيد من باعدته المودة وإن قرب نسبه .

وقال «ع» : لرجل قد برىء من مرضه : إن الله قد ذكرك فاذكره وأقالك فاشكره .

إن لم تطعك نفسك فيما تحملها عليه مما تكره فلا تطعها فيما تحملك عليه مما تهوى .

من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه .

العار أهون من النار .

قال «ع» لأصحابه : هل رأيتم ظالماً أشبه بمظلوم ؟ قالوا وكيف ذاك يابن رسول الله ؟ ! !

قال : الحاسد ، فانه فى تعب ومن حسده فى راحة .
مروءة القناعة والرضا أكثر من مروءة الاعطاء .
تمام الصنيعة خير من ابتدائها .

نظمه للشعر :

إما نظم الامام «ع» للشعر فقليل وقد تقدمت فى بحوث هذا الكتاب أبيات نسبت له ولكن ابن رشيق قد عد الامام «ع» من الشعراء واستشهد له ببيت واحد كان الامام قد أنشده وهو مختضب بالسواد فقال «ع» :

نسود أعلاها وتأبى أصولها   فليت الذي يسود منها هو الأصل(١)

وجاء فى أعيان الشيعة أنه «ع» قال في الوعظ :

ذرى كدر الأيام ان صفاءها   تولى بأيام السرور الذواهب
وكيف يغر الدهر من كان بينه   وبين الليالي محكمات التجارب

وجاء في المناقب أنه «ع» قال :

لئن ساءني دهر عزمت تصبرا   وكل بلاء لايدوم يسير
وإن سرني لم أبتهج بسروره   وكل سرور لايدوم حقير

إلى هنا ينتهي بنا الحديث عن تراثه ومثله :

---

(١) العمدة ج ١ ص ٢١ ومعنى البيت : إنا نسود الظاهر من الشعر ولكن جذوره تأبى إلا البقاء على الشيب .



واستقبل جمهور المسلمين خلافة الامام أمير المؤمنين بمزيد من السرور والابتهاج واتساع الأمل والرجاء فقد أيقنوا أن الامام سيرجع لهم الحريات المنهوبة . ويحطم عنهم أركان العبودية التي أقامها الحكم الأموي المهدوم ، ويعيد لهم عهد النبوة الزاهر الذي انبسطت فيه الرحمة ، وعم فيه العدل والرجاء ، وانهم سينعمون ـ من دون شك ـ في ظل حكمه العادل الذي لايعرف الإثرة والإستغلال ، ولا يميز قوماً على آخرين لقد وثق الجمهور أن الامام سيحقق لهم الأهداف النبيلة التي يصبون إليها من تحقيق العدل الاجتماعي والعدل السياسي في البلاد ، وتطبيق المبادىء والنظم التي جاء بها الاسلام ، والقضاء على جميع الفوارق والامتيازات التي خلفها عثمان ، وقد هبوا بجميع طبقاتهم إلى الامام وهم يهتفون باسمه ، ويعلنون رغبتهم الملحة فى أن يلي أمورهم ليحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، ونضع بين يدي القراء صورة مجملة عن البيعة وعن الأحداث التي رافقتها وهي :

البيعة :

واجتمع المهاجرون والأنصار ومعهم الثوار وبقية الجماهير ومن بينهم طلحة والزبير فهرعوا إلى الامام أمير المؤمنين وهو معتزل بداره فأحاطوا به من كل جانب وقالوا له :

« ياأبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل . ولابد للناس من إمام . ولا نجد اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لاأقدم سابقة ، ولا أقرب قرابة من رسول الله . . » .

فامتنع الامام من أجابتهم وقال لهم :

« لاحاجة لي فى أمركم فمن اخترتم رضيت به . . »

فهتفوا بلسان واحد

« ما نختار غيرك . . »

وكثر اصرار الجماهير على الامام ولكنه لم يستجب لهم فخرجوا منه ولم يظفروا بشيء ، وعقدت القوات المسلحة اجتماعاً خاصاً عرضت فيه الأحداث الخطيرة التي تواجه الأمة إن بقت بلا إمام يدير شؤونها ، وقد قررت على احضار المدنيين وارغامهم على انتخاب إمام للمسلمين فقالوا لهم :

« أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة . وحكمكم جائز على الأمة فانظروا رجلا تنصبونه ، ونحن لكم تبع ، وقد أجلناكم يومكم ، فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن علياً وطلحة والزبير وتذهب من أضحية ذلك أمة من الناس . . » (١)

وفزع المدنيون بعد هذا الانذار والتهديد إلى الامام أمير المؤمنين ، وهم يهتفون بلسان واحد

البيعة . البيعة

أما ترى ما نزل بالاسلام ، وما ابتلينا به من أبناء القرى

وأجابهم الامام بهدوء قائلا :

« دعوني والتمسوا غيري . »

ثم أعرب لهم عن السر في توقفه من قبول الخلافة قائلا :

« أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله ألوان لاتقوم به القلوب ولا تثبت عليه العقول . . » (٢)

لقد علم عليه السلام بما دب في نفوس الأمة من الشر ، وبما ساد في نفوس زعمائها من الأهواء لاسيما ولاة عثمان وأسرته ومن يمت إليه فانهم

(١) تاريخ ابن الأثير ٣|٨٠

(٢) شرح النهج محمد عبده ١|١٨٢

جميعاً سيقفون أمامه ويحولون بينه وبين تحقيق أهدافه العريضة ، ولابد أن يخلقوا المشاكل والمصاعب في وجه حكومته لذلك أصر على الامتناع من قبول الأمر .

وفكر الامام فى الأمر فقال لهم :

« إني إن أجبتكم ركبت بكم ماأعلم ، وإن تركتموني فانما أنا كأحدكم ألا واني من أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه . . »

وصاحوا به هاتفين :

« مانحن بمفارقيك حتى نبايعك » .

وقد وصف عليه السلام مدى انثيالهم عليه وشدة اصرارهم واقبالهم عليه بقوله :

« فما راعني إلا والناس كعرف الضبع إلى (١) ينثالون عليّ من كل جانب حتى لقد وطيء الحسنان وشق عطفاي (٢) مجتمعين حولي كربيضة الغنم (٣) »

وأجلهم الامام إلى صباح اليوم الآخر لينظر فى الأمر فافترقوا على ذلك ، وقد خيم الليل على سماء المدينة وبرك بحمله على بيوتها فبات المدنيون ولكن في غير هدوء واطمئنان ، ولما أصبح الصبح اجتمع الناس فى الجامع الأعظم فاقبل الامام ، واعتلى أعواد المنبر فخطب فيهم قائلا :

---

(١) عرف الضبع : الشعر الكثير الذي يكون على عنق الضبع يضرب به المثل فى الكثرة والازدحام .

(٢) شق عطفاي : المراد انه خدش جانباه من كثرة زحام الناس عليه من اجل البيعة .

(٣) ربيضة الغنم : الطائفة الرابضة من الغنم يصف عليه السلام جثومهم بين يديه .

« يأيها الناس ، إن هذا أمركم ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم وقد افترقنا بالأمس وكنت كارهاً لأمركم فأبيتم إلا أن أكون عليكم ألا وانه ليس لي أن آخذ درهماً دونكم فان شئتم قعدت لكم والا فلا أأخذ على أحد . . »

وتعالى هتاف الجماهير بلهجة واحدة

« نحن على مارقناك عليه بالأمس . . »

« اللهم اشهد عليهم . »

وتدافع الناس كالموج المتلاطم إلى البيعة ، وتقدم طلحة فبايع بتلك اليد التي سرعان مانكث بها عهد الله (١) وجاء بعده الزبير فبايع كما بايع رفيقه وبايعه الوفد المصري والوفد العراقي ، وبايعه الجمهور العام ولم يظفر أحد من الخلفاء بمثل هذه البيعة في شمولها ، وعمت المسرة جميع المسلمين وقد وصف الامام مدى سرور الناس ببيعته بقوله :

« وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب . »

لقد ابتهج المسلمون ببيعتهم إلى وصي رسول الله وباب مدينة علمه ، وعمت الأفراح جميع أنحاء البلاد فقد أطلت على عالم الوجود حكومة العدل والمساواة ، وتقلد الخلافة امام الحق ، وناصر المظلومين ، وأبو الأيتام الذي واسى الفقراء والمحرومين في سغبهم ومحنهم ، القائل في دور حكمه .

« أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدهر أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش . . »

---

(١) كانت يد طلحة شلاء فتطير منها الامام ، وقال ماأخلقه ان ينكث فكان كما قال جاء ذلك في العقد الفريد ٣/٩٣

لقد نشرت في ذلك اليوم الخالد ألوية العـدالة الكبرى ، وتحققت الأهداف الأصيلة التي ينشدها الإسلام فى عالم السياسة والحكم فلا استغلال ولا مواربة ولا استبداد ولا انقياد للنزعات والعواطف كل ذلك حققه ابن أبي طالب في دور خلافته وحكمه .

تأييد الصحابة :

وانبرى كبار الصحابة وأعلام الاسلام من الذين آمنوا بحق أمير المؤمنين منذ وفاة النبي فأبدوا سرورهم البالغ بهذه البيعة ، وأعلنوا تأييدهم الشامل لحكومة الامام وحثوا المسلمين إلى تدعيمها وهم :

١ ــ ثابت بن قيس

ووقف ثابت بن قيس خطيب الأنصار فخاطب الامام قائلا :

« والله ياأمير المؤمنين لئن كان قد تقدموك فى الولاية فما تقدموك في الدين ولئن كانوا سبقوك أمس لقد لحقتهم اليوم ، ولقد كانوا وكنت لايخفى موضعك ، ولا يجهل مكانك ، يحتاجون إليك فيما لايعلمون وماالحتجت إلى أحد مع علمك . . »

٢ ــ خزيمة بن ثابت

وانطلق الصحابي العظيم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين فقال :

« ياأمير المؤمنين ، ماأصبنا لأمرنا هذا غيرك ولا كان المنقلب إلا إليك ولئن صدقنا أنفسنا فيك لأنت أقدم الناس إيماناً ، واعلم الناس بالله وأولى المؤمنين برسول الله (ص) لك مالهم وليس لهم مالك . . »

وجرت على لسانه أبيات من الشعر فخاطب الجماهير بها :

إذا نحن بايعنا علياً فحسبنا أبو حسن مما نخاف من الفتن

وجدناه أولى الناس بالناس انه ... أطب قريش بالكتاب وبالسنن
وإن قـريشاً ماتشق غباره ... إذا ماجرى يوماً على الضمر البدن
وفيه الذى فيهم من الخير كله ... وما فيهم كل الذى فيه من حسن (١)

٣ – صعصعة بن صوحان

وقام صعصعة بن صوحان فقال للامام :

« والله ياأمير المؤمنين لقد زينت الخلافة ومازانتك ، ورفعتها ومارفعتك ولهي إليك أحوج منك إليها ، . » (٢)

٤ – مالك الأشتر

واندفع الزعيم الكبير مالك الأشتر فخاطب المسلمين قائلا :

« أيها الناس هذا وصي الأوصياء ، ووارث علم الأنبياء ، العظيم البلاء الحسن العناء ، الذي شهد له كتاب الله بالأيمان ورسوله بجنة الرضوان ، من كملت فيه الفضائل ، ولم يشك في سابقته وعلمه وفضله الأواخر ولا الأوائل . . »

---

(١) مستدرك الحاكم ٣ ١١٥ وذكر السيد المرتضى في الفصول المختارة ٦٧/٢ زيادة على هذه الأبيات وهي :

وصي رسول الله من دون اهله ... وفارسه قد كان في سالف الزمن
واول من صلى من الناس كلهم ... سوى خيرة النسوان والله ذو المنن
وصاحب كبش القوم في كل وقعة ... يكون لها نفس الشجاع لدى الذقن
فذاك الذي تثنى الخناصر باسمه ... امامهم حتى اغيب في الكفن

(٢) وبهذا المضمون قال الامام احمد بن حنبل : « إن الخلافة لم تزين علياً بل علي زانها » ذكر ذلك ابن الجوزي في مناقب احمد ص ١٦٣ .

٥ ـ عقبة بن عمرو

وقام عقبة بن عمرو فأشاد بفضل الامام قائلا :

« من له يوم كيوم العقبة ، وبيعة كبيعة الرضوان ، والامام الأهدى الذي لايخاف جوره ، والعالم الذي لايخاف جهله . . » (١)

وتتابعت الصحابة وهي تشيد بفضائل أبي الحسين وتذكر مناقبه ومآثره وتدعوا المسلمين إلى تأييد حكومته .

وجوم القرشيين :

واستقبلت قريش وسائر القوى المنحرفة عن الحق خلافة الامام أمير المؤمنين فى كثير من الوجوم والقلق والاضطراب لأن الامام قد وترهم في سبيل الدعوة الاسلامية وقضى على الكثير من عيونهم ووجوههم فقد قتل من أعلام بني أمية عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وحنظلة أخاه وقتل غير هؤلاء من أقطاب الشرك ودعائم الالحاد ما أوغر به الصدور وأثار الحفائظ عليه ومضافاً لذلك فان سياسة الامام تتصادم مع مصالحهم ومنافعهم فانها تحارب الإثرة والاستغلال ، ولا تقر بأي حال من الأحوال سياسة النهب والإيثار التي سار عليها عثمان لذلك أظهرت قريش تمردها على حكومته ، وقد أعرب عن هذه المناحي بأسرها الوليد حينما حمل على البيعة ومعه الأمويون فقال للإمام :

« إنك وقد وترتنا جميعاً أما أنا فقتلت أبي صبراً يوم بدر ، وأما سعيد فقتلت أباه يوم بدر وكان أبوه من نور قريش ، وأما مروان فشتمت أباه وعبت على عثمان حين ضمه إليه ، فنبايع على أن تضع عنا ماأصبنا

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢|١٥٥ .

وتعفي لنا عما في أيدينا ، وتقتل قتلة صاحبنا . . »

فرد عليه الامام مقالته وأجابه بمنطق الاسلام الذى لاتعيه قريش قائلا :

« أما ماذكرت من وتري إياكم فالحق وتركم ، وأما وضعي عنكم عما فى أيديكم فليس لي أن أضع حق الله ، وأما إعفائي عما في أيديكم فما كان لله وللمسلمين فالعدل يسعكم ، وأما قتلي قتلة عثمان فلو لزمني قتالهم اليوم لزمني قتالهم غداً ولكن لكم أن أحملكم على كتاب الله وسنة نبيه فمن ضاق الحق فالباطل عليه أضيق ، وإن شئتم فالحقوا بملاحقكم . . »(١)

ان قريشا تريد المساومة من الامام على أموال الأمة ، وتريد منه أن ينحرف عن خطته القويمة التي تنشد المصلحة العامة ، وحمل الناس على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، ولكن الامام قد عاهد الله وعاهد المسلمين أن يطبق أحكام القرآن ويحيي معالم الإسلام ، ويسير على ضوء سنة النبي (ص) وأن لاينصاع للأحداث والظروف مهما كانت قاسية وشديدة ، وأن يقف بالمرصاد لكل ظالم ومعتد على المسلمين ، لذا أظهرت قريش حقدها البالغ على حكومته ، وهبت بأحلافها وأبنائها على اعلان التمرد والعصيان ، ويصف ابن أبي الحديد مدى اضطرابهم وقلقهم بقوله :

« كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه من اظهار مافي النفوس وهيجان مافي القلوب حتى الأحلاف من قريش ، والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه ، وفتكاته في أسلافهم وآبائهم فعلوا مالو كانت الأسلاف أحياءاً لقصرت عن فعله . . »

لقد امتحن الامام امتحاناً عسيراً بهؤلاء العتاة الذين لم ينفذ الاسلام الى قلوبهم ومشاعرهم ، وقد أترعت نفوسهم بالحقد عليه لأنه وقف إلى

(١) تاريخ اليعقوبي ٢|١٥٥

جانب النبي (ص) يحمي دعوته ، ويصد عنه اعتداء الغادرين والمعتـــدين وأطاح برؤوس الكافرين والملحدين منهم ، وقد أعرب عن مدى استيائه منهم بقوله :

« مالي ولقريش لقد قتلتهم كافرين ، ولأقتلنهم مفتونين . . والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته . . فقل لقريش فلتضج ضجيجها . »

لقد وجدت قريش على الامام وحالت بينه وبين حقه منذ وفاة النبي (ص) فصرفت عنه الخلافة تارة إلى تيم وأخرى إلى عدي ، وثالثة إلى أمية ، وهي جادة على أن تخلق الشغب والتمرد حتى تجهز على حكومته ، وقد ظهر ذلك منها في موقعة الجمل وصفين .

القعاد :

وتخلف جماعة عن البيعة لأمير المؤمنين سماهم المسعودي با (لقعاد) (١) وسماهم أبو الفداء با « لمعتزلة » (٢) وسئل الامام عنهم فقال : « أولئك قوم قعدوا عن الحق ولم يقوموا مع الباطل » (٣) وهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وحسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد ، وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة ، والنعمان بن بشير ، وزيد بن ثابت ورافع بن خديج ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، وعبد الله بن سلام وصهيب بن سنان ، وسلامة بن سلامة ، وأسامة بن زيد ، وقدامة بن مظعون

---

(١) مروج الذهب المطبوع على هامش ابن الأثير ٦/٧٨ – ٧٩ .

(٢) تاريخ ابي الفداء ١/١٧٨ – ١٧٩ .

(٣) الاستيعاب ٣/٥٥ .

والمغيرة بن شعبة (١) وهؤلاء قد انحرفوا عن الحق وضلوا عن الطريق فان بيعة الامام قد قام عليها الاجماع وليس لهم أي عذر في التأخر عن مبايعته فتخلفهم كان خرقاً للاجماع ، وخروجاً على ارادة الأمة ، وقد فتحوا بذلك باب البغي والتمرد على حكومة الامام ، وأشعلوا نار الفتنة في البلاد ، وقد اعتذر سعد بن أبي وقاص أحد العشرة المبشرة في الجنة ـ كما يقولون ـ عن سبب اعتزاله عن الامام وعن بني أمية أيام الفتنة الكبرى فقال : إني لا أقاتل حتى يأتوني بسيف مبصر عاقل ناطق ينبئني أن هذا مسلم وهذا كافر ، وهو اعتذار مهلهل لايدعمه منطق ولابرهان فان بيعة الامام كانت شرعية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة فقد اصحر بها الامام وبايعه جمهور المسلمين ولم تكن بيعته فلتة كبيعة أبي بكر ، ولا بادلاء شخص معين كبيعة عمر ، ولم تستند إلى جماعة معينة كبيعة عثمان فالفئة التي خرجت عليه كانت باغية يجب قتالها كما أمر الله بذلك قال تعالى : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » ولكن سعداً كان يحمل حقداً على الامام وهو الذى وهب صوته إلى عبد الرحمن بن عوف لاضعاف كفة الامام كما بينا ذلك في حديث الشورى ، وأخيراً ندم على مافرط في أمره وود أن يكون مع الامام ، كما ندم عبد الله بن عمر فقال عند موته : إني لم أخرج من الدنيا وليس في قلبي حسرة إلا تخلفي عن علي ، وقد انتقم الله منه فأراه الذل والهوان في أواخر أيامه فقد عاش إلى زمن عبد الملك فجاء الحجاج ليأخذ البيعة له فجاء عبد الله في آخر الناس لئلا يراه أحد فعرف الحجاج ذلك فاحتقره واستهان به وقال له :

« لمَ لم تبايع أبا تراب وجئت تبايع آخر الناس لعبد الملك أنت أحقر

(١) الكامل لابن الأثير ٣|٧٤ .

من أن أمد لك يدي دونك رجلي فبايع . . »

ومد إليه رجله وفيها نعله فبايعها ، ان هؤلاء القعاد يعلمون - من دون شك - ان الحق مع علي وانه أولى بالأمر من غيره لسابقته في الاسلام ولعلمه وفقهه وتحرجه في الدين ولكن الأهواء ودواعي الغرور هي التي باعدت بينهم وبين دينهم فناصبوا عترة نبيهم وأبعدوهم عن مراتبهم التي رتبهم الله فيها فإنا لله وإنا إليه راجعون .

مصادرة الاموال المنهوبة :

وكانت فاتحة الأعمال التي قام بها الامام أمير المؤمنين أن أصدر قراره الحاسم برد القطائع التي أقطعها عثمان ، وباسترجاع الأموال التي استأثر بها والأموال التي منحها لذوي قرباه لأنها أخذت بغير وجه مشروع ، وقد صودرت أموال عثمان حتى سيفه ودرعه ، وفي ذلك يقول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم :

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم ... ولا تنهبوه لاتحل مناهبه
بني هاشم كيف الهوادة بيننا ... وعند علي درعه ونجائبه
بني هاشم : كيف التودد منكم ... وبز ابن أروى فيكم وحرائبه
بني هاشم : ألا تردوا فاننا ... سواء علينا قاتلاه وسالبه
بني هاشم إنا وما كان منكم ... كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه
قتلتم أخي كيما تكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه

فرد عليه عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بأبيات منها :

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم ... أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
وشبهته كسرى وقد كان مثله ... شبيهاً بكسرى هديه وضرائبه

وقد أثارت هذه الاجراءات العادلة سخط الذين استباحوا نهب أموال المسلمين وتمرغوا بالدنيا فقد كتب عمرو بن العاص إلى معاوية رسالة جاء فيها «ماكنت صانعاً فاصنع إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه، كما تقشر عن العصا لحاها» (١)

وأوجس خيفة كل من طلحة والزبير ومن شابهما ممن أقطعهم عثمان ووهبهم الأموال الطائلة والثراء فخافوا على مافي أيديهم من أن يصدر الحكم بمصادرته فأظهروا بوادر الشقاق والبغي وأعلنوا التمرد على الامام .

عزل الولاة :

ومضى أمير المؤمنين يؤسس معالم العدل في البلاد فأصدر أوامره بعزل ولاة عثمان واحداً بعد واحد لأنهم أظهروا الجور والفساد في الأرض . وقد أبى الامام أن يبقيهم في جهاز الحكم لحظة واحدة لأن في ابقائهم اقراراً للظلم والطغيان ، وقد عزل بالفور معاوية بن أبي سفيان ، وقد نصحه جماعة من المخلصين له أن يبقيه على عمله حتى تستقر الحال فأبى وامتنع من المداهنة في دينه ، وقد دخل عليه زياد بن حنظلة ليعرف رأيه في معاوية فقال له الامام :

— تيسر يازياد

— لأي شيء ياأمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام

— الرفق والأناة أمثل

فأجابه الامام :

متى تجمع القلب الذكي وصارما ... وأنفا حميا تجتنبك المظالم

---

(١) الغدير ٨/٢٨٨ .

وعبأ جيوشه لغزو الشام والقضاء على الحكم الأموي الجاثم عليها الا انه فوجيء بتمرد طلحة والزبير وعائشة فانشغل بهم وانصرف إلى القضاء على تمردهم كما سنبينه بالتفصيل في البحوث الآتية .

اعلان المساواة :

وانطلق رائد العدالة الاجتماعيـــة الكبرى في الارض فاعلن المساواة العادلة بين جميع المسلمين سواء فى العطاء أو في غيره ، وقد عوتب على خطته فاجاب :

« أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ، والله ما أطور به ما سمر سمير ، وما أم نجم في السماء نجما . لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مالُ الله ! الا وإن اعطاء المال في غير حقــه تبذير واسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله » (١)

إن المساواة التي اعلنها الإمام كانت تهدف إلى ايجاد مجتمع لاتطغى فيه العنصريات والقوميات ، ولا يوجد فيه بائس ومحروم وعاطل ، وينعدم فيه الظلم والطغيان والإستبداد والاستغلال .

ان المساواة التي طبقها الامام في دور حكمه كانت ترتكز على المفاهيم الإسلامية البناءة التي تهدف إلى تطبيق العدل السياسي والعدل الاجتماعي في الأرض ، والى القضاء على جميع افانين الظلم وضروب الجور والاستبداد وقد هبت القوى النفعية الى معارضتها كما ناجزت الرسول في بدء دعوته ، وناهضت مبادءه وأهدافه .

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢|١٠ .

وصاياه لولده الحسن :

وللامام أمير المؤمنين وصايا تربوية لولده الحسن حافلة بالقيم العليا والمثل الانسانية الكريمة ، وأهمها وصيته الخالدة التي كتبها بحاضرين (١) حال انصرافه من صفين ، وقد حفلت بالدروس القيمة ، والآداب الاجتماعية ، وحقا أن ترسم على صفحات القلوب ، وأن يجعلها المسلمون دستورا لهم في سلوكهم الفردي والاجتماعي ، ونسوق الى القراء بعضا من فصولها :

« من الوالد الفان المقر للزمان (٢) المدبر العمر ، المستسلم للدهر ، الذام للدنيا ، الساكن مساكن الموتى ، والظاعن عنها غدا ، إلى المولود المؤمل مالايدرك (٣) السالك سبيل من قد هلك غرض الاسقام ، ورهينة الايام ، ورمية المصائب (٤) وعبد الدنيا ، وتاجر الغرور ، وغريم المنايا. وأسير الموت ، وحليف الهموم ، وقرين الأحزان ونصب الآفات (٥) وصريع الشهوات ، وخليفة الاموات ... » .

لقد اعرب عليه السلام بهذه الكلمات الذهبية عن استسلامه للدهر وإدباره عن الدنيا فقد كان عمره الشريف حين كتابته لهذه الوصية ينيف

---

(١) حاضرين : احدى نواحي صفين .

(٢) المقر للزمان ـ اي ـ المعترف له بالشدائد والمصاعب .

(٣) المؤمل مالايدرك : يؤمل البقاء والخلود في الدنيا وذلك لايدركه أحد .

(٤) رمية : هدف المصائب .

(٥) النصب : ـ بالضم ـ الذي لا تفارقه الآفات .

على ستين عاماً ، وهو سن من يفارق الحياة ، ويقبل على الآخرة ، وقد وصف كل من يولد في الدنيا بأنه يؤمل ما لا يدركه ، في الوقت الذي يسلك فيه سبيل الهالكين ، وانه غرض للاسقام وحليف للهموم والاحزان وقد ذكر « ع » بعد هذا الاسباب الوثيقة التي دعته لرسم هذه الوصية فيقول :

« . . . أما بعد ، فان فيما تبينت من إدبار الدنيا عني ، وجموح الدهر عليّ « ١ » ، وإقبال الآخرة إليّ ، ما يزعني عن ذكر من سواى والاهتمام بما ورائى « ٢ » غير أنى حيث تفرد بي - دون هموم الناس - هم نفسى ، فصدقنى رأيي وصرفني عن هوائي ، وصرح لي محض أمري ، فأفضى بي إلى جد لا يكون فيه لعب ، وصدق لا يشوبه كذب ، ووجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كأن شيئا لو أصابك اصابني . وكأن الموت لو أتاك أتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من امر نفسى ، فكتبت إليك (كتابى) مستظهرا به (٣) إن أنا بقيت لك أو فنيت . . . »

وبعد ما ذكر العوامل التي دعته لأن يرسم هـذه الوصية شرع في بيان المثل الكاملة التي ينبغي لولده أن يتمسك بها ويسير عليها فقال :

« . . . فانى أوصيك بتقوى الله ولزوم أمره ، وعمارة قلبك بذكره والاعتصام بحبله ، وأى سبب أوثق من سبب بينك وبين الله إن أنت أخذت به ؟ أحي قلبك بالموعظة ، وأمته بالزهادة ، وقوه باليقين ، ونوره

---

(١) الجموح : التغلب والاستعصاء .

(٢) يريد به امر الآخرة .

(٣) مستظهراً اى مستعينا .

بالحكمة ، وذلله بذكر الموت ، وقرره بالفناء (١) ، وبصره فجائع الدنيا وحذره صولة الدهر ، وفحش تقلب الليالي والأيام ، وأعرض عليه أخبار الماضين وذكره بما اصاب من كان قبلك من الأولين ، وسر في ديارهم وآثارهم ، فانظر فيما فعلوا ، وعما انتقلوا ، وأين حلوا ونزلوا ؛ فانك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة وحلوا ديار الغربة ، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم ، فاصلح مثواك . ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والخطـاب فيما لم تكلف وأمسك عن طريق إذا خفت ضلالته ، فان الكف عند حيرة الضلال خير من ركوب الأهوال ، وأمر بالمعروف تكن من أهله وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله بجهدك ، وجاهد في الله حق جهاده ، ولا تأخذك في الله لومـة لائم ، وخض الغمرات (٢) للحق حيث كان ، وتفقه في الدين ، وعود نفسك التصبر على المكروه ، ونعم الخلق التصبر (في الحق) وألجيء نفسك في الأمور كلها إلى إلهك فانك تلجئها إلى كهف حريز (٣) ، ومانع عزيز وأخلص في المسألة لربك فان بيده العطاء والحرمان ، وأكثر الاستخارة (٤) ، وتفهم وصيتي ، ولا تذهبن عنها صفحا (٥) فان خير القول ما نفع ، وأعلم أنه لا خير في علم لا ينفع ، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه (٦) .

---

(١) قرره : اي اطلب منه الاقرار بالفناء .
(٢) الغمرات : الشدائد .
(٣) الكهف : الملجأ ، الحريز ، الحافظ .
(٤) الاستخارة اجالة الراي في الأمر قبل فعله لاختيار احسن وجوهه .
(٥) صفحا : اي جانبا ، والمراد انك لا تعرض عنها .
(٦) لا يحق ـ بكسر الحاء وضمها ـ اي : لا يكون من الحق تعلمه ومعرفته وذلك كالسحر والشعبذة ونحوها من العلوم التي لا تنفع .

إن هذه الحكم التي تضمنها كلامه الشريف هي برامج السعادة وخلاصة الحكمة والآداب والتهذيب ، ويعرب « ع » في كلماته الآتية عن بلوغه سن الشيخوخة وهو يخاف أن يهجم عليه الموت دون أن يدلي بهذه الحكم إلى ولده فيقول :

« . . أي بني ، إني لما رأيتني قد بلغت سنا (١) ورأيتني أزداد وهنا بادرت بوصيتي إليك ، وأوردت خصالا منها قبل أن يعجل بي أجلي دون أن أفضي (٢) إليك بما في نفسي ، وأن انقص (٣) في رأيي كما نقصت في جسمي ، أو يسبقني إليك بعض غلبات الهوى ، أو فتن الدنيا (٤) ، فتكون كالصعب النفور (٥) ، وإنما قلب الحدث كالارض الخالية ، ما ألقي فيها من شيء قبلته . فبادرتك بالأدب قبل أن يقسو قلبك ويشتغل لبك ، لتستقبل بجد رأيك من الأمر ما قد كفاك أهل التجارب بغيته (٦) وتجربته ، فتكون قد كفيت مؤونة الطلب وعوفيت من علاج التجربة ، فأتاك من ذلك ما قد كنا نأتيه ، واستبان لك ما ربما اظلم علينا منه .. »

انه عليه السلام لما طعن في السن أراد أن يضع في نفس ولده ما استقر في نفسه الشريفة من الآداب والكمال ، ويغذيه بأطرف الحكم ويلمسه

---

(١) اي وصلت النهاية من جهة السن .

(٢) افضي : القي اليك .

(٣) (وان انقص) معطوف على (ان يعجل) .

(٤) اي يسبقني بالاستيلاء على قلبك غلبات الأهواء فلا تتمكن نصيحتي من النفوذ إلى فؤادك .

(٥) الصعب الفرس غير المذلل ، والنفور ضد الأنس .

(٦) البغية : بالكسر والضم : الطلبة والحاجة .

أهم العبر التي حدثت في عالم الوجود والتي أخذ خلاصتها الحكماء وأهل التجارب ، يضع كل ذلك أمام ولده ليستبين له كــل شيء ، ويعرف خلاصة الأمور واهمها ، ثم يسترسل الامام الحكيم في وصيته فيقول .

« . . أي بني ، إني - وإن لم أكن عمرت عمر من كان قبلي - فقد نظرت في أعمالهم ، وفكرت في اخبارهم ، وسرت في آثارهم حتى عدت كاحدهم بل كأني بما أنتهى إلى من أمورهم قد عمرت مع أولهم إلى آخرهم فعرفت صفو ذلك من كدره ، ونفعه من ضرره ، فاستخلصت لك من كل أمر نخيله « ١ » وتوخيت لك جميله ، وصرفت عنك مجهوله ورأيت - حيث عناني من أمرك ما يعني الوالد الشفيق وأجمعت « ٢ » عليــه من أدبك - أن يكون « ٣ » ذلك وأنت مقبل العمر ، ومقتبـل الدهر ، ذو نية سليمة ونفس صافية ، وأن ابتدئك بتعليم كتاب الله وتأويله وشرائع الاسلام واحكامه ، وحلاله وحرامه ، (و) لا اجاوز لك إلى غيره«٤» ثم اشفقت « ٥ » أن يلتبس عليك ما اختلف الناس فيه من اهوائهم وآرائهم مثل الذي التبس عليهم ، فكان إحكام ذلك على ما كرهت من تنبيهك له أحب إلي من إسلامك إلى أمر لا آمن عليك به الهلكة « ٦ » ورجوت

---

(١) النخيل : المختار المصفى .

(٢) اجمعت : عزمت .

(٣) ان يكون : مفعول (رأيت) .

(٤) لا اتعدى بك كتاب الله إلى غيره ، بل اقف بك عنده .

(٥) (اشفقت) اي خشيت .

(٦) اي : إنك وإن كنت تكره ان ينبهك احد لما ذكرت لك فاني اعد إتقان التنبيه على كراهتك له احب إلي من القائك إلى امر تخشى عليك به الهلكة

أن يوفقك الله لرشدك ، وأن يهديك لقصدك ، فعهدت إليك بوصيتي هذه . . »

سيدي أيها الخبير بأحوال النـاس العارف بصفو الأمور وكدرها المحيط بجوهر الاشياء ، حدثنا عن أحب الامور إليك وأهمها عندك فيقول

« . . واعلم يابني ، أن أحب ما أنت آخذ به إليّ من وصيتي ، تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك ، والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك فانهم لم يدعوا أن نظروا لأنفسهم كما أنت ناظر . وفكروا كما أنت مفكر ، ثم ردهم آخر ذلك إلى الأخذ بما عرفوا والامساك عما لم يكلفوا فان أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم ، لا بتورط الشبهات وعلو الخصوصيات ، وأبدأ - قبل نظرك في ذلك - بالاستعانة بالهك ، والرغبة اليه في توفيقك ، وترك كل شائبة أولجتك في شبهة « ١ » ، أو اسلمتك إلى ضلالة ، فاذا أيقنت أن قد صفا قلبك فخشـع ، وتم رأيك فاجتمع ، وكان همك في ذلك هماً واحداً ، فانظر فيما فسرت لك ، وإن أنت لم يجتمع لك ما تحب من نفسك وفراغ نظرك وفكرك ، فاعلم أنك إنمـا تخبط العشواء « ٢ » وتتورط الظلماء ، وليس طالب الدين من خبـط أو خلط ! والامساك عن ذلك امثل . .

فتفهم يابني وصيتي ، واعلم أن مالك الموت هو مالك الحياة ، وأن الخالق هو المميت ، وأن المفنى هو المعيد ، وأن المبتلى هو المعافي ، وأن

---

(١) الشائبة : ما يشوب الفكر من شك وحيرة ، واولجتك : ادخلتك .

(٢) العشواء : الضعيفة البصر : اى تخبط الناقة العشواء لا تأمن ان تسقط فيما لا خلاص منه .

الدنيا لم تكن لتستقر إلا على ما جعلها الله عليه من النعماء « ١ » والابتلاء والجزاء في المعاد ، أو ما شاء مما لا نعلم فان أشكل عليك شيء من ذلك فاحمله على جهالتك به فانك أول ما خلقت جاهلا ثم علمت ، وما اكثر ما تجهل من الأمر ، ويتحير فيه رأيك ويضل فيه بصرك ثم تبصره بعد ذلك فاعتصم بالذي خلقك ورزقك وسواك ، وليكن له تعبدك ، واليه رغبتك ، ومنه شفقتك (٢) .

وبعد هذا شرع (ع) في توحيد الله وإقامة الادلة عليه وبعد فراغه من ذلك أخذ في بيان الآداب الاجتماعية فقال :

يابني ، اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك ، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لا تحب أن تظلم واحسن كما تحب أن يحسن اليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك (٣) ولا تقل مالا تعلم وإن قل ما تعلم ، ولا تقل مالا تحب أن يقال لك .

واعلم أن الاعجاب ضد الصواب ، وآفة الألباب (٤) فاسع في كدحك(٥)

---

(١) اي : لاتثبت الدنيا على حال لما اودع الله فيها من التلون بالنعيم تارة وبالبلاء اخرى .

(٢) « شفقتك » اي : خوفك .

(٣) اي إذا عاملوك بمثل ماتعاملهم فارض بذلك ، ولا تطلب منهم ازيد مما تقدم لهم .

(٤) الاعجاب : استحسان مايصدر منه وهو من رذائل الأخلاق .

(٥) الكدح : اشد السعي .

ولا تكـــن خازنا لغيرك (١) وإذا كنت هديت لقصدك فكن اخشـــع ماتكون اربك . •

إن هذه الحكم القيمة لو سار عليها الانسان لكان اسمى مثل للتهذيب والسمو والكمال ، فقد احتوت على اصول العدل واسس الفضيلة والكمال ومن جملة هذه الحكم الخالدة قوله :

وأعلم يقينا أنك لن تبلغ أملك ، ولن تعدو أجلك ، وأنك في سبيل من كان قبلك فخفض في الطلب (٢) وأجمل في المكتسب ، فأنه رب طالب قد جر إلى حرب (٣) فليس كل طالب بمرزوق ، ولا كل مجمل بمحروم ، وأكرم نفسك عن كل دنية وإن ساقتك إلى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضا (٤) ولا تكن عبد غيرك وقـــد جعلك الله حراً ، وما خير خير لا ينال إلا بشر (٥) ويسر لا ينال إلا بعسر ؟ ! (٦) ،

---

(١) اي لاتحرص على جمع المال فان الوارثين ياخذونه بعدك فيكون الاثم عليك وغيرك يتنعم •

(٢) خفض : امر من (خفض) بالتشديد اي : ارفق •

(٣) الحرب ـ بالتحريك ـ : سلب المال •

(٤) إن رغائب المال إنما تطلب لصون النفس عن الابتذال فلو بذل الانسان نفسه لتحصيل المال فقد ضيع ما هو المقصود من المال فكان جمع المال عبثا عوضا لما ضيع •

(٥) يريد « ع » ان الخير الذي لا يناله الأنسان إلا بالشر كيف يكون خيراً •

(٦) المراد ان العسر الذي يخاف منه الانسان هو الذي يضطره إلى الوقوع ـ

وإياك أن توجف بك مطايا الطمع (١) فتوردك مناهل الهلكة وإن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، فانك مدرك قسمك ، وآخذ سهمك ! وإن اليسير من الله - سبحانه - اعظم وأكرم من الكثير من خلقه وإن كان كل منه .

وتلافيك (٢) ما فرط من صمتك أيسر من إدراكك ما فات من منطقك ، وحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء ، وحفظ ما في يديك أحب إلي من طلب ما في يد غيرك (٣) ومرارة اليأس خير من الطلب إلى الناس والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور ، والمرء احفظ لسره «٤» ورب ساع فيما يضره «٥» من اكثر أهجر «٦» ومن تفكر أبصر !

قارن أهل الخير تكن منهم ، وباين أهل الشر تبن عنهم ! بئس الطعام الحرام ، وظلم الضعيف افحش الظلم . إذا كان الرفق خرقا كان الخرق رفقا «٧» ربما كان الدواء داء والداء دواءً ، وربما نصح غير

- في الرذائل فاذا جعلها الانسان وسيلة وطريقا لجمع المال فقد وقع فيما هرب منه ، وحينئذ فما الفائدة من جمع المال وهو لا يحميه من النقص .

(١) توجف : تسرع ، والمناهل ما ترده الابل ونحوها للشرب .

(٢) التلافي : التدارك لاصلاح ما فسد .

(٣) إرشاد للاقتصاد في المال .

(٤) إرشاد إلى عدم إفشاء سر الانسان إلى غيره .

(٥) قد يسعى الانسان بقصد فائدته فينقلب سعيه بالضرر عليه لجهله او سوء قصده .

(٦) الهجر : الهذيان في الكلام .

(٧) الخرق - بالضم - العنف والمراد ان المقام إذا الزمه العنف كان إبداله -

الناصح وغش المستنصح «١» وإياك واتكالك على المنى فانها بضائع الموتى والعقل حفظ التجارب . وخير ما جربت ما وعظك . بادر الفرصة قبل أن تكون غصة . ليس كل طالب يصيب ، ولا كل غالب يؤوب ، ومن الفساد اضاعة الزاد ، ومفسدة المعاد ، ولكل أمر عاقبة ، سوف يأتيك ماقدر لك ، التاجر مخاطر !! ورب يسير أنمى من كثير ، ولاخير في معين مهين ولافي صديق ظنين ، ساهل الدهر ماذل لك قعوده (٢) ولاتخاطر بشيء رجاء أكثر منه وإياك أن تجمح بك مطية اللجاج !! احمل نفسك من أخيك - عند صرمه - على الصلة (٣) وعند صدوده على اللطف والمقاربة وعند جموده (٤) على البذل وعند تباعده على الدنو ، وعند شدته على اللين ، وعند جرمه على العذر ، حتى كأنك له عبد ، وكأنه ذو نعمة عليك ، وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه ، أو أن تفعله بغير أهله ، لاتتخذن عدو صديقك صديقاً فتعادي صديقك ، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة ، وتجرع الغيظ فاني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبة (٥) ولن لمن غالظك فانه يوشك أن يلين لك وخذ على عدوك بالفضل فانه أحلى الظفرين ، وان أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك

- بالرفق عنفا ، ويكون العنف من الرفق وذلك كمقام التأديب .

(١) المستنصح - على زنة اسم المفعول - المطلوب منه النصح ، فيلزمه التفكر والتروي في جميع الأحوال لئلا يروج غش او تنبذ نصيحة .

(٢) المراد ساهل الدهر ما دام منقادا لك ، وخذ حظك منه .

(٣) الصرم : القطيعة .

(٤) الجمود : البخل .

(٥) المغبة :- بفتحتين ثم باء مشددة - بمعنى العاقبة وكظم الغيظ .

يوما ما ومن ظن بك خيرا فصدق ظنه ، ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على مابينك وبينه فانه ليس لك بأخ من أضعت حقه ، ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك ، ولا ترغبن فيمن زهـد عنك ، ولا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا يكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا يكبرن عليك ظلم من ظلمك فانه يسعى في مضرته ونفعك وليس جزاء من سرك أن تسؤه . »

وهكذا يسترسل الامام « ع » فى كلامه فيضع جواهر الحكم القيمة واسمى الدروس النافعة واثمن الآراء الصائبة في وصيته ، ونكتفي بهذا المقدار منها وبها ينتهى بنا المطاف لنلتقي مع الامام فى البصرة .



في البصرة

تمت البيعة للامام من جميع الحواظر الاسلامية سوى الشام ، وآمن المسلمون بالأهداف الاصيلة التي ينشدها الحكم الجديد ، وايقنوا أن الامام سيعيد لهم رحمة الاسلام وعدله ، وان حكمه امتداد لحكم النبي وسيرته ، وقد قام الامام في اليوم الاول من خلافته بتطبيق العدالة الاسلامية الكبرى ، وتحقيق المساواة الشاملة بين المسلمين سواء في العطاء أو في غيره من المجالات العامة ، وحطم الفوارق والامتيازات التي اوجدها عثمان على مسرح الحياة الاسلامية ، وقام بمصادرة الأموال المنهوبة التي منحها عثمان لأسرته وأقاربه وقد قضى بذلك على الغبن الاجتماعي ، والظلم الاجتماعي ، كما قام بحماية المسلمين من الاستغلال والاستبداد ، وصيانتهم من التدهور والانحطاط ، وقد أثارت هذه المبادىء والأهداف سخط النفعيين والمنحرفين فلم تمض أيام قليلة حتى اظهروا بوادر البغي والشقاق ، واعلنوا التمرد والعصيان وقاموا بعد وانهم المسلح لاجل الاطاحة بالحكم القائم واعادة سياسة النهب والتجويع ، وأبطال هذه المؤامرة عائشة وطلحة والزبير فقد أثاروها حربا شعواء من اجل مطامعهم الرخيصة ، فكانت موقعة البصرة التي صدعت شمل المسلمين ، وأشاعت الحزن والحداد في ربوعهم ، وعلينا أن ننظر إلى فصول هذه المأساة الكبرى التي نشرت الفتن والكوارث في أجواء العالم الاسلامي لنتبين بواعثها ودوافعها .

تمرد طلحة والزبير

وتعرض كثير من المسلمين لأسباب الفتن ودواعي الغرور وطرأت عليهم من الأحداث ما باعدت بينهم وبين دينهم وبين عهدهم الأول ، والسبب في ذلك انهم أمتحنوا بالسلطة وبالثراء الواسع العريض ، ومن

هؤلاء طلحة والزبير فقد انطلقا إلى الامام أمير المؤمنين فقالا له :

« هل تدرى على مَّ بايعناك باأمير المؤمنين ؟ ؟ »

فرمقهما الامام بطرفه وقال لهما :

- نعم على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبابكر وعمر وعثمان

- لا - ولكن بايعناك على أنا شريكاك في الأمر

- لا - ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والأود

إن بيعتهما للامام في قرارة أنفسهما كانت مدفوعة بالدوافع المادية البحتة ، فهما يريدان الحكم ، والمساومة على السلطة ، وهما في نظر الامام شريكان له في الاستقامة وفي تحقيق العدالة بين المسلمين ، ولما استبان لهما أنه لا يوليهما شيئا اظهرا الشكاة واعلنا التمرد فقال الزبير في ملأ من قريش :

« هذا جزاؤنا من علي ، قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل ، وهو جالس في بيته وكفي الأمر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا . . »

وقال طلحة :

« ما اللوم الا انا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا (١) ، وبايعناه ، واعطيناه ما في أيدينا ، ومنعنا ما في يده فأصبحنا قد اخطأنا ما رجونا . . »

وانتهى حديثهما إلى الامام أمير المؤمنين فاستدعى عبد الله بن عباس فقال له :

---

(١) يريد به سعد بن ابي وقاص فانه امتنع عن بيعة الامام وهو من اهل الشورى والذى حمله على ذلك حقده على الامام وكراهيته له على حد تعبير طلحة .

ـ بلغاك قول الرجلين ؟

ـ نعم

ـ أرى أنهما أحبا الولاية فول البصرة الزبير ، وول طلحة الكوفة

وأنبرى الامام يفند رأى ابن عبـــاس ، ويبين له أن فى ولايتهما خطراً على الأمة قائلا :

« ويحك ! ! إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ، ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام ، ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي » (١)

ودلت هذه البادرة على مدى حرص طلحة والزبير على الامـــارة والسلطان ، وانهما إنما أثارا سخط الناس على عثمان طمعا بالخلافة والولاية ولم يكونا مدفوعين بدافع المصلحة العامة ، وحب النصح للمسلمين ، وقد خسرا الصفقـــة ، وذهبت مساعيهما أدراج الرياح حينما آل الأمر إلى أمير المؤمنين لأن المحور الذي تدور عليه رحى سياسته مسايرة الدين والعمل على وفق المبادىء الاسلامية وهي لا تقر بأي حال من الأحوال أن تمنح الوظائف إثرة أو محاباة لأن ذلك خيانة للامة ، وقد اعرب الامام عن الاسباب التي دعته أن لا يوليهما العراقين وهي :

١ إنهما يستميلان السفهاء بالمنافع والاطماع .

٢ ـ إنهما يصبان على الضعفاء وابلا من العذاب والبلاء .

٣ ـ يستغلان النفوذ والسلطان ويقويان به على القوى .

ومع علمه بهذه الاتجاهات كيف يجعلهما ولاة وحكاما على المسلمين يتصرفان في أموالهم ودمائهم . . وقد انتقد شفيق جبرى الامام في ذلك

---

(١) الامامة والسياسة ١|٥٢

واعتبر أن حرمانهما من الولاية كان غلطة منه ـ على حد تعبيره الرخيص ـ (١)
ان شفيق جبري قد آمن بالسياسة الغربية التي تبيح جميع الوسائل في سبيل الوصول الى الحكم وان كانت غير مشروعة وهذه السياسة لا يقرها الاسلام بحال فقد بنى سياسته الخلاقة على الايمان بحقوق الانسان وتجنب المكر والخداع وان توقف عليهما النصر والظفر وعلى ضوء هذه السياسة العادلة سار ابن ابي طالب رائد العدالة الاجتماعية الكبرى في الأرض.
ان السياسة التي سار عليها الملوك ولا يزال يسيرون عليها عشاق الملك والسلطان لا يلتقي معها الامام بصلة، ولا تتفق مع أهدافه العليا، وقد اوضح عليه السلام اسباب ذلك بقوله:
« لولا التقى والورع لكنت ادهى العرب »
ان التقى والورع والخوف من الله تقف امامه وتصده عن ارتكاب اى وسيلة لا يقرها الشرع، ومضافا لذلك فان المصلحة كانت تقضي ان لا يوليهما الكوفة والبصرة لان لهما حزبين وشيعة بهما ولا يؤمن أن يتسرب نفوذهما يوما ما إلى الدولة الاسلامية كافة.
وعلى أي حال فلما استبان لطلحة والزبير ضياع املهما وعدم فوزهما بمقعد الحكم انطلقا إلى الامام طالبين منه الاذن بالخروج قائلين:
ـ إئذن لنا ياأمير المؤمنين.
ـ إلى اين؟!!
ـ نريد العمرة.
فرمقهما الامام هينهة وقد عرف خفايا نفوسهما فقال لهما برنة المستريب
والله ما العمرة تريدان!! بل الغدرة ونكث البيعة!!

---

(١) العناصر النفسية، وقد تعرض لخطل آرائه كثير من الكتاب.

واقسما له بالايمان المغلظة انهما لا يخلعان البيعة ، وانهما يخرجان ليعتمرا بالبيت الحرام ، وانهما يعلمان أنها قسم حانث ، ولكن لم يجدا وسيلة يصلان بها إلى الغاية سوى اليمين الكاذب ، والتفت الامام لهما ونفسه مترعة بالشك والريبة منهما قائلا :

« أعيدا البيعة لي ثانية » .

ففعلا دون تردد ، ومضيا منهزمين إلى مكة ، وكأنه قد اتيح لهما الخلاص من سجن أو عقاب ، ولحقا بعائشة يستفزانها على الثورة فانهما على علم بما تكنه من الحقد والعداء للامام .

خروج عائشة :

كانت عائشة في طليعة من أشعل نار الثورة على عثمان ، وقالت فيه أمر القول وأقساه ، وما كان اسمه عندها الا نعثلا ، وتعزو بعض المصادر السبب في ذلك إلى أنه انقصها مما كان يعطيها عمر وصيرها كغيرها من أزواج النبي (ص) (١) وقد بالغت في التشهير به والتحريض على قتله ولما احاط الثوار به خرجت إلى مكة وبعد ادائها لمناسك الحج قفلت راجعة إلى يثرب وهي تجد في السير لتنظر ماآل اليه أمر عثمان فلما أنتهت إلى سرف (٢) لقيها رجل من أخوالها يقال له عبيد بن أبي سلمة وكان قادما من المدينة فاستعجلت قائلة له :

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢/١٣٢ .

(٢) سرف : موضع على ستة اميال من مكة وقيل اكثر من ذلك ، وبه تزوج رسول الله « ص » بميمونة بنت الحارث وتوفيت فيه ، وقال رواة البخاري : هو « شرف » بالشين المعجمة جاء ذلك في معجم البلدان ٥/٧١ .

- مهيم ؟ (١) .

- قتلوا عثمان .

- ثم صنعوا ماذا ؟

- اجتمعوا على بيعة علي فجازت بهم الأمور الى خير مجاز ! !

فانهارت أعصابها ، وتحطمت قواها ، وبلغ بها الحزن إلى قرار سحيق ، وهتفت وهي حانقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ، ثم ينخفض فيشير إلى الأرض قائلة :

« والله ليت هذه أنطبقت على هذه ، إن تم الأمر لابن أبي طالب قتل عثمان مظلوما والله لأطلبن بدمه » .

فاجابها عبيد باستنكار وسخرية :

« ولم ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! ! ! ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر ! » لماذا هذا الحزن والجزع من عائشة ؟ وقد عادت للاسلام نضارته بحكومة الامام ، وظفر المسلمون بما يصبون اليه ؟ ؟

وأجابت عائشة ابن خالها فقالت له :

« إنهم أستتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ؟ وقولي الأخير خير من قولي الأول . . . »

وهل كانت حاضرة حينما استتابوه ؟ وهل لها دراية بكيفية توبته ، ولكنها افتعلت ذلك لتبرير موقفها وقد رد عليها عبيد فقال لها :

منك البداء ومنك الغير ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الامام وقلت لنا إنه قد كفر

---

(١) مهيم : كلمة استفهام من معانيها ما وراءك ؟

فهبنا (١) اطعناك في قتله … وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا … ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرؤ … يزيل الشبا ويقيم الصعر (٢)
ويلبس للحرب أثوابها … وما من وفى مثل من قد غدر

فاعرضت عنه وانصرفت راجعة الى مكة (٣) وقد علاها الحزن والاكتئاب ، واحاط بها الاسى والذهول .

دوافع تمردها :

وليس شيء أو هى من القول بأن السبب في خروج عائشة هو المطالبة بدم عثمان فانها هي التي حفزت المسلمين إلى الاجهاز عليه ودعتهم إلى الاطاحة بحكمه يقول شوقي :

أثار عثمان الذي شجاها … أم غصة لم ينتزع شجاها
ذلك فتق لم يكن بالبال … كيد النساء موهن الجبال

نعم تذرعت بدم عثمان واتخذته وسيلة إلى اعلان العصيان والتمرد وإلى اغراء السذج والبسطاء فزجت بهم في الحرب التي أثارتها ضد أمير المؤمنين وأخي رسول الله (ص) وباب مدينة علمه .

إن دم عثمان لا يصلح باي حال ان يكون من بواعث ثورتها على النظام القائم وانما بواعث ذلك ما يلي :

١ - إن نفسها كانت مترعة بالبغض والكراهية للامام وازوجته سيدة

---

(١) وفي رواية « ونحن » .

(٢) ذو تدرؤ : اي ذو عزيمة ومنعة ، الشبا : المكروه ، الصعر : ميل في الوجه او في احد الشقين : والمراد انه يقيم الشيء الملتوي .

(٣) الطبري ٣|٤٥٤ وغيره .

النساء وأولادهما وسبب ذلك انها رأت اتجاه النبي واقباله عليهم وانه قد خصهم بمزيد الحب والعطف على نحو لم يشاركهم فيه أحد (١) ولم تحض عائشة بقليل ولا بكثير من تلك الرعاية وذلك الحنان بل كان يعاملها معاملة عادية بل ويزدري بها في كثير من الاحيان فقد وقف خطيبا على منبره فأشار الى مسكنها قائلا : « هاهنا الفتنة ، هاهنا الفتنة هاهنا الفتنة حيث يطلع قرن الشيطان (٢) وقد هددها غير مرة بالطلاق نظراً لما كان يعانيه منها فقد قالت له مرة في كلام غضبت عنده أنت الذي تزعم أنك نبي (٣) وكان اذا صلى تمد رجلها في قبلته ثم لا ترفعها عن سجوده حتى يغمزها فاذا غمزها رفعتها ، حتى يقوم فتمدها ثانية (٤) لقد رأت عائشة اقبال النبي على فاطمة وعلى زوجها واعراضه عنها الأمر الذي اثار كوامن الحقد في نفسها، وقد جابهت رسول الله (ص) بذلك فقد استأذن أبو بكر على رسول الله فسمع صوت عائشة عاليا وهي تقول له : « والله لقد عرفت أن عليا أحب اليك من أبي ومني مرتين أو ثلاثا » (٥) وليس شيء يثير عواطف المرأة ويترك العقد النفسية فيها مثل ما ترى أحداً أثيراً عند زوجها ، ومقدما عليها في الحنان والحب ، وزاد في تأثرها وانفعالها انها حرمت الولد من

---

(١) بسطنا القول في ذكر الأخبار التي وردت عن النبي في حبه لأهل بيته في بداية بحوث هذا الكتاب .

(٢) البخاري ٢/١٢٥ باب فرض الخمس وصحيح مسلم ٢/٥٠٣ وجاء فيه انه قال « ص » : راس الكفر من هاهنا حيث يطلع قرن الشيطان .

(٣) احياء العلوم ٢/٣٥ كتاب آداب النكاح .

(٤) صحيح البخاري ١/١٤٣

(٥) مسند الامام احمد ٤/٢٧٥

النبي كما حرم من غيرها ، وقد تبنى ابناء ابنته الوحيدة فاقام لهم في نفسه اعمق الحب والاخلاص ، وقد ترك ذلك كوامن الحسد في نفسها من الامام وزوجته ، وقد بذلت جميع طاقاتها في مقابلة أمير المؤمنين وصرف الخلافة عنه فقد رشحت أباها للصلاة في مرض رسول الله لئلا يصلي بالمسلمين الامام ، وبعد وفاة النبي كان لها ضلع كبير في ترشيح ابيها للخلافة وحرمان الامام منها ، وبلغ من عظيم حقدها ان بضعة النبي لما توفيت جئن نساءوه الى بني هاشم في العزاء الا هي ونقل عنها كلام يدل على سرورها وفرحها (١)

ولما آل الأمر إلى الامام انهارت جميع قواها واندفعت إلى مقاومته وإلى اعلان الثورة على حكومته ؛ وقد وصف عليه السلام مدى ضغنها وحقدها عليه بقوله :

« أما فلانة فقد أدركها ضعف رأي النساء ، وضغن غلا في صدرها كمرجل القين (٢) ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلى ما تفعل » (٣)

ان من أقوى العوامل التي دفعتها إلى مقاومة الامام هي الاحقاد والضغائن التي تكنها في نفسها حتى انها لم تستطع إلى كبتها واخفائها ، وقد ابدت بالغ المسرات والأفراح حينما بلغها مقتله ، وقد تناست أنه أخو النبي ووليه وانه منه بمنزلة هارون من موسى ، واعرضت عما قال فيه : « اللهم وال من والاه وعاد من عاده وانصر من نصره واخذل من خذله . . » لقد سمعت ذلك ووعته ، ولم يخف عليها شيء مما أثر عن

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد

(٢) المرجل : قدر كبيرة ، القين : الحداد

(٣) نهج البلاغة محمد عبده ٢/٦٣

النبي فيه وفي أبنائه .

٢ - ومن بواعث ثورتها انها كانت تتوقع أن ترجع الخلافة إلى تيم ويتقلدها ابن عمها طلحة - كما يرى ذلك العقاد - (١) وكانت تدعو له وتشيد به ولما بلغها مقتل عثمان وهي في مكة بادرت قائلة : إن أحق الناس بهذا الأمر ذو الأصبع - يعني طلحة - ثم اقبلت مسرعـة إلى المدينة وهي لا تشك أنه هو صاحب الأمر ، وكانت تقول : بعداً لنعثل وسحقا ، إيه ذا الأصبع ، إيه أبا شبل ، إيه ابن عم لله أبوك ، أما انهم وجدوا طلحة لها كفوءاً ، لكأني أنظر إلى إصبعه حثو الابل » (٢)

وهي بذلك كانت مدفوعة بدافع العصبية القبلية فلم تنظر لصالح الأمة فقد أرادت أن تعيد المجد ثانيا لأسرتها ، وأن تبسـط نفوذها وتستأثر بالأموال وذلك لا يتحقق الا بأن ترجع الخلافة إلى تيم .

٣ - ويرى الاستاذ العلائلي أن السبب في خروجها من اجل الحزبية السائدة في ذلك العصر يقول :

« والتاريخ لا يحدثنا لماذا خرجت على علي ولم تر بعد من سياسته شيئاً ما ، ودعوى انها خرجت طلبا بدم عثمان توهم لأنها لم تكن جاهلة بالشريعة التي تقضي بترك الأمر إلى الحاكم المركزي فان لم يكن فاولي القتيل وليست من اوليائه (٣)

إذن فلم تخرج عائشة طلبا بدم عثمان بل لشيء آخر وهو ما لم

---

(١) عبقرية الامام علي ص ٨٧

(٢) شرح النهج لابن ابي الحديد ٢|٧٦

(٣) إن الشريعة تقضي بان ولي الدم ابتداءاً هو ولي المقتول فان لم يكن فالحاكم الشرعي الذي هو ولي من لا ولي له

يذكره التأريخ بصراحة ، والذي يستقيم عندي في هذا الأمر ان الحزبية بلغ من نفوذها مبلغا عظيما حتى عدت إلى زوجات النبي فكانت أم سلمة من حزب المحافظين « أي حزب علي » وعائشة من حزب طلحة والزبير كما ذكرت في « مقدمة الحلقة الاولى » وكانتا كذلك في عهد النبي فقد كانت أم سلمة زعيمة طائفة من نسائه ، وعائشة زعيمة طائفة أخرى ، ولا ريب في أن هذه الحزبية ولدت في نفسيها حزازة تأريخيـــة اتصلت بمسلكيها العام . . » (١)

هذه بعض البواعث التي حفزتها على الخروج على حكومة الامام وقد فتحت بذلك باب التمرد والعصيان ، ومهدت السبيل للقوى المنحرفة عن الحق أن تتكتل وتجتمع على حرب ابن أبي طالب فتغرق البلاد في المآسي والدموع ، وتجر للأمة الويلات والخطوب .

اعلان العصيان :

واعلنت عائشة العصيان والخروج على الحكم القائم في خطابها الذي القته بمكة فقد جاء فيه :

« أيها الناس . . إن الغوغاء من أهل الأمصار ، وأهـــل المياه ، وعبيد أهل المدينـــة اجتمعوا إن عاب الغوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب (٢) واستعمال من حدث سنه ، وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم

---

(١) الحلقة الثانية من سيرة الحسين ص ٢٦٧

(٢) الأرب : الخداع والحيلة

ونزع لهم عنها استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة ولا عذرا خلجوا (١) وبادروا بالعدوان ، ونبا فعلهم عن قولهم ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام ، والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم !.. فنجاة من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم ووالله لو ان الذي اعتدوا به عليه كان ذنبا لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه او الثوب من درنه إذ ماصوه (٢) كما يماص الثوب بالماء » (٣)

وحفل خطابها بالمغالطات والتنكر للحقائق فقد جاء فيه ان الغوغاء عابوا على عثمان وهو مجاف للواقع فان الذي عاب عليه ، وشهر به إنما هم كبار المهاجرين والانصار ، وكانت هي بالذات اول من قدح زناد الثورة عليه فقد قالت فيه كلمتها الشهيرة : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، انها وغيرها من الاعلام والرؤس هم الذين اجهزوا عليه ولا علاقة لغيرهم بدمه

وجاء في خطابها أنه رجع عن احداثه ، وتابع الثوار استصلاحا لهم فلما لم يجدوا حجة عليه استحلوا دمه وقتلوه ، وهذا ايضا لا يلتقي بالواقع فان عثمان قد اعلن التوبة وأظهر الندم على الأحداث التي ارتكبها الا انه اعلن للناس اخيراً انه إنما قال ذلك من أجل ضغط الثوار عليه وهو ماض على سياسته التي رسمها لنفسه ، ولما قفل الثوار راجعين بعد المكيدة التي دبرها ضدهم طالبوه بالاستقالة من منصبه فابى وامتنع من اجابتهم فلم يجدوا بدأ من قتله ، كما ذكرنا ذلك بالتفصيل وهو لا يتفق مع ماذكرته عائشة في خطابها من انهم لم يجدوا حجة لقتله .

وعلى أي حال فان خطاب عائشة كان أول اعلان للعصيان والتمرد

---

(١) خلجوا : اي انتزعوه وجذبوه

(٢) الموص : الغسل اللين والدلك باليد

(٣) تأريخ الطبري ٣|٤٦٨

والاختلاف يقول الاستاذ عبد الفتاح مقصود : « وتفرق الناس بعد حديثها هذا شيعا ، وكان اولى بهم أن تتوحد كلمتهم في هذه المحنة الحازبة التي اصابت الاسلام ، ففيم تدعوهم اليوم أم المؤمنين ؟ وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ! . لحرب الغوغاء ؟ . للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعي للبلاد ؟ . » (١)

لقد احدثت عائشة في خروجها الشقاق والاختلاف بين المسلمين ، وغرست بذور العداء والفتن في جميع أنحاء البلاد .

مع ام سلمة :

واستنجدت عائشة بازواج النبي ودعتهن أن يخرجن معها لحرب وصي رسول الله وباب مدينة علمه وأبي سبطيه واجتمعت بأم سلمة فجعلت تخادعها وتقول لها :

« يابنت أبي أمية ، أنت أول مهاجرة من أزواج رسول الله (ص) وأنت كبيرة أمهات المؤمنين ، وكان رسول الله يقسم لنا من بيتك وكان جبرئيل أكثر ما يكون في منزلك . . »

فتريبت أم سلمة من كلامها وقالت لها :

« لأمر ما قلت هذه المقالة ؟ . »

فاجابتها عائشة بما تروم قائلة :

« إن القوم أستتابوا عثمان ، فلما تاب قتلوه صائما في الشهر الحرام وقد عزمت على الخروج إلى البصرة ، ومعي الزبير وطلحة ، فاخرجي معنا لعل الله يصلح هذا الأمر على أيدينا . . »

---

(١) الامام علي ٢|٢٦٧

وانبرت أم سلمة إلى تفنيد مقالتها وإلى تسديدها ونصحها قائلة :

« إنك كنت بالأمس تحرضين على عثمان ، وتقولين فيه أخبث القول وما كان اسمه عندك الا نعثلا ، وانك لتعرفين منزلة علي عند رسول الله أما أذكرك ؟ . . »

- نعم

- أتذكرين يوم أقبل ونحن معه حتى إذا هبط من قديد ذات الشمال فخلا بعلي يناجيه فأطال ، فاردت أن تهجمي عليهما فنهيتك فعصيتني وهجمت عليهما ، فما لبثت أن رجعت باكية فقلت : ما شأنك ؟ فقلت : أتيتهما وهما يتناجيان ، فقلت لعلي : ليس لي من رسول الله الا يوم من تسعة أيام ، أفما تدعني يابن أبي طالب ويومي ؟ فاقبل رسول الله علي وهو محمر الوجه غضبا ، فقال ارجعي وراءك والله لا يبغضه أحد الا وهو خارج من الايمان . فرجعت نادمة ساخطة .

- نعم اذكر ذلك .

- أو أذكرك .

- نعم

- كنت أنا وأنت مع رسول الله فقال لنا : أيتكن صاحبة الجمل الادب (١) تنبحها كلاب الحوأب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ فقلنا نعوذ بالله وبرسوله من ذلك ، فضرب على ظهرك فقال : إياك أن تكونيها ياحميراء .

- نعم اذكر ذلك

- أو أذكرك ؟

---

(١) الأدب : الجمل الكثير الشعر

ـ نعم

ـ كنت أنا وأنت مع رسول الله في سفر له ، وكان علي يتعاهد نعل رسول الله فيخصفها ، وثيابه ، فيغسلها ، فنقب نعله ، فأخذها يومئذ يخصفها ، وقعد في ظل سمرة ، وجاء أبوك ومعه عمر فأستأذنا عليه فقمنا إلى الحجاب ، ودخلا يحدثانه فيما أرادا ، ثم قالا يارسول الله : إنا لا ندري قدر ما تصحبنا ، فلو أعلمتنا من يستخلف علينا ليكون لنا بعدك مفزعا ؟ فقال لها : أما إني قد أرى مكانه ، ولو فعلت لتفرقتم عنه كما تفرق بنو إسرائيل عن هارون بن عمران ، فسكتا ثم خرجا فلما خرجا خرجنا إلى رسول الله فقلت له أنت وكنت أجرأ عليه منا : يارسول الله من كنت مستخلفا عليهم ؟ فقال : خاصف النعل . فنزلنا فرأيناه عليا فقلت يارسول الله ، ما أرى الا عليا ، فقال : هو ذاك .

ـ نعم اذكر ذلك

ـ فاي خروج تخرجين بعد هذا ؟

ـ إنما أخرج للاصلاح بين الناس وأرجو فيه الأجر

ـ أنت ورأيك

وأنصرفت أم سلمة وكتبت بالأمر الى الامام أمير المؤمنين (١) وقد أبدت لها تمام النصح وذكرتها بما تناسته من فضائل أمير المؤمنين ومآثره ولكن عائشة أستسلمت لاحقادها وعواطفها فلم تستجب لذلك .

---

(١) شرح النهج ٢ / ٧٩ وذكر الزمخشري في الفائق ١ | ٢٩٠ ما يقرب من ذلك .

الزحف الى البصرة :

واستجاب لدعوة عائشة جميـــع رجال الحكم المباد من ولاة عثمان واقربائه وذوى الاطماع الذين اعتقدوا أن حكومة الامام تبدد أحلامهم في النفوذ السياسي ، والمغرر بهم والسذج من الناس الذين تلونهم الدعاية كيف شاءت ، كل هؤلاء جرفتهم دعوة عائشة ودعايتها وخضعوا لأوامرها وقد تداول زعماء الفتنة الآراء في غزو أي بلـــد ، وعرضوا المدينة الا انهم عدلوا عنها لأن فيها الخليفة الشرعي وهو يتمتع بالقوى العسكرية ولا قبل لهم بها ، وعرضوا ثانيا الشام وفيها الرجال والأموال وعليها ابن عثمان واليا فهي اولى بلد واجدره بالاجابة ولكن الأمويين لم يستجيبوا لذلك لأنهم جعلوا الشام في حوزتهم وخافوا عليها من التصدع ، فاجمع الرأي على غزو البصرة لأن فيها أعوانا وانصاراً لهم ونادى المنادي في مكة :

« أيها الناس ، إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن كان يريد اعزاز الاسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثار عثمان ، ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهازه وهذه نفقته . . . »

وزودوا الجند بالسلاح والعتاد فاعان يعلى بن أمية (١) بأربعمائة الف

---

(١) يعلى بن امية بن ابي عبيدة التميمي كان واليا على بعض نواحي اليمن من قبل عمر ، واستعمله عثمان على صنعاء ، وقال المدائني : كان يعلي اميراً على الجند باليمن فبلغه قتل عثمان فاقبل لينصره فسقط عن بعيره في الطريق فانكسر فخذه فقدم مكة بعد انقضاء الحج فاجتمع الناس به فاخذ يحرضهم على الطلب بدم عثمان فاعان الزبير باربعمائة الف وحمل سبعين رجلا من قريش وحمل عائشة على الجمل الذي شهدت القتال عليه واسمه « عسكر » ولما فشلت حرب الجمل لحق بالامام امير المؤمنين

وحمل سبعين رجلا ، واعتلت عائشة جملها المسمى (بعسكر) قد احتف بها بنو أمية وهي تتقدم أمام الحشد الزاخر ، تقودهم إلى تمزيق الوحدة الاسلامية والى محاربة الحكومة الشرعية ، ولما انتهت إلى ذي قار التقى بها سعيد ابن العاص (١) فقال لها :

ـ أين تريدين يا أم المؤمنين ؟

ـ البصرة

ـ وما تصنعين بها ؟

ـ أطلب بدم عثمان

فضحك ساخرا وقال متبهرا :

ـ هؤلاء قتلة عثمان يا أم المؤمنين

فازاحت بوجهها عنه إذ لا حجة لها تدافع بها عن نفسها ، وتركها وانصرف إلى مروان فقال له :

ـ وأنت أيضاً تريد البصرة

ـ نعم

ـ ما تريد ؟

ـ أطلب بدم عثمان

ـ فهؤلاء قتلة عثمان معك ـ وأشار الى طلحة والزبير ـ فقال : إن

وصار من اصحابه وقتل معه بصفين ، جاء ذلك في اسد الغابة ٥/١٣٨ .

(١) سعيد بن العاص الأموي ولد عام الهجرة ، قتل علي اباه يوم بدر وهو من فصحاء قريش استعمله عثمان واليا على الكوفة ثم عزله عنها وارجع سعيداً اليها فارجعوه اهل الكوفة وكتبوا إلى عثمان لا حاجة لنا في سعيدك ولا في وليدك ، وكان فيه تجبر وشدة وغلظة ، ولما قتل عثمان لزم سعيد بيته واعتزل ايام الجمل وصفين ولم ـ

هذين الرجلين قتلة عثمان ، وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة (١) ولم تجد معهم هذه المحاورة شيئاً ، وانطلقوا مصممين على الغي والعدوان .

ماء الحوأب :

وانطلقت قافلة عائشة تطوي البيداء فاجتازت على مـكان يقال له « الحوأب » (٢) فتلقت الركب كلاب الحي الساهرة بهرير وعواء فذعرت عائشة من ذلك النباح الذي اطلقته الكلاب على القافلة ، فقالت لمحمد بن طلحة : (٣) .

ـ يشهد شيئاً من تلك الحروب ، ولما استتب الأمر الى معاوية ولاه المدينة ثم ولاها مروان بن الحكم وكان يعاقب بينهما في ولايتها توفي في خلافة معاوية سنة تسع وخمسين ، الاستيعاب ٢|٨

(١) الامامة والسياسة ١|٦٣

(٢) الحوأب بالفتح ثم السكون وهمزة مفتوحة وباء موحدة موضوع للاودية الواسعة والعلبة الضخمة ومكان في طريق البصرة وقال ابو منصور : الحوأب موضع بئر نبحت كلابه على عائشة عند مجيئها الى البصرة وانشد

ما هي الا شربة بالحوأب فصعدى من بعدها او صوبي

معجم البلدان ٣|٣٥٥

(٣) محمد بن طلحة القرشي التميمي : ولد في حياة النبي « ص » وهو الذي سماه محمداً وكناه بابي القاسم قتل يوم الجمل وكان هواه مع علي ومر به الامام بعد مقتله فقال : هذا الذي قتله بره بأبيه امره ابوه ان يتقدم للقتال فتقدم ونثل درعه بين رجليه وقام عليها وجعل كلما مر عليه رجل قال له : نشدتك بحاميم فشد عليه ـ

ـ أي ماء هذا ؟

ـ ماء الحوأب .

فذعرت ، وذاب قلبها أسى وحسرات على ما فـرطت في أمرها وقالت :

ـ ما أراني إلا راجعة !!

ـ لمَ ـ يا أم المؤمنين ؟

ـ سمعت رسول الله يقول لنسائه : كأني بأحداكن قد نبحتها كلاب الحوأب ، (١) وإياك أن تكوني أنت ياحميراء .

ـ تقدمي رحمك الله ودعي هذا القول ولم تقتنع عائشة واصرت على الانسحاب فعلم ذلك طلحة والزبير فاقبلا يلهثان لأنها متى انفصلت عن الجيش ذهبت آمالها أدراج الرياح فتكلما معها في الامـر فاصرت على

ـ رجل فقتله وأنشد يقول :

واشعث قوام بآيات ربه قليل الاذى فيا ترى العين مسلم

ضممت اليه بالقناة قميصه فخر صريعا لليدين وللفم

على غير ذنب غير ان ليس تابعا عليا ومن لايتبع الحق يظلم

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

يقال قتله كعب بن مدلج ، وقيل معاوية بن شداد ، وقيل غـيرهما الاستيعاب ٣٤٩/٣ .

(١) روى ابن عباس عن رسول الله (ص) انه قال يوما لنسائه وهن جميعا عنده : ايتكن صاحبة الجمل الأدب تنبحها كلاب الحوأب ، يقتل عن يمينها وشمالها قتلى كثيرة كلهم فى النار وتنجو بعد ما كادت ، شرح النهج ٤٩٧/٢ وهذا الحديث من اعلام النبوة ومن اخباره بالمغيبات .

الانسحاب فجاؤا لها بشهود اشتروا ضمائرهم فشهدوا أنه ليس بماء الحوأب وهي اول شهادة زور تقام في الاسلام (١) وبهذه الشهادة الكاذبة استطاعوا أن يقلعوا رأيها وكان الواجب عليها بعد ماذكرت قول الرسول أن ترجع الى بيتها فلا تقود الجيوش لمحاربة أخي رسول الله

في ربوع البصرة :

وسارت قافلة عائشة تطوي البيداء حتى اشرفت على البصرة ولما علم ذلك عامل البصرة عثمان بن حنيف (٢) أرسل اليها أبا الأسود الدئلي ليسألها عن قدومها ، ولما التقى بها قال لها :

– ماأقدمك يا أم المؤمنين ؟

– أطلب بدم عثمان

– ليس في البصرة من قتلة عثمان أحد !!

---

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٧ ، تاريخ اليعقوبي .

(٢) عثمان بن حنيف الانصاري من الأوس ، كان واليا من قبل عمر ، ثم ولاه الامام على البصرة ولما خرج الامام منها عزله عنها وولى عبد الله بن عباس ، وقيل إن عمر بن الخطاب استشار الصحابة في رجل يوجهه الى العراق فاجمعوا على عثمان بن حنيف ، وقالوا : إن تبعثه على أهم من ذلك فان له بصرا وعقلا ومعرفة وتجربة ، فاسرع عمر فولاه مساحة ارض العراق فضرب عثمان على كل جريب من الارض ينـاله الماء عامرا و غامرا درهما وقفيزا من الطعام فبلغت جباية سواد الكوفة قبل ان يموت عمر بعام مائة الف الف ونيفا ، وبعد حادثة البصرة اقام في الكوفة ، وبقى فيها الى زمان معاوية ، الاستيعاب ٣/٧٩

ـ صـدقت ، ولكنهم مع علي بن أبي طالب بالمدينة ، وجئت أستنهض أهل البصرة لقتاله ، انغضب لكم من سوط عثمان ، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم ؟

فرد عليها بمنطقه الفياض قائلا :

ـ ماأنت من السوط والسيف ؟ إنما أنت حبيسة رسول الله (ص) أمرك أن تقري في بيتك ، وتتلي كتاب ربك ، وليس على النساء قتال ، ولا لهن الطلب بالدماء ، وإن عليا لأولى منك وأمس رحما ، فانهما ابنا عبد مناف !!

ـ لست بمنصرفة حتى امضي لما قدمت اليه ، افتظن أبا الأسود أن أحدا يقدم على قتالي ؟!

ـ أما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد .

ثم تركها وانصرف عنها واقبل الى الزبير فذكره بماضي ولائه للامام أمير المؤمنين قائلا :

ـ يا أبا عبدالله ، عهد الناس بك ، وأنت يوم بويع أبو بكر آخذ بقائم سيفك ، تقول : لا أحد أولى بهذا الامر من ابن أبي طالب ، واين هذا المقام من ذاك .؟؟

ـ نطلب بدم عثمان

ـ انت وصاحبك وليتماه فيما بلغنا

وانصاع الزبير لمقالة أبي الاسود ورأى فيها النصح والرشاد إلا انه طلب منه مواجهة طلحة ومذاكرته في الأمر ، فمضى أبو الاسود مسرعا وعرض عليه الامر فلم يستجب له وأصر على الغي والعدوان (١)

---

(١) شرح النهج ٢|٨١

وأنطلق أبو الأسود الى ابن حنيف فأخبره بنية القوم ، واصرارهم على الحرب فجمع أصحابه فخطب فيهم فقال في خطابه:

« أيها الناس ، إنما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه الله أجرا عظيما ، والله لو علم علي أحداً أحق بهذا الامر منه ماقبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع وأطاع وما به الى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه ولقد بايع هذان الرجلان وما يريدان الله ، فاستعجلا الفطام قبل الرضاع . والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل ، وطلبا ثواب الله من العباد ، وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين فان كانا استكرها قبل بيعتها وكانا رجلين من عرض قريش لها أن يقولا ولا يأمرا ، إلا وان الهدى ماكانت عليه العامة ، والعامة على بيعة علي . فما ترون ايها الناس؟ »

وانبرى اليه حكيم بن جبلة فخاطبه بمنطق الايمان قائلا .

« نرى إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناهما ، والله ما أبالي أن أقاتلهما وحدي ، وإن كنت أحب الحياة ، وما أخشى في طريق الحق وحشة ، ولا غيرة ولا غشا ولا سوء منقلب الى بعث وانها لدعوة قتيلها شهيد وحيها فائز : والتعجيل الى الله قبل الأجر خير من التأخير في الدنيا ، وهذه ربيعة معك .. » (١)

وصمم القوم بذلك على رد العدوان ، ومقابلتهم بالمثل إن اعتدوا عليهم ، وعدم التعرض لهم إن لم يبدؤهم بقتال .

---

(١) الامامة والسياسة ١|٦٤ — ٦٥

عقد الهدنة :

وجرت بين الفريقين مصادمات عنيفة ادت الى قتل البعض وجرح الآخر منهما ، وكان ابن حنيف يروم السلم ولا يحب مناجزة القوم قبل أن يأتيه أمر بذلك من أمير المؤمنين ، فاوقف القتال وعقد هدنة موقتة حتى يستبين له رأي الامام وهذا نصها .

« هـذا ما اصطلح عليه عثمان بن حنيف الانصاري ومن معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . وطلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما . إن لعثمان بن حنيف دار الامارة والرحبة والمسجد وبيت المال والمنبر ، وان لطلحة والزبير ومن معهما أن ينزلوا حيث شأوا من البصرة ولا يضار بعضهم بعضا في طـريق ولا فرضة (١) ولا سوق ولا شريعة ، ولا مرفق حتى يقـدم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فان أحبوا دخلوا في مادخلت فيه الامة ، وان أحبوا لحق كل قوم بهواهم ، وما أحبوا من قتال او سلم أو خروج أو إقامة وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه . واشد ما أخذه على نبي من أنبيائه من عهد وذمة . »

ووقعها الفريقان ، ومضى ابن حنيف إلى دار الامارة ، وأمـر اصحابه بالقاء السلاح والالتحاق بمنازلهم .

غدر وخيانة :

وقام طلحة والزبير بمراسلة الوجـوه والاشراف يدعونهم الى الطلب

---

(١) الفرضة : الثلمة من النهر التي يستقى منها .

بدم عثمان وخلع أمير المؤمنين واخراج ابن حنيف ، فاستجابت لهـم قبائل الأزد وضبة وقيس عيـلان ، وتابعهم كثير من البسطاء وذوى الاطماع ، ولما استوثق لهم الأمر غدروا وخانوا ونقضوا ما اتفقوا عليه من الهدنة ، فقـد هجموا على ابن حنيف في غلس الليل وهـو في دار الإمارة فاعتقلوه ونكلوا به فأمروا بنتف شعـر رأسه ولحيتـه وحاجبيه (١) ونهبوا مـا في بيت المال ، ولما حضر وقت الصلاة تنازع طلحة والزبير على الصلاة بالناس فجعل كل واحد منهما يمنع صاحبه من التقدم عليه حتى فات وقت الصلاة فصاح الناس بهـما ، فقطعت عائشة النزاع فـيما بينهما وقالت يصلي بالناس يوماً محمد بن طلحة ، ويوماً عبـد الله بن الزبـير (٢) فذهب ابن الزبير ليصلي بالناس فجذبه محمد بن طلحة وتقدم محمد ليصلي بالناس فمنعه ابن الزبـير ، ورأى الجميع أن خـير وسيلة لفصل الخصومة وقطع النزاع هي القرعة فاقترعا فخرج محمد بن طلحة فتقدم وصلى بالناس وقرأ سأل سائل بعذاب واقع » (٣) وفي ذلك يقول الشاعر :

تبارى الغلامان إذ صليا ... وشح على الملك شيخاهما
ومالي وطلحة وابن الزبير ... وهذا بذي الجذع مولاهما
فأمهـما اليـوم عـزتهـما ... ويعلى بن منية دلاهـما (٤)

---

(١) شرح النهج ٢/٥٠ وجاء فيه انهم طردوا عثمان فلحق بعلي فلما رآه بكى وقال له : فارقتك شيخاً ، وجئتك امرد فقال علي : إنا لله وإنا إليه راجعون قال ذلك ثلاثاً .

(٢) تأريخ اليعقوبي ٢/١٥٧ .

(٣) طبقات ابن سعد ٥/٣٩ .

(٤) الاغاني ١١/١٢٠ .

ان القوم مدفوعون بدافع الملك والسلطان ، ولو تم الأمر لهما لأجهز كل واحد منهما على صاحبه ، فانهما بعد في بداية الطريق وقد ظهرت منهما بوادر الانشقاق والاختلاف .

إنهما لم يخرجا على حكم الامام الا من أجل المنافع المادية الضيقة وقد اعترف بذلك الزبير فقد جاء اليهما رجل وهما في جامع البصرة فقال لهما :

« نشدتكما بالله في مسيركما أعهد إليكما فيه رسول الله شيئاً ؟ ... »

فسكت طلحة ولم يجبه بشيء فاجابه الزبير :

« - لا - ولكن بلغنا أن عندكم دراهم فجئنا نشاركم فيها ... » (١)

لقد حدد الزبير خروجهم على وصي رسول الله فهوانما كان من أجل الاطماع والمنافع وليس فيه أي عهد من الرسول (ص) .

وعلى أي حال فقد سقطت البصرة بايديهم واحتلت قواتهم جميع مواقعها وأمرت عائشه بقتل عثمان بن حنيف الا ان احدى السيدات استعظمت هذا الأمر وقالت لعائشة :

« نشدتك الله يا ام المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله » فعدلت عن رأيها وأمرت بحبسه (٢) وأمرت بقتل الشرطة وحراس بيت المال وعددهم سبعون شخصاً وهم من خيار المسلمين وصلحائهم فقتلوا صبرا (٣) ولم تتحرج أم المؤمنين في إراقة دمائهم ، ولم تتأثم في اشاعة الثكل والحزن والحداد بين أهليهم ، قد أعرضت عما أمر الله به من الحريجة في الدماء وحرمة سفكها بغير الحق .

---

(١) الطبري ٥|١٨٣ .

(٢) الطبري ٥|١٧٨ .

(٣) شرح النهج ٢|٥٠ .

مقتل حكيم بن جبلة :

ولما بلغ حكيم بن جبلة ما ارتكبه القوم بعثمان بن حنيف من التنكيل وما قاموا به من قتل الشرطة وخزان بيت المال خرج في ثلثمائة رجل من عبد القيس (١) فخرج القوم وحملوا عائشة على جمل ، فسمى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر ويومها مع امير المؤمنين يوم الجمل الأكبر ، وتجالد الفريقان بالسيوف ، وأبلى حكيم مع أصحابه المؤمنين بـلاءاً حسناً ، وشد عليه رجل من الأزد من عسكر عائشة فضرب رجله فقطعها ، وجثا حكيم فأخذ رجله المقطوعة فضرب بها ألازدى الذى قطعها فقتله ولم يزل يقاتل ورجله مقطوعة وهو يقول :

يا ساق لن تراعي ان معي ذراعي أحمي بها كراعي

وما زال على مثل هذه الحالة التي ضرب بها الرقم القياسي في البطولة والشجاعة ونكران الذات والدفاع عن المبدأ والعقيدة حتى نزف دمه ، فانطلق إلى الرجل الذي قطع رجله فاتكأ عليه وهو قتيل فاجتاز عليه شخص فقال له : من فعل بك هذا ؟ فقال : وسادتي ثم قتله سحيم الحداني (٢) وقتل معه اخوة له ثلاثة كما قتل جميع أصحابه (٣) ففي ذمة الله تلك الدماء الزكية التي أريقت ، والنفوس الكريمة التي أزهقت في سبيل الذب عن دين الله ، والدفاع عن وصي رسول الله .

---

(١) وفي رواية خرج مع سبعمائة من اصحابه .

(٢) اسد الغابة ٢|٤٠ .

(٣) شرح النهج ٢|٥١ .

استنجاد الامام بالكوفة :

كان الامام أمير المؤمنين متهيأ لغزو الشام حيث اعلن معاوية التمرد على حكومته ورفض بيعته وبينما هو جاد في تدبير الأمر إذ فاجأه الخبر عن هيَاج أهل مكة للطلب بدم عثمان بتحريض طلحة والزبير وعائشة واتباعهم من الامويين ، فاشفق من انشقاق العصا واختلاف شمل المسلمين ، ورأى أن خطرهم أقوى من خطر معاوية ، وشرهم أقوى من شره ، وإذا لم يبادر لاخماد هذه الفتنة فانها يوشك أن تتسع ، ويكثر التمرد والاختلاف فتجهز للشخوص إليهم ، وخفت لنصرته البقية الصالحة من المهاجرين والانصار وخرجوا مسرعين ليلحقوا بهم قبل أن يدخلوا مصراً من الامصار فيفسدوه فلما بلغوا الربذة علموا بسبقهم إلى البصرة وبالحوادث التي جرت فيها فاقام الامام بالربذة أياماً يحكم أمره ، وارسل إلى جماهير أهل الكوفة يستنجد بهم ويدعوهم الى نصرته والقيام معه لاخماد نار الفتنة ، وأوفد للقيام محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر (١) وزودهما برسالة جاء فيها « إني اخترتكم على الامصار ، وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين

---

(١) محمد بن جعفر بن ابي طالب الهاشمي : هو اول من سمي محمداً في الاسلام من المهاجرين ، قيل انه ولد بأرض الحبشة ، وتزوج بام كلثوم بنت الامام امير المؤمنين ، قيل انه استشهد بتستر ، وقيل انه قتل بصفين اعترك هو وعبيد الله ابن عمر فقتل كل منهما الآخر ، الاصابة ٣|٣٧٢ وجاء في اسد الغابة ٤|٣١٣ لما جاء نعي جعفر إلى رسول الله جاء إلى بيت جعفر ، وقال : اخرجوا لي اولاد اخي جعفر ، فاخرج إليه عبد الله ومحمد وعون فوضعهم على فخذه ودعا لهم ، وقال : انا وليهم في الدنيا والآخرة ، ثم قال : اما محمد فيشبه عمنا ابا طالب .

الله أعواناً وانصاراً ، وأيدونا وانهضوا إلينا ، فالاصلاح ما نريد لتعود الأمة أخواناً ؛ ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق ، ومن ابغض ذلك فقد أبغض الحق وأغمضه » (١) .

وطوى الرسولان البيداء حتى وصلا الكوفة فعرضا رسالة الامام على أبي موسى والي المصر إلا انهما لم يجدا منه أي اجابة أو انطلاق في الامر وانما وجدا منه موقفا غير طبيعي فقد كان يثبط العزائم ، ويوهن القوى ويمنع الناس من الاستجابة لنداء الامام ، وتكلم معه الرسولان بشدة فاجابهما أبو موسى مبرراً لعناده قائلا :

« والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما ، فان لم يكن بد من القتال ، لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . » (٢) .

وبعث المحمدان الأنباء بالتفصيل إلى الامام ، وعرفاه بتمرد أبي موسى وتثبيطه عزائم الناس ، فأوفد الامام للقياه هاشم المرقال وزوده برسالة جاء فيها :

« إني وجهت هاشماً لينهض بمن قبلك من المسلمين إلي ، فاشخص الناس ، فاني لم أولك إلا لتكون من أعواني على الحق . . » .

وسار هاشم حتى انتهى إلى الكوفة فرأى أبا موسى مصرا على تمرده وممعنا في غلوائه وعدائه ، وكلما حاول اقناعه وارجاعه إلى طريق الحق لم يتمكن ، واستدعى أبو موسى سائب بن مالك الأشعري ليستشيره في الأمر فاشار عليه بالنصيحة وملازمة الامام ، وتنفيذ أوامره الا انه لم يسترشد وبقي مصمما على عصيانه وعناده ، فارسل هاشم إلى الامام رسالة يخبره فيها

(١) الطبري ٣ ٣٩٣ .

(٢) الطبري ٣|٣٩٤ .

بفشله في مهمته ، واخفاقه في سفارته .

إيفاد الحسن :

وبعث الامام ولده الحسن ومعه عمار بن ياسر وارسل معه رسالة فيها عزل أبي موسى عن منصبه وتعيين قرضة بن كعب (١) في وظيفته ، وهذا نص رسالته :

« أما بعد : فقد كنت أرى أن تعزب عن هذا الأمر الذي لم يجعل الله لك نصيباً منه ، بمنعك عن رد أمري ، وقد بعثت الحسن بن علي وعمار بن ياسر يستفزان الناس ، وبعثت قرضة بن كعب واليا على المصر فاعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فان لم تفعل فاني قد أمرته أن ينابذك .. »

ووصل الامام الحسن إلى الكوفة فالتأم حوله الناس زمراً ، وهم يعربون له الانقياد والطاعة ، ويظهرون له الولاء والاخلاص ، واعلن الامام الحسن بالوقت عزل الوالي المتمرد عن منصبه ، وتعيين قرضة في محله ، ولكن أبا موسى بقي مصمما على مكره وغيه ، فقد اقبل على عمار ابن ياسر يحدثه في أمر عثمان عله أن يجد في حديثه فرجة فيتهمه بدم عثمان ليتخذ من ذلك وسيلة إلى خذلان الناس عن الامام فقال له :

---

(١) قرضة بن كعب بن ثعلبة الانصاري الخزرجي شهد مع النبي (ص) احداً وما بعدها من المشاهد ، وفتح الله على يديه في زمن عمر بن الخطاب ، وهو احد العشرة الذين ارسلهم عمر الى الكوفة لتعليم اهلها ، وولاه الامام على الكوفة ، ولما خرج إلى حرب صفين حمله معه ، وولاها ابا مسعود البدري ، وشهد مع الامام جميع مشاهده ، وتوفي في خلافته في دار ابتناها بالكوفة ، وصلى عليه الامام الاستيعاب ٣/٢٦٦ .

« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عـدا على أمير المؤمنين فأحللت نفسك مع الفجار . ؟ »

فاجابه عمار :

« لم أفعل ولمَ تسوئني ؟ . »

وعرف الحسن غايته فقطع حبل الجدال وقال له :

« يا أبا موسى ، لمَ تثبط عنا الناس ؟ »

وأقبل الامام الحسن يحدثه برفق ولين ليقلع روح الشر والعناد من نفسه قائلا :

« يا أبا موسى .. والله ما أردنا الا الاصلاح ، وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء .. »

فبهت أبو موسى ، وضاقت به مكابرته ، وطغيانه فقال للامام :

« صدقت بأبي أنت وأمي !... ولكن المستشار مؤتمن .. »

— نعم

— سمعت رسول الله يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب ! . وقد جعلنا الله عز وجل اخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا ، فقال : « يا ايها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » (١) وقال عـز وجل : « ومن يقتل مؤمنا معتمدا فجزاؤه جهنم » (٢) ... »

فانبرى اليه عمار فرد عليه أباطيله وخداعه قائلا :

(١) سورة النساء : آية ٢٩

(٢) سورة النساء : آية ٩٣

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم وهذه يدي بما قلت . »

فالتفت عمار الى الناس قائلا :

« إنما عنى رسول الله بذلك أبا موسى ، فهو قاعد خير منه قائم ؟.. »

ولم يجد كلام عمار ولا ترفق الحسن ، وطول صبره وعظيم حلمه مع هذا الجلف المتمرد الذي لايخضع لغير الشدة والقسر ، فقد بقي شديد الاصرار على ماهو عليه من تثبيط عزائم الناس وخذلانهم من الخروج مع الامام .

واخذ سبط النبي يوقظ الهمم ، ويبعث النشاط في النفوس ويحفزها للجهاد ، وخطب فيهم قائلا :

« أيها الناس .. قد كان في مسير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ماقد بلغكم ، وقد أتيناكم مستنصرين لأنكم جبهة الانصار ، ورؤس العرب وقد كان من طلحة والزبير بعد بيعتهما وخروجهما بعائشة ماقد بلغكم . وتعلمون أن وهن النساء وضعف رأيهن الى التلاشي ، ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء ، وأيم الله لو لم ينصره منكم أحد لرجوت أن يكون فيمن أقبل معه من المهاجرين والانصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم .. »

وقام عمار فاخذ يحفز الناس للجهاد ويبين لهم حقيقة الحال في شأن عثمان قائلا :

« يا أهل الكوفة .. إن غابت عنكم انباؤنا فقد انتهت اليكم امورنا إن قتلة عثمان لا يعتذرون من قتله الى الناس ولا ينكرون ذلك ، وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاججتهم فيه احيي الله من أحيي ، وأمات

من أمات ، وان طلحة والزبير كانا أول من طعن وآخر من أمر ، وكانا أول من بايع ، فلما اخطأهما ما أملا نكثا بيعتهما من غير حدث !.. وهذا ابن بنت رسول الله قد عرفتموه وقد جاء يستنصركم ، وقد دلكم علي في المهاجرين والبدريين والانصار الذين تبؤوا الدار والايمان .. »

وقام على أثرها قيس بن سعد فجعل يدعوهم الى القيام بالواجب ونصرة أمير المؤمنين قائلا :

« .. إن الأمر لو استقبلنا به أهل الشورى لكان علي أحق الناس به ، وكان قتال من أبى حلالا فكيف والحجة على طلحة والزبير ، وقد بايعاه طوعا ، وخالفاه حسدا وقد جاءكم علي في المهاجرين والانصار . ثم أنشأ يقول :

رضينا بقسم الله إذ كان قسمنا — عليا وأبناء الرسول محمد
وقلنا لهم أهلا وسهلا ومرحبا — نمد يدينا من هوى وتودد
فما للزبير الناقض العهد حرمة — ولا لأخيه طلحة اليوم من يد
أتاكم سليل المصطفى ووصيه — وانتم بحمد الله عار من الهد (١)
فمن قائم يرجى بخيل الى الوغا — وصم العوالي والصفيح المهند
يسود من أدناه غير مدافع — وإن كان مانقضيه غير مسود
فان يأتي ما نهوى فذاك نريده — وإن نخط مانهوى فغير تعمد(٢)

وقد بقي أبو موسى مصرا على طغيانه يثبط عزائم الناس ، ويدعوهم إلى التخاذل وعدم الاجابة لنصرة الامام ؛ وقد جعل كلما سمعه من الحسن ومن الخطباء دبر أذنيه حتى اعيى الامام الحسن حلمه فاندفع يصيح به في

(١) الهد الضعيف والجبان .

(٢) الغدير ٢|٧٧

ثورة وعنف قائلا له :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنح عن منبرنا لا أم لك ! . »

وأخذ الحسن يجد في تحفيز الناس للجهاد ويحثهم على الخروج لنصرة أبيه ، وقد قام فيهم خطيبا فقال لهم :

« أيها الناس .. أجيبوا دعوة أميركم ، وسيروا إلى أخوانكم ، فانه سيوجد الى هذا الامر من ينفر اليه ، والله لئن يليه أولو النهي أمثل في العاجل والآجل وخير في العاقبة ، فاجيبوا دعوتنا واعينونا على ما أبتلينا به وابتليتم ، وان أمير المؤمنين يقول : قد خرجت مخرجي هذا ظالما اومظلوما واني اذكر الله رجلا رعى حق الله إلا نفر ، فان كنت مظلوما اعانني ، وان كنت ظالما أخذ . والله ان طلحة والزبير لاول من بايعني ، وأول من غدر فهل استأثرت بمال او بدلت حكما ، فانفروا وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر . . »

فاجابه الناس بالسمع والطاعة ، والامتثال والانقياد لأمره ، والاجابة لدعوته ، ولكن الزعيم مالك الاشتر رأى ان الامر لايتم الا بأخراج أبي موسى مهان الجانب محطم الكيان ، فاقبل مع جماعة من قومه فاحاطوا بالقصر فلما نظر اليهم غلمانه اقبلوا يشتدون الى أبي موسى وقد خيم عليهم الخوف والذعر فقالوا له :

« يا أبا موسى . هذا الاشتر قد دخل القصر فضربنا واخرجنا . »

فنزل الوغد من القصر وقد استولى عليه الذهول فصاح به الاشتر :

« أخرج من قصرنا لا أم لك .. »

وتردد الاشعري برهة فصاح به مالك ثانيا :

« اخرج ... اخرج الله نفسك !. فو الله إنك لمن المنافقين ! . »

ونطق الاشعرى بصوت واهن ضعيف

ــ أجلني هذه العشية .

ــ هي لك ، ولا تبيتن فى القصر الليلة ..

ودخلت الجماهير تنهب امتعته وأمواله ، ولكن الاشتر لم يتنكر لعدوه المهزوم فقد وقف معه موقف الكريم النبيل فحال وبين الجماهير وبين ما ابتغوه من نهبه والتنكيل به ، فقال لهم :

« إني أجلته الليلة وقد أخرجته فكفوا عنه . »

فكف الناس عنه ، وفى الصباح خرج الباغي الأثيم وهو يجر سرابيل الخزي والخيانة ، وقد صفا الجو للامام الحسن ، واقبل يتحدث الى الناس بالخروج قائلا :

« أيها الناس . إني غاد ، فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر (١) ومن شاء فليخرج في الماء .. »

واستجابت الجماهير لدعوة الامام فلما رأى ذلك قيس بن سعد غمرته الافراح والمسرات وانشأ يقول :

جزى الله اهل الكوفة اليوم نصرة ... أجابوا ولم يأبوا بخذلان من خذل

وقالوا ! علي خير حاف وناعل ... رضينا من ناقضي العهد من بدل

هما أبرزا زوج النبي تعمدا ... يسوق بها الحادى المنيخ على جمل

فما هكذا كانت وصاة نبيكم ... وما هكذا الإنصاف اعظم بذا المثل

فهل بعد هذا من مقال لقائل ... ألا قبح الله الاماني والعلل (٢)

وعجت الكوفة بالنفار فقد نزحت منها آلاف كثيرة ، فريق منها

---

(١) اي على الدواب

(٢) الغدير ٢|٧٦

ركب السفن ، وفريق آخر ركب المطي ، وقد بدا عليهم الرضا والقبول وقد ساروا وهم تحت قيادة الحسن فانتهوا الى ذي قار (١) وقد التقوا بالامام أمير المؤمنين حيث كان مقيما هناك فسر بنجاح ولده ، وشكر له جهوده ومساعيه النبيلة .

الافتراء على الحسن :

وروى الطبري في تأريخه حديثا موضوعا فيه افتراء على الامام الحسن نسوقه الى القراء ثم نبين مايثبت وضعه ، فقد ذكر أنه أقبل على أبيه بعد خروج طلحة والزبير فقال له :

ـ أمرتك فعصيتني ، فانت اليوم تقتل بمضيعة لاناصر لك !..

ـ لاتزال تحن حنين الجارية ، ما الذي أمرتني فعصيتك ؟؟

ـ أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود أهل الامصار والعرب وبيعة كل مصر .

ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان مافعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد كان على يد غيرك ، فعصيتني في ذلك كله .

فرد أمير المؤمنين عليه قائلا :

« أي بني ، أما قولك : « لو خرجت من المدينة حين احيط بعثمان » لقد احيط بنا كما أحيط بعثمان ، وأما قولك : « لاتبايع حتى تأتي بيعة الامصار » فان الامر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الامر ،

---

(١) ذي قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة يقع بينها وبين واسط ، معجم البلدان ٧/٨

وأما قولك : « حين خرج طلحة والزبير » فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام ، ووالله مازلت مقهوراً منذ وليت ، منقوصا لا أصل الى شيء مما ينبغي .

وأما قولك : « اجلس في بيتك » فكيف لي بما قد لزمني !! أومن تريدني ؟ أتريدني أن اكون مثل الضبع التي يحاط بها ، ويقال : دباب دباب (١) ليست هاهنا حتى يحل عرقوباها (٢) ثم تخرج ، وإذا لم انظر فيما لزمني من هذا الامر ويعنيني فيمن ينظر فيه فكف عنك اي بني » (٣)

وهذا الحديث رواه الطبري عن سيف بن عمر الاسدي التميمي وهو من موضوعاته ومختلقاته ، وقد اجمع الثقات على ضعفه وعدم الاعتماد على احاديثه لانه عرف بالكذب والوضع ، واختلاق الحديث ، وقد اتهمه بعضهم في دينه وقد بين حاله وواقعه ، وعرض موضوعاته ومفترياته العلامة المحقق السيد مرتضى العسكري في كتابه « عبد الله بن سبأ »

ومما يزيد وضوحا في وضع الرواية وافتعالها أنه جاء فيها أن الامام الحسن قال لأبيه : « أمرتك فعصيتني » وهذا من اسمج الكلام وأمره فكيف يستقبل الحسن أباه بذلك وهو العارف بحقيقته والعالم بعظيم شأنه وقد قال فيه : إنه لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الآخرون بعمل » ومما لاريب فيه ان ذلك يتنافى مع هدى الامام الحسن الذى تجنب الاساءة

---

(١) دباب اسم فعل امر مشتق من الدبيب ، وهو استدعاء للضبع لتخرج .

(٢) عرقوباها : تثنية عرقوب ـ بالضم ـ وهو العصب الغليظ فوق عقب الانسان ، ومن الدابة في رجلها بمنزلة الركبة في يدها .

(٣) الطبري ٣|١٧٠

وهجر الكلام ومره حتى مع أعدائه ومناوئيه فكيف يخاطب أباه بذلك ؟!!

وعلق عبد الوهاب النجار على هذا الحديث الموضوع فقال · «وكأني به - يعني أمير المؤمنين - في هذا الامر الاخير يقول بمقالة عثمان : « لا اخلع لباسا البسنيه الله عز وجل » وهو اعتذار لايقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل إعتذار دول الاستعمار بأنه لامناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بأزاء الامم التي يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها » (١)

وعبد الوهاب النجار قد عرف بالتعصب لبني امية والتنكر لاهل البيت ، ولم يوفق في كثير من بحوثه فقد اعتمد على الموضوعات والمختلقات ولم يمعن النظر فيها ، وقد تجرأ بهذه الكلمات القاسية على الامام اميرالمؤمنين فقد شبهه بالدول الاستعمارية الظالمة التي نشرت الجور والظلم في الارض والامام أمير المؤمنين هو الذي بسط العدالة والمساواة ونشر جميع القيم الانسانية في دور حكمه ، ولم يعهد في تأريخ الانسانية حاكم مثله في عدله وتحرجه وعدم انخداعه بمظاهر الملك والسلطان ، فقد دخل عليه ابن عباس وهو يخصف نعله بيده فقال له :

- يابن عباس ، ماقيمة هذا النعل ؟

- لاقيمة له يا أمير المؤمنين

- والله لهي أحب إلي من أمرتكم ، إلا أن أقيم حقا أوادفع باطلا

هذا هو نظر الامام الى الحكم فهو عنده وسيلة لاقامة الحق ودحض الباطل ، ولو كان يروم الحكم لما فاز بالخلافة عثمان كما ذكرنا ذلك في

---

(١) الخلفاء الراشدون : ص ٤١٤ ، وقد بسط القول في الرد عليه السيد سعيد الافغاني في كتابه عائشة والسياسة ص ٩٦ ·

بحث الشورى ، فكيف يصح أن يشبه بالدول الاستعمارية الكافرة ، وهو نفس النبي ووصيه وباب مدينة علمه ؟ ! !

اللقاء الرهيب :

وتحركت كتائب الامام من ذي قار تجـد السير حتى انتهت الى الزاوية (١) فنزل الامام فصلى فيها اربع ركعات ولما فرغ من صلاتـه جعل يعفر خده الشريف على التربة وهو يبكي ، ثم رفع يديه بالدعاء الى الله قائلا :

« اللهم ، رب السموات وما أظلت ، والارضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ، هذه البصرة أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها ، اللهم انزلنا فيها خير منزل ، اللهم هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي وبغوا علي ، ونكثوا بيعتي ، اللهم احقن دماء المسلمين .. » (٢)

ولما استقر الامام بعث بالوقت عبيد الله بن عباس ، وزيد بن صوحان الى عائشة يدعوها إلى حقن الدماء وجمع كلمـة المسلمين ، وقال لهما : قولا لها :

« إن الله أمرك ان تقري في بيتك وأن لاتخرجي منه ، وانك لتعلمين ذلك غير أن جماعة قد أغروك ، فخرجت من بيتك ، فوقع الناس لاتفاقك معهم في البلاء والعناء ، وخير لك أن تعودي الى بيتك ولا تحومي حول الخصام والقتال ، وإن لم تعودي ولم تطفىء هذه النائرة فانها سوف تعقب

---

(١) الزاوية : موضع قريب من البصرة ، وبه كانت الواقعة المشهورة بين الحجاج وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، معجم البلدان ٤/٣٧

(٢) مروج الذهب ٢/٢٥٤

القتال ، ويقتل فيها خلق كثير فاتقي الله ياعائشة وتوبي الى الله فان الله يقبل التوبة من عباده ويعفو . وإياك أن يدفعك حب عبد الله بن الزبير وقرابة طلحة الى أمر يعقبه النار .. » .

ولو وعت عائشة هذه النصيحة وارتدعت عما هي عليه لعادت بخير عميم على الأمه ، ولكنها جعلت ذلك دبر أذنيها ، وقالت للرسولين :

إني لا ارد على ابن ابي طالب بالكلام لأني لا أبلغه في الحجاج » (١)

إنها لاترده بالكلام لأنها ليست لها حجة تدلى بها في الدفاع عن نفسها ، وبعث الامام برسالة الى طلحة والزبير يدعوهما فيها الى الوئام ونبذ الشقاق وهذا نصها :

« أما بعد فقد علمتما وإن كتمتما أني لم أرد الناس حتى أرادوني ، ولم أبايعهم حتى بايعوني وإنكما ممن أرادني وبايعني ، وإن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر ، وان كنتما بايعتماني طائعين فارجعا وتوبا الى الله من قريب ، وإن كنتما بايعتماني كارهين فقد جعلتماني عليكما السبيل باظهاركما الطاعة ، وإسراركما المعصية ، ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وان دفعكما هذا الامر من قبل أن تدخلا فيه كان اوسع عليكما من خروجكما منه بعد اقراركما به ، وقد زعمتما اني قتلت عثمان فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتمل ، فارجعا ايها الشيخان عن رأيكما ، فان الآن اعظم امركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار .. » (٢)

ولم يستجيبا لنداء الحق واصرا على الفساد والتمرد والبغي ، واعلنا مقاومة الامام ومناجزته .

---

(١) تاريخ ابن اعثم ص ١٧٥

(٢) نهج البلاغة ٣|١٢٢

خطاب ابن الزبير :

وكان عبد الله بن الزبير من اشد المحرضين الى اثارة الفتنة ، واراقة الدماء ، وقد افسد جميع الوسائل التي صنعها امير المؤمنين لتحقيق السلم ، وقد خطب في جموع البصريين ودعاهم الى الحرب ومناجزة الامام وهذا نص خطابه :

« ايها الناس ، ان علي بن أبي طالب قتل الخليفة بالحق عثمان ، ثم جهز الجيوش اليكم ليستولي عليكم ، ويأخذ مدينتكم ، فكونوا رجالا تطالبون بثأر خليفتكم ، واحفظوا حريمكم ، وقاتلوا عن نسائكم وذراريكم وأحسابكم وانسابكم ، اترضون لأهل الكوفة ان يردوا بلادكم ، اغضبوا فقد غوضبتم ، وقاتلوا فقد قوتلتم ، ألا وإن عليا لايرى معه في هذا الأمر أحدا سواه والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم .. »

وحفل خطابه بالمغالطات والاكاذيب ، واثارة النعرات والعصبيات ضد امير المؤمنين ، وهو يعلم ــ من دون شك ــ كذب ما قاله ولكن نفسه سولت له ذلك طمعا بالامرة والسلطان .

خطاب الحسن :

وبلغ الامام أمير المؤمنين خطاب ابن الزبير فاوعز الى ولده الحسن بالرد عليه فقام الحسن خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« قد بلغتنا مقالة ابن الزبير في أبي وقوله فيه : إنه قتل ، عثمان ، وانتم يامعشر المهاجرين والانصار وغيرهم من المسلمين علمتم بقول الزبير في عثمان ، وما كان اسمه عنده ، وما كان يتجنى عليه ، وان طلحة

يومذاك ركز رايته على بيت ماله وهو حي ، فانى لهم أن يرموا أبي بقتله وينطقون بذمه ، ولو شئنا القول فيهم لقلنا .

وأما قوله : إن عليا ابتز الناس أمرهم ، فان أعظم حجة لأبيه زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه ، فقد أقر بالبيعة وادعى الوليجة فليأت على ما ادعاه ببرهان وانى له ذلك ؟

وأما تعجبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة ، فما عجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل .

أما انصار عثمان فليس لنا معهم حرب ولا قتال ، ولكننا نحارب راكبة الجمل واتباعها .. » (١)

واندفع عمرو بن أحيحة فابدى اعجابه البالغ بخطاب الامام فقال :

حسن الخير ياشبيه أبيه ... قمت فينا مقام خير خطيب

قمت بالخطبة التي صدع اللـه بها عن أبيك أهل العيوب

وكشفت القناع فاتضح الامر وأصلحت فاسدات القلوب

لست كابن الزبير لجلج في القول وطاطا عنان فسل مريب

وأبى الله أن يقوم بما قا م به ابن الوصي وابن النجيب

ان شخصا بين النبي ـ لك الخير ـ وبين الوصي غير مشوب (٢)

لقد فند الامام ابو محمد مزاعم ابن الزبير ، ورد عليه اكاذيبه فان الذي اشعل نار الفتنة على عثمان انما هو الزبير وطلحة وعائشة ، وليس للامام امير المؤمنين ضلع في ذلك ، كما اوضحناه في البحوث المتقدمة

---

(١) الجمل ص ١٥٨ ـ ١٥٩

(٢) شرح النهج ١|١٤٦ ، ط دار احياء الكتب العربية

الدعوة الى كتاب الله

وبذل الامام قصارى جهوده فى تدعيم السلم وعـدم ايقاع الحرب والدعوة الى العمـل بما في كتاب الله فقد رفع المصحف بيمينه وجعل يطوف به بين أصحابه وفي نفسه بقية امل في الصلح قائلا :

« أيكم يعرض عليهم هذا المصحف وما فيه ؟.. فان قطعت يده أخذه بيده الأخرى ، وإن قطعت أخذه باسنانه ، وهو مقتول .. »

فنهض اليه فتى كوفي ونفسه تفيض حماسا ونبلا فقال له :

« أنا له يا أمير المؤمنين »

فأشاح الامام بوجهه عنه برهة ، وطاف في أصحابه ينتدبهم لمهمته فلم يجبه أحد سوى ذلك الفتى النبيل فدفع له المصحف وقال له :

« اعرض عليهم هذا ، وقل هو بيننا وبينكم ... والله في دمائنا ودمائكم . »

وانطلق الفتى مزهوا لم يختلج في قلبه خوف ولا رعب وهو يلوح بالمصحف أمام عسكر عائشة يدعوهم الى العمل بما فيه ، ويدعوهم الى الأخوة والوئام ، فتنكروا له ، فقد دفعتهم الانانية وكراهية الحق الى الفتك به فقطعوا يمناه ، فأخذ المصحف بيساره وهو يدعوهم الى العمل بكتاب الله فعدوا عليه ثانيا فقطعوا يساره فأخذ المصحف باسنانه وقد اغرق في الدماء ، وهو يدعوهم فى آخـر مراحل حياته الى السلم والصلح وحقن الدماء قائلا :

« الله في دمائنا ودمائكم »

فانثالوا عليه وهم مصرون على الغي والعناد فرشقوه بنبالهم فوقع على الارض جثة هامدة وانطلقت امه ترثيه .

يارب إن مسلما أتاهم   يتلو كتاب الله لايخشاهم

فخضبوا من دمه الخاهم وأمــه قائمــة تراهم (١)

ولم يجد الامام بعد هذا الاعذار وسيلة سوى الحرب فقال لاصحابه « الآن حل قتالهم وطاب لكم الضراب . » (٢)

اعلان الحرب :

ودعا الامام بعد مقتل سفيره قادة جيشه فأقامهم على أماكنهم ، وعبأ الجنود للحرب وقد رسم لهم خطة تمثلت فيها الفضيلة والرحمة والعدل فقد قال لهم :

« أيها الناس .. إذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ولا تهتكوا سترا ولاتقربوا من أموالهم إلا ماتجدونه في معسكرهم من سلاح أو كراع أو عبــد او امــة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب الله .. »

واعتلت عائشة جملها المسمى بعسكر ، وقد ألبسوه المسوح ، وجلود البقر ، وجعلوا دونه اللبود (٣)

ولها القيادة العامة فهي التي تنظم العساكر وتصدر الأوامر ، ووجه جيشها النبل الى معسكر الامام فقتل بعض اصحابه ، فلم تجد بعد ذلك بدأ من الحرب فتقلد الامام سيفه ، ودفع الراية الى ولده محمد (٤) وقال للحسن

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٤٦

(٢) الطبري ٥/٢٠٤

(٣) اللبود : - جمع مفردها اللبد - الكساء من الشعر ، وبساط من الشعر .

(٤) محمد بن علي بن ابي طالب الهاشمي المعروف بابن الحنفية ،

والحسين : انما دفعت الراية الى أخيكما وتركتكما لمكانكما من رسول الله

وانطلق محمد الى ساحة الوغى بعزم ثابت ونفس جياشة وهو يطلب الظفر والنصر ، ولكن سهام القوم قد مطرت عليه من كل جانب فتريث عن المسير برهة فلم يشعر الا ويد أبيه تدفعه من الخلف وهو يقول له بنبرات تقطر حماسا :

« أدركك عرق من امك ! »

ثم خطف الراية من يده وهزها في وجهه وهو يقول له :

اطعن بها طعن أبيك تحمد لاخير فى الحرب إذا لم توقد

بالمشرفي والقنا المسدد

لم يكن موقف محمد خورا وجبنا وانما هو من دهاء القائد المحنك الذي أراد أن يبلغ الغاية بعد أن تنكشف عنه سهام القوم ، ولم يرد أمير المؤمنين بفعله الا ليرى أهل البصرة فى بداية الحرب الحزم والعزم والبسالة لعلهم عن غيهم يرتدعون .

وحمل الامام على القوم وقد رفع العلم بيساره ، وشهر فى يمينه ذا الفقار الذي حارب به الملحدين والمشركين على عهد رسول الله واليوم يحارب به المارقين من الدين والمنحرفين عن الاسلام ، واحتف به اعلام المهاجرين والانصار فكان العدو أمام بواترهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف

مصرع الزبير :

وخرج أمير المؤمنين حاسرا بين الصفوف فنادى باعلا صوته :

امه خولة بنت جعفر الحنفية ، قال ابراهيم بن الجنيد لانعلم احدا اسند عن علي اكثر ولا اصح مما اسند محمد قال ابو نعيم توفي سنة ثمانين خلاصة تهذيب الكمال ص ٢١ .

« أين الزبير . ؟ »

فخرج اليه الزبير وهو شاك في سلاحه فلما رآه اعتنقه وقال له :

ـ يا أبا عبد الله ماجاء بك هاهنا ؟؟

ـ جئت أطلب دم عثمان

فرمقه بطرفه وقال له بنبرة المستريب .

ـ تطلب دم عثمان ؟!!

ـ نعم

ـ قتل الله من قتل عثمان

واقبل عليه يحدثه برفق ، ويذكره بمانساه قائلا :

« أنشدك الله يازبير ،هل تعلم أنك مررت بي وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو متكيء على يدك ، فسلم علي رسول الله وضحك إلي ، ثم التفت اليك فقال لك : يازبير إنك تقاتل عليا وأنت له ظالم . »

فاطرق الزبير ، وقد غاض لونه ، وذاب قلبه أسى وحسرات ، وندم على مافرط من أمره وقال للامام :

ـ اللهم نعم

ـ فعلام تقاتلني ؟

ـ نسيتها والله ، ولو ذكرتها ماخرجت اليك ، ولاقاتلتك (١)

ـ ارجع

ـ وكيف ارجع وقد التقت حلقتا البطان ، هذا والله العار الذي لايغسل ؟؟

ـ ارجع قبل أن تجمع العار والنار

---

(١) الامامة والسياسة ١|٧٣

فانصرف وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ... ما إن يقوم لها خلق من الطين
نادى علي بأمر لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني(١)

وعزم على الانسحاب من هذه الفتنة الا انه أراد أن يخرج منها بسلام فقال لعائشة :

« يا أم المؤمنين . . . إني والله ماوقفت موقفا قط إلا عرفت اين أضع قدمي فيه إلا هذا الموقف ؟ فاني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر ..؟»

عرفت عائشة خبيئته ، وما يرومه في حديثه من الانسحاب ، فالتفتت اليه وكانت عارفة بما يثيره وينقض عزيمته فقالت له باستهزاء .

« يا أبا عبد الله .. خفت سيوف بني عبد المطلب ؟! »

وعاثت هذه السخرية في نفسه ، وزاد في اضطرابه وقلقه وارجاعه الى ساحة التمرد ابنه المشوم عبد الله فقد قال له :

« إنك خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبي طالب وعرفت أن تحتها الموت فجبنت ؟! »

لقد اتهمه ابنه بالخور والجبن وهو عار وذل ومنقصة عليه فالتفت اليه وقد مشت الرعدة باوصاله فقال له :

— ويحك إني قد حلفت له أن لا أقاتله ؟

— كفر عن يمينك بعتق غلامك سرجس .

فاعتق غلامه (٢) ثم انعطف يجول في الميدان ليرى عائشة وابنه

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٤٧

(٢) تاريخ الطبري ٥/٢٠٠ وجاء فيه ان عبدالرحمن بن سليمان

شجاعته وبسالته وعدم مبالاته بحتفه ، فشد في الميسرة ، ثم رجع فشد في القلب ، ورجع الى ابنه وقال له :

« ايفعل هذا جبان ؟؟ »

ومضى منصرفا حتى أتى (وادي السباع) وكان الاحنف بن قيس مع قومه مقيمين فيه ، فقالوا له : هذا الزبير قد اجتاز فقال : ما اصنع بالزبير ؟ وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضا ؟ ولحقه نفر من بني تميم فسبقهم اليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير الى الصلاة فقال : أتؤمني أو أؤمك ؟ فأمه الزبير ، فقتله عمرو بن جرموز وهو في حال صلاته (١)

لقد كانت النهاية الأخيرة من حياة الزبير مشفوعة بالغدر والخيانة والتمرد على الحق وهو مما يؤسف له ، فله ماضيه الزاهر الحافل بالمكرمات والفضائل فهو صاحب حلف الفضول الذي كان شعاره مناصرة المظلوم فما باله في هذه المرحلة قد تنكر لأمير المؤمنين ونسي ظلامته ، فقد ابتزت حقه تيم تارة وعدي أخرى وأمية ثالثة ، وقد جاء هو لينتزع منه حقه .

انه مما يؤسف على الزبير أن تكون له هذه النهاية المؤلمة وهو صاحب

التميمي قال متعجبا من فعل الزبير !!

لم ار كاليوم اخا اخوان　　　اعجب من مكفر الايمان

بالعتق من معصية الرحمن

وقال رجل آخر من شعرائهم

يعتق مكحولا لصون دينه　　　كفارة لله عن يمينه

والنكث قد لاح على جبينه

(١) مروج الذهب ٢/٢٤٧

المواقف الكريمة الذي جلى بسيفه الكرب عن وجه رسول الله (ص) ووقف من بعده ، مع أمير المؤمنين يحمي جانبه ويهتف بفضله ويقدمه على غيره فما الذي حداه على الخروج عليه فهل استأثر ابن أبي طالب باموال المسلمين وهل ادخر وفرا لنفسه ولعياله حتى يناجزه ويخرج عليه ؟

الاحتفاف بعائشة :

واستطابت الموت واستلذته بعض القبائل العربية في سبيل عائشة فقدموا لها الضحايا والقرابين ، وبالغوا في حمايتها والدفاع عنها وهم :

أ — الأزد

وهامت الازد بحب عائشة ، وتفانت في ولائها ، فكانوا يأخذون بعر جملها يشمونه ويقولون : بعر جمل أمنا ريحه ريح المسك (١) وقد هبوا للدفاع عنها مستميتين ، وقد انطلق شيخ في المعركة يستنجد بهم لما رأى من عظيم ولائهم واخلاصهم لها فقد خاطبهم قائلا :

يامعشر الأزد عليكم امكم　　فانها صلاتكم وصومكم
والحرمة العظمى التي تعمكم　　فاحضروها جدكم وحزمكم
لايغلبن سم العدو سمكم　　إن العدو إن علاكم زمكم
وخصكم بجوره وعمكم　　لاتفضحوا اليوم فداكم قومكم (٢)

واحتفوا بهودجها ، وامسكوا بخطام « عسكرها » فبهرت عائشة وقالت !

— من انتم ؟

---

(١) تاريخ ابن الاثير ٣/٩٧

(٢) شرح النهج ١/٢٥٤

فاخذت تلهب في نفوسهم روح الحماس وتدفعهم الى الموت قائلة :
« إنما يصبر الأحرار .. مازلت أرى النصر مع بني ضبة ! »
واشعلت هذه الكلمات نار الثورة في نفوسهم فاندفعوا إلى الموت ، وقاتلوا أشد القتال في سبيلها (١)

ب – بنو ضبة

وبنو ضبة من أرذال العرب وأوباشهم ، وكانوا غلاظ القلوب والطباع ، قد أترعت نفوسهم بروح الجاهلية ومساوئها ، وقد وهبوا أرواحهم بسخاء لعائشة ، وأحاطوا بجملها مستميتين وهم يقولون :

يا أمنا يازوجة النبي ... يازوجة المبارك المهدي
نحن بنو ضبة لانفر ... حتى نرى جماجما تخر
يخر منها العلق المحمر

ووقفوا صامدين حتى قطعت أيديهم وبدرت رؤوسهم ، واتخذوا في ذلك اليوم دم عثمان شعارا لهم فكانوا يقاتلون اعنف القتال وأشده وشاعرهم يرتجز ويقول :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل ... ننازل القرن اذا القرن نزل
والقتل اشهى عندنا من العسل ... نبغي ابن عفان بأطراف الأسل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل

وقتل حول خطامها اربعون رجلا منهم ، وكانت عائشة تقول : مازال جملي معتدلا حتى فقدت اصوات بني ضبة .

ج – بنو ناجية

---

(١) شرح النهج ٢|٨١

ومن القبائل التي فتنت بحب عائشة بنو ناجيـــة ، فقد انطلقوا الى ساحة الموت في سبيلها فأخذوا بخطام جملها فسألت عنهم ؟ فقيل لها بنو ناجية فأخذت تستفز حميتهم ، وتقذف بهم في لظى الحرب قائلة :

« صبراً يابني ناجية . فاني اعرف فيكم شمائل قريش .. » (١)

هذه بعض القبائل التي قدمت المزيد من الضحايا في سبيل عائشة ، قد غرتهم امهم وفتنتهم في سبيل أطماعها واحقادها .

عقر الجمل :

واستمر اعنف القتال بين الفريقين يريد أصحاب أمير المؤمنين أن يحموا امام المسلمين ووصي نبيهم ويريد أصحاب عائشة أن يحموا أمهم ويموتوا دونها حتى شاعت المقتلة بينهما ، ورأى امير المؤمنين ان الحرب لاتنتهي مادام الجمل موجودا ، فـدعا بعمار وبالاشتر فلما مثلا بين يديه قال لهما .

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل فان الحرب لاتخمد ضرامها مادام حيا !!! فانهم قد اتخذوه قبلة لهم . »

انطلق الأشتر وعمار ومعهما فتية من مراد فوثب فتى يعرف بمعمر ابن عبـد الله (٢) الى الجمل فضربه على عرقوبه فهوى الى الارض وله عجيج منكر لم يسمع مثله ، وتفرق اصحاب عائشة فقد تحطم الصنم الذي

(١) شرح النهج

(٢) وقيـل غيره هو الذي عقره وفي رواية ان الامام دعا ولده محمد بن الحنفية فاعطاه رمحا وقال له : اقصد بهذا الرمح الجمل فذهب فحال القوم بينه وبينـه فرجع ولم يظفر ببغيته فاخذ الحسن الرمح من يده وقصد الجمل فطعنه .

قدموا له القرابين ، وأمر الامام بحرقه وتذرية رماده في الهواء لئلا تبقى منه بقية يفتتن بها السذج والبسطاء وبعد مافرغ من ذلك قال :

« لعنه الله من دابة . فما اشبهه بعجل بني اسرائيل !! »

ومد بصره الى الرماد الذي اخذه الريح فتلا قوله تعالى : « وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا » (١)

الصفح عن عائشة :

وقابل الامام عائشة بالاحسان والصفح الجميل فبعث اليها أخاها محمدا يسألها عن حالها فانطلق اليها محمد فادخل يده في هودجها فجفلت مرعوبة منه وصاحت به :

— من انت ؟

— ابغض أهلك اليك

عرفته في الوقت فقالت له ونفسها مترعة بالكراهية له والحقد عليه :

— ابن الخثعمية ؟

— نعم أخوك البر

— عقوق

وأزاحت بوجهها عنه ، والتفت اليها يسألها برفق ولين :

— هل أصابك مكروه ؟

— سهم لم يضرني

فانتزعه منها ، وأخذ بخطام هو دجها ، وادخلها في الهزيع الأخير

---

(١) سورة طه : آية ٩٧

من الليل الى دار عبد الله بن خلف الخزاعي (١) على صفية بنت الحارث (٢) فاقامت هناك اياما .

العفو العام :

واصدر الامام اوامره بالعفو عن جميع اعدائه ، والمعارضين له ، وطلبت عائشة ان يؤمن ابن اختها عبدالله بن الزبير وهو من ألد اعدائه فاجابها إلى ذلك ، وتكلم معه الحسن والحسين في شأن مروان فآمنه وعفا عنه ونادى مناديه :

« ألا لايجهز على جريح ، ولا يتبع مول ، ولا يطعن في وجه مدبر ومن القى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن .. »

ثم آمن الاسود والأحمر ـ على حد تعبير اليعقوبي ـ (٣) ولم ينكل بأحد من خصومه ، وبذلك فقد انتشر السلام وعم الهدوء في جميع ربوع البصرة

تسريح عائشة :

وبعث أمير المؤمنين عبدالله بن عباس الى عائشة لتخرج من البصرة الى يثرب فتقر في بيتها كما أمرها الله فانطلق اليها ابن عباس واستأذن

---

(١) عبد الله بن خلف بن اسعد الخزاعي والد طلحة الطلحات قال ابو عمر : لا اعلم له صحبة ، كان كاتبا لعمر بن الخطاب على ديوان البصرة ، قتل في واقعة الجمل وكان من حزب عائشة واخوه عثمان من اصحاب الامام . الاصابة ٢/٣٠٣

(٢) صفية بنت الحارث بن طلحة قتل ابوها يوم بدر كافرا ، وهي زوج عبد الله بن خلف وام طلحة الطلحات ، الاصابة ٤/٣٤٦

(٣) تأريخ اليعقوبي ٢/١٥٩

منها فابت أن تأذن له فدخل بغير أذن وهوى الى متاعها فأخرج منـه وسادة فجلس عليها ، فتأثرت منه وقالت له :

« تالله يابن عباس .. مارأيت مثلك تدخل بيتنا وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا !! »

فانبرى اليها ابن عباس وهو فياض المنطق قائلا :

« والله ماهو بيتك ، ولا بيتك الا الذى أمرك الله أن تقرى فيه فلم تفعلي ، إن أمـــير المؤمنين يأمرك أن ترجعي الى بلدك الذي خرجت منــه . »

فاظهرت كوامن غيظها وبغضها للامام فقالت:

ــ رحم الله أمير المؤمنين ذاك عمر بن الخطاب .

ــ نعم . وهذا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

ــ أبيت ، أبيت

ــ ما كان أباؤك إلا فواق ناقة بكيئة (١) ثم صرت ماتحلين ولا تمرين ولا تأمرين ولا تنهين.

فالتاعت من كلامه وأرسلت مافي عينيها من دموع ، ثم قالت له :

« نعم ارجع فان ابغض البلدان الي بلد انتم فيه . »

فثار ابن عباس من كلامها ورد عليها :

« أما والله ماكان ذلك جـــزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك لهم صديقا . »

فاجابته باسخف القول

---

(١) الفواق : الوقت مابين الحلبتين فان الناقة تحلب ثم تترك ليرضعها الفصيل حتى تدر فتحلب ، البكيئة : الناقة التي قل لبنها .

« أتمن علي برسول الله ؟ !! »

وما ابعد هذا القول عن منطق الايمان فمن تكون هي لولا رسول الله فبسببه علالها نجم وصار لها ذكر ، وقد انبرى ابن عباس فرد عليها منطقها الرخيص قائلا :

« نمن عليك بمن لو كان منك بمنزلته منا لمننت به علينا !! »

وتركها وانصرف فاخبر الامام بحديثه معها ، وباستجابتها لقوله فشكره الامام على ذلك (١) ولما عزمت على الخروج جهزها الامام باحسن جهاز واعد لها قافلة كاملة لاينقصها شيء ، وفي اليوم المقرر لسفرها دخل عليها ومعه الحسن والحسين فلما رأينه النسوة بكين وصحن في وجهه ، والتفتت اليه صفية ربة الدار فقالت له :

ياقاتل الأحبة . يامفرق الجماعات . أيتم الله بنيك منك كما ايتمت بنى عبد الله .. »

اجابها الامام : لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذا البيت ، وأشار الى بيت فى دارها قد اختفى فيه فريق من أعدائه وخصومه ، وأراد من كان معه الهجوم عليهم فمنعهم من ذلك ، وجرى بعد ذلك حديث بين الامام وعائشة فقالت له: إني احب أن أقيم معك فاسير إلى قتال عدوك ، فابى الامام وأمرها أن تقر في البيت الذي تركها فيه رسول الله ولو أراد السياسة الوقتية لأجابها إلى ذلك ولكنه منبع التقوى والايمان أراد أن يسير معها على وفق الشريعة الاسلامية التي تلزم المرأة بالحجاب وبالعمل لتهذيب نفسها واصلاح منزلها ، وليس لها باي حال أن تدخل في المعمعات الحزبية والمعتركات السياسية ، ورحلت عائشة من البصرة وقد

---

(١) العقد الفريد ٣|١٠٣ — ١٠٤

اسكنت بيوتها الثكل والحزن والحداد ، وروعت المسلمين وأشاعت القتل فيما بينهم فقد كان عدد الضحايا بسببها عشرة آلاف نصفهم من اصحابها والنصف الآخر من أصحاب الامام (١) وقد دمرت بخروجها على الامام وشائج الصلات بين المسلمين ، ونسفت أواصر الأخوة الاسلامية التي عقدها الرسول الكريم ، وفتحت باب الفتن والشر بين أمة محمد (ص) كما مهدت العصيان لمعاوية وبني امية ، وعبدت لهم الطريق ليتخـذوا من دم عثمان وسيلة الى الظفر بالحكم وإلى استعباد المسلمين واذلالهم .

لقد اجمع أئمة المسلمين على تأثيم القائمين بهذا التمرد وانه لامبرر له بحال من الاحوال كما نعتوهم بالبغاة وان الواجب الديني يقضي بمناجزتهم عملا بقوله تعالى: « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » يقول أبو حنيفة :

« وما قاتل أحد عليا الا وعلي أولى بالحق منه ، ولولا ماسار علي فيهم ماعلم أحد كيف السيرة في المسلمين . ولا شك ان عليا إنما قاتل طلحة والزبـير بعد أن بايعاه وخالفاه ، وفي يوم الجمل سار على فيهم بالعدل ، وهو علم المسلمين فكانت السنة في قتال أهل البغي » (٢)

وقال ابن حجر :

« ان أهل الجمل وصفين رموا عليا بالمواطاة مع قتلة عثمان وهو بريء من ذلك وحاشاه واضاف يقول : ويجب على الامام قتال البغـاة لاجماع الصحابة عليه ولا يقاتلهم حتى يبعث اليهم أمينا عدلا فطنا ناصحا يسألهم عما ينقمونه على الامام تأسيا بعلي (ع) في بعثـه ابن عباس الى

---

(١) تاريخ الطبري ٥|٢٢٤ وقيل ان عدد القتلى اكثر من ذلك

(٢) مناقب ابي حنيفة للخوارزمي ٢|٨٢ - ٨٣

الخوارج بالنهروان » (١)

وقال امام الحرمين الجويني : « كان على بن أبي طالب امام حق في توليته ومقاتلوه بغاة » (٢)

ان الشريعة الاسلامية تلزم بمناجزة الخارجين على السلطة الشرعية لان في خروجهم تصديعا لوحدة المسلمين ، وتدميراً لاخوتهم .

لقد مرت هذه الحادثة الرهيبة على الامام الحسن وقد عرفته باضغان القوم وأحقادهم على أبيه ، وقد كان فى تلك الموقعة البطل الوحيد والقائد المحنك الذى استطاع أن يحفز الجماهير ويجهزهم لقتال القوى الباغية على أبيه ، وبهذا ينتهى بنا المطاف عن مشكلة البصرة لنلتقى به في موقعة صفين



(١) تحفة المحتاج للنووى ٤|١١٠

(٢) الارشاد في اصول الاعتقاد ص ٤٣٣



في صفين

تمر بعض الحوادث في دنيا الوجود وتذهب من دون أن تترك أثراً مهماً يذكره التأريخ وإن كان لها في وقتها من الخطورة شأن كبير، وتمر بعض الحوادث الأخرى في ميدان الحياة فتبقى خالدة خلود الدهر لأنها تركت أثرا اجتماعيا عاد بالخير العميم على الانسان، وتجتاز بعض الحوادث على مسرح الحياة فتملأ الدنيا بالمآسي والخطوب وتعود بشقاء الانسان واستعباده، من هذه الحوادث المفجعة والرزايا المؤلمة حادثة صفين التي تجسم فيها الصراع بين الحق والباطل، وبين العدل والجور والظلام والنور وبين الخلافة الدينية التي تنشد صالح الانسان واسعاده. وبين الحكم الفوضوي الذي لايهدف إلا إلى الإثرة والاستغلال والمتاجرة بمصالح الشعوب.

إن الشعوب الاسلامية لم تقرر مصيرها الحاسم في وقعة صفين فقادها ذلك الى الاستعباد والاذلال والخضوع للظلم والجور، وقد المع الى ذلك الاستاذ مالك الجزائري في ايضاحه للاسس القويمة التي تبناها مؤتمر (باندونغ) اذ يقول:

ولقد عرف التاريخ الاسلامي لحظة كهذه - اي في تقرير حق المصير - في معركة صفين تلك الحادثة المؤسفة المؤثرة التي نتج عنها التذبذب في الاختيار، الأختيار الحتم بين علي ومعاوية، بين المدينـة ودمشق، بين الحكم الديمقراطي الخليفي والحكم الاسري، ولقد اختار المجتمع الاسلامي في هذه النقطة الفاصلة في تأريخه الطريق الذي قاده اخيراً الى القابلية للاستعمار والى الاستعمار » (١)

لقد انخذل المجتمع الاسلامي في حادثة صفين فلم يقرر مصيره الحاسم فانتج ذلك خذلان الامام أمير المؤمنين وارغام الامام الحسن من بعده على

---

(١) فكرة الافريقية الآسيوية، في ضوء مؤتمر باندونج ١١١

الصلح ، وتسلم الامويين لقيادة الحكم في البلاد فامعنوا في قتل الاخيار ومطاردة المصلحين واشاعة الظلم والجور في الأرض ، وعلينا أن نتبين فصول هذه المأساة — بإيجاز — وننظر الى متاركها القطيعة وهي :

تمرد معاوية :

واعلن معاوية التمرد على حكومة الامام ، ورفض البيعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون اما بواعث عصيانه فهي مايلي :

١ — لقد علم معاوية أن الامام لايقره في منصبه ، ولابد أن يجرده من جميع امواله التي اختلسها من بيت مال المسلمين ، ولو كان يحتمل أنه يبقيه على حاله ويقره على بذخه واسرافه لما اعلن العصيان والخروج عليه إن الامام لايداهن في دينه ، ولا يطلب النصر بالجور ، ولا يقر الظلم ، وهو حتف الظالمين والمعتدين فكيف يبقى معاوية في جهاز الحكم ، وهو يعلم أنه لا واقعية له ولا حريجة له في الدين ، وقد اصدر في اليوم الأول من خلافته عزله عن مقره ، وقد كتب اليه معاوية يسأله أن يبقيه على حاله أو يجعله واليا على مصر فامتنع من اجابته ، وقد لام عقبة بن أبي معيط معاوية على ذلك وكتب له رسالة جاء فيها .

معاوية إن الشام شامك فاعتصم بشامك لاتدخل عليك الأفاعيا
فان عليا ناظر ما تجيبه فأهد له حربا تشيب النواصيا
وحام عليها بالصوارم والقنا ولاتك محشوش الذراعين واصيا
والا فسلم ان فى الأمن راحة لمن لايريد الحرب فاختر معاويا
وان كتاباً يابن حرب كتبته على طمع جان عليك الدواهيا
سألت عليا فيه مالا تناله ولو نلته لم تبق إلا لياليا

الى أن ترى منه الذي ليس بعدها   بقاء فلا تكثر عليك الأمانيا
ومثل علي تغتره بخدعة   وقد كان ماخربت من قبل بانيا
ولو نشبت أظفاره فيك مرة   فراك ابن هند بعد ماكنت فاريا(١)

إن معاوية ومن يمت به يعلمون اتجاه الامام وأهدافه الرامية الى تحقيق العدل في البلاد والقضاء على الغبن الاجتماعي واقصاء الظالمين عن مراكزهم، وانهم سيعودون في ظل حكومته نكرات لاامتياز لهم كما كانوا فى عهد الرسول فلذا اعلنوا عليه البغي حفظاً على مصالحهم الضيقة .

٢ — ورأى معاوية أن له قوة على مقاومة الامام ومناجزته وذلك لما له من النفوذ والمكانة في بلاده فانه لم يعمل فيها عمل وال يظل واليا طول حياته ويقنع بهذا المنصب ثم لايتطاول إلى ماوراءه ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التي يؤسسها ويدعمها له ولابنائه من بعده فجمع الأقطاب ، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل (٢) وقد حفزته هذه القوى التي يتمتع بها الى مناجزة الامام ومقاومته .

٣ — ومما دفعه الى التمرد خروج عائشة وطلحة والزبير فقد فتحوا له الطريق ، ومهدوا له السبيل فان واقعة صفين انما هي امتداد لحرب الجمل ، ونتيجة من نتائجها فلولا خروجهم واعلانهم للعصيان وتطبيلهم بدم عثمان لما استطاع معاوية أن يشق الكلمة ويخرج على الامام ويناجزه الحرب .

---

(١) تأريخ ابن كثير ٨/١٢٩
(٢) عبقرية الامام علي ص ١١٥ .

٤ — وشيء آخر جدير بالاهتمام علل به معاوية عصيانه وخروجه على النظام القائم وذلك في رسالته التي بعثها لمحمد بن أبي بكر وقد جاء فيها « كان ابوك وفاروقه أول من ابتزه — يعني علياً — حقه وخالفاه على امـــره ، على ذلك اتفقـــا واتسقا ثم دعواه الى بيعتهما فابطأ عنهما وتلكأ عليهما فهما به الهموم وارادا به العظيم ، ثم انه بايـــع لهما وسلم لهما ، وأقاما لايشاركـانه في أمرهما ، ولا يطلعانه على سرهما حتى قبضهما الله ... واضاف يقول : فان يك مانحن فيه صوابا فابوك استبد به ونحن شركاؤه ولولا مافعل أبوك من قبل ماخالفنا ابن أبي طالب واسلمنا اليه ولكن رأينا أباك فعل ذلك به من قبلنا واخذنا بمثله .. » (١)

وهو تعليل وثيـــق للغاية فانه لولا منازعة الشيخين الامام وابتزازهما لحقه لما استطاع معاوية ان يخالفه ويخرج عليه ولكنه احتذى حذوهما وسار على طريقتهما فبغى على الامام وأفسد عليه جيشه وتركه في أرباض الكوفة يتمنى الموت ليستريح مما ألم به من الشؤون والشجون .

٥ — ومن الامور التي حفزته على العصيان والتمرد على الامام هو المطالبة بدم عثمان فقد اتخذ قتله وسيلة الى نيل أهدافه وبلوغ أمانيه ، وقد ارصد جميع أبواق دعايتـــه لتهويل أمره والاشادة بذكره وتنزيهه عن كل ذنب حتى انقادت له قلوب اهل الشام وأترعت نفوسهم بالحقد والكراهية للامام فاذا بهم يظهرون الحزن والاسى اكثر مما يظهر وإذا بهم يحثونـــه ويستعجلونه على الحرب والمطالبة بدمه اكثر مما يستعجل .

ولم يكن هناك ادنى مجال للشك في أن معاوية لايهمه أمر عثمان ولا يقيم لمقتله وزنا فقد استنجد به لما حوصر وضويق ، وطلب منه المعونة

(١) المسعودي على هامش ابن الاثير ٦|٧٨ — ٧٩

فلم يخف لنصرته ، ولم يستجب له ولم يسعفه بشيء ، ولو كان يروم المطالبة بدمه لكان اولى الناس بالعقوبة والتنكيل مستشاره ووزيره عمرو بن العاص فهو الذي سعر الدنيا نارا على عثمان وكان يقول : « والله لالقى الراعي فاحرضه على عثمان فضلا عن الرؤساء والوجوه » (١) فمطالبته بدم عثمان ليست الا وسيلة لتحقيق غايته والظفر بالملك الذي يحلم به .

هذه بعض الاسباب والبواعث التي دعت معاوية لمناجزة الامام واعلانه للحرب عليه .

ايفاد جرير :

ولما اعلن معاوية تمرده على حكومة الامام طلب أصحاب الامام أن ينهض بهم الحرب بعد فراغهم من حرب الجمل وكأنهم أرادوا أن يحوزوا لنصرهم نصرا فابى الامام لأن خطته كانت المسالمة وايثار العافية فرأى أن يبعث اليه السفراء يدعونه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه الناس فاوفد للقياه جرير بن عبد الله البجلي (٢)

---

(١) شرح النهج ١|١٦٣

(٢) جرير بن عبد الله البجلي اختلف في وقت اسلامه قيل انه اسلم حينما بعث النبي وقيل ان اسلامه كان قبل وفاة النبي باربعين يوما ، وقيل غير ذلك ، وكان جميل الصورة قال فيه عمر : هو يوسف هذه الامة ، وقدمه في حروب العراق على جميع بجيلة وكان لهم الاثر في فتح القادسية وقد سكن الكوفة ولما ارسله الامام سفيرا الى معاوية اخفق في سفارته فاعتزل الفريقين وآثر العافية فسكن في قرقيسيا حتى توفى بها سنة احدى وخمسين وقيل اربع وخمسين ، الاصابة ١|٢٣٢

وزوده بهذه الرسالة :

« أما بعد فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لانه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على مابويعوا عليه ، فلم يكن للشاهد أن يختار ، ولا للغائب أن يرد . وانما الشورى للمهاجرين والانصار فاذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا ، فان خرج من امرهم خارج بطعن او رغبة ردوه الى ماخرج منه ، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ماتولى ويصليه جهنم وساءت مصيرا ، وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي ، وكان نقضهما كردها ، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فان أحب الامور إلى فيك العافية ، إلا أن تتعرض للبلاء ، فان تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك . وقد اكثرت في قتلة عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكم القوم إلىّ أحملك وإياهم على كتاب الله . فأما تلك التي تريدها فخدعة الصبي عن اللبن ، ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرء قريش من دم عثمان . واعلم أنك من الطلقاء (١) اللذين لاتحل لهم الخلافة ، ولا تعرض فيهم الشورى . وقد أرسلت اليك وإلى من قبلك جرير بن عبدالله ، وهو من أهل الايمان والهجرة . فبايع ولا قوة إلا بالله (٢)

وكانت هذه الرسالة رسالة حق داعية واعية . دعت الى الحق من

---

(١) الطلقاء : جمع طليق ، وهو الأسير الذي اطلق سراحه ، ويراد بهم في المقام الاسراء الذين خلى عنهم رسول الله (ص) يوم فتح مكة ولم يسترقهم .

(٢) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ص ٣٤ .

أقصر سبله ، وبأوضح أساليبه . ووعت قصة الاستخلاف التي أثارت كل هذا الخلاف ، بما سبقها وما لحقها من المقدمات والخواتيم .

وكانت فوق هذا وذاك عظة جارية ، وحكمة هادية لمن أراد الهداية وشرح الله صدره وفجر في فؤاده ينبوع النور ، فلم يغفل الامام فيها أمرا جرت ألسن الناس بذكره إلا بينه . ولم يدع ثغرة ينفذ منها خصمه إلا سدها دونه وما من شيء كان معاوية يستطيع أن يحتال به ، أو يدعيه حجة تؤيد خلافه وتسند انحرافه الا مد له الامام معولا من سطورها — حديداً شديداً — يدمر باطله ويقوض معاقله ، كما قال الاستاذ السيد عبد الفتاح مقصود (١) :

وطوى جرير البيداء حتى وصل الى بلاط معاوية ، فانطلق يتكلم معه قائلا :

أما بعد يامعاوية فانه قد اجتمع لابن عمك أهل الحرمين وأهل المصرين (٢) وأهل الحجاز وأهل اليمن ، وأهل العروض وعمان وأهل البحرين واليمامة ، فلم يبق إلا أهل هذه الحصون التي أنت فيها ، لوسال عليها سيل من اوديته غرقها وقد أتيتك أدعوك الى مايرشدك ويهديك الى مبايعة الرجل (٣)

ولما سمع معاوية ذلك خارت قواه وبقي مبهور النفس لم يفه بشيء ولكنه بقي يطاوله ، ويسرف في مطاولته لايجد لنفسه مهربا سوى الامهال والتسويف ، وقد جمع في خلال تلك المدة وجوه أهل الشام وقادة الجيش فجعل يستشيرهم في

(١) الامام على بن ابي طالب ج ٤ ص ٢٧ .

(٢) الحرمان : مكة والمدينة ، والمصران البصرة والكوفة .

(٣) وقعة صفين ص ٣٣

الخضوع لحكومة الامام والاستجابة لسفيره أو اعلان التمرد والمطالبة بدم عثمان فاظهروا له رغبتهم الملحة في الطلب بدم عثمان، واعلان العصيان على حكومة الامام .

مراسلة معاوية لعمرو :

وعلم معاوية أن الامر لايتم له إلا إذا انضم اليه داهية العرب عمرو ابن العاص ليقوم بتسديده ويستعين به في مهامه ، فبعث اليه رسالة يطلب فيها قدومه اليه وهذا نصها :

« أما بعد : فانه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط الينا مروان بن الحكم في رافضة أهل البصرة ، وقـدم علينا جرير بن عبدالله في بيعة علي ، وقد حبست نفسي عليك حتى تأتيني أقبل أذاكرك أمراً ... »

ولما قرأ الرسالة تحير في أمره فاستشار ولديه عبدالله ومحمداً فقال له عبدالله وكان رجل صدق وصلاح .

« أرى أن نبي الله قبض وهو عنك راض والخليفتان من بعده ، وقتل عثمان وأنت عنه غايب ، فقر في منزلك فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد أن تكون حاشية لمعاوية على دنيا قايلة أوشك أن تهلك فتشقى فيها .. »

وأشار عليه عبدالله بالنصيحة والورع والتقوى وعدم الاستجابة لدواعي الفتن والغرور ، وأما ابنه محمد فقد فتنته الدنيا وطمع بالملك فقد قال له:

« أرى أنك شيخ قريش وصاحب أمرها ، وان تصرم هذا الامر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك فالحق بجماعة أهل الشام فكن يداً من ايديها وأطلب بدم عثمان ، فانك قد استنمت فيه الى بني أمية .. »

وقد دفعه محمد الى هلاك آخرته واصلاح دنياه ، والتفت عمرو الى

ولده عبد الله فقال له : أما أنت فأمرتني بما هو خير في ديني ؟ وقال لولده محمد : أما أنت أمرتني بما هو خير لي في دنياي ؟

حيرة وذهول :

واعتركت الدنيا والآخرة في نفس عمرو وملأت الحيرة اهابه واحاطت به الهواجس ، وقد انفق ليلا ساهراً يفكر في الامر فهل يلتحق بمعسكر معاوية فيناجز أخا رسول الله ووصيه وباب مدينة علمه فيكون قد فرط في أمر دينه أو يلتحق بعلي فيكون رجلا كسائر الناس له مالهم وعليه ماعليهم ولكنه يضمن بذلك آخرته ودينه ، وأطال التفكير في الأمر وسمعه أهله يقول :

تطاول ليلي للهموم الطوارق ... وخوف التي تجلو وجوه العوائق
وإن ابن هند سائلي أن أزوره ... وتلك التي فيها بنات البوائق
أتاه جرير من علي بخطة ... أمرّت عليه العيش ذات مضائق
فان نال مني ما يؤمل رده ... وإن لم ينله ذل ذل المطابق
فوالله ماادري وما كنت هكذا ... اكون ومهما قادني فهو سائقي
أخادعه إن الخداع دنية ... أم اعطيه من نفسي نصيحة وامق
أم أقعد في بيتي وفي ذاك راحة ... لشيخ يخاف الموت في كل شارق
وقد قال عبدالله قولا تعلقت ... به النفس إن لم تقتطعني عوائقي
وخالفه فيه أخوه محمد ... واني لصلب العود عند الحقائق

ودل هذا الشعر على تردده وحيرته إلا ان ابنه عبدالله فهم منه الاستجابة لدعوة معاوية فقال :

« بال الشيخ على عقبيه ، وباع دينه بدنياه !! »

ولما اندلع لسان الصبح دعا غلامه وردان وكان ذكيا يقرأ مافي

النفوس فقال له : «حط ياوردان ، ثم قال له : ارحـل ، ثم قال له حط يا وردان » .

فعرف غلامه حيرته وذهوله فقال له :

— خلطت أبا عبدالله ؟ ! أما إن شئت أنبأتك بما في نفسك ؟

— هات ويحك !!

— اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : على معه الآخرة في غير دنيا ، وفي الآخرة عوض من الدنيا . ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس في الدنيا عوض الآخرة فانت واقف بينهما .

— إنك والله ما أخطأت !! ماترى ؟

— أرى أن تقيم في بيتك فان ظهر أهل الدين عشت في عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك .

ولم يستجب لنصحه وصمم على الالتحاق بمعاوية وهو يقول :

ياقاتل الله وردانا وفطنته	أبدى لعمرك مافي النفس وردان
لما تعرضت الدنيا عرضت لها	بحرص نفسي وفي الاطباع ادهان
نفس تعف واخرى الحرص يغلبها	والمرء يأكل تبنا وهو غرثان (١)
أما علي فدين ليس يشركه	دنيا وذاك له دنيا وسلطان
فاخترت من طمعي دنيا على بصر	وما معي بالذي اختار برهان
اني لاعرف ما فيها وأبصره	وفي أيضا لما أهواه الوان
لكن نفسي تحب العيش في شرف	وليس يرضى بذل العيش انسان
عمرو لعمر أبيــه غير مشتبــه	والمرء يعطس والوسنان وسنان

لقد استجاب لعاطفته فآثر الدنيا على الآخرة ، وعزم على الالتحاق

(١) الغرثان : الجائع .

بمعسكر معاوية ليحارب امير المؤمنين الذي هو نفس رسول الله ومن هو منه بمنزلة هارون من موسى .

قدومه الى الشام :

وارتحل ابن العاص ومعه ابناه الى دمشق فلما بلغها جعل يبكي كما تبكي المرأة وهو يقول :

« واعثماناه انعى الحياء والدين !! » (١)

لقد اصطنع البكاء ليغري السذج ويظهر الاخلاص والطاعة لمعاوية ولما التقى به تذاكر معه معاوية في الوسائل والطرق التي يسلكها في حربه مع الامام ، فقال له ابن العاص :

« أما علي فو الله لاتساوي العرب بينك وبينه في شيء من الاشياء وإن له في الحرب لحظا ماهو لأحد من قريش الا أن تظلمه .. »

وانطلق معاوية يبين له الدوافع في حربه وعصيانه قائلا :

« صدقت . ولكنا نقاتله على مافي أيدينا ، ونلزمه قتلة عثمان !! »

إنه إنما يقاتل الامام من أجل السلطة والامرة والثراء العريض الذى اختلسه من بيت المال ، واندفع ابن العاص يبين له وهن المطالبة بدم عثمان قائلا :

ـ واسوأتاه إن احق الناس أن لايذكر عثمان !!

ـ ولم ويحك ؟ !!

ـ أما أنت فخذلته ومعك أهل الشام حتى استغاث بيزيد بن اسد

---

(١) تأريخ ابن الاثير ٣|١٢٩

البجلي فسار اليه ، وأما أنا فتركته عيانا وهربت الى فلسطين !! (١)

فلم يلتفت معاوية الى قوله لأنه لم يجد وسيلة يتمسك بها في عصيانه سوى المطالبة بدم عثمان .

المساومة الرخيصة :

وكان ابن العاص يحن الى مصر حنينا متصلا وقد باع دينه وضميره على معاويه من اجلها فقد قال له معاوية :

— أتحبني ياعمرو ؟

— لماذا ؟ للاخرة فو الله مامعك آخرة ، أم للدنيا . فوالله لاكان حتى أكون شريكك فيها !!

— أنت شريكي فيها

— فاكتب لي مصر وكورها

— لك ماتريد

فكتب له ولاية مصر وكتب في آخر الوثيقة وعلى عمرو السمع والطاعة فقال له عمرو :

— إن السمع والطاعة لاينقصان من الشرط شيئا.

— نعم ، ولا ينظر الناس الى هذا .

ونفذ له ما أراد (٢) وبذلك فقد باع دينه على معاوية ، وسمع وهو يقول :

معاوي لا اعطيك ديني ولم أنل ... به منك دنيا فانظرن كيف تصنع

---

(١) تأريخ اليعقوبي ٢|١٦٢

(٢) العقد الفريد ٣|١١٣

فان تعطني مصر فاربح بصفقة أخذت بها شيخا يضر . وينفع
وما الدين والدنيا سواء وانني لآخذ ما أعطي ورأسي مقنـع
ولكنني أعطيك هـذا وانني لأخدع نفسي والمخادع يخدع
أأعطيك أمرا فيه للملك قوة وأبقى له إن زلت النعل اضرع
وتمنعني مصر وليست برغبة وان ثرى القنوع يوما لمولع (١)

لقد ظفر معاوية بأهم سياسي ماكر مخادع يجيـد اللعب على الحبل ويتغلب على الأحداث وهو القائل عن دهائه أنا أبو عبدالله ماحككت قرحة إلا أدميتها .

رد جرير :

ولما اجتمع لمعاوية امره واحكم وضعه رد سفير الامام (جرير) الى الكوفة ولم يجبه الى شيء ، وأرسل معه رسالة الى الامام جاء فيها :

« اما بعد . لو بايعك الذين ذكرت وانت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان ، ولكنك اغريت بدم عثمان ، وخذلت الانصار فأطاعك الجاهل ، وقوى بك الضعيف ، وقد أبى اهل الشام إلا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وانما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكام على الناس اهل الشام ، ولعمري ماحجتك على اهل الشام كحجتك على طلحة والزبير إن كانا بايعاك فلم ابايعك انا ، فأما فضلك في الاسلام وقرابتك من رسول الله فلست ادفعه ... »

---

(١) في البيت الأخير اضطراب ورواه ابن ابي الحديد في شرح النهج ١٣٧/١ بمايلي « وإني بذا الممنوع قدما لمولع »

وكانت هذه الرسالة حاملة للبهتان والاباطيل ففيها اتهام الامام بدم عثمان ، وهو يعـــلم أن الامام بريء منه ، ولكنه لم يجد حجة يتعلق بها سوى هذه الاكاذيب .

وهبط جرير على الامام وهو خافق في سفارته ، ومعه رسالة معاوية فاطلع عليها الامام وعرف مايرومه معاوية من البغي والخروج عليه ، وقد رأى أن يقيم عليه الحجة مرة اخرى فبعث اليه السفراء يدعونه الى الطاعة والدخول فيما دخل فيه المسلمون فلم يجد ذلك شيئاً وأصر على عناده .

زحف معاوية لصفين :

وأخذ معاوية البيعة من أهل الشام على المطالبة بدم عثمان والأخـــذ بثأره ، وتوفرت لديه الامكانيات والقوى العسكرية ، وانضم اليه كل من لم تنطبع في نفسه العقيدة الدينيـــة من ذوي الاطماع والمنحرفين عن الحق والباغين على الاسلام ، ولما تم أمره زحف بجيوشه الى صفين (١) لمحاربة السلطة الشرعية والاطاحة بالحكم الاسلامي واعادة المثل الجاهلية ، ولما انتهى في مسيره الى صفـين نزل بها واحتل الفرات وعد هذا أول الفتح لانه حبس الماء على عدوه ، وبقيت جيوشه رابضة هناك تصلح امرها ، وتنضم قواها لتستعد للحرب .

---

(١) صفين ـ بكسرتين وتشديد الفاء ـ موضع بقرب الرقة على شاطىء الفرات من الجانب الغربي بين الرقة وبالس وبه كانت الواقعة بين الامام ومعاوية في سنة ٣٧ في غرة صفر واختلف في عدة اصحاب الفريقين فقيل كان معاوية في مائة وعشرين الفا وكان مع الامام تسعون الفا وقيل بالعكس ، معجم البلدان ٣|٤١٤ ط دار صادر بيروت .

تهيؤ الامام للحرب :

ولما اخفقت جميع الوسائل التي اتخذها الامام من أجل السلم تهيأ للحرب بعد ماعلم أن خصمه قد زحف الى صفين لمناجزته ، وقد استدعى المهاجرين والانصار الذين خفوا لنجدته فقال لهم :

« إنكم ميامين الرأي ، مراجيح الحلم ، مقاويل بالحق ، مباركو الفعل والامر ، وقد أردنا المسير الى عدونا فاشيروا علينا برأيكم ؟ »

فانطلق هاشم بن عتبة فقال له :

« يا أمير المؤمنين فأنا بالقوم جد خبير ، هم لك ولأشياعك أعداء وهم لمن يطلب حرث الدنيا اولياء ، وهم مقاتلوك ومجاهدوك (١) لايبقون جهداً ، مشاحة على الدنيا ، وضنا بما في أيديهم منها وليس لهم إربة غيرها إلا مايخدعون به الجهال من الطلب بدم عثمان بن عفان ، كذبوا ليسوا بدمه يثأرون ، ولكن الدنيا يطلبون فسر بنا اليهم ، فان اجابوا الى الحق فليس بعد الحق إلا الضلال ، وإن أبوا الا الشقاق فذلك الظن بهم والله ما أراهم يبايعون وفيهم أحد ممن يطاع إذا نهى ويسمع إذا أمر . . » (٢)

إن هاشما كان خبيراً بنفوس القوم ، وعالما باتجاههم وميولهم فانهم يطلبون حرث الدنيا ، وهم يقاتلون الامام من اجل مطامعهم ، وقد تذرعوا بدم عثمان واتخذوه وسيلة لعصيانهم ، ولا يتركون نفاقهم وغيهم مادام لهم شاخص يتمتع بالنفوذ والقوة ، فلا بد من مناجزتهم والزحف اليهم للقضاء على غيهم وتمردهم وانبرى غير واحد من اعلام المهاجرين والانصار

---

(١) وفي رواية ومجادلوك

(٢) وقعة صفين : ص ١٠٣

فاعلنوا تأييدهم لمقالة هاشم ، وأظهروا الطاعة والانقياد للامام ، وقد اتجه بعد ذلك الى الاستعداد للحرب فراسل الوجوه وامراء القبائل وقادة الجنود يستحثهم على نصرته والخروج معه لحرب البغاة ، واستجاب الجميع لنداء الحق واعربوا عن استعدادهم الشامل لنصرته .

خطبة الحسن :

وأخذ الامام الحسن يوقظ الهمم ، ويبعث الحزم والنشاط في النفوس ويحثها على الخروج لحرب معاوية كما فعل ذلك من قبل في معركة الجمل وقد قام خطيبا بين الجماهير يدعوهم الى الجهاد وهذا نص خطابه .

« الحمد لله لا إله غيره ، وحده لاشريك له ، واثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إن مما عظم الله عليكم من حقه ، وأسبغ عليكم من نعمه ، مالا يحصى ذكره ، ولا يؤدى شكره ، ولا يبلغه صفة ولا قول ونحن إنما غضبنا لله ولكم ، فانه منّ علينا بما هو أهله ان نشكر فيه آلاءه وبلاءه ونعماءه ، قولا يصعد الى الله فيه الرضا ، وتنتشر فيه عارفة الصدق يصدق الله فيه قولنا ، ونستوجب فيه المزيد من ربنا ، قولا يزيد ولا يبيد ، فانه لم يجتمع قوم قط على أمر واحد إلا اشتد امرهم ، واستحكمت عقدتهم . فاحتشدوا في قتال عدوكم معاوية وجنوده ، فانه قد حضر . ولا تخاذلوا فان الخذلان يقطع نياط القلوب ، وإن الاقدام على الاسنة نجدة وعصمة لأنه لم يمتنع (١) قوم قط الا رفع الله عنهم العلة ، وكفاهم جوائح (٢) الذلة ، وهداهم الى معالم الملة ، ثم انشد .

---

(١) الامتناع : العزة والقوة

(٢) الجوائح : ـ جمع مفردة جائحة ـ وهي الدواهي والشدائد

والصلح تأخذ منه ما رضيت به   والحرب يكفيك من انفاسها جرع(١)

وحفل خطابه البليغ بالدعوة الى الوحدة والتعاون ، وبذل الجهود لمحاربة القوى الباغية ، وقد استجاب الناس لدعوته فخفوا سراعا لنصرة الحق والدفاع عن الاسلام .

الحسن مع سليمان :

وكان بعض زعماء العراق قد اعتزل معركة الجمل ، ولم يقم بنجدة الامام ومن بينهم سليمان بن صرد الخزاعي (٢) وقد وجه الامام امير المؤمنين اليه - بعد انقضاء الحرب - أعنف اللوم والتقريع فقد قال له :

« أرتبت وتربصت وراوغت ، وقد كنت من أوثق الناس في نفسي وأسرعهم - فيما أظن - الى نصرتي فما قعد بك عن أهل بيت نبيك ، وما زهدك في نصرهم ؟؟ »

---

(١) البيت للعباس بن مرداس السلمي كما في الخزانة (٢|٨٢)

(٢) سليمان بن صرد الخزاعي الكوفي كان من ذوى الوجاهة والشرف في قومه ، وقد روى عن النبي وعن امير المؤمنين والحسن ، وهو احد الذين كتبوا الى سيد الشهداء الامام الحسين (ع) بالقدوم الى الكوفة ، ولما استجاب الامام لندائهم تخلف سليمان عنه ، وبعد ماروع الاسلام بقتل حفيد الرسول ندم سليمان وجماعة من قومه على عدم قيامهم بنصرته فهبوا للطلب بثأره ، وساروا حتى التقوا بالاثيم الوغد عبيد الله بن زياد في موضع يقال له : « عين الوردة » فوقعت الحرب بينهم فقتل سليمان ومن معه وذلك في ربيع الآخر سنة خمس وستين ، وكان عمره ثلاثا وتسعين عاما ، تهذيب التهذيب ٤|٢٠٠

وضاق سليمان ذرعا بتأنيب الامام له فقال له :

« يا أمير المؤمنين . . لاتردن الأمور على أعقابها ، ولا تؤنبني بما مضى منها ، واستبق مودتي تخلص لك نصيحتي ، وقد بقيت امور تعرف فيها وليك من عدوك .. »

ثم قام مسرعا إلى الامام الحسن ليعرض عليه حديث أبيه فقال له :

« ألا أعجبك من أمير المؤمنين وما لقيت منه من التبكيت والتوبيخ !! »

وانطلق الحسن فتكلم معه برفق ولين ليزيل مافي نفسه من وجد قائلا :

« إنما يعاتب من ترجى مودته ونصيحته .. »

ولكن سليمان بقي على ثورته فقد لذعته مرارة العتب والتقريع فقال للامام الحسن :

« إنه بقيت أمور سيستوسق فيها القنا (١) وينتضى فيها السيوف ، ويحتاج فيها الى اشباهي ، فلا تستغشوا غبي ، ولا تهموا نصيحتي . . »

فهدأ الحسن روعه ، واعرب له عن ثقته به فقال له :

«رحمك الله : ما انت عندنا بالظنين .. » (٢)

وهدأت ثورة سليمان ، وسكن روعه لما قابله الامام الحسن بالرفق وسماحة الطبع ، وقد استطاع الحسن أن يزيل مافي نفسه من الم الوجد ويرجعه الى صفوف المجاهدين .

المسير الى صفين :

ولما توفرت القوى العسكرية للامام تهيأ للخروج الى صفين ، وأمر

(١) الاستيساق : الاجتماع

(٢) وقعة صفين : ص ٩ ــ ١٠

الحارث بن الأعور أن ينادي في الناس بالخروج إلى معسكرهم في النخيلة فنادى فيهم بذلك فعجت الكوفة بالنفار ، وخرج الامام تحف به صحابة النبي وقد زحفت معه الكتائب كأنها السيل وهي مابين راكب وراجل ، وهم يعرفون القصد في خروجهم فانهم خرجو النصرة الحق ومحاربة اعداء الاسلام وخصومه .

ولزمت جيوش الامام الفرات فى زحفها السريع فلما انتهت الى الانبار استقبلها أهلها ثم جاؤا يهرعون إلى الامام فتنكر منهم وقال لهم :

« ماهذه الدواب التي معكم ؟ وما أردتم بهذا الذي صنعتم ؟ .. »

فقالوا وهم يبدون عظيم الولاء ومزيد التكريم .

« يا أمير المؤمنـين . أما هذا الذي صنعنا فهو خلق منا نعظم به الامراء وأما هذه البراذين فهدية لك ، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاما وهيأنا لدوابكم علفا كثيراً .. »

فزجرهم الامام ونهاهم عن ذلك فقال :

« أما هـذا الذي زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الامراء ، فوالله ماينفع هذا الامراء ، وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا له . وأما دوابكم هذه فان أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذي صنعتم لنا فانا نكره أن نأكل من أموالكم شيئا الا بثمن .. »

هـذا هو منطق العدل الذى سار عليـه ابن أبي طالب فلم يسمح للمهرجانات ولا لسائر المظاهر التي اعتادها الملوك والأمراء لأن فيها جهداً للرعية وتعظيما للامراء وهم في نظر الاسلام لاميزة لهم على بقية أفراد الشعب واندفع الانباريون فقالوا له :

« يا أمير المؤمنين نقومه – اي الطعام – ثم نقبل ثمنه »
« لاتقومونه قيمته »
ثم تركهم وانصرف عنهم (١) وسارت جيوشه تطوى البيداء حتى انتهت الى صفين فانزلها الامام بأزاء اصحاب معاوية .

القتال على الماء :

ولم يجد أصحاب الامام على الفرات شريعة يستقون منها الماء إلا وعليها الحرس الكثير وهم يمانعونهم أشد الممانعة من الوصول اليه فاقبلوا الى الامام يخبرونه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان وقال له :

« آئت معاوية فقل : إنا سرنا مسيرنا هذا وأنا أكره قتالكم قبل الاعذار اليكم ، وإنك قدمت بخيلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ، ونحتج عليك . وهذه اخرى قد فعلتموها ، حتى حلتم بين الناس وبين الماء . فخل بينهم وبينه حتى ننظر فيما بيننا وبينكم ، وفيما قدمنا له وقدمتم ، وان كان أحب اليك أن ندع ماجئنا له وندع الناس يقتتلون على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا . . »

وانطلق صعصعة الى معاوية فعرض عليه كلام الامام فاستشار اصحابه فقال له الوليد بن عقبه :

« امنعهم الماء كما منعوه ابن عفان : حصروه اربعين يوما يمنعونه برد الماء ، ولين الطعام ، اقتلهم عطشا قتلهم الله ... »

وأشار عليه ابن العاص بالسماح لهم ولكن الوليد اعاد مقالته ،

---

(١) وقعة صفين : ص ١٦٠|١٦١

وانبرى عبد الله بن سعد بن أبي سرح فقال له :

« امنعهم الماء الى الليل ، فانهم إن لم يقدروا عليه رجعوا ، وكان رجوعهم هزيمتهم . امنعهم الماء منعهم الله يوم القيامة .. »

فثار صعصعة ولم يسعه السكوت فقال له :

« إنما يمنعـــه الله يوم القيامة الكفرة الفجرة شربة الخمر ، ضربك وضرب هـذا الفاسق ـ واشار الى الوليد ـ .. » وتواثبوا عليه يشتمونه ويتهددونه ، فأمرهم معاوية بالكف عنه ، ورجع صعصعة ولم تنتج سفارته شيئا ، فخف الى الامام الاشعث بن قيس (١) فقال له :

« يا أمير المؤمنين . أيمنعنا القوم ماء الفرات وأنت فينا ومعنا السيوف

---

(١) الاشعث بن قيس الكندي وفد على رسول الله (ص) مع قومه وكان زعيمهم في السنة العاشرة من الهجرة فاسلم واسلم معه قومه ، ولما توفى النبي ارتد الاشعث عن الاسلام ثم رجع اليه في خلافة ابي بكر ، فزوجه ابو بكر اخته ام فروة بنت ابي قحافة ، وهي ام محمد بن الاشعث ولما مات ابو بكر خرج الاشعث ، مع سعد بن ابي وقاص الى القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند . وبنى له دارا بالكوفة في محلة كندة فنزلها هلك سنة اثنتين واربعين من الهجرة وقيل سنة اربعين وصلى عليه الامام الحسن الاستيعاب ١|١١٠ ، وجاء في شرح النهج ١|١٣٠ ان الاشعث طمع بالملك بعد وفاة النبي فدعا قومه ان يتوجوه فاجابوه لذلك فحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر في حصنه اياماً ولما يئس من الغلبة استسلم على ان يصان دمه ودم عشرة من اصحابه فاعطاه المسلمون ذلك ونجا من القتل واسف ابو بكر على عدم قتله فقال عند احتضاره : وددت أني يوم جيء بالاشعث كنت ضربت عنقه فانه يخيل لي انه لايرى شرا الا اعان عليه .

خل عنا وعن القوم فوالله لانرجع حتى نرده أو نموت . ومر الاشتر فليعل بخيله فيقف حيث تأمره .. »

فمنحه الامام الأذن ، ولما ظفر الاشعث بذلك رجع الى قومه وهو يهتف بهم :

« من كان يريد الماء او الموت فميعاده الصبح ، فاني ناهض الى الماء .. » .

فأجابه اثنا عشر الفا ، فلما رآهم قام مزهوا يشد عليه لامة حربه وهو يقول :

ميعادنا اليوم بياض الصبح هل يصلح الزاد بغير ملح
لا لا ، ولا أمر بغير نصح دبوا الى القوم بطعن سمح
مثل العزالى بطعان نفح (١) لاصلح للقوم واين صلحي
حسبي من الاقحام قاب رمح

ولما اندلع لسان الصبح دبت جماهير العراقيين الى الاشعث فحمل بهم على أهل الشام وهو يقول لقومه :

« بأبي أنتم وأمي تقدموا قاب رمحي .. » (٢)

ولم يزل يهتف بقومه ، ويبعث في نفوسهم روح العزم والنشاط حتى خالطوا أهل الشام ، وصاح بهم الاشعث :

« خلوا عن الماء .. »

---

(١) العزالى : - جمع عزلاء بالفتح - فم المزادة شبه بها اتساع الطعنة واندفاق الدماء منها ، النفح : الدفع ، وطعنة نفاحة دفاعة بالدم

(٢) قاب رمحي : اي قدره

فأجابه أبو الأعور السلمي (١) : بعدم السماح لهم ، وهجم الاشعث ومن معه على صفوف أهل الشام فازالوهم عن الفرات والحقوا بهم خسائر فادحة في الاموال والنفوس ، ولما ملك العراقيون الفرات سمح الامام لأهل الشام أن يردوا منه ، ولم يكل لهم صاعا بصاع ولم يعمل معهم الا عمل المحسن الكريم .

ايفاد السفراء الى معاوية :

وقبل أن يدق جرس الحرب أوفد الامام رسل السلام الى معاوية كما اوفدهم من قبل في معركـــة الجمل رجاءاً في الصلح وحقن الدماء ، والذين بعثهم للقيام : عدي بن حاتم ، وشبث بن ربعي ، ويزيد بن قيس ، وزياد بن حفصة ، فتكلم معه عدي بن حاتم فقال له :

« أما بعد : فانا أتيناك لندعوك الى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ويحقن به دماء المسلمين ، وندعوك الى افضلها سابقة واحسنها في الاسلام آثارا (٢) وقــد اجتمع له الناس ، وقد ارشدهم الله بالذي رأوا ، فلم يبق احد غيرك وغير من معك ، فانته يامعاوية من قبل أن يصيبك الله واصحابك بمثل يوم الجمل .. »

---

(١) ابو الأعور السلمي : هو عمرو بن سفيان قال ابو حاتم الرازي لايعد من الصحابة ولا تصح روايته ، شهد حنينا وهو كافر ثم اسلم ، وكان من اشد الناس على الامام في صفين ، وكان الامام يدعو عليه في قنوته في صلاة الغداة الاستيعاب ٤|١٤

(٢) وجاء في تاريخ الطبري : ان ابن عمك سيد المسلمين افضلها سابقة واحسنها في الاسلام آثارا .

وهي دعوة حق لو وعاها ابن هند واستجاب لها لحقن دماء المسلمين وجمع كلمتهم ولكنه آثر مصالحه على ذلك فقال لعدي :

« كأنك إنما جئت متهددا ولم تأت مصلحا . هيهات ياعدي . كلا والله لابن حرب مايقعقع لي بالشنان (١) أما والله إنك لمن المجلبين على ابن عفان ، وانك لممن قتله ، وإني لارجو أن تكون ممن يقتله الله . هيهات ياعدي قد حلبت بالساعد الاشد .. »

لقد اظهر له الغي والتمرد والإيثار للحرب وذلك لما يتمتع به من القوى العسكرية والقدرة على مناجزة الامام وتكلم معه يزيد بن قيس فقال له :

« إنا لم نأتك الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك ، لن ندع أن ننصح لك ، وأن نذكر ماظننا أن لنا به عليك حجة او أنه راجع بك الى الالفة والجماعة . إن صاحبنا لمن قد عرفت وعرف المسلمون فضله ، ولا أظنه يخفى عليك : إن أهل الدين والفضل لن يعدلوك بعلي ولن يميلوا بينك وبينه (٢) فاتق الله يامعاوية ، ولا تخالف عليا ، فانا والله ما رأينا رجلا قط اعمل بالتقوى ، ولا ازهد في الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه .. »

إن معاوية يعلم فضل أمير المؤمنين ولكن احقاده واطماعه يحولان بينه وبين الحق فآثر حربه ومناجزته فاجاب القوم قائلا :

« أما بعد : فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التي

---

(١) الشنان : جمع شن ، وهو القربة الخلق فقد كانوا يحركونها اذا ارادوا حث الابل على المسير .

(٢) التمييل بين الشيئين الترجيح بينهما .

دعوتم اليها فنعما هي . وأما الطاعة لصاحبكم فانا لانراها . إن صاحبكم قتل خليفتنا ، وفرق جماعتنا ، وآوى ثأرنا ، وقتلتنا ، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه ، أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون انهم أصحاب صاحبكم ؟ فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ونحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة .. »

وحفل كلام ابن هند بالاكاذيب والاغاليط فقد أتهم الامام بقتل عثمان وهو يعلم ببرأته منه ، فقد قتله خيار المسلمين لما انحرف عن الحق وغير كتاب الله ـ كما ذكرنا ذلك عند عرض احداثه ـ وقد انبرى اليه شبث بن ربعي (١)

فقال له :

« أيسرك بالله يامعاوية إن أمكنت من عمار بن ياسر فقتلته ؟ »

وقد عرض شبث لمعاوية اعظم شخصية اسلامية ثارت على عثمان وهو عمار بن ياسر فهل يقتص منه إن ظفر به ، فقال له معاوية .

« وما يمنعني من ذلك ؟ والله لو امكنني صاحبكم من ابن سمية ماقتلته بعثمان ، ولكن كنت اقتله بنائل مولى عثمان بن عفان .. »

وما الذي يمنع معاوية من قتل عمار لو ظفر به في سبيل الملك والبغي على الاسلام ، وثار شبث حينما سمع مقالته فقال له :

« لا والله الذي لا إله إلا هو لاتصل الى قتل ابن ياسر حتى تندر

---

(١) شبث بن ربعي التميمي كان مؤذنا لسجاح التي ادعت النبوة ثم اسلم ، وصار من اصحاب امير المؤمنين ، ثم صار مع الخوارج ثم تاب عن ذلك ، وكان هذا الاثيم ممن اشترك في قتل سيد الشهداء ، هلك في حدود السبعين من الهجرة ، الاصابة ٢/١٦٣

الهام عن كواهل الرجال ، وتضيق الأرض الفضاء عليك برحبها .. »

ورجع القوم وهم خافقون في سفارتهم لم يستجب لهم معاوية فقد رأوا أنه مصمم على الحرب وممعن في البغي والتمرد فجعلوا يدعون الناس للحرب ، ويحرضونهم على مناجزة معاوية .

اعلان الحرب:

ولما اخفقت جميع الوسائل التي اتخذها الامام من أجل السلم تهيأ للحرب ، وقد اصدر تعاليمه الى عموم جيشه وقد جاء فيها :

« لاتقاتلوهم حتى يقاتلوكم ، فانتم بحمد الله على حجة ، وترككم قتالهم حجة اخرى ، فاذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، فاذا وصلتم الى رجال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا إلا بأذني ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم في معسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة وإن شتمن أعراضكم ، وتناولن امراءكم وصلحاءكم فانهن ضعاف القوى والانفس والعقول .. »

هذه خطته التي رسمها لجيشه وهي تمثل مايكنه في نفسه من الرحمة والرأفة وحب الخير حتى لاعدائه ومناوئيه .

وعقد الامام الالوية ، وأمّر الأمراء فاستعمل على الخيل عمار بن ياسر ، وعلى الرجالة عبد الله بن بديل ، ودفع اللواء الى هاشم المرقال ، وجعل على الميمنة الاشعث بن قيس وعلى الميسرة عبدالله بن عباس ، وعقد الوية القبائل فاعطاها لأعيانهم ، وكذلك عبأ معاوية أصحابه على راياتهم فاستعمل عبيد الله بن عمر على الخيل ، وعلى الرجالة مسلم بن عقبة المري

وعلى الميمنة عبيد الله بن عمرو بن العاص وعلى الميسرة حبيب بن مسلم الفهري ، واعطى اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وجعل على اهل دمشق الضحاك بن قيس الفهري .

وجعلت كتائب من جيش الامام تخرج الى فرق أهل الشام فيقتتل الفريقان نهارا كاملا أو طرفا منه ، ولم يرغب الامام في أن تقع حرب عامة بين الفريقين رجاء أن يجيب خصمه الى الصلح ، ويثوب الى الرشاد ، ودام على هذا الحال حفنة من الايام حتى أطل شهر المحرم وهو من الاشهر التى يحرم القتال فيها في الجاهلية والاسلام فتركوا القتال فيه ، وتوادعوا شهرهم كله وأتيح للقوم أن يلتقوا فيه آمنين من دون أن تقع بينهم أي حرب ولكن كان بينهم أعنف الجدال واشد الخصام يدعو العراقيون أهل الشام الى جمع الكلمة وإلى العمل بكتاب الله ومبايعة وصي رسول الله (ص) ويدعوهم أهل الشام الى الطلب بدم عثمان ورفض بيعة الامام ، ولما انقضى شهر المحرم مضى القوم على حربهم كما كانوا قبله ، وجعل مالك الاشتر ينظر الى رايات أهل الشام ويتأملها فاذا هي رايات المشركين التي خرجت لحرب رسول الله (ص) فاندفع يخاطب قومه قائلا :

« أكثر مامعكم رايات كانت مع رسول الله ، ومع معاوية رايات كانت مع المشركين على عهد رسول الله فما يشك فى قتال هؤلاء الا ميت القلب .. »

واندفع عمار بن ياسر فجعل يبين للمسلمين واقع معاوية ويحرضهم على قتاله قائلا :

« يا أهل الاسلام (١) أتريدون أن تنظروا الى من عادى الله ورسوله

---

(١) وفي رواية يا اهل الشام

وجاهدهما وبغى على المسلمين وظاهر المشركين ، فلما أراد الله أن يظهر دينه ، وينصر رسوله أتى النبي فأسلم وهو والله فيما يرى راهب غير راغب وقبض الله رسوله وإنا والله لنعرفه بعداوة المسلم ومودة المجرم ، الا وانه معاوية فالعنوه لعنه الله ، وقاتلوه فانه ممن يطفىء نور الله ويظاهر اعداء الله .. »

إن معاوية قبل أن يسلم قد عادى الله ورسوله ، وبغى على المسلمين وما اسلم الا خوفا من حد السيوف التي أخذت اسرته ، وقد اضمر الشرك والنفاق والبغي على الاسلام والمسلمين فلما وجد أعوانا نهض بهم لمحاربة أخي رسول الله وباب مدينة علمه .

الحسن مع عبيد الله

وحاول معاوية أن يلعب دورا مع الامام الحسن فبعث اليه عبيدالله ابن عمر (١) يمنيه بالخلافة ويخدعه حتى يترك أباه فانطلق عبيدالله فقال له :

– لي اليك حاجة

– نعم .. ماتريد ؟

– إن أباك قد وتر قريشا أولا وآخرا ، وقد شنئوه فهل لك ان تخلعه ونوليك هذا الامر ؟ نعم ان الامام قد وترهم ولكن فى سبيل الاسلام فقد حاولوا لف لوائه ، فناجزهم الامام فقتل جبابرتهم ، واباد طغاتهم

---

(١) عبيدالله بن عمر بن الخطاب ولد على عهد رسول الله ولم يرو عنه شيئا ، وهو الذي قتل الهرمزان وجفينة وقد توعده الامام باقامة الحد عليه ان ظفر به ، التحق بمعاوية فى صفين ، وخرج في بعض ايامها وعليه جبة خز وسواك وهو يقول : « سيعلم علي غدا اذا التقينا » فقال الامام · دعوه فانما دمه دم بعوضة ، وقد قتل بصفين، الاستيعاب ٢|٤٣١

وهزم جموعهم ، وهم من أجل ذلك يحملون له حقداً وعداءاً ، ولما سمع الامام مقالته صاح به وقد لذعته عقرب الخيانة فقال له :

« كلا والله لايكون ذلك !! »

والقى الامام الحسن عليه نظرة غضب واستياء ، وأخبره انه سيلاقي حتفه عما قليل فقال له :

« لكانني انظر اليك مقتولا في يومك أو غدك . أما ان الشيطان قد زين لك ، وخدعك حتى اخرجك مخلقا بالخلوق (١) ترى نساء أهل الشام موقفك ، وسيصرعك الله ويبطحك لوجهك قتيلا .. »

ورجع عبيد الله الى معاوية وهو خائب حسير وقد اخفق في مهمته وأخبره بحديث الامام فقال معاوية متبهراً :

« انه ابن أبيه !! » (٢)

وخرج عبيد الله في ذلك اليوم الى ساحة الحرب يقاتل مع الجبهة المعادية للاسلام فلاقى حتفه سريعا على يد فذ نبيل من همدان ، واجتاز الامام الحسن في ساحة المعركة فرأى رجلا قد توسد رجلا قتيلا وقد ركز رمحه في عينه وربط فرسه في رجله ، فقال الحسن لمن حوله : انظروا من هذا ؟ فأخبروه أن الرجل من همدان ، وان القتيل عبيد الله بن عمر ، فسر بذلك وقال مبتهجاً : الحمد لله على ذلك (٣) وقد قضى عبيد الله نهايته الأخيرة وهو معاد لله ورسوله ، وباغ على الاسلام ، وخارج على امام المسلمين .

---

(١) الخلوق : الطيب

(٢) البحار

(٣) وقعة صفين : ص ٣٣٤

الحرب العامة :

واستمرت المناوشات بين الفريقين أمدا غير يسير من دون أن تقع بينهما حرب عامة، وقد سئم كل منهما هذه المطاولة التي لم تكن تجدي شيئا فانه لم يكن هناك أي أمل في الاصلاح والوئام وجمع الكلمة، وإنما كانت هـــذه المطاولة تزيد الفتنة امتداد والشر انتشاراً، فلما رأى الامام ذلك عبأ أصحابه وتهيأ للحرب العامة، ولما رأى معاوية ذلك فعل مثل فعله، والتقى كل منهما بالآخر، وبادر الحسن ليحمل على صفوف أهل الشام فلما بصر به الامام ذهل وأريع وقال لمن حوله :

« املكوا عني هذا الغلام لا يهدني (١) فانني أنفس (٢) بهذين — يعني الحسن والحسين — لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله .. (٣)

واستعرت نار الحرب، واشتد أوارها حتى جفل الناس وخيم عليهم الذعر والموت، وقد انكشفت ميمنة الامام، وتضعضع قلب الجيش وبدت الهزيمة فيه فدعا سهل بن حنيف فلما مثل بين يديه أمره أن يلتحق بمن معه في الميمنة، فامتثل ماأمر به فحملت عليهم جيوش أهل الشام فكشفتهم ورجعوا منهزمين الى الميسرة، وانكشفت عن الميسرة مضر وثبتت ربيعة فيها، وإن قائلهم ليقول : « يامعشر ربيعة، لاعذر لكم بعد اليوم عند العرب إن أصيب أمير المؤمنين وهو فيكم .»

تحالفت ربيعة على الموت وثبتت في الميدان وهي رابطة الجاش لاتبالي

---

(١) يهدني : اي يهلكني .

(٢) انفس : ابخل

(٣) نهج البلاغة محمد عبده ٢/٢١٢

بالحمام قد أخذت على عاتقها أن تقوم بنصرة الحق وتفدى ارواحها للامام وكان الامام معهم يحمل على اعدائه وقد مطرت عليه سهام القوم ، وكان ابناؤه يقونه بأنفسهم ولم يفارقه أحد منهم ، وبصر به حين اشتباك الأسنة مولى لبني امية يدعى بأحمر بن كيسان فجاء كالكلب نحو الامام وهو يقسم على قتل الامام قائلا :

« ورب الكعبة قتلني الله ان لم أقتلك أوتقتلني »

فانبرى اليه مولى للامام يدعى بكيسان فبدر اليه الكلب المهاجم فأرداه صريعاً على الارض يتخبط بدمه ، وجعل الخبيث يشتد نحو الامام فتناوله الامام بيده وحمله على عاتقه ثم ضرب به الارض فكسر منكبه وعضديه وشد عليه الحسين ومحمد فقتلاه .

ودنا الامام من جموع اهل الشام فخاف الحسن أن يغتال العدوأباه فقال له :

« لو سعيت حتى تنتهي الى هؤلاء الذين قد صبروا لعدوك (يعني بهم ربيعة) من اصحابك . »

وعرف الامام مغزى كلام الحسن فقال له برفق ولين :

« يابني .. إن لأبيك يوما ان يعدوه ولا يبطيء به عنه السعي ولا يعجل به اليه المشي ، ان اباك والله مايبالى أوقع على الموت أو وقع الموت عليه . »

واقبل الأشتر يركض وهو مذهول اللب مندهش الفكر لما انهزمت الكتائب وولت على اعقابها خوفا من الموت ، فلما بصر الامام به قال له:

— يامالك .

— لبيك .

ــ إلى هؤلاء القوم فقل لهم : اين فراركم من الموت الذي لن تعجزوه الى الحياة التي لاتبقى لكم .

مضى الاشتر الى المنهزمين فالقى عليهم رسالة الامام فهدأ روعهم ثم قال معرفا لهم بشخصيته .

ــ أنا مالك بن الحارث . أنا مالك بن الحارث .

وخطر له أن هذا الاسم غير كاف لهم فى تعريفه فقال معرفا نفسه بما اشتهر به .

ــ أنا الأشتر .

فبادرت فصيلة من الناس اليه فهتف فيهم بنبرات تقطر حماسا وعزما قائلا :

« أيها الناس . عضضتم بهن آبائكم ، ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم . »

ثم هتف ثانيا قائلا :

« أخلصوا لى مذحجا . »

فأنبرت اليه مذحج . فقال لها :

« عضضتم بصم الجندل ، ما ارضيتم ربكم ولانصحتم له في عدوكم وكيف بذلك وانتم ابناء الحروب ، واصحاب الغارات ، وفتيان الصباح ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ، ومــذ حج الطعان الذين لم يكونوا يسبقون بثأرهم ولا تطل دماؤهم ، ولا يعرفون في موطن بخسف ، وأنتم حــد أهل مصركم واعد حي في قومكم ، وما تفعلون فى هذا اليوم فانه مأثور بعد اليوم ، فاتقوا ماثور الاحاديث في غد ، واصدقوا عدوكم اللقاء فان الله مع الصادقين ، والذى نفس مالك بيده مامن هؤلاء (وأشار لأهل الشام) رجل على مثال جناح بعوضة من محمد (ص) أنتم ما احسنتم

القراع ، اجلوا سواد وجهي دمی ، عليكم بهذا السواد الأعظم ، فان الله عز وجل ، لو قد فضه تبعه من بجانبيه كما يتبع مؤخر السيل مقدمه ! »

لقد هيمن الزعيم مالك على النفوس واستولى عليها بخطابه الحماسي الرائع فقد بعث روح العزم والنشاط في نفوس الجيش . وتعالت الاصوات من كل جانب تعرب له الطاعة والانقياد ·

- خذ بنا حيث احببت .

وسارعوا اليه يتسابقون نحو الموت صامدين امام العدو ، وكانت كتائب من همدان قد أبيد فريق من زعمائها وقوادها البارزين في المعركة وكان آخر من أخذ اللواء بيده وهب بن كريب فبادر اليه جمع من احبائه قائلين له :

« رحمك الله قد قتل أشراف قومك حولها - اي حول الراية - فلا تقتل نفسك ولا من بقى من قومك . »

انصرف وهب ومن معه عن ساحة الحرب وهم يطلبون فئة قوية ينضمون اليها وهتفوا امام الجموع بما يرومونه قائلين :

« ليت لنا عدتنا من العرب يحالفوننا على الموت ثم نستقدم نحن وهم فلا ننصرف حتى نقتل أو نظفر . »

واجتازوا على الاشتر فسمع نداءهم ، فرحب بفكرتهم وقال لهم .

« أنا أحالفكم واعاقدكم على ان لانرجع ابدا حتى نظفر أو نهلك »

وابتهجوا بكلام الاشتر وانضموا تحت لوائه ، وفي فعلهم هذا يقول كعب بن جعيل : « وهمدان زرق تبتغي من تحالف »

وهجم الأشتر بمن معه من البهاليل على جموع أهل الشام فكانوا أمام بواترهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وظهر الضعف في

جيش معاوية وكاد اصحاب معاوية يبلغون فسطاطه وهمّ معاوية بالفرار لولا أن ذكر قول ابن الاطنابة :

أبت لي عفتي وحياء نفسي ... وإقدامي على البطل المشيح
وإعطائي على المكروه مالي ... واخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي أو تستريحي

فرده ذلك الشعر الى الصبر والثبات كما كان يتحدث بذلك ايام العافية .

مصرع عمار :

ولما رأى الصحابي العظيم عمار بن ياسر الرؤوس تتساقط ، والارض قد صبغت بالدماء أخذ يناجي نفسه قائلا :

« صدق رسول الله (ص) هؤلاء القاسطون ، إنه اليوم الذي وعدني فيه رسول الله ، إني قد أربيت على التسعين فماذا انتظر ؟! رحماك ربي قد اشتقت الى أخواني الذين سبقوني بالايمان اليك .. سأمشي الى لقاء ربي مجاهدا أعداءه بين يدي وليه ووصيي رسوله وخليفته من بعده ، فاني أراه اليوم الذي وعدني به رسول الله (ص) ... »

وأطال النظر في رايات معاوية فانطلق يقول : « إن مراكزنا على مراكز رايات رسول الله يوم بدر ويوم أحد ويوم حنين ، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الاحزاب .. » (١)

وتمثلت أمامه في ذلك اليوم صفحات من تأريخه البعيد والقريب ، فعرضت له صورة أبويه ياسر وسمية وهما يعذبان أعنف التعذيب وأمره

---

(١) شرح ابن ابي الحديد ١|٥٠٦

وهو شاب معهما يلاقي مالاقياه من الارهاق على يد جبابرة قريش ففاضت روح أبويه ، وأفلت هو من التعذيب ، وتذكر ماعناه في شيخوخته من عثمان من التنكيل والتعذيب كل ذلك في سبيل مبدئه وعقيدته ، وقد اودعت هذه الذكريات في نفسه شوقا عارما الى ملاقاة الله فانفجر في البكاء وأخذ يناجي الله قائلا :

« اللهم انك تعلم . أني لو أعلم أن رضاك ان اضع ظبة سيفي(١) في صدري ثم انحني عليها حتى تخرج من ظهري لفعلت ، ولو اعلم أن رضاك في أن أقذف بنفسي في هذا البحر لفعلت ، ولو اعلم أن رضاك أن أرمي بنفسي من هذا الجبل فاتردى واسقط فعلت ، وإني لا اعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين ، ولو أعلم من الاعمال هو أرضى لك منه لفعلته . »

ثم انعطف الى أمير المؤمنين ودموعه تتبلور على كريمته الشريفة فلما رآه الامام قام اليه وعانقه واحتفى به فالتفت الى الامام .

ـ يا أخا رسول الله أتأذن لي في القتال ؟

فقد قلب الامام وأريع من كلامه لانه ساعده الذي به يصول فقال له بصوت راعش النبرات .

مهلا يرحمك الله !

انصرف عمار فلم يلبث الاقليلا حتى عرضت له تلك الذكريات فحفزته الى لقاء الله فرجع الى الامام قائلا :

ـ اتأذن لي في القتال ؟

ـ مهلا يرحمك الله

---

(١) الظبة : حد السيف اوالسنان جمع ظبات

ومضى فلم يمكث الا برهة حتّى عاوده الشوق الى لقاء احبائه الذين سبقوه الى الايمان فكر راجعا الى الامام فقال له :

« أتأذن لي بالقتال ؟ فاني أراه اليوم الذي وصفه رسول الله (ص) وقد اشتقت الى لقاء ربي والى اخواني الذين سبقوني . »

فلم يجد الامام بدأ من اجابته فقام اليه وعانقه وقد ذابت نفسه اسى وحسرات وقال له :

« يا أبا اليقظان . جزاك الله عني وعن نبيك خيراً فنعم الاخ كنت ونعم الصاحب . »

واجهش الامام بالبكاء وبكى عمار لبكائه وقال له :

« والله يا أمير المؤمنين ماتبعتك الا ببصيرة فاني سمعت رسول الله يقول يوم حنين : « ياعمار ستكون بعدي فتنة فاذا كان كذلك فاتبع عليا وحزبه ، فانه مع الحق والحق معه ، وسيقاتل بعدي الناكثين والقاسطين » فجزاك الله يا أمير المؤمنين عن الاسلام أفضل الجزاء فلقد أديت ، وبلغت ونصحت .. »

ثم تقدم عمار الى ساحة الشرف وميدان القتال وهو جذلان مسرور بملاقاة الله وقد استرد قوته ونشاطه ، وارتفع صوته عاليا وهو يقول :

« الجنة تحت ظلال العوالي ، اليوم القى الأحبة محمداً وحزبه .. »

وتبعه المهاجرون والانصار والشباب المؤمن فانعطف بهم الى القائد العام هاشم بن عتبة المرقال (١) فطلب منه أن يتولى القيادة فاجابه إلى

(١) هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري القرشي يكنى أبا عمرو ويعرف بالمرقال اسلم يوم فتح مكة ، كان من ذوي الفضيلة والدين وفي طليعة شجعان العرب فقئت عينه في واقعة اليرموك بالشام ، وهو الفاتح لجلولاء

ذلك وحمل هاشم فجعل عمار يحثه على الهجوم وهو يقول له :

« احمل فداك أبي وأمي .. »

وجعل هاشم يزحف باللواء زحفا فضاق على عمار ذلك لأنه في شوق عارم لملاقاة الله والوفود على حبيبه محمد فوجه لهاشم اعنف التقريع قائلا له :

« ياهاشم . أعور وجبان ؟ »

وثقل على هاشم هذا العتاب المر فقال له :

« رحمك الله ياعمار . إنك رجل تأخذك خفة في الحرب ، وإني إنما أزحف باللواء زحفا أرجو أن أنال بذلك حاجتي ، وإني إن خففت لم آمن الهلكة . »

وما زال عمار بهاشم يحرضه ، ويحثـه على الهجوم حتى حمل وهو يرتجز :

قد أكثروا لومي وما أقلا ... إني شريت النفس لن اعتلا

أعور يبغي نفسه محـلا ... لابد أن يفل أو يفـلا

قـد عالج الحياة حتى ملا ... أشدهم بذى الكعوب شلا

فجال هاشم فى ميـدان القتال ، وعمار يقاتل معه فنظر الى راية ابن العاص فجعل يقول :

من بلاد الفرس ، وكانت جلولاء تسمى فتح الفتوح بلغت غنائمها ثمانية عشر الف الف ، كان على الرجالة في واقعة صفين فقطعت رجله فجعل يقاتل كل من دنا اليه وهو بارك وهو يقول : « الفحل يحمي شوله معقولا »

وفيه يقول ابو الطفيل عامر بن واثلة :

ياهاشم الخير جزيت الجنة ... قاتلت في الله عدو السنة

اسد الغابة ٥/٤٩

« والله إن هذه الراية قاتلتها ثلاث عركات وما هذه بأرشدهن . »

وجعل يقاتل أشد القتال وهو موفور النشاط خفيف الحركة وهو يرتجز ويقول :

نحن ضربناكم على تنزيله والیوم نضربكم على تأويله

ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

أو يرجع الحق الى سبيله

لقد قاتل عمار قريشا مع النبي على الاقرار بكلمة التوحيد واليوم يقاتلهم على الايمان بما في القرآن وعلى التصديق بما جاء به الاسلام .

وبعد كفاح رهيب سقط عمار الى الارض صريعا قد قتلته الفئة الباغية (١) التي طبع على قلوبها بالزيغ ، ونسيت ذكر الله فسبحت في ظلام قاتم ، ولما أذيع خبر مقتله انهد ركن الامام ، واحاطت به موجات وموجات من الهموم والأحزان لأنه فقد بمقتله كوكبة من الاعوان والانصار ومشى لمصرعه حزينا باكيا تحف به قواد الجيش وأمراء القبائل والبقية الصالحة من المهاجرين والانصار ، وهم يهرقون الدموع وعلا منهم النحيب والبكاء ، ووقف الامام عليه فلما رآه صريعا متخبطا بدمه انهارت قواه وجعل يؤبنه بكلمات تنم عن قلب موجع قائلا :

« إن امرأ من المسلمين لم يعظم عليه قتل ابن ياسر ، وتدخل عليه المصيبة الموجعة لغير رشيد . رحم الله عماراً يوم اسلم ، ورحم الله عماراً يوم قتل ، ورحم الله عماراً يوم يبعث حيا . لقد رأيت عماراً وما

(١) قتله ابو الغادية وكان يدخل على معاوية فيقول لحاجبه قاتل عمار بالباب فيأذن له ، اسد الغابة ٥ | ٢٦٧ واثر عن النبي انه قال : لو ان عمارا قتله اهل الارض لدخلوا النار .

يذكر من أصحاب رسول الله أربعة الا كان رابعاً ، ولا خمسة إلا كان خامسا . وما كان أحد من قدماء أصحاب رسول الله يشك أن عماراً قد وجبت له الجنة في غير موطن ولا اثنين . فهنيئاً لعمار بالجنة .. »

وأخذ الامام رأس عمار ووضعه في حجره وجعل ينظم ذوب الحشا وهو يقول :

ألا أيها الموت الذي ليس تاركي أرحني فقد أفنيت كل خليل
أراك بصيراً بالذين أحبهم كأنك تسعى نحوهم بدليـل

ووقف الامام الحسن واجما مستعبرا عند مصرع الشهيد العظيم الذي ساهم في بناء الاسلام فأخذ يتلو على المسلمين ماسمعه من جده النبي (ص) في فضله والاشادة بعظيم منزلته فقال (ع) : ان رسول الله (ص) قال لاصحابه : « ابنوا لى عريشا كعريش موسى » وجعل يتناول اللبن من قومه ، وهو يقول : اللهم لاخير الا خير الآخرة ، فاغفر للانصار والمهاجرة ، وجعل يتناول اللبن من عمار ، وهو يقول : ويحك يابن سمية تقتلك الفئة الباغية .

وقال : إن جدى قال إن الجنة لتشتاق الى ثلاثة علي وعمار وسلمان »

ولما اذيع خبر مقتله حدثت الفتنة والانشقاق في صفوف أهل الشام فقد سمعوا ممن سمع من رسول الله أنه قال : في عمار تقتله الفئة الباغية وقد حدثهم بذلك عمرو بن العاص ، وقد اتضح لهم بعد مقتله انهم هم الفئة الباغيـة التى عناها الرسول ، ولكن ابن العاص قد استطاع بمكره وأكاذيبه أن يزيل ذلك ، ويرجع الحياة الى مجراها الطبيعي ، فقد القى المسؤلية على الامام زاعما انه هو الذي أخرجه وقتله ، واذعن جهال أهل الشام ، وصدقوا مقالته وراحوا يهتفون .

« انما قتل عمارا من جاء به . »

وثقل على أمير المؤمنين مقتل عمار ، وأحاطت به المآسي والشجون، فهتف بربيعة وهمدان ، فاستجابوا له فقال لهم :

« انتم درعي ورمحي »

فأجابه أثنا عشر الفا منهم فحمل بهم وهو هائج غضبان ، فلم يبق صف لأهل الشام الا أنتقض ، وأبادوا كل فصيلة انتهوا اليها حتى قربوا من فسطاط معاوية ، وكان الامام يرتجز ويقول في رجزه :

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين العظيم الحاوية

ووجه خطابه الى معاوية فقال له :

عـــلام يقتتل الناس بيننا ؟ هلم احاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الامور . »

فانبرى ابن العاص الى معاوية مستهزءاً به قائلا :

— انصفك الرجل

— ما انصفت ، وانك لتعلم أنه لم يبارزه أحد إلا قتله

— وما يجمل بك الا مبارزته

— طمعت فيها بعدي (١)

واستمر القتال عنيفا بين الفريقين وهم ماضون فى الحرب لا يرعون ولا يستريحون ، وقد بان الضعف في جيش معاوية ، وتحطمت جميع كتائبه وتفللت جميع قواه حتى هم بالفرار والانهزام .

---

(١) تاريخ الطبرى ٥|٢٣١

رفع المصاحف :

ولما رأى معاوية بسالة جيش الامام وخور جيشه ، وعجزه عن المقاومة ونهاية أمره دعا وزيره الماكر عمرو بن العاص وقد مشت الرعدة باوصاله وخيم عليه الخوف فقال له :

« إنما هي الليلة حتى يغدو علينا بالفيصل ، فما ترى ؟ . »

وقد اعرب عن قرب نهايته وعدم قدرته على مقاومة جيش الامام فقال له ابن العاص :

« أرى رجالك لايقومون برجاله ، ولست مثله فهو يقاتلك على امر وانت تقاتله على أمر آخر ، إن أهل العراق يخافون منك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لايخافون من علي إن ظفر بهم .. »

لقد حدد ابن العاص النزاع القائم بين الامام ومعاوية فالامام يقاتله من اجل الاسلام والذب عن مثله ومعاوية يقاتله من اجل الملك والسلطان فكل واحد منهما يقاتل على أمر لاينشده الآخر ، وقد اعرب له عن السر في بسالة جيش الامام وخور جيشه فجيش الامام يدافع عن كرامته وحياته لأنه على علم بنفسية معاوية واتجاهه ان تغلب عليهم فانه ينكل بهم ويصب عليهم وابلا من العذاب الأليم فلذلك كان جادا في حربه وأما جيشه فانه يعرف اتجاه الامام إن ظفر بهم فانه يقابلهم بالمعروف والاحسان وقد سمعوا عن عفوه واحسانه حينما ظفر بخصومه في واقعة الجمل . فجيش الامام لابد أن يحوز النصر والظفر ، وقد ادلى له ابن العاص بفكرة كانت هي السبب في تغلبه على الأحداث والسبب في تدمير جيش الامام فقال له :

« الق اليهم أمرا إن قباوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ، ادعهم الى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم ، فانك بالغ حاجتك في القوم فاني لم أزل أوخر هذا الأمر لحاجتك اليه .. »

ورأى معاوية الصواب في رأي ابن العاص فبادره بالتصديق والاجابة وأمر بالوقت أن ترفع المصاحف فرفعت زهاء خمس مائة مصحف على الرماح ، وارتفعت الصيحة من أهـــل الشام وهم يهتفون بلهجة واحدة قائلين :

« هذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته الى خاتمته ، من لثغور أهـل الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق ؟ ومن لجهاد الروم ؟ ومن للترك ؟ ومن للكفار ؟ .. »

لقد رفعوا المصاحف حيلة ومكراً ، وتذرعوا بها لحقن دمائهم فانهم من دون شك لايؤمنون بما فيها ولا يحزنون على مصير الاسلام والمسلمين ولا يرجون لله وقاراً ، ولا يهمهم سوى الحكم والسلطان ، ولو كان في نفوسهم بصيص من نور الاسلام لما فتحوا باب الحرب على وصي رسول الله وأراقوا دماء المسلمين بغير حق .

الفتنة الكبرى :

إن من أبشع المهازل وأسوئها في التأريخ الانساني هي حيلة رفـــع المصاحف فقـــد افتتن بها الجيش العراقي ، وانقلب رأسا على عقب : فاذا بهم يخلعون الطاعة ويعلنون العصيان والتمرد من دون تفكير ولا تدبر وهم قـد أشرفوا على الفتح والظفر بعدوهم الذي أراق سيـلا عارما من دمائهم .

بالمصيبة والأسف لقد استعلى الباطل على الحق باسم الحق ، فقد عملت مكيدة ابن العاص عملها الفظيع في قلب حكومة العدل والمساواة فقد اندفعت كتائب منهم كالسيل فأحاطوا بالامام مرغميه على الاذعان والخضوع لدعوة معاوية وهم يهتفون بلسان واحد .

« لقد اعطاك معاوية الحق ، دعاك الى كتاب الله فاقبل منه !! »

وكان في طليعة الهاتفين بدعوة التحكيم الأشعث بن قيس الذي كان سوسة تنخر في المعسكر العراقي ، وأداة للشغب والتمرد ، أما بواعث ذلك فانه كانت له رياسة كندة وربيعة وقد عزله الامام عنها وجعلها لحسان ابن مخدوج ، وتكلم جماعة مع الامام في ارجاعه وعدم عزله فابى (١) وقد أثار ذلك كوامن الحقد في نفسه على الامام وجعلته يتطلب الفرصة المواتية للانتقام وقد وجدها في تلك الفترة الرهيبة ، ومن الخطأ أن يقال إنه انخدع بدعوة معاوية فانه ليس من السذج والبسطاء حتى يخفى عليه الامر وعلى أي حال فقد جاء يشتد كأنه الكلب نحو الامام وهو يقول :

« ما أرى الناس إلا قد رضوا ، وسرهم أن يجيبوا القوم الى مادعوهم اليه من حكم القرآن فان شئت أتيت معاوية فسألته مايريد ؟ فنظرت مايسأل . »

وأخذ يلح على الامام بان يوفده الى معاوية فامتنع من اجابته ولكنه اصر عليه اصراراً شديداً فلم يجد « ع » بدا من إجابته ، فمضى وهو يحمل شارات الشر والشقاء ، فقال لمعاوية :

« لأي شيء رفعتم هذه المصاحف ؟ »

فأجابه معاوية بالخداع والأباطيل قائلا :

---

(١) وقعة صفين : ص ١٥٣ .

« لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه ، تبعثون منكم رجلا ترضون به ونبعث منا رجلا ، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لايعدوانه ، ثم نتبع ما اتفقا عليه . »

وانبرى مصدقا لمقالة معاوية :

« هذا هو الحق . »

وأغلب الظن ان معاوية مناه وارشاه لأنه كان يعلم بانحرافه عن أمير المؤمنين ، وقد استجاب لدعوته وقفل راجعاً الى الامام وهو ينادي بالتحكيم ، فقال الامام (ع) له ولغيره من المعاندين الذين لايجدون لذة سوى العناد والتمرد :

« عباد الله ، إني أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، إني أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، إنها كلمة حق يراد بها باطل . إنهم يعرفونها ولا يعملون بها ، وما رفعوها لكم إلا خديعة ومكيدة ، اعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا . » .

لقد اعرب (ع) في كلامه كذب مايدعيه معاويه من الانقياد إلى كتاب الله ، وأبان لهم عن غيهم وتمردهم عن الدين فهو أدرى بهم من غيره ، ولكن ذلك المجتمع الهزيل لم يذعن لكلام الامام واعار حديثه أذنا صماء ، فقد انبرى اليه زهاء أثنى عشر الفا من الذين يظهرون القداسة والدين وهم لايفهمون منهما شيئا فخاطبوه باسمه الصريح منذرين ومتوعدين إن لم يخضع لما يرومونه قائلين :

« ياعلي .. أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت اليه ، وإلا قتلناك كما قتلنا ابن عفان ، فوالله لنفعلنها إن لم تجبهم . »

فأجابهم عليه السلام

« ويحكم ، أنا أول من دعا الى كتاب الله ، وأول من أجاب اليه وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إني إنما أقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن ، فانهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ونبذوا كتابه ، ولكن قد اعلمتكم أنهم قد كادوكم ، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون . »

وكلما حاول الامام إقناعهم وإفهامهم بشتى الاساليب بأنها خديعة بعد فشلهم وعجزهم عن المقاومة فلم يتمكن ، وأخذوا يصرون عليه بأن يأمر قائده الأشتر بالانسحاب عن ساحة الحرب .

ورأى الامام الشرفي وجوههم وقد اجمعوا على مناجزته واحاطوا به مهددين ومنذرين فلم يجد (ع) بدا من إجابتهم فانفذ بالوقت الى الأشتر يزيد بن هانيء يأمره بالانسحاب عن الحرب ، فلما انتهى الرسول الى الاشتر وبلغه رسالة الامام ، انبرى الأشتر قائلا مقالة رجل تهمه مصلحة الأمة والنفع العام .

« قل لسيدي : ليست هذه بالساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي ، إني قد رجوت الله أن يفتح لي فلا تعجلني . »

رجع الرسول الى الامام فأخبره بمقالة الحازم اليقظ ، وكانت إمارة الفتح والظفر قد بدت على يده وأوشك أن ينتهي الأمر ، وارتفعت الأصوات من كتائب جيشه معلنة بالفتح المبين ، فلما سمع هؤلاء المتمردون ذلك أحاطوا بالامام قائلين له :

والله ماتراك إلا امرته أن يقاتل .

- أرأيتموني ساررت رسولي (اليه) ؟ أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وانتم تسمعون .

فأنطلقوا يهتفون بلسان واحد :

فابعث اليه فليأتيك ، وإلا فو الله اعتزلناك .

فأريع الامام منهم وقد أوشكوا أن يفتكوا به فقال (ع):

« ويحك يايزيد ، قل له : اقبل إلي ، فان الفتنة قد وقعت ! ! »

فانطلق يزيد مسرعا إلى الأشتر فقال له :

« أقبل إلى أمير المؤمنين ، فان الفتنة قد وقعت . »

فقد قلب الأشتر فقال ليزيد والذهول باد عليه مستفهما عن مدرك هذه الفتنة والانقلاب الذي وقع في الجيش :

- الرفع هذه المصاحف ؟

- نعم .

وقال الأشتر مصدقا تنبؤ نفسه وحدسها في وقوع هذا الانقلاب :

« أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ، إنها مشورة ابن العاهرة ، ثم التفت الى الرسول والألم يحز في نفسه .

« ألا ترى إلى الفتح ، ألا ترى الى مايلقون ، ألا ترى الى الذي يصنع الله لنا ، اينبغي أن ندع هذا وننصرف عنه ؟ . »

فانطلق يزيد يخبره بحراجة الموقف والاخطار التي تحف بالامام قائلا :

- أتحب أنك ظفرت هاهنا ، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه ويسلم الى عدوه ؟

- سبحان الله . لا والله ما احب ذلك .

— فانهم قالوا : لترسلن الى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنـك بأسيافنا كما قتلنا ابن عفان ، أولنسلمنك الى عدوك .

فقفل الأشتر راجعا إلى الامام والحزن قد استولى عليه لضياع أمله المنشود ، فقد ظفر بالفتح واهريقت دماء جيشه حتى اشرف على النهاية وإذا بتلك المتاعب والجهود تذهب سدى لمـكر ابن العاص ، وخاطب اولئك الاراذل بشدة وصرامه منددا بهم قائلا :

« يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم القوم فظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم إلى مافيها ؟ ! وقد والله تركوا ما أمر الله به فيها وسنة من أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم ، إمهلوني فواقا ، فاني قـد أحسست بالفتح . »

فانطلق هؤلاء المتمردون مظهرين له الغي والعناد قائلين بلسان واحد « لا . لا . »

— امهلوني عدوة الفرس ، فاني قد طمعت في النصر .

— إذن ندخل معك في خطيئتك .

وانبرى الأشتر يحاججهم ويقيم لهم الأدلة على خطل رأيهم وبعدهم عن الصواب حـدثوني عنكم — وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم — متى كنتم محقين ، أحين كنتم تقتلون أهل الشام ، فانتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ، أم انتم الآن في إمساككم عن القتال محقون ؟ فقتلاكم إذن الذين لاتنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، في النار . »

ولم يجد هذا الكلام المشفوع بالأدلة معهم شيئاً فأجابوه :

« دعنا منك ياأشتر قاتلناهم في الله وندع قتالهم في الله ، إنا لسنا نطيعك فاجتنبنا »

فقال لهم الاشتر :

« خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم الى وضع الحرب فأجبتم ، ياأصحاب الجباه السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة في الدنيا وشوق إلى لقاء الله فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ، ألا فقبحا يا اشباه النيب الجلالة ما أنتم برائين بعدها عزا أبداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . »

وما انهى الأشتر كلامه حتى اقبلوا عليه يكيلون له أصواعا من السب والشتم ، فقابلهم بالمثل والتفت الى الامام بحماس قائلا :

« يا أمير المؤمنين . إحمل الصف على الصف يصرع القوم . »

ولم يجبه الامام وأطرق برأسه وهو يفكر في العاقبة المرة التي جرها هؤلاء المتمردون على الأمة ، وقـــد اتخذ هؤلاء سكوته رضى منه بالأمر فهتفوا :

« إن عليا أمير المؤمنين . قد رضي الحكومة ، ورضي بحكم القرآن »

ولم يسع الامام الا الرضا كما لم يسع الأشتر إلا الاذعان والقبول فقال :

« إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضي بحكم القرآن فقد رضيت بما رضي به أمير المؤمنين . »

فانبروا يهتفون :

« رضي أمير المؤمنين . رضي أمير المؤمنين . »

والامام (ع) ساكت لايجيبهم بشيء قد استولى عليه الهم والحزن لأنه ينظر الى جيشه قـــد فتكت به ومزقته حيلة ابن العاص ، وليس بوسعه اصلاحهم وارجاعهم إلى طريق الحق والصواب ، فانه لم يكن له نفوذ وسلطان عليهم كما أعرب (ع) عن ذلك بقوله :

« لقـــد كنت أمس أميرًا فأصبحت اليوم مأمورا . وكنت أمس

ناهياً فأصبحت اليوم منهيا » (١)

انتخاب الاشعري :

ولم تقف محنة الامام وبلاؤه في جيشه على هذا التمرد ، وإنما أخذوا يسعون جاهدين للاطاحة بحكومته فقد اصروا عليه في ترشيح عدوه الخبيث أبي موسى الأشعري ، وانتخابه للتحكيم ، وعدم الرضا بغيره ممن رشحه الامام كابن عباس ومالك الأشتر وغيرهما من ذوي البصـيرة والرأي ، والسبب في ذلك انهم يعلمون بانحراف الاشعري عن أمير المؤمنين فاذا تولى مهمة التحكيم فانه لابد أن يختار للخلافة غير الامام ، ويذهب الدكتور طه حسين إلى ان اصرارهم لم يأت مصادفة وانما كان عن مؤامرة وتدبير بين طلاب الدنيا من أصحاب علي وأصحاب معاوية جميعا (٢) وعلى أي حال فقد أحاطوا بالامام يهتفون :

« إنا رضينا بأبي موسى الأشعري . »

فزجرهم الامام ونهاهم عن انتخابه قائلا :

« إنكم قـد عصيتموني في أول الامر . فلا تعصوني الآن ، إني لأرى أن أولي أبا موسى !! »

ولم يجد معهم نصح الامام شيئا وانما أخذوا يلحون عليه قائلين :

« لانرضى إلا به ، فما كان يحذرنا وقعنا فيه »

وأخذ الامام يبين لهم الوجه في كراهيته له قائلا لهم :

« إنه ليس لي بثقة ، قد فارقني وخذل الناس عني ، ثم هرب مني

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ج ٢ ص ٢١٢

(٢) علي وبنوه : ص ٩٠

حتى آمنته بعد أشهر ، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك .. »

فلم يقنعوا واصروا على غيهم وجهلهم قائلين :

« مانبالي أنت كنت ام ابن عباس ، لانريد إلا رجلا هو منك ، ومن معاوية سواء ليس الى واحد منكما بادنى منه الى الآخر .. »

فدلهم الامام على الاشتر فانه ليس رحما له فردوا عليه قائلين :

« وهل سعر الأرض غير الأشتر !! »

ولم يجد الامام بعد هذه المحاورة وسيلة يسلكها في اقناعهم فاطلق سراحهم وخلى بينهم وبين جهلهم وأصبحت الأمور بيد هؤلاء العصاة المتمردين .

وثيقة التحكيم :

وتسابق القوم الى تسجيل مايرومونه في وثيقة التحكيم وهذا نصها كما رواها الطبري :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ماتقاضى عليه علي بن أبي طالب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، قاضي علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين ، وقاضي معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين إنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره ، وان كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما احيا ونميت ما امات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل . وهما أبو موسى الاشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي ، عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة ، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة

من الناس انهما آمنان على انفسهما وأهلهما ، والامة لهما انصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه ، إنا على مافي هذه الصحيفة وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم ، وعلى عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا ، وأجل القضاء الى رمضان ، وإن أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وإن توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط ، وإن مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام وإن رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ويأخذ الحكمان من ارادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على مافي هذه الصحيفة وهم انصار على من ترك مافي هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً ، اللهم إنا نستنصرك على من ترك مافي هذه الصحيفة » (١)

وسجل فريق من زعماء العراق والشام شهادتهم في هذه الوثيقة ، وتدل بنصها الصريح على عدم إتهام معاوية وحزبه بدم عثمان ولو كان لهم إرب في ذلك لجاء ذكر قتله فيها صريحاً أوضمنا .

لقد أقاموا الدنيا وأقعدوها من أجل عثمان فنشروا ثيابه على منبر دمشق ، وهم يبكون على مصابه وأثاروا هذه الحرب من أجل المطالبة بدمه ، فما بالهم لم يتعرضوا له في وثيقة التحكيم ، ولم يذكروه بقليل ولا كثير .

وعلى أي حال فقد حفلت هذه الصحيفة بتحقيق رغبات الاشعث

---

(١) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٣٠

وسائر ذوي الاطماع والمنحرفين من قومه لأنه قد تم لهم ما أرادوا من تفلل الجيش العراقي وانقلابه وتغلب القوى الباغية على قوى الحق والاسلام

انبثاق الفكرة الحرورية :

واعقبت مهزلة رفع المصاحف إنبثاق الفكرة الثورية الهدامة وهي فكرة الخوارج التي لم يكن الباعث لها الا التماس المصالح الدنيوية ، والسعي وراء النفوذ والسلطان ، وتحقيق المطامع الشخصية الرخيصة ، وقد اتخذوا « الحكم لله » شعارا لهم ، ولكنهم سرعان ماجعلوا الحكم للسيف وذلك بما ارأقوه من دماء الابرياء ونشر الذعر والخوف بين المسلمين ، وكان سمتهم الذي اتصفوا به هو اعلان البغي والتمرد ، والحكم بالكفر على من لايدين بفكرتهم واباحة دماء المسلمين ، وقد تظافرت الاخبار الواردة عن النبي (ص) بكفرهم ومروقهم من الاسلام قال (ص) : « سيكون بعدي من أمتي قوم يقرؤون القرآن لايجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ، ثم لايعودون فيه هم شر الخلق والخليقة » (١) وروى أبو سعيد الخدري ان رسول الله (ص) أتاه مال فجعل يضرب بيده فيه فيعطي يمينا وشمالا وفيهم رجل مقلص الثياب ذو سيماء بين عينيه أثر السجود فجعل رسول الله يضرب يده يمينا وشمالا حتى نفد المال ، فلما نفد المال ولى مدبرا ، وقال والله ماعدلت منذ اليوم ، قال فجعل رسول الله (ص) يقلب كفه ويقول : إذا لم أعدل فمن يعدل بعدي ؟ أما إنه ستمرق مارقة يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ثم لايعودون اليه حتى

(١) صحيح مسلم ١|٣٩٨

يرجع السهم على فوقه يقرؤن القرآن لايجاوز تراقيهم ، يحسنون القول ويسيئون الفعل ، فمن لقيهم فليقاتلهم فمن قتلهم فله أفضل الأجر ، ومن قتلوه فله أفضل الشهادة ، بريء الله منهم تقتلهم أولى الطائفتين بالحق (١) إلى غير ذلك من الاخبار التي رواها الفريقان عن النبي (ص) في خروجهم من الدين ومروقهم عن الاسلام وهي تعدمن معاجزه (ص) ومن آيات نبوته وذلك لما فيها من انباء الغيب التي تحققت بعده وعلى أي حال فقد تكتل هؤلاء المارقون وانحازوا إلى جانب آخر وهم ينادون بفكرتهم ، ويعلنون تمردهم ، ولما نزح الامام من صفين الى الكوفة ، لم يدخلوا معه اليها وانحازوا الى (حروراء) (٢) فنسبوا اليها وكان عددهم اثني عشر الفا وقد اذن مؤذنهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكري والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر

احتجاج ومناظرات :

واضطرب الامام من هؤلاء المارقين عن الدين فأرسل اليهم عبدالله ابن عباس وأمره أن لايخوض معهم في ميدان البحث والخصومة حتى يأتيه ولما اجتمع بهم ابن عباس لم يجد بدا من الدخول معهم في مسرح البحث فقال لهم :

« مانقمتم من الحكمين ؟ وقد قال الله عز وجل : « إن يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » (٣) فكيف بأمة محمد (ص) » .

---

(١) مستدرك الحاكم ٢/١٥٤

(٢) حروراء ـ بفتح الحاء والراءوسكون الواو ـ قيل هي قرية بظهر الكوفة ، وقيل موضع على ميلين منها ، معجم البلدان ٣/٢٥٦

(٣) سورة النساء : آية ٣٥

فأجابه الخوارج :

« أما ماجعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا فيه ، حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا فيه »

واندفع ابن عباس يجيبهم :

ـ إن الله عز وجل يقول : (يحكم به ذوا عدل منكم) (١)

ـ أو تجعل الحكم في الصيد ، والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ؟ وهذه الآية بيننا وبينك ، أعدل عندك ابن العاص ؟ وهو بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ، فان كان عدلا فلسنا بعدول ونحن اهل حربه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد امضى الله عز وجل حكمه في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا وقبل ذلك دعوناهم الى كتاب الله عز وجل فأبوه ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع الله الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت (براءة) إلا من أقر بالجزية .

وبقي ابن عباس يحاججهم ويحاججونه ، لم تغن معهم شيئا الأدلة القطعية والبراهين الحاسمة التي أقامها على خطل رأيهم .

ورحل الامام اليهم تصحبه زمرة من اصحابه ليناظر هؤلاء المارقين فانتهى (ع) الى فسطاط يزيد بن قيس فدخل فيه وتوضأ وصلى ركعتين ثم اقبل نحو القوم فرأى ابن عباس يناظرهم فزجره قائلا : : إنته عن كلامهم ، الم انهك رحمك الله ؟ ثم التفت الى القوم قائلا :

« اللهم . إن هذا مقام من افلج فيه كان اولى بالفلج يوم

---

(١) سورة المائدة آية ٩٥

القيامة ، ومن نطق فيه وأوعث فهو في الآخرة اعمى واضل سبيــلا ثم قال لهم :

ــ من زعيمكم ؟

ــ ابن الكواء

فوجه (ع) خطابه اليه واليهم :

ــ ما اخرجكم علينا ؟

ــ حكومتكم يوم صفين

ــ انشدكم بالله أتعلمون انهم حيث رفعوا المصاحف ، فقلتم نجيبهم الى كتاب الله ، قلت لــكم إني اعلم بالقوم منكم إنهم ليسوا باصحاب دين ولا قرآن ، اني صحبتهم وعرفتهم اطفالا ورجالا فكانوا شر اطفال وشر رجال ، امضوا على حقكم وصدقكم فانما رفع القوم هذه المصاحف خديعة ودهنا ومكيدة فرددتم علي رأيي وقلتم لا . بل نقبل منهم ، فقلت لكم اذكروا قولي لــكم ومعصيتكم اياي ، فلما ابيتم الا الكتاب اشترطت على الحكمين ان يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أبيا فنحن من حكمهما برآء

فدحضت هذه الحجة النيرة جميع ماتمسكوا به لاثبات فكرتهم الواهنة واندفعوا بلين لاعسف فيه نحو الامام قائلين له :

ــ اتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟

ــ لسنا حكمنا الرجال إنما حكمنا القرآن ، وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لاينطق انما يتكلم به الرجال .

ــ فخبرنا عن الأجل لم جعلته فيما بينك وبينهم ؟

— ليعلم الجاهل ، ويثبت العالم ، ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة .

ورأى الامام (ع) منهم اذعانا لكلامه ومقاربة شديدة له ، فقال لهم : « ادخلوا مصركم رحمكم الله »

فاجابوا الى ذلك ورحلوا عن آخرهم معه الى الكوفة ، ولكنهم بقوا على فكرتهم يذيعونها بين الكوفيين وينشرون الشغب ويدعون الى البغي وقد شاع أمرهم وقويت شوكتهم واندفع بعضهم الى الامام وهو يخطب فقطع عليه خطابه تاليا قوله تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » (١) فأجابه الامام بآية اخرى « فاصبر ان وعدالله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون » (٢)

وجعل الأمر يمعن في الفساد بين الامام وبين هؤلاء المارقين ، فقد أخذوا يتعرضون للآمنين ، وينشرون الرعب والفزع فى البلاد الأمر الذى أوجب اضطراب الامن العام وشيوع الخوف بين جميع المواطنين .

اجتماع الحكمين :

واسترد معاوية قواه واحكم أمره بعد الانهيار الذي أصابه ، وقد أوفد الى الامام رسله يستنجزه الوفاء بالتحكيم ، ويطالب منه المبادرة باجتماع الحكمين ، وانما بادر لذلك لعلمه بالفتن والخطوب التي منى بها الجيش العراقي حتى تفرق الى طوائف وأحزاب يضاف الى ذلك علمه بانحراف ابي موسى الاشعرى عن الامام ، وقد أراد أن يحوز بذلك الى

---

(١) سورة الزمر آية ٦٥

(٢) سورة الروم آية ٦٠

نصره نصراً ، وقد اجابه الامام (ع) الى ذلك وانفذ اربع مائة رجل عليهم شريح بن هانى الحارثي (١) ومعهم عبـــد الله بن عباس يصلى بهم ويلي أمورهم : ومن بينهم ابو موسى الأشعرى المنتخب للتحكيم ، وكذلك فعل معاوية فأشخص عمرو بن العاص ومعه اربع مائة شخص ، وزوده بدراسة وافية عن نفسية الخامل أبي موسى قائلا :

« إنك قد رميت برجل طويل اللسان قصير الرأى فلا ترمه بعقلك كله » (٢)

وسارت الكتائب فانتهت الى أذرح (٣) أو دومـــة الجنـدل (٤)

---

(١) شريح : بن هاني بن يزيد بن الحرث : كان جاهلياً فاسلم يكنى ابا المقدام وابوه هاني له صحبة مع النبي (ص) ، وشريح من اجل اصحاب الامام ، الاستيعاب ١٤٩|٢

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ١١٥ .

(٣) اذرح : ـ بفتح اوله وسكون الذال وضم الراء ـ جمع مفرده ذريح ، وهو اسم لبلد من اطراف الشام تقرب من ارض الحجاز وفيها كان التحكيم بين ابن العاص والأشعري ، وهو الصحيح لقول ذي الرمة يمدح بلالا حفيد ابي موسى :

ابوك تلافى الدين والناس بعدما ... تساءوا وبيت الدين منقطع الكسر
فشد إصار الدين ايام اذرح ... ورد حروبا قد لقحن الى عقر

معجم البلدان ج ١ ص ١٦١ .

(٤) دومة الجندل بفتح اوله وضمه وقد انكر ابن دريد الفتح وعده من اغـلاط المحدثين ، وهو اسم مكان على سبع مراحل من دمشق ومن مدينة الرسول ، وقال ابو عبيد السكوني : دومة الجندل حصن وقرى بين

فكان هناك الاجتماع والتحكيم ، واجتمع الماكر المخادع عمرو بن العاص بضعيف العقل الخامل ابي موسى ، فأمهله ثلاثة ايام وافرد له مكانا خاصا به وجعل يقدم له مالذ من الطعام والشراب ولم يفتح معه الحديث حتى استبطنه وارشاه ، ولما علم بأنه قد هيمن عليه وصار زمامه بيده أخـذ يحدثه بانخفاض ولين مبديا له الاكبار والتقديس والتعظيم قائلا له :

« يا أبا موسى . . انك شيخ اصحاب محمد (ص) وذو فضلها ،

الشام والمدينة قرب جبل طيء كانت به بنو كنانة من كلب ويقال إن بدومة الجندل كان التحكيم فقـد حدث عبد الله بن عيسى حفيد ابي ليـلى قال مررت مع ابي موسى بدومة الجندل ، فقال ابو موسى حدثني رسول الله انه حكم في بني اسرائيل في هذا الموضع حكمان بالجور ، وانه يحكم في امتي في هذا المكان حكمان بالجور ، قال : فما ذهبت الايام حتى حكم هو وعمرو ابن العاص فيما حكما ، وقد اكثر الشعراء في ذكر الاجتماع بأذرح إلا قول الأعور الشني فانه ذكر دومة الجندل في قوله :

رضينا بحكم الله في كل موطن ... وعمرو وعبد الله مختلفان
فليس بهادي امة من ضلالة ... بدومة شيخا فتنة عميان
بكت عين من يبكي ابن عفان بعدما ... نفا ورق الفرقان كل مكان
ثوى تاركا للحق متبع الهوى ... وورث حزنا لاحقا بطمان
كلا الفئتين كان حيا وميتا ... يكادان لولا القتل يشتبهان

وإن كان الوزن يستقيم لو جيء بمكان دومة اذرح جاء ذلك في معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٦ ، واحتمل الدكتور (طه حسين) في كتابه (علي وبنوه) ص١٠٧ ، ان الاجتماع كان في دومة الجندل اولا ثم في اذرح بعد ذلك .

وذو سابقتها ، وقد ترى ماوقعت فيه هذه الامة من الفتنة العمياء التي لابقاء معها ، فهل لك ان تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها ، فانه يقول : في نفس واحدة . ومن احياها فكأنما احيا الناس جميعا ، فكيف بمن احيا انفس هذا الخلق كله . »

ومتى كان ابو موسى شيخ صحابة النبي ومن ذوي الفضائل والسوابق في الاسلام ، ؟ !! وقد لعبت هذه الكلمات في نفسه فطفق يسأل عن الكيفية التي يحسم بها النزاع قائلا : كيف ذلك؟

« تخلع انت علي بن ابي طالب ، واخلع انا معاوية بن ابي سفيان ونختار لهذه الامة رجلا لم يحضر في شيء من الفتنة ولم يغمس يده فيها »

فبادره ابو موسى عن الشخص الذي يرشح لكرسي الخلافة قائلا :

« ومن يكون ذلك ؟ »

وكان عمرو قد فهم ميول ابي موسى واتجاهه نحو عبد الله بن عمر فقال له :

« انه عبد الله بن عمر . »

واستر الاشعري بذلك اى سرور و اندفع اليه يطلب منه المواثيق على وفائه بما قال ، قائلا له :

ـ كيف لي بالوثيقة منك ؟

ـ يا أبا موسى . . الا بذكر الله تطمئن القلوب ، خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى .

ثم انبرى يكيل له العهود والمواثيق والايمان المغلظة ، حتى لم يبق يمين او شيء مقدس إلا واقسم به على الوفاء والالتزام بما قال ، وبقي الشيخ الكبير السن الصغير العقل مبهوراً بهذه اللباقة التي ابداها ابن العاص فأجابه بالرضا والقبول ، واذيع بين المجتمع إتفاقهما ، والوقت الذي يكون

فيه الاجتماع .

وأقبلت الساعة الرهيبة التي تغير فيها مجرى التأريخ ، فاجتمعت الجماهير لتأخذ النتيجة الحاسمة من هذا التحكيم المنتظر بفارغ الصبر ، فأقبل الخاتل ابن العاص مع أبي موسى المخدوع الى منصة الخطابة ليعلنا للجماهير الصورة التي إتفقا عليها ، فالتفت ابن العاص الى أبي موسى قائلا :

— قم فاخطب الناس ، يا أبا موسى .

— قم . أنت فاخطبهم .

— سبحان الله أنا اتقدمك ، وأنت شيخ أصحاب رسول الله والله لافعلت ذلك أبدا .

— أفي نفسك شيء ؟

فزاده أيمانا مغلظة على الالتزام بالعهد الذي أعطاه له (١) وعرف ابن عباس هذه المخادعة من ابن العاص وتجلت له الحيلة التي يرومها هذا الماكر فالتفت الى الأشعري قائلا :

« ويحك والله ، إني لأظنه قد خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم بذلك الأمر قبلك ، ثم تكلم أنت بعده ، فان عمرو رجل غادر ولا آمن من أن يكون قد اعطاك الرضا فيما بينك وبينه فاذا قمت في الناس خالفك » (٢) .

فلم يلتفت الصعلوك الى كلام ابن عباس وراح يشتد كأنه الجبار نحو منصة الخطابة فلما استوى عليها ، حمد الله واثنى عليه وصلى على النبي الكريم ، ثم قال :

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ١١٥ .

(٢) تأريخ الطبري ج ٦ ص ٣٩ .

« أيها الناس ، إنا قد نظرنا في امرنا فرأينا أقرب مايحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء وجمع الالفة ، خلعنا عليا ومعاوية وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه (وأهوى الى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلا قد صحب رسول الله (ص) بنفسه وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وآله فبرز في سابقته وهو عبد الله بن عمر » .

وأخذ يثني عليه بالثناء العاطر ويخلع عليه النعوت الحسنة والأوصاف الشريفة .

وقد عدل الاشعري عن انتخاب الامام أمير المؤمنين وهو نفس النبي وباب مدينة علمه فرشح عبد الله بن عمر وهو لايحسن طلاق زوجته ـ على حد تعبير أبيه ـ أف للزمان وتعسا للدهر أن يتحكم في المسلمين ويفرض رأيه عليهم مثل هذا الصعلوك الذليل ، وعلى اى حال فقد انبرى ابن العاص فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبي (ص) ثم قال :

« أيها الناس ، إن أبا موسى عبد الله بن قيس خلع عليا واخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، وهو اعلم به ، ألا وإني خلعت عليا معه وأثبت معاوية عليّ وعليكم ، وإن أبا موسى قد كتب في الصحيفة (١) إن عثمان قد قتل مظلوما شهيدا وإن لوليه أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله (ص) بنفسه ، وصحب أبوه النبي وأخذ يفيض عليه بالثناء والمديح ، ثم قال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان .

وانطلق الخامل المخدوع أبو موسى الى ابن العاص قائلا :

---

(١) يشير بالصحيفة الى إقرار ابي موسى حول قتلة عثمان الذي سجله عنده ، وقد ذكر المسعودي تفصيل ذلك في مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٧

« مالك ؟ عليك لعنة الله ! ما انت إلا كمثل الكلب تلهث . »

فزجره ابن العاص بعد أن جعله جسرا فعبر عليه ، قائلا له :

« لكنك مثل الحمار يحمل اسفاراً » (١)

نعم هما كلب وحمار وقد احسن كل منهما في وصف صاحبه ، وانطلق أبو موسى الى مكة يصحب معه الخزي والعار بعد ما أحدث هذه الفتنة العمياء والفتق الذي لايرتق وترك إمام الحق يئن من جراء حكمه المهزول ، وقد سجل للعراقيين بتحكيمه عارا وخزيا لاينساه التأريخ ، وقد اكثر الشعراء في الهجاء المقذع لهم فمن ذلك ماقاله أيمن بن خريم الأسدي (٢) :

لو كان للقوم رأي يعصمون به ... من الضلال رموكم بابن عباس
لله در أبيـه أيما رجـل ... مامثله لفصال الخطب في الناس
لكن رموكم بشيخ من ذوي يمن ... لم يدر ماضرب اخماس لأسداس
إن يخل عمرو به يقذفه في لجج ... يهوى به النجم تيسا بين أتياس
ابلغ لديك عليا غير عاتبـه ... قول امرىء لايرى بالحق من باس
ما الأشعري بمامون ، أبا حسن ... فاعلم هديت وليس العجز كالراس
فاصدم بصاحبك الادنى زعيمهم ... إن ابن عمك عباس هو الآسي

لقد سجل العراقيون في تأريخهم صفحات من الخزي بانتخابهم لأبي موسى الخامل الرأي ، الضعيف العقل الذي لم يتمع به النظر ، ولاباصالة في التفكير ، فكيف ينتخبونه ليقرر مصيرهم ومصير الاجيال اللاحقة ؟

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) أيمن بن خريم ـ بالراء المهملة ـ وهو ابن شداد الاسدى ، احد الشعراء ، وقد اختلف في صحبته للنبي ، وقد روى عنـه في شهادة الزور ، تهذيب التهذيب ١|٣٩٢

خطاب الامام الحسن :

ولما أذيع الخبر المؤلم بين العراقيين في خلع أبي موسى للامام زادت الفتنة ، وكثر الاختلاف والانشقاق بينهم ، وجعل بعضهم يتبرأ من بعض ويشتم بعضهم بعضا ، ورأى الامام أن خطورة الموقف تقضي بأن يقوم نفر من أهل بيته فيخطب بين الناس ليوقفهم على حقيقة الحال ويبين لهم فساد التحكيم ، فقال للحسن : قم يابني . فقل في هذين الرجلين عبدالله ابن قيس ، وعمرو بن العاص فقام الحسن فاعتلى أعواد المنبر فقال :

« أيها الناس . قد أكثرتم في هذين الرجلين ، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى ، فحكما بالهوى على الكتاب ، ومن كان هكذا لم يسم حكما ولكنه محكوم عليه ، وقد أخطأ عبدالله بن قيس إذ جعلها لعبد الله ابن عمر فأخطأ في ثلاث خصال ، واحدة انه خالف (يعني ابا موسى) أباه (يعني عمر) إذ لم يرضه لها ولا جعله من اهل الشورى واخرى إنه لم يستأمره في نفسه (١) وثالثها : إنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الامارة ويحكمون بها على الناس . وأما الحكومة فقد حكم النبي (ص) سعد بن معاذ (٢) في بني قريضة فحكم بما يرضى الله به ،

(١) وفى رواية ابن قتيبة فى الامامة والسياسة ١|١٤٤ إنه لم يستأمر الرجل فى نفسه ولا علم ماعنده من رد او قبول .

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان الانصارى من الاوس اسلم على يد مصعب بن عمير لما ارسله النبي الى المدينة ليعلم المسلمين ، ولما اسلم سعد قال لبني عبد الاشهل : كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تسلموا فأسلموا وكان من اعظم الناس بركة فى الاسلام ، وقد شهد مع النبي بدراً بغير خلاف ، ولما توجه النبي الى بدر جاءه الخبر بتوجه قريش الى حربه

ولا شك او خالف لم يرضه رسول الله « ص » ثم نزل عن منصة الخطابة .

فاستشار (ص) اصحابه في الامر فأنبرى اليه المقداد وابو بكر يعلنان الطاعة ، وكان نظره (ص) الى الانصار لان اكثرية جيشه منهم ، وعرف سعد انه يريد باستشارته الانصار فقال له : اكأنك تريدنا يارسول الله، فقال (ص) : اجل ، فقال سعد يارسول الله قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا ان ماجئت به الحق واعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما اردت فنحن معك فو الذي بعثك بالحق لواستعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد وما نكره ان تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر عند الحرب صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك فينا ماتقربه عينك فسر بنا على بركة الله فسر (ص) وابتهج من كلامه ونشط للقاء المشركين ولما صارت وقعة الخندق خرج سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه وفي يده حربة وهو يقول :

لبث قليلا يلحق الهيجا جمل لابأس بالموت إذا حان الاجل

فالتفتت اليه امه قائلة الحق يابني قد والله اخرت ، واصابه فى ذلك اليوم سهم فقطع اكحله ، ولما اذعن بنو قريظة على النزول على حكم سعد جاء وهو جريح ، فقال النبي (ص) لاصحابه قوموا الى سيدكم اوخيركم فلما حل بالمجلس قال رسول الله له : ياسعد احكم فيهم فقال سعد حكمت فيهم ان تقتل مقاتلهم وتسبى ذراريهم فقال (ص) حكمت فيهم بحكم الله : ولما فرغ من التحكيم انفجر جرحه فاحتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله فجعلت الدماء تسيل عليه وقبض من جرحه ، وبكى عليه رسول الله ومشيخة الصحابة وقالت امه رائية له :

ويل ام سعد سعدا براعة ونجدا
ويل ام سعد سعدا صرامة وجدا

فلما سمع النبي رثاءها قال : إن كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد ، جاء ذلك فى اسد الغابة ج ٢ ص ٢٩٦ .

لقد ذكر الحسن في خطابه الرائع أهم النقاط الحساسة التي هي محور النزاع ومصدر الفتنة فأشبعها بالتفصيل وبين جلية الحال للجموع الحاشدة حتى لم يترك ثغرة ينفذ منها المتمردون إلا وسدها في وجوههم فأبان (ع) أن المختار للتحكيم إنما يتبع قوله ويكون رأيه فيصلا للخصومة فيما إذا حكم بالحق ولم يخضع للنزعات والأهواء الفاسدة ، وأبو موسى لم يكن في تحكيمه هذا خاضعا للحق بل اتبع هواه وميوله فرشح عبد الله ابن عمر للخلافة مع أن أباه كان لايراه أهلا لها ولو كان يراه اهلا للخلافة لرشحه لها اوجعله من اعضاء الشورى مضا الى أن الشرط الأساسي في الانتخاب هو أن يجتمع على المنتخب المهاجرون والأنصار ولم يحصل ذلك له ، وأعرب (ع) في خطابه عن مشروعية التحكيم ألامر الذي أنكرته الخوارج مستدلا على ذلك بتحكيم النبي (ص) لسعد بن معاذ في بني قريظة ، ولو كان التحكيم غير مشروع لما ارتكبه الرسول الأعظم (ص) .

وقام بعد الحسن عبدالله بن عباس فحمد الله واثنى عليه وقال :

« أيها الناس . إن للحق أناسا أصابوه بالتوفيق والرضا ، والناس بين راض به ، وراغب عنه وإنما سار أبو موسى يهدى الى ضلال ، وسار عمرو بضلال إلى هدى ، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه ، ومضى عمر على ضلاله ، فو الله لو كانا حكما عليه بالقرآن لقد حكما عليه ، ولئن كانا حكما بهواهما على القرآن ، ولئن مسكا بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلى إمامه وسار عمرو ومعاوية إمامه » .

ولما انهى خطابه أمر الامام عبدالله بن جعفر أن يخطب فتقدم عبدالله فصعد المنبر فقال :

« أيها الناس . هذا أمر كان النظر فيه لعلى . والرضا فيه الى غيره

جئتم بأبي موسى ، فقلتم قد رضينا هذا فارض به ، وأيم الله ما أصلحا بما فعلا الشام ، ولا أفسدا العراق ، ولا اماتا حق علي ، ولا أحييا باطل معاوية ، ولا يذهب الحق قلة رأى ، ولا نفخة شيطان ، وانا لعلى اليوم كما كنا أمس عليه » ثم نزل عن المنبر (١) وقد استجاب الناس لندائهم وارتدع الكثيرون منهم عن الغي والتمرد .

تمرد الخوارج :

ولما فشل أمر التحكيم ورجع الوفد الكوفي وهو يجر رداء الخيبة والفشل أخذ الامام يبذل قصارى جهوده على إخراج الناس لمحاربة القوى الباغية عليه فأجابه الناس الى ذلك ، ولكن الخوارج أخذوا يعيثون في الارض فساداً فقد رحلوا عن الكوفة وعسكروا في النهروان (٢) فأجتاز

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٤٤

(٢) النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد ، وفيها عدة بلدان منها اسكاف والصافية وغيرها وقد تخرج منها جماعة من اهل العلم والأدب وكانت بها الواقعة بين الامام علي والخوارج ، وكان فيها نهر عظيم ، وقد خرب وسبب خرابه اختلاف الملوك وقتال بعضهم بعضا في ايام السلجوقية إذ ان كل من ملك لا يحفل بتعميره بل كان قصده ان يحوصل ويطير ، وكان ايضا في ممر العساكر ، وهذه الاسباب اوجبت ان يجلوا عنه اهله حتى استولى عليه الخراب ، جاء ذلك في معجم البلدان ج ٨ ص ٣٤٧ .

عليهم الصحابي الجليل عبد الله بن خباب بن الأرت (١) فأقبلوا اليه قائلين له :

– من أنت ؟

– رجل مؤمن .

– ماتقول في على بن أبي طالب ؟

– إنه أمير المؤمنين ، وأول المسلمين إيمانا بالله ورسوله .

– ما اسمك ؟

– عبد الله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله .

– أفزعناك ؟

– نعم .

– لاروع عليك .

– حدثنا عن أبيك بحديث سمعه من رسول الله ، لعل الله أن ينفعنا به .

---

(١) عبد الله بن خباب بن الأرت المدني حليف بني زهرة ، روى عن أبيه وعن ابي بن كعب وروى عنه جماعة منهم عبد الله بن الحارث وعبد الرحمن بن ابزى الصحابي ، وقال العجلي فيه إنه ثقة من كبار التابعين قتلته الحرورية ، وقدارسله الامام على اليهم فقتلوه ، وذكره ابن حيان في الثقات ، وقال الفلاني كان عبد الله من سادات المسلمين جاء ذلك في تهذيب التهذيب ج ٥ ص ١٩٦ ، اقول : لم تنص كتب التأريخ والتراجم على إرسال الامام الى الخوارج عبد الله وقد انفرد العجلي في هذا القول ، وجاء في الاصابة ج ٢ ص ٣٠٢ ان عبد الله كان متوجها الى الكوفة للاجتماع بالامام فصادف الخوارج فقتلوه وذكر القصة في قتله .

– نعم حدثني عن رسول الله (ص) أنه قال : ستكون فتنة بعدي يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه ، يمسي مؤمنا ويصبح كافراً .

– لهذا الحديث سألناك ؟ والله لنقتلنك قتلة ماقتلنا بمثلها احدا .

ثم أوثقوه كتافا ، واقبلوا به وبامرأته وكانت حبلى قد اشرفت على الولادة ، فنزلوا بهما تحت نخل ، فسقطت رطبة منها فبادر بعضهم اليها فوضعها في فيه ، فأقبل اليه بعضهم منكرا عليه قائلا :

« بغير حل أكلتها !! »

فالقاها بالوقت من فيه ، واخترط بعضهم سيفه فضرب به خنزيراً لأهل الذمة فقتله ، فصاح بعضهم فيه :

« إن هذا من الفساد في الأرض . »

فبادر الرجل الى صاحب الخنزير فأرضاه ، فلما نظر الى ذلك عبدالله ابن خباب قال لهم :

« لئن كنتم صادقين فيما أرى ، ماعلي منكم بأس ، ووالله ما احدثت حدثا في الاسلام ، وإني لمؤمن ، وقد آمنتموني ، وقلتم لاروع عليك »

فلم يلتفتوا الى قوله ، فجاءوا به وبامرأته ، فأضجعوه على شفير النهر ووضعوه على ذلك الخنزير الذي قتلوه ، ثم ذبحوه ، وأقبلوا الى امرأته وهي ترتعد من الخوف ترى شبح الموت قد خيم عليها وتنظر الى زوجها وهو جثة هامدة فقالت لهم مسترحمة ومتضرعة :

« إنما أنا امرأة ، أما تتقون الله ؟ »

فلم يعتنوا باسترحامها وتضرعها ، وأقبلوا عليها كالكلاب فقتلوها وبقروا بطنها ، وانعطفوا على ثلاث نسوة فقتلوهن وفيهن ام سنان الصيداوية وكانت قد صحبت النبي (ص) ، ولم يقف شرهم عند هذا الحدبل أخذوا

يستعرضون الناس ، ويذيعون الذعر بين المسلمين وينشرون الفساد في الارض

واقعة النهروان :

وأرسل الامام الى الخوارج الحارث بن مرة العبدى يسألهم عن ترويعهم للآمنين ونشرهم للخوف وعن الفساد الذى أحدثوه فى الأرض ، فحينما انتهى اليهم قتلوه ، ولما جاء خبر قتله الى الامام قام اليه فريق من اصحابه فقالوا له :

« يا أمير المؤمنين ، علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في اموالنا وعيالنا ، سربنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام » .

فاستصوب الامام رأيهم ورأى ان الخطر الناجم من هؤلاء أشد وأعظم من خطر معاوية وذلك لقربهم من عاصمته وهم لاشك سيحدثون الاضطراب والقلق فيما لو نزح لحرب معاوية فأزمع الامام على الرحيل اليهم ونادى مناديه في الجيش :

« الرحيل ، عباد الله ، الرحيل . »

وتحركت قوات الامام تحدوها العقيدة الى محاربة هؤلاء المارقين عن الدين والعابثين بالأمن فلما انتهوا اليهم بعث الامام لهم رسولا يطالب منهم قتلة عبدالله بن خباب ومن كان معه وقتلة رسوله الحارث بن مرة ، فاندفعوا مجيبين بجواب واحد .

« إنا كلنا قتلناهم ، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم . »

فأقبل (ع) بنفسه اليهم فوجه لهم خطاباً مشفوعا بالنصح والارشاد وحب الخير قائلا :

« أيتها العصابة ، إني نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمـة غدا ، وانتم صرعى بازاء هذا النهر بغير برهان ولا سنة ، ألم تعلموا أني نهيتكم عن الحكومة ، واخبرتكم أن طلب القوم لها مكيدة ، وانبأتكم ان القوم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأني أعرف بهم منكم ، قد عرفتهم أطفالا ، وعرفتهم رجالا ، فهم شر رجال ، وشر أطفال ، وهم أهـل المكر والغدر ، وانكم إن فارقتموني ورأيي جانبتم الخير والحزم ، فعصيتموني وأكرهتموني ، حتى حكمت ، فلما أن فعلت شرطت واستوثقت ، واخذت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا ، وخالفا حكم الكتاب والسنة ، وعملا بالهوى ، فنبذنا أمرهم ، ونحن على أمرنا الاول ، فما نبؤكم ومن أين أتيتم ؟ »

لقد بين (ع) في خطابه اجبارهم وإكراههم له في بادىء الامر على التحكيم ، وإنه ماقبله إلا وهو مكره مخاطر على حياته منهم ، وانه قد شرط على الحكمين أن يحكما بما وافق كتاب الله وسنة نبيه ولما لم يحكما بذلك ولم يتبعا الحق كان حكمهما مردودا ولكن هؤلاء العتاة الـذين لم يفهموا من المنطق شيئاً اجابوا الامام بجواب دل على تماديهم في الجهـل قائلين :

« .. إنا حيث حكمنا الرجلين أخطأنا بذلك ، وكنا كافرين ، وقد تبنا من ذلك ، فان شهدت على نفسك بالكفر ، وتبت كما تبنا واشهدنا فنحن معك ومنك ، وإلا فاعتزلنا ، وإن أبيت فنحن منابذوك على سواء »

فأجابهم الامام منكراً عليهم ذلك قائلا :

« أبعـد إيماني بالله وهجرتي وجهادي مع رسول الله (ص) ، أبوء وأشهد على نفسي بالكفر ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين ، ويحكم

بم استحللتم قتالنا والخروج من جماعتنا إن اختار الناس رجلين ، فقالوا لها : انظرا بالحق فيما يصلح العامة ليعزل رجل ، ويوضع آخر مكان آخر . أحل لكم أن تضعوا سيوفكم على عواتقكم تضربون بها هامات الناس وتسفكون دماءهم ، إن هذا لهو الخسران المبين » (١)

ولما علموا أنهم لايستطيعون أن يناقشوا الامام في كلامه نادى بعضهم بعضا :

« لاتخاطبوهم ولا تكلموهم ، تهيئوا للقاء الحرب ، الرواح الرواح إلى الجنة . »

ولما يئس الامام من ارشادهم وإرجاعهم الى طريق الحق عبأ جيشه وأمر بان لايبدءوهم بقتال حتى يقاتلوهم ، ولما نظر الخوارج الى هذا التهيؤ استعدوا وتهيأوا ، وكانت نفوسهم مترعة بالشوق الى الحرب وقلوبهم تتحرق الى القتال تحرق الظمآن الى الماء ، وهتف بعضهم فيهم :

« هل من رائح الى الجنة ؟ »

فأجابوه جميعا الرواح الى الجنة ، ثم حملوا حملة منكرة وهم يهتفون بشعارهم (لاحكم إلا لله) فانفرجت لهم خيل الامام فرقين ، فرق تمضي الى الميمنة وفرق تمضي الى الميسرة ، والخوارج يندفعون بين الفريقين ، فتلقاهم أصحاب الامام بالنبل وما هي الاساعة حتى قتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم الا تسعة (٢)

---

(١) الامامة والسياسة ج ١ ص ١٥٥ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٥٩ وجاء فيه انه انهزم منهم اثنان الى عمان ، واثنان الى كرمان ، واثنان الى سجستان ، واثنان الى الجزيرة ، وواحد الى تل موزون ، واخذ هؤلاء يبثون فكرتهم في

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب الامام من اصحابه أن يلتمسوا له ذا الثدية (١) في القتلى فبحثوا عنه بحثا دقيقا فلم يظفروا به فعادوا اليه يخبرونه بعدم ظفرهم به ، فأمرهم أن يلتمسوه له مرة اخرى قائلا :

هذه المواضع حتى ظهرت فيها بدعة الخوارج .

(١) ذو الثدية ، قال فيه انس كان في عهد الرسول (ص) رجل يعجبنا تعبده وقد ذكرنا ذلك لرسول الله (ص) وسميناه له فلم يعرفه فبينما نحن فى ذكره إذ طلع علينا الرجل ، فقلنا له يارسول الله هو هذا ، فلما نظر اليه قال (ص) إنكم لتخبروني عن رجل إن وجهه لسفعة (السفعة العلامة والسمة) من الشيطان فاقبل حتى وقف ولم يسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله انشدك الله هل قلت حين وقفت على المجلس ما في القوم احد افضل مني او خير مني ، قال اللهم نعم . ثم دخل يصلي فقال رسول الله من يقتل الرجل ؟ فقال ابو بكر انا فمضى اليه فوجده يصلي ، فقال سبحان الله اقتل رجلا يصلي ، وقد نهى رسول الله عن قتل المصلين فخرج فقال له رسول الله مافعلت ؟ فقال كرهت ان اقتله وهو يصلي وانت قد نهيت عن قتل المصلين ، فقال (ص) لاصحابه من يقتل الرجل ؟ فقال عمر انا فمضى اليه فوجده واضعا جبهته على الارض ، فقال عمر ابو بكر افضل مني ثم خرج ، فقال له رسول الله مافعلت ؟ فقال عمر وجدته واضعا وجهه لله فكرهت ان اقتله ، فقال (ص) : من يقتل الرجل ، فقال الامام انا ، فقال له رسول الله انت له إن ادركته ، فمضى الامام اليه فوجده قد خرج ، فجاء الى رسول الله فأخبره بالامر فقال (ص) لو قتل ما اختلف من امتي رجلان كان اولهم وآخرهم سواء ، جاء ذلك في الاصابة ج ١ ص ٤٨٤ .

« ماكذبت ، ولا كُذبت ، ويحكم !! التمسوا الرجل فانه في القتلى .. »

فانطلقوا يفتشون عنه ، فظفر به رجل من اصحابه بين القتلى ، فمضى يهرول فأخبر الامام به فقال : « الله اكبر !! ماكذبت على محمد ، وإنه لناقص اليد ليس فيها عظم في طرفها حلمة مثل ثدي المرأة عليها خمس شعرات أو سبع رؤوسها معقفة .. »

وأمر باحضار جثته ، فاحضرت له فتبين عضده فاذا على منكبه ثدي كثدي المرأة وعليه شعرات سود تمتد حتى تحاذي بطن يده الأخرى فاذا تركت عادت الى منكبه ، فلما رأى ذلك خرّ لله ساجداً ، ثم قسم بين اصحابه سلاح الخوارج ودوابهم ، ورد الأمتعة والعبيد الى أهليهم (١) وبذلك انتهت حادثة النهروان .

المارك الفظيعة :

واعقبت حادثة صفين والنهروان أعظم المحن والمشاكل واغرقت البلاد في الاحداث والخطوب ، وقد اوجبت خذلان الامام وولده الحسن في دوره ، ونشير الى بعضها :

١ ـ تمرد الجيش

لقد مني الجيش العراقي عقيب الحادثتين بالانشقاق والتمرد ، والضعف والسئم من الحرب وسبب ذلك يرجع الى كثرة من قتل منه ، وان القتلى كانوا ينتمون الى تلك الكتائب العسكرية فشاع فيها الحزن وانتشر الجزع والتذمر ، واصبح الجيش على أثر ذلك يسئم من الحرب ، ويحب السلم ويؤثر العافية ، وقد ظهر ذلك بوضوح حينما أراد الامام أن يزحف الى

---

(١) مروج الذهب ٢|٣٨٥

حرب معاوية عقيب حادثة النهروان فانهم لم يجيبوه الى ذلك ، وقد تصدى الاشعث بن قيس الى جوابه فقال له :

« يا أمير المؤمنين .. نفذت نبالنا ، وكلت سيوفنا ، ونصلت أسنة رماحنا ، فارجع بنا الى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد في عددنا عدد من هلك منا ، فانه أوفى لنا على عدونا .. »

وعلى أثر كلام هذا الماكر الخبيث تسال الجنود من معسكراتهم ، منهزمين ولاذ من لاذ منهم بالمدن القريبة ، وأيقن الامام أنهم مارقون من يده ، ولا طاعة له عليهم ، فاضطر الى الرجوع إلى عاصمته وبهذا نقف على مدى رغبة الجيش في الاستسلام وسئمه من الحرب ، وكلما حاول الامام بعد ذلك بشتى الوسائل والاساليب أن يقضي على هذا الانحلال والتمرد فلم يتمكن .

٢ — فقده لأعلام أصحابه

وفقد الامام في صفين أهم أصحابه الذين يعتمد على اخلاصهم وايمانهم بقضيته ، وهم البقية الصالحة من المهاجرين والانصار الذين ناضلوا عن كرامة الاسلام وشيدوا صروحه ، ولو كانوا في قيد الحياة لما حدث التفكك في جيشه ، وقد حزن عليهم حزنا مرهقا ، وبكى عليهم أمر البكاء وقد تذكرهم وهو يخطب على منبر الكوفة فصعد آهاته وبث زفراته وانطلق يقول : « ماضر أخواننا الذين سفكت دماؤهم بصفين أن لايكونوا اليوم احياءاً يسيغون الغصص ويشربون الرنق (١) ، ! - قد والله - لقوا الله فوفاهم اجورهم ، واحلهم دار الأمن بعد خوفهم ، اين اخواني الذين ركبوا الطريق ومضوا على الحق ، اين عمار ، واين ابن التيهان (٢) واين

---

(١) الرنق : بكسر النون ، وفتحها ، الشيء الكدر .

(٢) ابن التيهان هو مالك بن التيهان بن مالك الأوسى كان احد الستة

ذو الشهادتين (١) واين نظراؤهم من اخوانهم الذين تعاقدوا على النية ، وأبرد برؤوسهم الى الفجرة ؟! »

ثم وضع يده على كريمته الشريفة فأطال البكاء ثم قال :

« أوه (٢) على إخواني الذين قرأوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا

الذين لقوا رسول الله ، وهو اول من لقيه من الانصار ، وهو اول من بايعه في ليلة العقبة ، وقيل ليس هو اول من بايع ، وكان مالك نقيب بني عبد الأشهل هو واسيد بن خضير ، وشهد بدرا واحدا والمشاهد كلها قيل مات في خلافة عمر سنة عشرين ، وقيل شهد مع الامام صفين ومات بعدها بقليل جاء ذلك في اسد الغابة ج ٤ ص ٢٧٤ وجاء في الاستيعاب ان مالكاً شهد مع الامام صفين وقتل فيها وصريح خطاب الامام يدل على ذلك .

(١) ذو الشهادتين : هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه الانصاري الأوسي يكنى ابا عمارة ، وقد جعل رسول الله (ص) شهادته كشهادة رجلين ، وسبب ذلك ان النبي اشترى فرسا من سواء بن قيس المحاربي فجحد سواء الشراء فشهد خزيمة بن ثابت للنبي فقال له رسول الله : ماحملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضرا فقال : صدقتك بما جئت به وعلمت انك لاتقول إلا حقا فكيف لا اصدقك في هذا الأمر ، فقال رسول الله من شهد له خزيمة او عليه فحسبه ، وقد شهد مع رسول الله بدراً واحداً والمشاهد كلها وشهد مع الامام الجمل وصفين ولم يقاتل فيهما ولما قتل عمار بن ياسر بصفين قال خزيمة سمعت رسول الله يقول : تقتل عمارا الفئة الباغية ، ثم سل سيفه وقاتل حتى قتل جاء ذلك في اسد الغابة ج ٢ ص ١١٤ .

(٢) اوه — بفتح الهمزة وسكون الواو وكسر الهاء - كلمة توجع .

الفرض فأقاموه ، أحيوا السنة ، وأماتوا البدعة ، دعوا للجهاد فأجابوا ووثقوا بالقائد فأتبعوه (١)

لقد ذابت نفسه أسى على فقده لهذه الصفوة التي عرفت مكانته ووعت أهدافه ، وسارت على ضوء إرشاداته القيمة وتعاليمه الرفيعة حتى صارت أمثلة للكمال والتهذيب والسمو ، ولما طحنت هؤلاء المثاليين حرب صفين صار الامام أعزلا لايجد أحدا في ذلك المجتمع الهزيل يسانده ويساعده على تحقيق ما يصبو اليه في هذه الحياة من إصلاح المجتمع ونشر الوية العدالة والمساواة بين الناس ، .. وأما خصمه معاوية فانه لم يخسر في حرب صفين أحدا من بطانته والدهاة الذين عنده بل انضم اليه جمع كثير من الذين باعوا ضمائرهم عليه حتى قوي أمره .

٣ — الاحتلال والغزو

لقد درس معاوية نفسية الجيش العراقي ووقف على تخاذله وعدم إنقياده للامام فجعل يحتل الاقطار الاسلامية قطراً بعد قطر فبعث جيشا جرارا لاحتلال مصر التي هي أمل ابن العاص وبغيته ، فاحتلها وقتل حاكمها الطيب محمد بن أبي بكر قتلة مروعة ، والعراقيون متقاعسون عن إجابة الامام والنهوض معه الى رد هذا العدوان .

وبعث جيشا آخر بقيادة الوغد الأثيم بسر بن أبي أرطاة (٢) لاحتلال الحجاز واليمن ، فتوجه القائد القاسي الى المدينة وكان حاكمها أبا أيوب

---

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢/١٣٠ .

(٢) بسر بن ابي ارطاة القرشي واسم ابي ارطاة عمير ، وقيل عويمر العامري وقد ارتكب هذا الجافي من الجرائم والآثام مالا يرتكبه احد ، منها قتله ولدى عبيدي الله بن العباس ، وهما عبدالرحمن وقثم وكانا

الأنصاري (١) فهرب وقد استولى عليه الخوف ، ودخل بسر الى المدينة

طفلين ، ولم يرع قرابتهما من رسول الله (ص) وصغر سنهما ، ومنها غارته على همدان وسبى نسائهم فكن اول مسلمات سبين فى الاسلام ، ومنها قتله احياءاً من بني سعد ، الى غير ذلك من الجرائم التي ارتكبها ، وقد برز هذا الأثيم يوم صفين لمحاربة الامام ، فطعنه الامام فسقط الى الأرض وكشف عن عورته فتركه الامام وفى فعله يقول الحرث احد الشعراء :

افي كل يوم فارس ليس ينتهي ... وعورته وسط العجاجة باديه
يكف لها عنه على سنانه ... ويضحك منها فى الخلاء معاويه
بدت امس من عمرو فقنع راسه ... وعورة بسر مثلها حذو حاذيه
فقولا لعمرو ثم بسر الا انظرا ... سبيلكما لا تلقيا الليث ثانيه
ولا تحمدا إلا الحيا وخصاكما ... هما كانتا والله للنفس واقيه
ولولاهما لم تنجوا من سنانه ... وتلك بما فيها عن العود ناهيه
متى تلقيا الخيل المشيحة صبحة ... وفيها علي فاتركا الخيل ناحيه
وكونا بعيدا حيث لا تبلغ القنا ... نحوركما ان التجارب كافيه

وقد خرف فى آخر عمره ومات بالمدينة ، وقيل بل مات بالشام في بقية ايام معاوية الاستيعاب ١/ ١٥٤ — ١٦٣ .

(١) ابو ايوب هو خالد بن زيد بن كليب الانصاري من بني النجار وهو معروف باسمه وكنيته ، شهد مع النبي العقبة وبدرا وما بعدها من المشاهد ، ولما قدم النبي الى المدينة نزل في بيته الى ان بنى بيوته ومسجده وآخى النبي بينه وبين مصعب بن عمير ، وقد استخلفه الامام علي على المدينة لما خرج الى العراق ، ثم لحق به بعده وشهد معه قتال الخوارج ولزم ابو ايوب الجهاد بعد النبي الى ان توفى بالقسطنطينية سنة خمسين ، وقيل اثنتين وخمسين جاء ذلك فى الاصابة ج ١ ص ٤٠٥

فأدخل الرعب والخوف في القلوب ، وخطب الناس فكان خطابه حافلا بالجفاء والغلظة والقسوة فمن جملة خطابه .

« يا أهل المدينة ، والله لولا ماعهد الي معاوية ماتركت بها محتلماً إلا قتلته . »

ولما انهى هذا الأثيم أمر المدينة توجه إلى مكة فاحتلها ، وأخذ البيعة من أهلها قسراً ، ثم انعطف بعد ذلك الى اليمن وكان واليها عبيد الله ابن العباس فانهزم بنفسه ناجيا من شره قاصداً نحو الكوفة ليعرف الامام بذلك ولما دخل بسر الى اليمن أخذ البيعة من أهلها ، وفتش عن طفلين لعبيدالله فلما ظفر بهما قتلهما (١) ولما انتهى خبرهما الى امها ضاقت بها الدنيا وأكلها الحزن وبرى البكاء عينيها ، فكان الحزن والجزع لها غذاءاً وشرابا حتى فقدت شعورها وقد رثتهما بذوب روحها قائلة :

يامن احس بابنيّ اللذين هما ... كالدرتين تشظى عنهما الصدف

يامن أحس بابنيّ اللذين هما ... قلبي وسمعي، فقلبي اليوم مختطف

من ذل والهة حيرى مدلهة ... على صبيين ذلا : إذ غدا السلف

خبرت بسرا وما صدقت ما زعموا ... من افكهم ومن القول الذي اقترفوا

أنحى على ودجي ابني مرهفة ... مشحوذة وكذاك الأثم يقترف (٢)

ولما انتهت الأنباء المريعة الى الامام أقبل الى اصحابه ونفسه المقدسة ملؤها اللوعة والاستياء على هذا التمرد الناشب في جيشه فخطب فيهم فمن جملة خطابه قوله :

---

(١) تأريخ ابي الفداء ١|١٨٠

(٢) شرح النهج محمد عبده ج ١ ص ٥٩

« أنبئت بسرا قد اطلع اليمن (١) واني والله لأظن ان هؤلاء القوم سيدالون (٢) منكم ، باجتماعهم على باطلهم ، وتفرقكم عن حقكم ، وبمعصيتكم امامكم في الحق ، وطاعتهم امامهم في الباطل ، وبأدائهم الامانة الى صاحبهم وخيانتكم ، وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم . فلو ائتمنت أحدكم على قعب (٣) لخشيت أن يذهب بعلاقته (٤) ! اللهم اني قد مللتهم وسئمتهم وسئموني فابدلني بهم خيرا منهم وابدلهم بي شرا مني ، اللهم مث في قلوبهم كما يماث الملح في الماء (٥) أما والله لوددت ان لي الف فارس من بني فرس ابن غنم (٦) :

هنالك ، لو دعوت ، أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم

ثم نزل (ع) عن المنبر (٧) وبهذا الخطاب نقف على مدى فساد جيشه وخيانته ، ولا عجب في رفض الامام الحسن له والتخلية بينه وبين معاوية فان شعبا لايساند الحق ولا يدافع عن كرامته لجدير بأن يكون لقمة سائغة لذوي الأطماع والأهواء .

---

(١) اطلع اليمن : بلغها واحتلها بجيشه .

(٢) سيدالون : اى ستكون لهم الدولة بدلكم وذلك بسبب اجتماع كلمتهم ووحدة رايهم وانشقاق العراقيين وعدم اتفاقهم .

(٣) القعب : بالضم القدح الضخم .

(٤) علاقته : بكسر العين مايعلق به من ليف ونحوه .

(٥) ماث : اي ذاب

(٦) بنو فرس قبيلة مشهورة بالشجاعة والاقدام منهم علقمة بن فراس وهو جذل الطعان ، ومنهم ربيعة بن مكدم حامي الظعن حيا وميتا ، ولم يحم احد حريمه غيره .

(٧) شرح النهج محمد عبده ١|٦٠

ولم يكتف معاوية بذلك فأرسل جيشا جرارا بقيادة سفيان بن عوف للاغارة على أهل العراق في عقر دارهم فغزى جيشه هيت (١) والانبار (٢) وقد أوقع بنفوس اهليها قتلا فظيعا ، وبأموالهم أضرارا جسيمة ، ولما انتهت الانباء الى الامام بلغ منه الحزن أقصاه لأنه يرى الباطل قد قويت شوكته ولا يمكنه تحطيمه والقضاء عليه ، وينظر الى اصحابه وقد امتلأت قلوبهم خوفا وذلا وجبنا ، فصعد عليه السلام على المنبر فخطبهم بخطاب رائع مثّل مافي نفسه من هم مقيم وأسى شديد ، وصور مافي نفوس اصحابه من خنوع وخور وتخاذل قائلا :

« ألا وإني قد دعوتكم الى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا واعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم فوالله ماغزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا (٣) فتواكلتم ، وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم ، وملكت عليكم الاوطان . وهذا أخو غامد (٤) وقد وردت خيله الانبار

---

(١) هيت بكسر الهاء قال ابن السكيت : إنما سميت هيت بهذا الاسم لأنها في هوة من الأرض ، وقد انقلبت الواو ياءاً لانكسار ماقبلها ، وهي بلدة من نواحي بغداد فوق الأنبار وهي ذات نخل كثير وخيرات واسعة جاء ذلك في المعجم ج ٨ ص ٤٨٦ .

(٢) الأنبار : بفتح اوله ، مدينة على الفرات تقع في غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ ، وكان اول من عمرها سابور بن هرمز ذو الأكتاف ثم جددها ابو العباس السفاح اول خلفاء بني العباس وبنى بها قصورا ، وقام بها الى ان مات ، معجم البلدان ١ | ٣٤٠

(٣) عقر الدار : بالضم وسطها واصلها .

(٤) اخو غامد : هو سفيان بن عوف من بني غامد قبيلة من اليمن

وقد قتل حسان بن حسان البكري ، وأزال خيلكم عن مسالحها (١) ولقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والاخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلبها وقلائدها ورعاثها (٢) ماتمنع منه الا بالاسترجاع (٣) والاسترحام ثم انصرفوا وافرين (٤) مانال رجلا منهم كلم (٥) ولا أريق لهم دم ، فلو أن أمرءً مسلما مات من بعد هذا اسفا ماكان به ملوما ، بل كان به عندي جديراً ، فيا عجبا - والله - يميت القلب ويجلب الهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم فقبحا لكم وترحا ، حين صرتم غرضا يرمى يغار عليكم ولا تغيرون ، وتغزون ولا تغزون ، ويعصى الله وترضون فاذا امرتكم بالسير اليهم في ايام الصيف قلتم هذه حمارة القيظ (٦) امهلنا يسلخ عنا الحر (٧) واذا امرتكم بالسير اليهم فى الشتاء قلتم : هذه صبارة القر (٨) امهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فرارا من الحر والقر ، فأنتم والله من السيف افر ، يا أشباه الرجال ولا رجال !

---

(١) المسالح : جمع مسلحة بالفتح ، وهي الثغر الذي يزود بالجيش لئلا يطرق العدو الى البلاد.

(٢) المعاهدة : الذمية ، والحجل ، بالكسر : الخلخال ، والقلب ، بالضم : السوار ، والرعاث : جمع رعثة بالفتح : القرط .

(٣) الاسترجاع : ترديد الصوت بالبكاء .

(٤) وافرين : اى تامين على كثرتهم لم ينقص عددهم .

(٥) الكلم : بالفتح ، الجرح .

(٦) حمارة القيظ : بتشديد الراء ، وهي شدة الحر .

(٧) يسبخ : اي يخف وتذهب شدته .

(٨) صبارة القر : الصبارة بتشديد الراء وهي شدة الشيء ، والقر بالضم هو البرد .

حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال (١) لوددت اني لم اركم ولم اعرفكم معرفة والله جرت ندماً، واعقبت سدما (٢) قاتلكم الله !! لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدرى غيظا، وجرعتموني نغب التهمام انفاسا (٣) وافسدتم علي رأيي بالعصيان والخذلان ».

ولم يثر هذا الخطاب الحماسي الرائع حفائظ نفوسهم ولم يقلع روح الخور والتمرد منهم، قد اسلموا انفسهم للعداء المسالح، يصيب معاوية من اموالهم وانفسهم ماشاء ومتى اراد.

٤ — فتنة الخريت

ولم يقف بلاء الامام ومحنته في أصحابه، وخصمه معاوية الى هذا الحد فقد تجاوز البلاء والشر الى ماهو اعظم واشد، تلك هي فكرة الخوارج التي لم يقض عليها يوم النهروان وانما قضى على بعض معتنقيها وقد اخذت تتسع ويكثر انصارها، وقد خلقوا افظع المشاكل في الحقل الاسلامي فدعوا الى التمرد على حكومة الامام وكان من اهمهم هو الخريت (٤)، فقد خرج هو وفريق من اصحابه وقد اعلنوا الحرب والعصيان، فأرسل الامام اليهم جيشا اردهم الى الطاعة وحربهم ان أبوا ذلك، فلحق بهم الجيش

---

(١) الحجال : جمع حجلة وهي القبة، وربات الحجال : النساء.

(٢) السدم : بالتحريك الهم مشفوع بالاسف او الغيظ.

(٣) النغب : جمع نغبة وهي الجرعة، التهمام بالفتح : الهم. انفاسا، اى جرعة بعد جرعة.

(٤) الخريت بن راشد الناجي، كان على مضر كلها يوم الجمل واستعمله عبد الله بن عامر على كورة من كور فارس، وكان مع الامام حتى صار امر الحكمين ففارقه الى بلاد فارس مخالفا. (الاصابة ١|٤٢٢).

فكانت بينهم – أولا – مناظرة وجدال ، ولما امتنع الخريت من الرجوع الى الطاعة وقع بين الفريقين قتال عنيف ، ولكن لم يتغلب أحدهما على الآخر وهرب الخريت بأصحابه نحو البصرة ، فرجع جيش الامام ولم يظفر بشيء فأرسل الامام له جيشا آخر اكثر منه عدة وأعظم قوة وأمره بأن يتعقبهم وكتب الى عبد الله بن عباس عامله على البصرة أن يمد الجيش ويزوده بما يحتاج اليه فامتثل عبد الله بن عباس ذلك ، والتقى الفريقان فكان بينهما أشد القتال وأعنفه ، وبدت امارة الانحلال والخور في جيش الخريت الا أنه استطاع أن ينهزم بأصحابه فى غلس الليـــل البهيم ، فولى هاربا نحو الأهواز فأخذ يبذر الفتنة ويبشر بفكرته بين اولئك البسطاء الذين لم يعوا المفاهيم الاسلامية ولم يتعقلوا أهدافها وواقعها فاستجابوا له ، وقد أخـــذ يزهد الاسلام في نفوسهم ، فمنع العرب من اعطاء الصدقة ، والنصارى من اعطاء الجزية ، حتى ارتد كثير من النصارى ممن كان قد اسلم وقد التف حوله جمع كثير من اولئك الأغبياء حتى ظهر امره وقويت شوكته ، ولكن جيش الامام قد تتبعهم الى ان ظفر بهم فكانت بينهما موقعة ادت اخيرا الى قتل الخريت وفريق من حزبه ، واخذ قائد جيش الامام مابقي من اصحاب الخريت اسرى فمن اسلم منهم منّ عليه ، ومن ارتد استتابه ، فان اسلم منّ عليه ، وان لم يسلم اخذه أسيرا معه .

وهكذا أخذت الفتن تتسع وتتزايد فى الحاضرة الاسلامية التي هي تحت سيطرة حكم الامام حتى اوجبت خذلان الامام وقتله وخذلان ولده الحسن في دوره والحقت اضرارا كثيرة في المجتمع الاسلامي جعلته غارقا فى المآسي والشجون .

ان حادثة صفين بما اعقبته من المتارك الفظيعة قد اوجبت تدهور

المسلمين وانحطاطهم ، وتغلب قوى البغي على قوى الحق والاسلام ، ومهدت الطريق للامويين أن يتحكموا في رقاب المسلمين ، وان يستأثروا باموالهم وسائر امكانياتهم ، وان يسعوا جاهدين في محاربة الاصلاح وسائر النزعات الخيرة حتى ضج المسلمون من جور هم واستبدادهم وظلمهم .





مصرع الحق

بقي الامام أمير المؤمنين بعد حادثة صفين في أرباض الكوفة وهو محزون النفس مكلوم القلب يتلقى في كل فترة من زمانه الوانا مريعة من الرزايا والخطوب ، ينظر الى العدل وهو مضام ، وإلى الخير مضيع ، والى البغي قد كثر والى الجور قد طغى ، ويرى باطل معاوية قد استحكم ، وأمره قد تم ، وهو لايتمكن على مناجزته لأن جيشه اصبح متمردا عليه بأمره فلا يطيع ، ويدعوه فلا يستجيب قد خلد الى الراحة ، وسئم التعب وكره الجهاد فى سبيل الله .

وتركت هذه الكوارث أسى مريرا فى نفسه فكان يتمنى الرحيل عن الدنيا في كل آونة من الزمن ليستريح من مشاكلها وشرورها ، وقد انطلق يدعو الله ليعجل انتقاله اليه قائلا : « اللهم عجل للمرادى شقاءه » ويقول مخاطبا لأهل الكوفة :

« أما والله لوددت أن الله أخرجني من أظهـــركم ، وقبضني الى رحمته منكم .. »

لقد قرر « ماكس نورداو » بقاء الأحيل دون الأصلح لأن الأصلح لايدوم طويلا فى دنيا الاباطيل . وقد كان الامام أمير المؤمنين (ع) من الم المصلحين في الدنيا فقــد اجهد نفسه على اقامة العدل وبسط المساواة في الأرض ، فكيف يبقى فى عالم المنافع والاضاليل فقد حاربه النفعيون وقاومه طلاب الجاه والسلطان ، وتنكر له ذلك المجتمع الذي لعبت به الاهواء ، وافسدته الاطماع فكيف يدوم حكمه في ذلك المجتمع الهزيل ؟!!

وزاد في أسى الامام وأحزانه فقده للبقية الصالحة من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله من الذين عرفوا اتجاهه ودرسوا في مدرسته امثال عمار ابن ياسر ، وهاشم المرقال وذى الشهادتين وامثالهم من عيون المؤمنين الذين

يعتمد عليهم في إقامة الحق ودحض الباطل واحياء معالم الدين ، وبعد فقده لهم اصبح غريبا في ذلك المجتمع لاناصر له ولا صديق وأخذ يبتهل الى الله ويتضرع اليه أن ينقـله الى جواره ليستريح من الآم هذه الحياة التي ماوجد فيها غير الارهاق والعناء .

المؤامرة الدنيئة :

وشهد موسم الحج جمع من الخوارج فتذاكروا من قتل من رفاقهم ومن قتل من سائر المسلمين وقد جعلوا تبعة ذلك على ثلاث من الكفار - في زعمهم - وهم : الامام أمير المؤمنين ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص فقال ابن ملجم : انا أكفيكم علي بن أبي طالب ، وقال عمرو بن بكير التميمي : أنا أكفيكم عمرو بن العاص ، وقال الحجاج بن عبد الله الصريمي أنا اكفيكم معاوية ، واتفقوا على يوم معين يقومون فيـه بعملية الاغتيال وهو اليوم الثامن عشر من شهر رمضان سنة اربعين من الهجرة ، كما عينوا ساعة الاغتيال وهي ساعة الخروج الى صلاة الصبح ،ثم تفرقوا وقصد كل واحد منهم الجهة التي عينها ، ووصل الأثيم ابن ملجم الى الكوفة ، وهو يحمل معه الشر والشقاء لجميع سكان الأرض ، فقد جاء ليخمد ذلك النور الذي اضاء الدنيا ، وقد قصد الماكرة الخبيثة ابنة عمه قطام ، وكان هائما بحبها ، وكانت تدين بفكرة الخوارج وقد قتل أبوها وأخوها في واقعة النهروان فكانت مثكولة بهم ، وقد خطبها ابن ملجم (١) فلم ترض به زوجا إلا أن يشفي غليلها ، ويحقق اربها ، فقال لها :

---

(١) مروج الذهب ٢/٢٨٩ . وفي الاخبار الطوال ص ١٩٧ : ان ابن ملجم خطب الرباب بنت قطام .

« ماتريدين شيئا الا أنفذته وحققه .. »

فعرضت عليه المهر الذي تريده وهو ثلاثة آلاف درهم ، وعبد وقينة وقتل علي ، فقال لها الأثيم :

« ماسألت هو لك مهر الا قتل علي فلا أراك تدركينه » وقد قصد إخفاء الأمر عليها ، ولكن الاثيمة اندفعت تحبذ له قتل الامام وتشجعه على ارتكاب الجريمة قائلة :

« إن أصبته شفيت نفسي ونفعك العيش ، وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا » ولما عرف الأثيم الجد في قولها عرفها بنيته ، وأنه ماجاء لهذا المصر إلا لهذه الغاية ، وفي هذا المهر المشوم يقول الفرزدق :

ولم أر مهرا ساقه ذو سماحة ... كمهر قطام من فصيح واعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة ... وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وإن غلى ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)

وقد أوجس أصحاب الامام الخوف عليه من اغتيال الخوارج فتكلموا معه في أن يجعل له رصدا يحرسونه إن خرج لعبادة الله او في بعض مهامه ، فامتنع (ع) من ذلك وقال لهم :

« إن علي من الله جنة حصينة (٢) فاذا جاء يومي انفرجت عني

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٤٣ ونور الابصار ص ٩٥ وذكر زيادة على هذه الأبيات بيتين وهما .

ولا غرو للاشراف إن ظفرت بها ... كلاب الأعادي من فصيح واعجم
فحربة وحشي سقت حمزة الردى ... وحتف علي من حسام ابن ملجم

وفي بعض المصادر ان الابيات لابن ابي مياس المرادي .

(٢) الجنة بالضم ، الوقاية .

واسلمتني ، فحينئذ لايطيش السهم ولا يبرأ الكلم » (١)

الفاجعة الكبرى :

ولما أطـــل على الوجود شهر رمضان ، أفضل الشهور ، واعظمها حرمة وقدرا عند الله حتى نسب اليه فقيل شهر الله ، كان الامام على علم بانتقاله إلى حضيرة القدس في ظرف هذا الشهر العظيم ، فكان يتناول طعام الافطار الليلة عند الحسن ، وأخرى عند الحسين ، ومرة عند عبدالله بن جعفر وهو لايزيد في طعامه على ثلاث لقم ، ويحدث عن السبب في قلة اكله قائلا : « أحب أن يأتيني أمر الله ، وأناخميص البطن » (٢)

ولما أقبلت الليلة الثامنة عشرة من شهر رمضان اضطرب الامام أشد الاضطراب ، فجعل يمشي في صحن الدار وهو محزون النفس خائر القوى ينظر إلى الكواكب ويتأمل فيها فيزداد همه وحزنه ، وهو يقول متنبأ عن عن وقوع الحادث الخطير في تلك الليلة :

« ماكذبت ، ولا كذبت ، إنها الليلة التي وعدت فيها » (٣)

وبقي « ع » طيلة تلك الليلة ، قلقا حزينا يناجي ربه ويطلب منه المغفرة والرضوان ، ويتلوآى الذكر الحكيم ، وقبل أن تشرق أنوار الفجر وينسلخ ظلام الليل القاتم ، أقبل فسبغ الوضوء ، ولما عزم على الخروج من بيته الى مناجاة الله وعبادته في بيته الكريم صاحت في وجهه وز (٤)

---

(١) طاش السهم : اي جاوز الهدف ولم يصبه : الكلم : بالفتح الجرح جمعه كلوم وكلام .

(٢) تأريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٦٨ .

(٣) الصواعق ص ٨٠ .

(٤) الوز : نوع من الطيور .

كانت قد أهديت الى الحسن ، فتنبأ « ع » من صياحهن وقوع الحادث العظيم والرزء القاصم قائلا :

« لاحول ولا قوة إلا بالله ، صوائح تتبعها نوائح » (١)

وأقبل الحسن وهو مضطرب من خروج أبيه في هذا الوقت الباكر فقال له :

ـ ما أخرجك في هذا الوقت ؟

ـ رؤيا رأيتها في هذه الليلة أهالتني .

ـ خيرا رأيت ، وخيرا يكون قصها علي .

ـ رأيت جبرئيل قد نزل من السماء على جبل أبي قبيس ، فتناول منه حجرين ، ومضى بهما الى الكعبة ، فضرب احدهما بالآخر فصارا كالرميم ، فما بقي بمكة ولا بالمدينة بيت إلا ودخله من ذلك الرماد شيء

ـ ماتأويل هذه الرؤيا ؟

ـ إن صدقت رؤياي ، فان أباك مقتول ، ولا يبقى بمكة ولا بالمدينة بيت إلا ودخله الهم والحزن من أجلي .

فالتاع الحسن وذهل وانبرى قائلا بصوت خافت حزين النبرات :

ـ متى يكون ذلك ؟

ـ إن الله تعالى يقول (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت) (٢) ولكن عهد الي حبيبي رسول الله (ص) أنه يكون في العشر الأواخر من شهر رمضان ، بقتلني عبد الرحمن بن ملجم .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩١

(٢) سورة لقمان آية ٣٤ .

— إذا علمت ذلك فاقتله .

— لايجوز القصاص قبل الجناية والجناية لم تحصل منه .

وأقسم الامام على ولده الحسن أن يرجع الى فراشه ، فلم يجد الحسن بدأ من الامتثال (١) وخرج الامام الى بيت الله في السحر ، وقد جاء في الأخبار أن السحر وقت تجلي الله فينفح فيه الرحمات ويهب به البر والخير ويستجيب فيه الدعاء .

ولما انتهى الامام الى بيت الله ، جعل على عادته يوقض الناس لعبادة الله ومناجاته ، وحينما فرغ من ذلك شرع في صلاته ، وبينما هو ماثل بين يدي الخالق الحكيم والصلاة بين شفتيه وقلبه مشغول بذكر الله إذ هوى عليه الوغد الأثيم ابن ملجم (٢) وهو يهتف بشعار الخوارج (الحكم لله لا لك) وضرب الامام على رأسه فقد جبهته الشريفة التي طالما عفرها بالخضوع لله بكل ما للخضوع من معنى ، وانتهت الضربة القاسية إلى دماغه المقدس الذي مافكر إلا في نفع الناس وسعادتهم ورفع الشقاء عنهم ، ولما احس

---

(١) وجاء في الاستيعاب أن الحسن خرج مع ابيه ولم ينفصل عنه .

(٢) لم يكن الاثيم وحده هو الذي قدم على قتل الامام بل كان معه شبيب بن بحيرة ومجاشع بن وردان ، واقبلوا الى قطام فعصبتهم بحرير وكانت معتكفة بالمسجد ، فاخذ هؤلاء اسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التي يخرج منها الامام للمسجد ، وقد علم الاشعث نية ابن ملجم فقال له محفزا على إرتكاب الجريمة (النجا فضحك الصبح) ولما سمع حجر بن عدى كلامه قال له : قتلته يا اعور قتلك الله ، إما ابن ملجم فضرب الامام على راسه ، وإما شبيب فوقعت ضربته بعضادة المسجد وإما ابن وردان فهرب جاء ذلك في مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٠

عليه السلام بلذع السيف في رأسه صاح :

« فزت ورب الكعبة »

لقد فاز الامام ، وأي فوز اعظم من فوزه ؟ فقد جاءته النهاية المحتومة وهو بين يدي الله وذكره بين شفتيه ، في أقدس بيت ، واعظم شهر .

لقد فاز إمام الحق لأنه أرضى ضميره الحي فلم يوارب ولم يخادع منذ بداية حياته حتى النهاية ، ولقد قتل على غير مال احتجبه ولا على دنيا أصابها ولا سنة في الاسلام غيرها .

لقد فاز الامام ، وأي فوز أعظم من فوزه ؟ فقد أفاض عليه الخلود لباس البقاء ليكون مظهرا للعدالة وعنوانا للحق . ومثالا للانسانية الكاملة التي ارتقت سلم الكمال حتى بلغت نهايته .

لقد فاز الامام ، وأي فوز اعظم ؟ من أن يذكر قرينا للحق والعدل وتذكر مبادؤه المقدسة اعجوبة لقادة الفكر الانساني يسيرون على ضوئها للعمل في حقل الاصلاح ، ولما وقع الامام صريعا في محرابه هتف معرفا بقاتله :

« قتلني ابن اليهودية عبد الرحمان بن ملجم ، فلا يفوتنكم . »

فهرع الناس الى المسجد بجميع طبقاتهم وهم معولون نادبون قد اذهلهم الخطب وروعهم المصاب وبلغ بهم الحزن الى قرار سحيق وفي مقدمتهم اولاد أمير المؤمنين ، فوجدوا الامام طريحا في محرابه وجعدة ابن هبيرة (١) وجماعة حافون به يعالجونه للصلاة وهو لايستطيع ولما وقع نظره

---

(١) جعدة بن هبيرة المخزومي ابن ام هاني بنت ابي طالب له صحبة مع النبي. وقال ابن معين لم يسمع من النبي شيئا ، وقال العجلي : إنه تابعي ثقة ، جاء ذلك في خلاصة تهذيب الكمال ص ٥٣ ، وجاء في الاستيعاب: ان

على ولده الحسن أمـــره أن يصلي بالناس (١) وصلى الامام وهو جالس والدم ينزف منه ، ولما فرغ الحسن من صلاته أخذ رأس أبيه فوضعه في حجره ودموعه تتبلور على وجهه الشريف ، فقال له :

– من فعل بك هذا ؟

– ابن اليهودية عبد الرحمان بن ملجم .

– من أي طريق مضى ؟

– لايمض أحد فى طلبه ، إنه سيطلع عليكم من هذا الباب ، وأشار الى باب كندة ، فاشتغل الناس بالنظر اليها وما هي إلا فترات وإذا الصيحة قد ارتفعت فقد ظفر بالأثيم المجرم ابن ملجم (٢) فجيء به مكتوفا مكشوف الرأس ، فأوقف بين يدى الحسن فقال له » :

« ياملعون ، قتلت أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، هذا جزاؤه حين آواك وقربك حتى تجازيه بهذا الجزاء » .

والتفت الى أبيه قائلا: يا أبة هذا عدو الله وعدوك ابن ملجم قد أمكننا الله منه . ففتح الامام عينيه وقال له بصوت خافت :

« لقد جئت شيئا أدا وأمرا عظيما ، ألم أشفق عليك واقدمك على

جعدة كان فقيها ، قد ولاه خاله الامام على خراسان وقال ابو عبيدة ولدت ام هاني بنت ابي طالب من هبيرة ثلاث بنين : جعدة وهاني ويوسف .

(١) مطالب السؤول فى مناقب آل الرسول ص ٦٣ .

(٢) ذكر المسعودى في مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٠ ان الاثيم ابن ملجم لما ضرب الامام شد عليه الناس فجعلوا يرمونه بالحصباء ويصيحون عليه ، فضرب المغيرة بن نوفل بن الحرث وجهه فصرعه واقبل به الى الحسن ، وهناك اقوال اخر فى كيفية القبض عليه .

غيرك في العطاء؟ فلماذا تجازيني بهذا الجزاء ؟ » وقال للحسن يوصيه ببره والاحسان اليه .

« يابني ارفق بأسيرك وارحمه ، واشفق عليه . »

فقال له الحسن :

« يا أبتاه ، قتلك هذا اللعين ، وفجعنا بك ، وأنت تأمرنا بالرفق به !! »

فاجابه أمير المؤمنين :

يابني نحن أهل بيت الرحمة والمغفرة ، إطعمه مما تأكل ، واسقه مما تشرب ، فان أنامت فاقتص منه بأن تقتله ، ولا تمثل بالرجل فانى سمعت جدك رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور وإن أنا عشت فأنا أعلم ما افعل به ، وأنا أولى بالعفو ، فنحن أهل بيت لاتزداد على المذنب الينا إلا عفوا وكرما . »

وأمر (ع) بحمله الى الدار فحمل والناس تهرول خلفه قد اشرفت على الهلاك من البكاء والعويل قد أخذتهم الدافقة وهم يهتفون بذوب الروح: قتل إمام الحق ، قتل إمام الحق .

واستقبلته بناته وعياله بالبكاء والعويل ولما استقر في ثوبه ، التفت اليه الحسن وقد حرق الهم والجزع قلبه قائلا :

« يا أبة ، من لنا بعدك ؟ إن مصابنا بك مثل مصابنا برسول الله »

فضمه الامام وقال مهدأ روعه :

يابني ، اسكن الله قلبك بالصبر ، وعظم أجرك ، واجر اخوتك بقدر مصابكم بي :

وجمع الحسن لجنة من الاطباء لمعالجته وكان ابصرهم بالطب أثير بن

عمرو السكوني (١) فاستدعى برئة شاة حارة فتتبع عرقا منها فاستخرجه فأدخله في جرح الامام ثم نفخ العرق فاستخرجه فاذا هو مكلل ببياض الدماغ ، لأن الضربة قد وصلت الى دماغ الامام فارتبك أثير والتفت إلى الامام ـ واليأس في صوته ـ قائلا :

« يا أمير المؤمنين ، اعهد عهدك ، فانك ميت » (٢)

فالتفت الحسن الى ابيه ودموعه تتبلور على وجهه ، وشظايا قلبه يلفظها بنبرات صوته قائلا :

« أبة . كسرت ظهري ، كيف استطيع أن أراك بهذه الحالة ؟ »

وبصر الامام فرأى الأسى قد استوعب نفسه فقال له برفق :

« يابني لاغم على أبيك بعد هذا اليوم ولا جزع ، اليوم القى جدك محمد المصطفى ، وجدتك خديجة الكبرى ، وامك الزهراء ، وإن الحور العين ينتظرن أباك ويترقبن قدومه ساعة بعد ساعة ، فلا بأس عليك ، يابني لاتبك . »

وتسمم دم الامام ، ومال وجهه الشريف الى الصفرة ، وكان في تلك الحالة هادىء النفس قرير العين لايفتر عن ذكر الله وتسبيحه وهو ينظر الى آفاق السماء ، ويبتهل الى الله بالدعاء قائلا :

« إلهي . أسألك مرافقة الانبياء ، والأوصياء وأعلى درجات الجنة »

وغشي عليه فذاب قلب الحسن وجعل يبكي مها ساعدته الجفون ، فسقطت قطرات من دموعه على وجه الامام فأفاق ، فلما رآه قال له :

(١) اثير بن عمرو السكوني ، كان احد الاطباء الماهرين يعالج الجراحات الصعبة وكان صاحب كرسي ، وله تنسب صحراء اثير .

(٢) الاستيعاب ج ٢ ص ٦٢ .

مهدأ روعه :

« يابني ماهذا البكاء ؟ لاخوف ولا جزع على أبيك بعد اليوم ، يا بني لاتبك ، فأنت تقتل بالسم ، ويقتل أخوك الحسين بالسيف . »

وصاياه :

وأخذ الامام يوصي أولاده بمكارم الاخلاق ، ويضع بين أيديهم المثل الرفيعة ويلقي عليهم الدروس القيمة ، وقد وجه « ع » نصائحه الرفيعة أولا لولديه الحسن والحسين ، وثانيا لبقية اولاده ولعموم المسلمين .

قائلا :

« أوصيكما بتقوى الله ، وان لاتبغيا الدنيا وان بغتكما (١) ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما ، وقولا للحق واعملا الاجر ، وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا .

أوصيكما ، وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي ، بتقوى الله ، ونظم أمركم وصلاح ذات بينكم ، فاني سمعت جدكما صلى الله عليه وآله وسلم يقول : صلاح ذات البين افضل من عامة الصلاة والصيام . الله الله في الأيتام ، فلا تغبوا أفواههم (٢) ولا يضيعوا بحضرتكم ، والله الله في جيرانكم ، فانهم وصية نبيكم ، مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم والله الله في القرآن ، لايسبقكم بالعمل به غيركم ، والله الله في الصلاة ، فانها عمود دينكم ، والله الله في بيت ربكم ، لاتخلوه مابقيتم فانه إن ترك

(١) المعنى : لاتطلبا الدنيا ، وإن طلبتكما .

(٢) لاتغبوا افواههم : اي لاتقطعوا صلتكم عنهم وصلوا افواههم بالطعام دوما .

لم تناظروا (١) والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم والسنتكم فى سبيل الله ، وعليكم بالتواصل والتباذل (٢) وإياكم والتدابر والتقاطع ، لاتتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيتولى عليكم شراركم ثم تدعون فلا يستجاب لكم .

ثم قال عليه السلام مخاطبا لآله وذويه :

يابني عبد المطلب لا ألفينكم (٣) تخوضون دماء المسلمين خوضا تقولون قتل أمير المؤمنين ، قتل امير المؤمنين ، ألا لاتقتلن بي إلا قاتلى انظروا إذا أنامت من ضربته هذه فاضربوه ضربة بضربة ، ولا يمثل بالرجل ، فاني سمعت رسول الله (ص) يقول : إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » (٤)

وأخذ (ع) يوصي ولده الحسن خاصة بمعالم الدين وإقامة شعائره قائلا :

« أوصيك ، اى بني ، بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها ، وإيتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء ، فانه لاصلاة إلا بطهور ، واوصيك بغفر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم عن الجاهل والتفقه فى الدين ، والتثبت في الامر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار والأمر بالمعروف

---

(١) لم تناظروا ، مبني للمجهول : اي لا ينظر اليكم بالكرامة والرحمة من الله وغيره إن اهملتم تعاليم الدين وفروضه .

(٢) التباذل : العطاء .

(٣) لا الفينكم : اي لاأجدنكم تخوضون دماء المسلمين بالسفك انتقاما منهم بقتلى .

(٤) شرح النهج محمد عبده ج ٣ ص ٨٥ .

والنهي عن المنكر ، واجتناب الفواحش » (١)

وفي اليوم العشرين من شهر رمضان إزدحمت الجماهير من الناس على بيت الامام طالبين الاذن لعيادته ، فاذن لهم اذنا عاما ، فلما استقر بهم المجلس إلتفت لهم قائلا :

« سلوني قبل أن تفقدوني ، وخففوا سؤالكم لمصيبة إمامكم »

فاشفق الناس أن يسألوه ، نظراً لما ألم به من شدة الألم والجرح .

اقامة الحسن من بعده :

ولما علم أمير المؤمنين أنه مفارق لهذه الدنيا ، وان لقاءه بربه لقريب عهد بالخلافة والامامة لولده الحسن فاقامه من بعده لترجع اليه الأمة في شؤونها كافة ، ولم تختلف كلمة الشيعة في ذلك فقد ذكر ثقة الاسلام الكليني (٢) ان أمير المؤمنين اوصى إلى الحسن ، واشهد على وصيته الحسين ومحمداً وجميع ولده ، ورؤساء شيعته وأهل بيته ، ثم دفع اليه الكتب والسلاح ، وقال له : يابني . أمرني رسول الله (ص) أن أوصي اليك ، وأن ادفع اليك كتبي وسلاحي كما اوصى الى رسول الله ، ودفع إلي كتبه وسلاحه

---

(١) تاريخ ابن الاثير ج ٣ ص ١٧٠ .

(٢) الكليني : هو محمد بن يعقوب بن اسحاق ، وهو من اعظم علماء الشيعة ، ومن المجددين لمذهب الامامية في المائة الثالثة من الهجرة ومن اشهر مؤلفاته : الكافي انفق على تأليفه من الوقت عشرين سنة ، وهو من اجل الكتب الاسلامية ومن اهمها ، وقال محمد امين الاسترابادي في محكي فوائده : انه سمع من بعض العلماء انه لم يصنف في الاسلام كتاب يوازي الكافي ويدانيه ، توفي رحمه الله في بغداد سنة ٣٢٩ هجرية وصلى عليه محمد ابن جعفر الحسيني ودفن بباب الكوفة (الكنى والالقاب ٣|٩٨)

وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها الى أخيك الحسين . »

وروى ايضا انه قال له : « يابني أنت ولي الدم فان عفوت فلك وإن قتلت فضربة مكان ضربة » (١)

وذهب جماعة من اهل السنة والجماعة الى أن أمير المؤمنين لم يعهد بالامر الى ولده الحسن مستدلين على ذلك بما رواه شعيب بن ميمون الواسطي (٢) ان عليا قيل له ألا تستخلف ؟ فقال : إن يرد الله بالأمة خيراً يجمعهم على خيرهم . وهذه الرواية من موضوعات شعيب ومن مناكيره كما نص على ذلك ابن حجر (٣)

ان الامام الحسن ريحانة رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة ، وهو امام إن قام أوقعد — على حد تعبير رسول الله — وقد هذبه الله عن كل نقص ورجس — كما دلت على ذلك آية التطهير — بالاضافة الى توفر جميع ماتتطلبه الخلافة من الصفات الرفيعة في شخصيته كالعلم والتقوى والحزم والجدارة فكيف لايرشد الامام أمير المؤمنين الى مبايعته ولا يجعله علما من بعده ؟!!

ان أمير المؤمنين من احرص المسلمين على جمع كلمتهم وتوحيد أمرهم فكيف يترك الأمر فوضى من بعده ولا يجعل لهم مفزعا وملجأ يلجئون اليه لاسيما في تلك الفترة الرهيبة التي احاطت بهم الاخطار والمشاكل ؟!!

---

(١) اصول الكافي ١|٢٩٧ — ٢٩٨

(٢) شعيب بن ميمون الواسطي صاحب البزور ، قال ابو حاتم : مجهول وكذا قال العجلي : وقال البخاري : فيه نظر ، وقال ابن حبان يروي المناكير عن المشاهير على قلته لايحتج به اذا انفرد ، تهذيب التهذيب ٤|٣٥٧ .

(٣) تهذيب التهذيب ٤|٣٥٧ وجاء فيه : ومن مناكيره عن حصين عن الشعبي عن أبي وائل قال قيل لعلي الا تستخلف الرواية .

الى الرفيق الاعلى :

ولما فرغ الامام امـــير المؤمنين من وصاياه اخذ يعاني آلام الموت وشدته ، وهو يتلو آى الذكر الحكيم ويكثر من الدعاء والاستغفار ، ولما دنا منه الأجل المحتوم كان آخر مانطق به قوله تعالى « لمثل هـذا فليعمل العاملون » ثم فاضت روحه الزكية الى جنة المأوى وسمت الى الرفيق الاعلى (١) وارتفع ذلك اللطف الآلهي الى مصدره فهو النور الذى خلقه الله ليبدد به غياهب الظلمات .

لقد مادت اركان العدل وانطمست معالم الدين ، ومات عون الضعفاء وأخو الغرباء وأبو الايتام .

سيدى : أبا الحسن لقد مضيت الى عالم الخلود وأنت مكدود مجهود مجهول حقك وقدرك ، فقد قضيت حياتك في ذلك الجيل القاتم الذي لايقيم وزنا للعلم ولا للعدل ، ولا يعي ماتنشده من الأهداف الرامية الى بناء مجتمع تسوده العدالة والرفاهية والخير ، ولو كان للانسانية حظ لثنيت لك الوسادة وتسلمت قيادة الامة لتفيض على العالم بمعارفك وعلومك فانا لله وإنا اليه راجعون .

---

(١) اختلف المؤرخون فى الليلة التي ضربه فيها ابن ملجم فقيل: ليلة الثامن عشر من رمضان. ذهب الى ذلك المسعودي في مروج الذهب ، وقيل ليلة السابع عشر ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب . وذهب مؤرخو الشيعة ان ذلك كان في الليلة التاسعة عشرة ، واماعمره الشريف فقيل اربع وستون وقيل ثلاث وستون وقيل غير ذلك ، ومدة خلافته أربع سنين وتسعة اشهر وستة ايام ، وعمر الحسن في ذلك الوقت سبع وثلاثون سنة . جاء ذلك في كشف الغمة ص ١٥٤

تجهيزه ودفنه :

وأخذ الحسن (ع) في تجهيز أبيه فغسل الجسد الطاهر وطيبه بالحنوط ، وأدرجه في اكفانه ، ولما حل الهزيع الأخير من الليل خرج ومعه حفنة من آله وأصحابه يحملون الجثمان المقدس الى مقره الأخير فدفنه في النجف الأشرف حيث مقره الآن كعبة للوافدين ومقراً للمؤمنين والمتقين ومدرسة للمتعلمين ، ورجع الامام الحسن بعد أن وارى أباه الى بيته وقد استولى عليه الاسى والذهول وأحاط به الحزن .

القصاص من ابن ملجم :

وفي صبيحة ذلك اليوم الخالد فى دنيا الأحزان طلب الامام الحسن احضار المجرم الأثيم عبد الرحمن بن ملجم فلما مثل بين يديه قال له ابن ملجم :

— ما الذى أمرك به أبوك ؟

— أمرني أن لا أقتل غير قاتله ، وأن أشبع بطنك وانعم وطأك ، فان عاش اقتص أو عفا وإن مات ألحقتك به .

فقال الأثيم متبهراً :

« إن كان أبوك ليقول الحق ، ويقضي به في حال الغضب والرضا !! »

ثم ان الامام الحسن ضربه بالسيف فاتقى اللعين الضربة بيده فبدرت ثم جهز عليه فقتله ولم يمثل به (١) « وحلت على ابن ملجم لعنة الله ولعنة اللاعنين ومن ولدوا ومن ماتوا ومن قال الله لهم : كونوا فكانوا !! لعنة

(١) تاريخ اليعقوبي ١٩١/٢ ، تاريخ الطبري ٨٦/٦ ، مقاتل الطالبيين ص ١٦ ، تاريخ ابن الأثير ١٧٠/٣

تجفف النبع وتخضم الزرع ، وتحرق النبت في الارض وهو وسيم ، وجعل الله زفير جهنم وشهيقها في أصول تكوينه ! وأهلكه الف شيطان كبوه على وجهه في سواء الجحيم وفيها لفح وفيها أفواه من اللهب ذات أجيج وذات صفير » (١)

وأما التمثيل به فقد ذهب اليه فريق من المؤرخين ولا شك انه من الموضوعات وذلك لنهي أمير المؤمنين عنه ، مكرراً لقول النبي (ص) : « المثلة حرام ولو بالكلب العقور » فكيف يسوغ لريحانة الرسول (ص) وسبطه أن يعرض عن وصية أبيه ، ويرتكب ماخالف الشريعة الاسلامية ؟ وقد اختلف القائلون بذلك في الشخص الذى مثل بابن ملجم : فالمحب الطبري ذكر ان الذى مثل به الامام الحسين ومحمد بن الحنفية ، وقد نهاهما الحسن عن ذلك فلم يدعنا له (٢) وذكر أبو الفداء ان الذي قام بذلك عبد الله بن جعفر (٣) وذكر ابن أبي الحديد ان الحسن هو الذي قام به (٤)

ان هذا الاختلاف يزيدنا وثوقا بافتعال ذلك وعدم صحته ، وجزم الدكتور طه حسين بصدور التمثيل من اولياء الدم قال :

« والشيء المحقق هو ان ولاة الدم لم ينفذوا وصية علي في أمر قاتله فهو قد امرهم أن يلحقوه به ، ولا يعتدوا ، ولكنهم مثلوا به أشنع التمثيل فلما مات حرقوه بالنار » (٥)

---

(١) الامام علي صوت العدالة الانسانية ٤|١٠٠٣
(٢) الرياض النضرة .
(٣) تأريخ ابي الفداء ١|١٨٠
(٤) شرح النهج ٥|٤٥٢
(٥) على وبنوه ص ١٨٤

ان الشي المحقق على خلاف ما ذكره الدكتور وذلك لماذكرناه من عدم اتفاق المؤرخين على التمثيل به ، والذين اتفقوا عليه قد اختلفوا في ذلك كما ذكرنا ، بالاضافة الى أن أولياء الدم بعيدون كل البعد عن ارتكاب ماخالف الشريعة الاسلامية .

وعلى أي حال فان الامام الحسن بعد مافرغ من قتل ابن ملجم ، انثال الناس على مبايعته — كما سنذكر ذلك بالتفصيل — وقد استقبل الحسن الخلافة بما لم يستقبلها احد من الذين سبقوه فقد اصبحت الحاظرة الاسلامية الخاضعة لنفوذه مهددة بخطر معاوية فقد قوي أمره ، واستحكم سلطانه ، وعظم شره ، وانضم اليه كل من لم يع الاسلام من ذوي الاطماع والأهواء فعملوا جاهدين على إفساد امر الامام وتقويض خلافته ، ومضافا لهذا الخطر الخارجي الفتن الداخلية التي نشبت أظفارها في المجتمع العراقي وأهمها خطراً واعظمها محنة وبلاءاً هي فتنة الخوارج التي كانت سوسة تنخر في المعسكر العراقي ، وخطراً مسلحا من أهم الاخطار الفتاكة في الدولة الجديدة ، فقد انجرف بفكرتهم السذج والمغرر بهم من البسطاء .

هذان الخطران معظم مااستقبله الامام الحسن في دور خلافته ، ولقد ابتلى بهما أشد البلاء ، ولم يبتل وحده بها ، فقد ابتلى بهما النظام الاسلامي والخلافة الرشيدة فقد كان يرجى في دوره ان تنتشر مفاهيم الاسلام وتسود العدالة الاجتماعية في الارض ويقضى على الغبن الاجتماعي والظلم الاجتماعي

وهنا ينتهي بنا المطاف عن الحلقة الأولى من هذا الكتاب ونستقبل الامام الحسن في عهد خلافته لنقف على انبائها بالتفصيل .

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

المثل العليا

صفحة

صفحة

صفحة